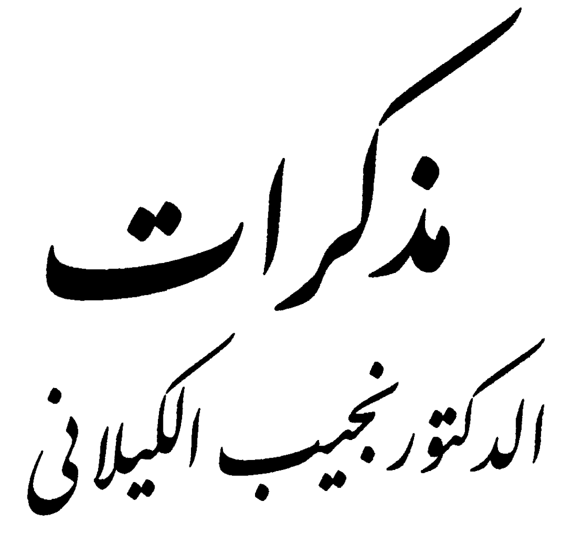


الجزء الأول



كتاب المختار

رقم الإيداع : ٢٤٨٣٧/ ٢٠٠٦

المقدمة

إن ملامح أى عصر من العصور، فى أية منطقة من العالم، تتحدد من خلال معطياته الثقافية، وأوضاعه الاجتماعية والاقتصادية، وإنتاجه الفنى، ووقائعه السياسية، هذا هو الأساس، لكن يظل النموذج « الفرد » بكل ما يفكر فيه وينفعل به، ويمارسه من قول وفعل، ويعتنقه من عقيدة أو فلسفة، ويمر به من تجارب وأحداث، يبقى ذلك النموذج « الفرد » تعبيرًا حيًا عن زمنه ومكانه، وتتفاوت أهمية الأفراد تبعًا للأدوار التى يؤدونها فى حياتهم، فالسياسى نموذج فى جانب من جوانب تلك الحياة، وكذلك المهندس والطبيب والصحافى والفلاح والصانع والتاجر ورجل الأعمال، لكن يبقى الفنان- أديبًا أو رسامًا أو ممثلًا- صورة نابضة لواقع الفترة الزمنية التى يعيشها، والبيئة التى يتحرك فيها، إذا صدق فى تعبيره، وامتلك الأداة الناجحة للترجمة عن الأفكار والمشاعر والأحداث..

من هنا جاءت أهمية السيرة الذاتية، التى تحتل حيزًا كبيرًا فى أدبنا المعاصر، فكاتب السيرة المفيدة حقًا هو بمثابة بؤرة تلتقى وتتجمع عندها سمات الحياة وأحداثها وردود أفعالها، وكلما نجح الكاتب فى دقة التعبير عن نفسه وزمانه ومكانه وأحداثه، كلما اكتسبت السيرة الذاتية أهمية خاصة، ولا يقف الأمر عند حد السيرة الذاتية، بل إن القاص الذى يبدع فى رسم شخصيات قصصه، ويتعمق أحلامها وهواجسها وأفكارها، ويتقن تصوير العلاقات المتشابكة التى تربط الشخصية بما يحيط بها من مؤثرات، ذلك القاص يلعب دورًا كبيرًا فى إبراز ملامح العصر المميزة، ويساهم فى إثراء التاريخ والرصد المتشعب الواسع لحركة الحياة.

قضية أخرى جديرة بالنظر، هل « القيمة العلمية والفكرية » للسيرة الذاتية، ترتبط بالمكانة الاجتماعية أو السياسية أو العلمية التى يعتقدها صاحبها؟ هذا أمر شائك، فما أكثر الزعماء والقادة الذين يزيفون الوقائع، ليبرئوا أنفسهم من اتهامات ألصقت بهم، أو انتقادات وجهت إليهم، أو شوائب أخلاقية علقت بهم، إنها مشكلة عامة، وعيب

كبير ، يضر بالقيمة الحقيقية لما تسفر عنه السيرة الذاتية ، وهناك فئة أخرى من كتاب السيرة الذاتية ، ليس لديهم القدرة الفنية ، ولا الأداة السليمة ، للتعبير الصادق الصحيح ، ثم ندلف إلى الفئة الثالثة التى لا تعرف لعملها فى كتابة السيرة الذاتية هدفًا سوى اكتساب المزيد من المجد والشهرة ، بل والمال أيضًا ، ومن المعروف أن مؤسسات النشر الكبرى تلهث وراء الشخصيات المرموقة ، وتستحثها لكتابة المذكرات ، بل إن بعض هذه الشخصيات تلقى « بالمادة الخام » والوثائق والمستندات والأحداث أمام من يستطيع أن يبدع فى الصياغة ، أو يجيد فى بلاغة التعبير ، فينوب عنها فى تسجيل تلك الأحداث والمشاعر والأفكار ، وقد تخرج أبعد ما تكون عن واقع تلك الشخصيات وانفعالها ، إنها صناعة جديدة « أو قل تجارة رابحة » فى عالم المذكرات والسير الذاتية ، وهى طريقة لا شك تضر بالحقيقة وتسلبها أعز ما تملك من صدق وأمانة .

أما الأمر التالى الذى لا يمكن تجاهله فهو الظروف السياسية التى يعيشها العالم ، وهى ظروف أقل ما يقال فيها أنها مدعاة للخوف والقلق والترقب ، فهناك قوى خفية وظاهرة ، تحدّ من حرية الرأى ، وأمانة التعبير ، فالكاتب يكتب ، وسيوف القهر والتهديد مسلطة فوق عنقه ، ولا أرانى فى حاجة لحصر الكتاب الذين لاقوا حتفهم اغتيالًا ، أو ألقى بهم فى غياهب السجون ، أو أجبروا على حياة المنافى ، أو حوربوا فى أرزاقهم ، بل تتعداهم اللعنة إلى زوجاتهم وأبنائهم وأسرهم ... إن الحرية الحقيقية .. حبر على ورق . . حتى فى أوروبا وأمريكا .. ولذلك نرى بعض كتاب السير الذاتية- إن لم يكن أغلبهم- يسقطون بعض الأحداث الهامة ، أو يغضون الطرف عن وقائع أساسية ، أو يقدمون الحقائق من لفائف كثيرة من المراوغة والدهاء والرمز والبتر ، مما يجعلها عويصة الفهم ، واهنة التأثير ، وتوقع المحللين والدارسين فى تيه من التخمينات والتوهمات ، وربما لا تقطع بشىء محدد ذى قيمة ..

إن القيود كثيرة ، والعقبات عديدة ..

وأنا هنا أحاول أن أقتطف لمحات من حياتى .. ربما يكون فيها شىء من الفائدة ، والواقع أننى لم أفكر فى كتابة سيرة ذاتية من قبل ، فقد كنت أعتقد أنها من حق الأعلام البارزين وحدهم ، أولئك الذين تركوا آثارًا بارزة على أحداث التاريخ ، أو بصمات واضحة على حركة الحياة ، لكننى أمام رغبات ملحة من بعض الأبناء الأعزاء فى الدول العربية والإسلامية ، تطالب بكتابة شىء عن حياتى حتى يستعينوا بها ، وهم يعدون رسالات الماجستير والدكتوراة فى عدد من الجامعات ، بخصوص « الأدب

الإِسلامى » وبالذات حول الروايات الإِسلامية المعاصرة التى كتبتها منذ سنوات، باعتبارها تطبيقًا عمليًا لما دعوت إليه فى كتابى « الإِسلامية والمذاهب الأدبية » و « حول الدين والدولة » ومن طبيعة الأطروحات التى تقدم فى الجامعات أن تشمل جانبًا عن حياة الكاتب، ويحتاج الدارس فى مثل تلك الأحوال إلى نصوص مؤكدة، عن الكاتب وحياته وتجاربه ومؤلفاته ووجهة نظره، ولقد رأيت أنه من واجبى نحو هؤلاء الأبناء الأعزاء، والأصدقاء الأحباء، أن أسجل تلك اللمحات، آملًا أن يجدوا فيها شيئًا من الفائدة، وأن تساهم بقدر متواضع فى مسيرة « الأدب الإِسلامى » الذى ندعو إليه بإصرار ويقين ..

وحينما استعرضت حياتى الماضية التى ناهزت الثانية والخمسين، وجدت فيها أحداثًا بارزة، وثيقة الصلة بكبريات الأمور فى مسيرة الدعوة الإِسلامية المعاصرة ...

نعم .. ولدت فى قرية تعانى القهر والحرمان والمرض والجهل فى دلتا مصر .. وانخرطت فى سلك دعوة « الإِخوان المسلمين » واكتويت بنيران العذاب والاغتراب والقلق الطويل .. فكانت سنوات السجن الحارقة مؤذنة بميلاد جديد ..

وقضيت فى إمارات الخليج العربي- حتى الآن- ما يقرب من ستة عشر عامًا كانت حافلة بالتجارب والرؤى والممارسات ..

واختلطت بالعديد من الشخصيات .. وزراء .. وكتاب .. وصحافيين .. ورجال أعمال .. من شتى الجنسيات، وزرت العديد من الدول العربية والإِسلامية والأجنبية .. كما شاركت فى مؤتمرات أدبية وعلمية متنوعة ...

وحياتى الطبية هى الأخرى كانت ثرية بالكثير من الممارسات ..

ولقد قضيت أكثر من ثلاثين عامًا فى الكتابة ... جمعت بين الشعر والقصة القصيرة والرواية والبحوث .. كما شاركت فى الكتابة لبعض المجلات والصحف تربو على العشرين، كما ترجمت بعض كتاباتى إلى لغات أجنبية ..

الواقع أن سنوات الشباب وما بعدها كانت عاصفة حافلة بالأحداث، لم أكن بعيدًا عما يجرى منذ عصر « فاروق » حتى عهد « السادات »، ولم أتوقف عن العمل الأدبى إلا فى السنوات الثلاث الأخيرة لظروف تتعلق بطبيعة عملى وحياتى الخاصة، وتجربتى هى تجربة عشرات . . بل مئات الألوف من أبناء جيلنا .. مع تميز كل تجربة بخصائص ذاتية لابد منها..

إن فترات الأزمات الطاغية التى عشناها لم تكن لِتُحتمل .. لولا الإِيمان بالله ..

ولولا الأمل الحى النابض فى القلوب .. والذى لا يموت أبدًا فى قلب المؤمن ... وهذا هو السبب الوحيد فى الإفلات- مؤقتًا- من قبضة الإفناء والتدمير .. وصدق الله العظيم ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ .

وبعد ..

تلك مقدمة لابد منها قبل أن نبدأ فى اصطياد « لمحات » من حياة مسلم .. فلاح .. طالب علم .. طبيب .. سجين .. مهاجر .. صديق للقلم .. عاش فى الثلثين الأخيرين من القرن العشرين الميلادى .. وليس لهذه اللمحات قيمة سوى أنها من « شاهد » على عصره ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾

دبى فى ٢- ١٠- ١٩٨٣م
٢٧ من المحرم ١٤٠٤هـ

الدكتور نجيب الكيلانى

❁❁❁

[١] قرية شرشابة



تقع قرية شرشابة على بعد عشرين كيلو مترًا من مدينة طنطا المعروفة، وتعتبر طنطا أكبر مدن الوجه البحرى باستثناء الإسكندرية ثغر مصر التاريخى العريق، وكانت قريتنا فى الماضى فى منطقة زراعية شبه منعزلة، فلا يمر بها مثلًا قطار السكة الحديد، ولا طرق الحافلات أو سيارات الأجرة، وكانت الوسيلة الوحيدة للانتقال فى أوائل الثلاثينيات، من القرن العشرين هى الحمير أو عربات الكارو، أما المدن الثلاثة الشهيرة التى كان يقصدها القادرون من أبناء القرية فى تلك الأيام فهى طنطا وفيها مقر محافظة الغربية، و «زفتى» وكانت المركز، والمحلة الكبرى القلعة الصناعية لمنسوجات الأقطان. وأرض شرشابة خصبة، تجود بالمحاصيل الوفيرة من قطن وقمح وذرة وفول وخضراوات متنوعة وقليل من الفواكه، كما كان يزرع الأرز فى بعض مناطقها، لكن ثمن القطن هو عماد الحياة الاقتصادية آنذاك، فمنه يشترى الفلاح ملابسه وضروريات حياته، ولا تقام الأعراس والأفراح والموالد إلا فى موسمه.

لم يكن فى قريتنا إقطاع يذكر، لكن كان هناك بعض كبار الملاك القليلى العدد، وكانت ملكياتهم تتراوح بين ١٠- ١٠٠ فدان، ولم يكن هؤلاء «الأغنياء» - كما كان يطلق عليهم- إقطاعيين بالمعنى الصحيح، وإن اتسمت تصرفاتهم بقدر غير قليل من التجبر والاستغلال والاستبداد، فقد وجد فى تلك القرية ملكيات «لخواجات» يونانيِّ الجنسية، ووقف السيدتين «حكمت هانم جنيد، وسعاد هانم جنيد»، بالإضافة إلى حوالى عشرة آخرين من أهالى القرية يمتلكون من ١٠- ٣٠ فدانًا.

وهناك نسبة كبيرة لا يمتلكون شبرًا من الأراضى الزراعية، فكانوا يشتغلون كأجراء، أو يستأجرون فدانًا أو أكثر ليتعيشوا من زراعته، ويقضون أعمارهم فى ضيق وصبر دون الكفاف من الرزق، أما صغار الملاك الذين يحوزون جزءًا من الفدان أو فدانًا أو أكثر، فقد كانوا لا شك أفضل حالًا من المعدمين والمستأجرين على الرغم مما يكابدونه من فقر ومشقة.

وكنا ونحن أطفال نرى الشاحنات الكبيرة تأتى فى مواسم معينة من العام، ثم يحشر فيها مئات الفلاحين، ويحملون إلى مناطق بعيدة يطلقون عليها «الوَسايا»، حيث الإقطاعيات الكبيرة خارج حدود المحافظة، وهناك يقضون شهرًا أو شهرين فى العمل الشاق، سواء فى زمهرير الشتاء، أو فى قيظ الصيف، ثم يعودون بقروش قليلة، وأمراض كثيرة، هؤلاء هم عمال التراحيل التعساء، الذين يسافرون وليس على أجسادهم إلا الملابس المهترئة، وجوال به أرغفة جافة قاتمة، وكثيرًا ما كان البعض منهم يقضى نحبه، ثم يطويه النسيان إلى الأبد.

ويبعد عن قريتنا تفتيش للخاصة الملكية ولإسماعيل باشا صبرى والملكة نازلى، وهو يتبع مركز «السنطة»، ويفصل قريتنا عنه «بحر شبين» العذب، وبضعة كيلو مترات لا تزيد عن الثلاثة،

ولا يمكن العبور إلى شاطئ ذلك الإقطاع إلا عن طريق القوارب أو المراكب الصغيرة المثبتة لدى الضفتين بجنازير حديدية متينة .

والمؤسسات التعليمية فى قريتنا آنذاك هى المدرسة الأولية (الإلزامية) التى تفتح أبوابها للبنات صباحًا ، وللبنين ظهرًا ، ثم مكاتب تحفيظ القرآن التى يتعلم فيها الطفل القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم على يدى فقيه القرية الذى يؤدى ذلك كله ، مقابل مبلغ زهيد جدًا ، وقد يكون الأجر مجرد رغيف من الخبز يحمله الطفل معه يوميًا إلى سيدنا ..

من هاتين المؤسستين تخرجت أعداد كبيرة من أبناء القرية ، وواصلوا مراحلهم التعليمية فى الأزهر الشريف والمدارس والجامعات ، وأصبح منهم العلماء والأطباء والمهندسون والمحامون وكبار ضباط الشرطة والمعلمون وأساتذة الجامعات وغيرهم .. وعلى ما أذكر فقد كان فى هذه القرية الكبيرة نسبيًا (خمسة آلاف نسمة آنذاك) جهازان للراديو ، يتجمع حولهما المحظوظون فى ليالى السمر ، وقد يسمح لأطفال « مكتب تحفيظ القرآن » فى بعض المناسبات بالجلوس فى خشوع قرب نافذة الحجرة التى تضم الراديو « كى يستمعوا إلى أغانٍ حلوة أذكر منها- عند تنصيب فاروق ملكًا- أغنية :

مـلـك الـمـلـوك يـا زيـن يـا فـاروقـنـا يـا نـور الـعـيـن

وأغنيات أخرى عن حياة الفلاح الجميلة ، ولقمة عيشه الهنيئة ، وحياته الهادئة السعيدة ، وأناشيد وطنية حماسية تشعل المشاعر وأحاديث دينية وثقافية لا نكاد نفهم منها شيئًا ..

ومن أهم المناسبات فى القرية الحفل السنوى لشاعر الربابة ، وحفلات موالد الأولياء والأعياد والمولد النبوى وليلة الإسراء وعاشوراء والهجرة النبوية ، ثم مولد « السيد البدوى » فى طنطا الذى يحظى بأهمية خاصة لدى عامة الفلاحين ..

كان شاعر الربابة « السيد حوّاس » يأتى فى موعد محدد ، وكانت تقام له منصة فى قاعة واسعة ، يؤمها خلق كثير ، يفترشون التراب ، ويجلسون فى خشوع يستمعون إلى تقاسيم الربابة الساحرة ، وإلى قصص أبى زيد الهلالى ودياب بن غانم ، والجازية وناعسة وعزيزة ويونس ، وكانت مشاعرهم تلتهب عند المواقف البطولية الحاسمة ، والمواقف المشحونة بالعواطف والانفعالات ، فتنشق حناجرهم عن هتافات صاخبة ، ويلوحون بأيديهم فى حماسة بالغة ، تعبيرًا عن إعجابهم واستجابتهم ، ونفس الشىء كان يحدث بالنسبة لمن اشتهروا بأصواتهم الجميلة فى غناء « المواويل » ، وللموال مكانة كبيرة فى نفوس الفلاحين ، وهو صورة شبيهة « بالملامح » ؛ إذ يروى المغني- صاحب الصوت الجميل المؤثر- قصة مثيرة ، كقصة الأدهم الشرقاوى « والشاويش متولى » وغيرهم ، وهى مواويل فى مجملها تتغنى بالفضيلة والشجاعة والأخذ بالثأر ، والقيم المتأصلة فى ذلك المجتمع . وكانت القرية تحتفل بمقدم أى مقرئ شهير للقرآن فى أى مأتم من المآتم الكبيرة ، ويحتشدون لسماع آيات الذكر الحكيم ، ويطربون أيما طرب للصوت الأخاذ المؤثر .

ولا أستطيع أن أنسى فى هذا المقام طائفة « الغوازى » ، وهن مجموعة من النساء المتبرجات المتزينات ، يلبسن الملابس الحريرية الضيقة الصارخة الألوان ، ويفرضن أنفسهن فرضًا على أفراح الريف ، فيأتين- كثيرًا دون دعوة- ليرقصن ويغنين ، ويضربن بالدفوف ، ويتّْيِسْمْنَ بالأغانى الخليعة ، والحركات

المائعة ، وقد كان بعض أهالي القرية يرفضون مشاركتهن ، ويتكرمون عليهن ببعض المال حتى ينصرفن فقد كانت بعض الطبقات المرفهة الثرية تحرص على استحضار بعض الراقصات فى أفراحهم بأجور مرتفعة ، وعلى الرغم من أنها حفلات شبه خاصة ، إلا أن الفلاحين كانوا ينْدسون بينهم ، ويغامرون بالاندفاع لرؤية تلك المشاهد الغريبة المثيرة التى لم يألفوها . ولا يكاد يمر يوم إلا ونرى « الغوازى » وأتباعهن يجوبون شوارع القرية ، ولعل السبب فى ذلك أنهم كانوا يفدون من قرية قريبة وهى « كفر العرب » المتلاصقة لقرية سنباط الشهيرة ، حتى إنهم كانوا ينسبون إلى « سنباط » أساسًا ، وهناك فيلم سينمائى اسمه « غازية من سنباط » للمخرج سيد زيادة سجل هذه الظاهرة .

الواقع أن غالبية النساء العاملات فى هذه « المهنة » من الفقيرات اللاتى لا يكْدن يجدْن لقمة العيش ، أما الموالد فقد كانت متعة ثرية العطاء بالنسبة للفلاحين عمومًا ، حيث كانت تقام حلقات الذكر ؛ إذ يقفون صفوفًا مستطيلة أو مربعة أو مستديرة ، ويقف المنشد ليترنم بالمدائح النبوية ، ومناقب الصحابة ، وكرامات الأولياء فى إيقاع ينسجم مع حركات الذاكرين الذين يتطوحون يمنة ويسرة ، أو أمام وخلف ، ويتنامى الإيقاع ويتلاحق ويتسارع ، فتشتعل حركة الذاكرين ، ويصرخون عشقًا ولوعة ، ويهتفون بأعلى أصواتهم « حى .. حى .. يا الله .. مدد يا رسول الله .. مدد يا حسين .. مدد يا أم هاشم .. »[1]

ولا يقتصر الأمر على حلقات الذكر ، وغناء المنشدين العذب ، بل يتعداه إلى مواكب تطوف أنحاء القرية ، حيث تنتصب البيارق والرايات الخاصة بمختلف الطرق الصوفية ، وتضرب الطبول ويعلو صوت الناى والأرغول ، ويدقون آلات نحاسية ذات لحن مميز ، ويختلط ذلك كله بزغاريد النساء على الجانبين وفوق الأسطح ، وهى مناسبات كان الناس يسعدون بها فى الواقع فيمرحون ، ويأكلون اللحم والثريد ، ويسهرون حتى وقت متأخر من الليل ، وتظل القرية منتشية بهذا اللون من الترفيه والمتعة لفترة غير قصيرة من الزمن ، فترى الأطفال يعيدون ترتيل ما حفظوه من عبارات وأغان ، وهم يلهون ويلعبون فى نور القمر ، فى حارات القرية وشوارعها أو عبر الحقول ، أو على شطآن الترع ..

وما زلت حتى الآن أحفظ الكثير من تلك الأغانى والأهازيج الشعبية والمدائح النبوية والملاحم والأشعار ، فقد كنت أذهب إلى سوق القرية وأشترى مطبوعات صغيرة فيها ملحمة الأدهم الشرقاوى والمدائح النبوية والسير الشعبية عن الهلالية وغيرهم ..

ومن الأغانى التى كنت أعجب بها أيما إعجاب ، مقطوعات أذكر منها :

حب الحسن والحسين فى مهجتى ساكن ... وحب طه النبى جوّا الحشا ساكن
يا ما نفسي أزورك يا نبى واقعد حداك ساكن ... وأشوف حمام الحمى حول المقام ساكن

وأغنية أخرى تقول :

على شط بحر الحقيقة ناس صيادين ... متعممين بالشبك ، فى الأصل صيادين
يا مدعى الكبر هو الكبر عَلَّى مين ... الكبر يا ما خفض ناس كانوا علما وعلامين
فرعون لما طغى وحاز الكبر على العالمين ... إبليس لما غواه ، كان ُللى غرّه مين ؟

---

(١) إن ما يرويه المؤلف ، وقائع تاريخية لا دخل لها بالمعتقدات . (الناشر)

وثالثة تقول :

رن القدح يا سليمى كلمى سيدك إللى عطاك رضاه والنور فى إيدك

... إلخ . هذا ومن أشهر المنشدين فى منطقتنا فى تلك القرية (محمود عبد الهادى » الشهير بمحمود الدبوس ، والشيخ عزب ، والحاج رمضان ، ومن أشهر شعراء الربابة « السيد حواس » الذى مات منذ عهد قريب ، بعد أن قدم الكثير فى الإذاعة ، ولم يزل فى قريتنا امرأة عجوز كانت فى تلك الأيام البعيدة مطربة شهيرة جميلة ، لا أذكر من أية قرية أتت ، لكنها تعيش اليوم مصابة بالفالج ، ولا تكف عن ترديد ذكريات شبابها وغزواتها ..

وكما قلت فقد كانت قريتنا تستعد استعدادًا حافلًا لمولد سيدى أحمد البدوى فى طنطا ، وكان مولده يستمر أكثر من أسبوعين ، حيث تتعطل الدراسة فى المعهد الدينى ، ويخرج الفلاحون- بعد جمع محصول القطن وبيعه- أفواجًا أفواجًا ، وهم يركبون الجمال والحمير ، حاملين معهم خيامهم وزادهم ونساءهم وأطفالهم ، ثم يعيشون فى الخيام التى يقيمونها فى الساحة الكبيرة ، أيامًا وليالى ممتعة ، إلى جوار السيرك والمسارح ومختلف الألعاب السحرية والرياضية ولعب الحظ التى لا تخرج عن كونها نوعًا من المقامرة ، والأسواق المختلفة ، وحلقات الذكر ، ومحاضرات وزارة الأوقاف ، ورقص الغوازى ، ومواويل المغنين ، ومواكب المتصوفين ، وزفة الخليفة ، فى خليط عجيب غريب من المشاهد والألوان .. وفى خضم ذلك الحشد الذى فاق أخيرًا أكثر من مليون ونصف نسمة ، تسمع العجائب عن كرامات « السيد » وتاريخه وبطولاته ..

ولم تخلُ قريتنا من بعض المظاهر الإيجابية الرصينة التى يتولى أمرها فئة من المثقفين المحدثين من خلال دروس السيرة والفقه والتفسير فى المساجد ، وبعض الاحتفالات الجادة فى المناسبات الدينية والسياسية ، لكن الفلاحين لم يكونوا ليقبلوا على الممارسات بنفس الحماسة والكثرة ، ربما لسمو أسلوبها فى التعبير ، وعدم القدرة على التبسيط ، ولخلوها من الترفيه والتشويق ، لكنها كانت ظاهرة موجودة على أية حال ، وكان المتحدثون فيها يحظون باحترام الناس وتقديرهم ..

والذى أذكره فى تلك الأيام أيضًا معارك الانتخابات الدامية ، فقد انقسمت قريتنا منذ زمن بعيد- بسبب الخلافات السياسية- إلى قسمين ، الناحية الشرقية وهى تؤيد حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس باشا ، والناحية الغربية التى تتبع حزب « السعديين » بزعامة أحمد ماهر باشا ، الذى اغتيل فى أواسط الأربعينيات ، من القرن العشرين ، بعد أن أعلن دخول مصر الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء . وبسبب هذه الانشقاقات السياسية شهدت قريتنا خلافات ومصادمات عنيفة ، كانت تطفو على السطح بقوة إبان الانتخابات الحزبية ، وعند الترشيح لمنصب « العمدة » ، إذ كانت الناحيتان تتبادلان المنصب وفقًا للظروف السياسية التى تلائم كلًا منهما ، وما زالت آثار هذه الشقاقات والخلافات باقية- لحد ما- إلى يومنا هذا .

ولا يخفى على القارئ أن النصف الأول من ثلاثينيات ذلك القرن قد شهد حكم « صدقى باشا » المستبد ، الذى ألغى الدستور ، وحكم مصر بالعنف والقهر ، فى ظل الاحتلال البريطانى ، فضلًا عن الأزمة الاقتصادية الكبرى التى هزت أركان الاقتصاد العالمى كله آنذاك ، وقد انعكست آثار هذه الأزمة

على مصر عامة ، وعلى قريتنا بالتبعية ، فكانت أيامًا عصيبة ، انخفض فيها سعر القطن ، وشح المال والزاد ، وقاسى الناس الأمرين ، ووجد « الخواجات » الذين يعيشون فى القرية ، الفرصة سانحة للتعامل بالربا ، واستغلوا عجز الفلاحين عن السداد ، فحجزوا على مواشيهم وممتلكاتهم ، وانتزعوا الكثير من أراضيهم سدادًا للديون . وما زلت أذكر مدى العناء الذى قاست منه أسرتنا فى تلك الفترة العصيبة ، وقد تمثل ذلك فى الحصول على الملبس المناسب ، والغذاء الكافى ، ونواحى الإنفاق الضرورية للحياة ...

فى هذه القرية ولدت ... كان ذلك فى اليوم الأول من شهر يونيو عام ١٩٣١. وكنت أول مولود لأبى وأمى ...

❁❁❁

[٢] طفل فى القرية



لم يكن فى قريتنا كهرباء ولا ماء نقى ، معظم بيوت القرية يشربون من ماء الترعة الجارى ، حيث تذهب النسوة ليملأن الجرار بصفة دائمة ، أما القلة من بيوت القرية فمصدر المياه عندهم « الطلمبات » ، التى تجذب الماء من جوف الأرض ، وكان الناس يعرفون أن مياه الطلمبات أنقى وأنظف ، ومن ثم يتزاحمون عليها ، لكن المشكلة أن أصحاب هذه الطلمبات فى غالبيتهم يتقاضون أجرًا موسميًا ممن يأخذون الماء ، قد يكون جعلًا شهريًا أو كمية صغيرة من محصول الأرض « القمح أو الذرة » لكن جدى إبراهيم رحمه الله- جدى لأبي- قد أقام طلمبة مجانًا أمام بيتنا القديم فى شرشابة ، وفى مثل هذه الحالة يطلق على الطمبة « سبيل لله » ، ،فى وقت العصر تشهد حشودًا متزاحمة من النسوة اللاتى يردن الماء حيث الضجيج والصياح .

وبعد أن ولدت بعام وشهر واحد ، ولد أخى « أمين » ، وكانت أمى مضطرة لأن تحملنا على كتفيها معًا ، وتعطى كل واحد ثديًا ، فلم يكن فى زمانها ألبانًا صناعية ، ومن الضرورى أن تتم الرضاعة لعامين حسب السُّنة ، وكان جدى ينتهز فرصة الحشود حول الطلمبة ، ليحل مشكلة الرضاعة ، إذ إن لبن أمى لم يكن ليكفينا معًا ، ولذلك كان يشير إلى نوع معين من النسوة يتميزن بجمال الخلق والخلقة ، وتبدو عليهم أمارات الصحة والعافية ، ويكلفهن بإرضاعنا .. هكذا كانت تحدثنى أمى ، بعد أن كبرت .. وعندما أصبحت « طبيب القرية » فى وحدتها « المجمعة » بعد سنوات طويلة ، كنت أفاجأ بإحدى المريضات تقول لى : « أنا أمك .. لقد أرضعتك من ثديى هذا » ، وتكرر هذا الأمر كثيرًا ، وكم كنت أسعد وأنا أستمع لهذه الكلمة الحلوة ، فمعنى ذلك أن عناصر حياتى التى تجرى فى عروقى ، قد جادت بها يومًا ما هؤلاء السيدات الطيبات ، وهو شعور أخوى سام أعتز وأفخر به .

كان جدى إبراهيم شخصية مميزة لا شك فى ذلك ، تزوج من النساء أربع ، وأنجب من الرجال أربعة وبنتين ، ومن الطريف أن التى تولت أمرى كلية ، وأشرفت على طعامى وملبسى وكل شئون حياتى واحدة من نسائه لم تكن هى جدتى ، لكن زوجة جدى هذه « مباركة » (وهذا هو اسمها) عاشت معى ولى تمامًا ، لم يرزقها الله بذرية فكنت بالنسبة لها كل شيء ، وخاصة بعد وفاة جدى فى عام ١٩٣٦، وكنت أقول دائمًا « يا خالتى » ، وهى لم تكن من قريتنا ، ولكنها ابنة إحدى الأسر المعروفة فى قرية « ميت ميمون » القريبة منا ، والتابعة لمركز السنطة .

أقول كان جدى إبراهيم شخصية مميزة قوية ، بمعايير القوة الشائعة فى ذلك العصر ، كان مرهوب الجانب ، مطاع الكلمة ، على الرغم من عدم ثرائه ؛ إذ لم يكن يمتلك إلا حوالى خمسة أفدنة ، وقد أخبرتنى أمى أن اللصوص كانوا يسطون على مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية دون أن يكترثوا لبعض كبار الملاك أو صغارهم ، فيستولون على المحاصيل ليلًا ، وكانت هذه الأراضى فى حوض بعيد

يطلق عليه « حوض القتيل »- لست أدرى سبب هذه التسمية- واجتمع الملاك ورأوا أنه لا حل لهذه المشكلة سوى أن يتولى جدى « الشيخ إبراهيم » حراسة الأرض، وكان مجرد إعلان هذا الخبر كافيًا بأن يوقف اللصوص والخطافين عند حدهم.

وما زلت أذكر يوم أن حدثت جريمة غامضة فى المنطقة، راح ضحيتها شقيق « خالتى مباركة » واسمه الجوهرى، لقد اختفى هذا الشاب فجأة ولم يعثر له على أثر، وباتت قرية « ميت ميمون » المجاورة فى حالة من الغليان لا مثيل لها، إن جثة الضحية يجب أن يُعثر عليها، وإلا كان العار والفضيحة..

إن الضحية صهر لجدى إبراهيم، ولا يمكن أن يمر الأمر هكذا بسهولة، وجلس جدى يفكر، وحاول البحث والتنقيب وربط الأحداث الماضية بعضها ببعض.. إن « ميت ميمون » قتلت منذ سنوات « خواجة » كان يتجر فى الأقطان، واستولت على ما معه من مال، وأقيمت محاكمة كبرى آنذاك أسفرت عن أحكام بالإعدام والأشغال الشاقة المؤبدة، ومن طبيعة مثل هذه القضايا أن تكون فيها وشايات وشهود وقرائن، مما يقتضيه التحقيق... كل ما أذكره أن ذيول هذه القضية تركت أحقادًا وحزازات بين بعض الأسر، ودفعت البعض لأعمال العنف والأخذ بالثأر.. وهكذا قضى على « الجوهرى ».. هذا ما فهمه جدى، وأكدته تجربته.. كان ذكيًا..

وأرسل على الفور إلى من تحوم حولهم الشكوك والشبهات قائلًا: « إذا لم تظهر جثة الجوهرى خلال هذا اليوم فسوف يحدث ما لا تحمد عقباه..»

ثم تعهد بحل الموضوع سلميًا عند ظهور « الجثة » دون إراقة دماء جديدة.

وكانت جثة الضحية مدفونة فى حفرة عميقة، على شاطئ بحر شبين أو العباسى كما يطلق عليه الفلاحون.. كان يومًا رهيبًا تقشعر له الأبدان.. رأيت بعينى رأسى - وكنت إذ ذاك فى الثالثة من عمرى على ما أظن، « الطبيب الشرعى » يشرح جثة الجوهرى فى الهواء الطلق، والنسوة يصرخن ويلطمن الخدود، ويشققن الجيوب، ويضعن الطين على وجوههن وعلى رءوسهن، وأذكر أننى كنت أبكى لبكاء « خالتى مباركة »؛ إذ كنت ممسكًا بذيلها، وهى تولول وتلف جلباب أخيها حول عنقها.

وفى يوم التهديد الذى أرسله جدى للجناة، أشيع أنهم سوف يقتلون أبى انتقامًا.. كيف تصرف جدى حيال هذا الخطر؟ إنه تصرف غريب.. لقد أصدر أوامره بأن يذهب أبى على الفور إلى حيث الأسرة الآثمة، ويمر متحديًا أمام بيوتهم ويحتك بجموعهم.. كان أبناء العائلة والأقارب والجيران فى توجس شديد، ورأوا أن يتابعوا أبى عن كثب، لكن جدى صمم أن يذهب وحده... وذهب..

ثم عاد سالمًا.. وتنفس الجميع الصعداء..

الواقع أن القرية كان لها تقاليد غريبة وعجيبة فى ذلك العصر.. ولا يتسع المقام لذكر الكثير منها.

وكان هذا الجد مسموع الكلمة لدى عمدة القرية (محمد بك)، وكثيرًا ما كان يشارك فى حل بعض المعضلات التى يتعرض لها البعض، فكانوا يرحبون به حكمًا عدلًا لا يحيد ولا يميل، وأذكر أنه كان يتحدث بصوت جَدِّيٍّ صارم، ونبرته تميل إلى السخرية فى بعض الأحيان، كما كان شهمًا كريمًا، يحرص على إخراج زكاة المحصول، ويغدق- ما أمكن- على الفقراء، ويصل الرحم، لكنه لا يتورع أن يسب عند الضرورة.. إن السنوات التى عشتها إلى جواره كانت سنوات مرضه الأخير فى غالبيتها، إذ كان يعالج من مرض السكر ومضاعفاته... وللأسف كان مصرًا على التدخين حتى النهاية...

وذات يوم سمعت صراخًا وعويلًا .. وذهبت إلى غرفته .. كان مسجى فى فراشه فى هدوء واطمئنان .. مرتديًا قميصه الأبيض ... شاحب الوجه .. ساكنًا .. قالوا : إنه مات .. بكيت معهم بضع دقائق .. ثم انصرفت إلى جدتى أطلب منها أن تشترى لى « نظارة زهر العطر » أى زرقاء .. كنا نشتريها برغيف أو كوز من الذرة .. وألححت فى الطلب حتى أحضروها لى .. وكانت أمى رحمها الله تذكرنى دائمًا بهذه الواقعة ، وتضحك من أعماقها .. المهم أنى لبست النظارة وخرجت لألعب مع إحدى فتيات الجيران ... وفجأة وجدتها تبكى وتصيح وتنظر إلى الشارع .. تابعت نظراتها .. رأيتهم يحملون نعش جدى على الأعناق .. ووجدتنى أبكى معها ..

كانت أكبر منى بعامين أو ثلاثة .. وكانت تندبه بعبارات حزينة باكية كتلك العبارات التى يرددها النسوة .. وكان لعباراتها تأثير مؤلم على مشاعرى ..

ويلاحظ أنه عند « غسل الميت » تكف النساء فى قريتنا عن النديب والنحيب ، ويجلسن يرددن بعض كلمات خلف امرأة متخصصة فى هذا الفن الباكى :

فمثلًا تقول النادبة :

ومـــن مـــات يـــوم أربـــغ   لا صـــلـــىّ ولا تـــركّـــع
والـلـه الـقـبـر فـيـه مـوضـع   لـمـن تـارك حـدود الـلـه

فترد عليها النسوة قائلات :

الـلـهـم صـلـى عـلـى الـمـصـطـفـى

وتـعـود الـنـادبـة تـقـول :

ومـن مـات يـوم الـخـمـيـس   لا صـلـىّ ولا رجـم إبـلـيـس
والـلـه الـقـبـر فـيـه خـنّـيـس   لـمـن تـارك حـدود الـلـه

ترد النسوة :

الـلـهـم صـلـى عـلـى الـمـصـطـفـى

وهكذا تظل لنادبة تردد الأناشيد الباكية الحزينة ، فى إيقاع وترتيل يسيل العبرات ويهز المشاعر ، ويجعل القلوب تخفق فى خوف ورعب ، وخاصة قلوب لأطفال من أمثالنا .

وجدى هو الذى أخذنى بنفسه إلى « مكتب القرية » وأنا فى الرابعة من عمرى ، أذكر ذلك جيدًا ، وأشترى لى لوحًا ومحبرة وقلمًا من البوص .. كما اشترى لى طباشيرًا ولوحًا من الإردواز ومصحفًا ...

أمر غريب للغاية . لقد تعلمت فى هذا المكتب فى تلك الفترة الكثير والكثير .. فما إن بلغت السابعة من العمر حتى ألممت بقواعد القراءة والكتابة ، ومبادئ الحساب ، وقدرًا لا يستهان به من القرآن الكريم ، وبعض الأحاديث النبوية ، ومقتطفات من السيرة ، وأناشيد دينية ووطنية ، وأسماء الله الحسنى وأسماء الرسول ونسبه وأولاده ، وبعض القصص القرآنى ..

وفى هذه المرحلة من العمر ذهبت إلى المدرسة الأولية الوحيدة بالقرية ، وكان التعليم فيها إلزاميًا ، ومن يتخلف عنها من أبناء القرية تفرض الغرامات على ولى أمره ، وهكذا أصبحت مرتبطًا « بالكتّاب » أى مكتب تحفيظ القرآن صباحًا ، وبالمدرسة الأولية ظهرًا ، ولا يفصل بينهما سوى وقت قصير يكفى بالكاد لتناول طعام الغذاء بالمنزل .

وفى المدرسة الأولية لم أجد أى عناء ، فقد كانت الدروس التى تعطى لنا بسيطة للغاية ، بالنسبة لى على الأقل ، لأنى تعلمت معظمها فى المكتب ، وأحسست بتراخى المدرسين وكسلهم ، مما جعل الاستفادة محدودة ، ولا تخرج عن بعض مواد الجغرافيا والتاريخ والصحة والعلوم ، وتنظيم مراحل دروس الحساب ، ولهذا فإنى مدين فى تأسيس حياتى العلمية بالكثير « لكتّاب الشيخ محمد درويش » رحمه الله .

الشيء الوحيد المؤلم ، هو أننا كنا نقضى حاجتنا فى العراء على شاطئ المجرى المائى الصغير الذى يمر بالمبنى .

بعد وفاة جدى ، خرج عمى « محمد » من البيت ، وكان من أم غير جدتى ، واستقل بنفسه ، وتزوجت عمتى الثانية ، وكانت الأولى قد تزوجت منذ زمن بعيد ، وتجمع باقى أفراد الأسرة حول أبى فى بيتنا القديم عمى عبد الفتاح ، وعمى أحمد وخالتى مباركة وجدتى لأبى ، وأمى وأولادها ، وكان عمى أحمد فلاحًا أصيلًا ..

أما عمى عبد الفتاح فله قصة مثيرة ، لعلى كتبت طرفًا منها فى روايتى « الطريق الطويل » ، فقد كان طالبًا أزهريًا ضعيف البصر ، لكنه تراخى فى إكمال دراسته بعد المرحلة الابتدائية ، وأتى ليعيش فى القرية دون عمل ، فقد كان من الصعوبة بمكان أن يجد مثله وظيفة حكومية أو أهلية ، ولم يكن يصلح بتاتًا للعمل فى الحقل ، وهكذا كان يقضى يومه دون إنتاج ، إذ يصحو فى الصباح متأخرًا ، ثم يلحق ببعض الأصدقاء العاطلين ، ويقضى ليله فى السهر الخالى من أى مضمون إيجابى ، وكان فراغه مدعاة لأن يقبل على التدخين بمختلف أنواعه ، وبالطبع فإن ذلك كان مثار سخط وانتقاد شديد من أفراد الأسرة ، ولم تكن الأسرة بمستطيعة أن تنفق على لهوه وعبثه القليل ، فبدأ يبيع نصيبه من ميراثه فى الأرض ، وكان فرضًا على أبى أن يشترى منه ما يريد بيعه من قراريط ، لأن بيع أرضنا للغير يُعتبر فى القرية عارًا وفضيحة ، ولم تستطع محاولات أبى الفاشلة فى التجارة ، وبيع بعض المواشى والحلى والمحاصيل أن تسد ما يطلبه عمى عبد الفتاح من أقساط ثمن أرضه ، مما أوقعنا فى الديون والرهن ، وهما مشكلة ظللنا نعانى منها الأمرين فى هذه الفترة العصيبة .

ومع توالى الأزمات التى سببها عمى إلا أنه كان رجلًا طيب القلب ، حسن الثقافة ، كان هو المتعلم الوحيد فى الأسرة إن صح التعبير .. كان طيب القلب عطوفًا ذكيًا كريمًا ، وكان منكبًا على قراءة كتب المنفلوطى (النظرات- ماجدولين .. الخ) ، وكتب الرافعى (وحى القلم- المساكين- أوراق الورد) ودواوين شوقى ومسرحياته ، والقليل من مؤلفات طه حسين ، وبعض كتب التراث ، وكنت آخذ بعض هذه الكتب- بعد أن كبرت- وأحاول القراءة فيها ، فأفهم البعض ، ولا أستطيع استيعاب البعض الآخر ، وكنت ألجأ إليه أحيانًا ليشرح لى ما غمض منها ..لقد كان عمى بحق هو المورد الأول لثقافتى ، وهو الذى أخذ بيدى إلى التزود من الثقافة العامة ، وكان لا يبخل على الكتب بمال ، وأتذكر أنه كان ناقمًا على الحياة السياسية ، شديد النقد للأحزاب القائمة ..

إن عمى عبد الفتاح يستحق حيزًا كبيرًا من هذه الذكريات ، وقد أعود إليه فى صفحات أخرى ، لكن المهم ، أنه بعد أتى على كل ما يملك ، رفض أن يعيش عالة على أحد ، لقد باع آخر جزء من أرضه ، ثم اعتزم الهجرة إلى القاهرة ليبحث عن مصدر رزق فيها ، يومها بكى أبى ، وبكت أمى ،

وبكيت أنا الآخر بمرارة ، وقال له أبى : « لتبق معنا يا شيخ عبد الفتاح .. ورزقى ورزقك على الله ..»

لكنه ابتسم فى مرارة وحزن وقال : « هذا لا يصح .. أنا لست صغيرًا .. ومن العيب الشنيع أن أبقى هكذا دون عمل .. إن كرامتى لا تسمح بذلك .. سوف أمضى إلى المدينة متوكلًا على الله .. وليكن ما يكون ..» ... وحمل متاعه ورحل ..

كانت الحرب العالمية محتدمة الأوار آنذاك ، والدنيا كما تقول خالتى مباركة « على كف عفريت ..»

ولم ينس عمى أنى يأتى لوداعى فى المدرسة الابتدائية التى كنت قد انتقلت إليها فى قرية سنباط ، وأن ينفحنى بقدر يسير من المال .. ولما رآنى أبكى .. قال وشفته ترتعش : « لا تبك .. أنت رجل الآن .. وعما قريب تنال شهادة الابتدائية وتخطو الخطوة الأولى نحو المستقبل العظيم إن شاء الله ..»

يمكننى القول أن عمى عانى الكثير من المتاعب فى البداية ، وتحمل شظف الحياة ومشاقها ، (وعمل فى الأعمال التى لا تليق) ، لكنه فى النهاية استطاع الحصول على عمل كتابى بوزارة الدفاع ، واستقر به إلى آخر حياته ، وأفاض الله عليه من نعمه ، وتزوج واتجه إلى الذكر والعبادة وقراءة القرآن ، فستره الله ، ووفقه توفيقًا كبيرًا ، وأحسن خاتمته ، ولم ينجب ، وبعد أن خرج بالتقاعد ، عاد إلى القرية ليعيش معنا هو وزوجته حتى وافتاهما المنية فيها ..

كانت أمى من أسرة كبيرة شهيرة فى القرية هى أسرة الشافعى ، وكانت كثيرًا ما تبدى اعتزازها وافتخارها بأسرتها، بل وأسرة أخوالها أيضًا فى كفر مجاور « كفر حسين » ، ومن المعروف أن أسرة الشافعى أيسر حالًا ، وأكثر أموالًا ، وأشد احتفالًا بتعليم أبنائها فى المدارس الحديثة والأزهر ، وقد كان لهم فضل السبق فى التعليم بالقرية هم وأسرة « جمال الدين » وعدد قليل من الأسر الأخرى ، كما إن عمدة القرية واثنين من مشايخ البلد ، وشيخ الخفراء من آل الشافعى ، أما جدى لأمى (الحاج عبد القادر الشافعى) فقد كان بحق رجلًا صالحًا ، حسن السمعة ، ومن كبار تجار القطن ، ولم يكن يبارى فى فعل الخير ، وحب الناس له ، ونظافة سيرته ، وعدالة حكمه .

يمكن القول أنه واحد من القلائل ذوى السيرة العطرة فى تاريخ القرية ، وكان حافظًا للقرآن ، صديقًا لعلماء الدين محبًا لهم ، لا يتعامل بالربا أبدًا ، رغم ظروف تجارته فى القطن ، حيث تعرض للكثير من المحن والانتكاسات ، كما حظى مرات أخرى بالتوفيق والانتصارات ، وعندما تحيق به أزمة ، كان يبادر ببيع جزء من أرضه ليسدد ديونه ، ويرفض الاقتراض من البنوك أو الخواجات ، وسرعان ما يعوض خسارته فى موسم قادم ، ثم يشترى أرضًا زراعية من جديد يعوض بها ما باعه . ولقد كنت شديد التأثر بأخلاقيات وسلوك هذا الرجل العظيم فى طفولتى أكثر من تأثرى بأى إنسان آخر ، كان يشجع والدى على تعليمى ، ويقدم لى الهبات ، وخاصة عندما يعقد لى امتحانًا فى المساء وهو مضطجع على سريره ، وكان رفيقًا بى عندما أخطئ ، فلا يكاد يشعر الآخرين بخطأى ، وكان يسألنى فى بعض المسائل الحسابية ، بل وفى بعض الألغاز الرياضية الطريفة ، التى تعتبر نوعًا من اختبارات الذكاء ، كما كان يدربنى على الخطابة- حيث كنا فى عصر تقاس فيه عظمة القادة والزعماء بمقدرتهم على صياغة القول ، وبراعة البيان ، وقوة الحنجرة- وحتى بعد أن كبرت ، واتخذت خطًا سياسيًا مغايرًا

لطريق حزب الوفد ، كان يناقشني ويحاول توجيهي ، ويكشف لى عن بعض الأمور الغامضة ، والواقع أننى ظللت أكن له الاحترام والحب حتى اليوم ، وكان هو الآخر- رحمه الله- يحبنى أشد الحب ، إذ كنت أول حفيد له ، وكان ترتيبى الأول فى دراستى ، مما يجعله يعتز بى فى مجالسه الخاصة ، لدرجة أننى كنت دائمًا رسول أخوالى المقاربين لى فى السن (مالك وإبراهيم) إليه عند إلحاح بعض المطالب . وكما فعل جدى لأبى عند الذهاب إلى مكتب القرية ، فعل جدى لأمى ، إذ أخذنى إلى المدرسة الابتدائية بسنباط بنفسه ، وسجلنى فيها بعد أن أقنع والدى اللذين كانا خائفين من الأعباء المالية الكثيرة للتعليم .. وعند اعتقلت فى المرة الأولى عام ١٩٥٥ كان راقدًا فى فراش المرض ، وبكى واستدعى ولديه مالك وإبراهيم وقال بأسى : « اذهبا وابحثا عن ابن أختكما ..» ومات رحمه الله بعد شهور من اعتقالى حيث كنت سجينًا فى سجن « قره ميدان » أى سجن مصر ..

ومن المعروف أن نشوب الخلافات بين أفراد الأسرة الواحدة أمر لا يمكن تجنبه ، وأشهد الله أن جدى الحاج عبد القادر كان دائمًا يحكم بخطأ أمى ، حتى ولو لم تكن كذلك ، ويفعل نفس الشىء مع أبى ، وذلك بالنسبة لأعمامى وعماتى ، وكان يقول دائمًا .. « لأن تكون مظلومًا ، خير ألف مرة من أن تكون ظالمًا ..» تلك كانت فلسفته ، ولذلك كان أفراد أسرتنا يقصدونه دون تردد عندما تنشب أية خلافات .. لقد كان سلوكه العملى مصداقًا لتدينه وإيمانه ، وفى مجال الرزق لم يكن يخشى الغد أبدًا ، كان واثقًا من رحمة الله ، وأذكر أنه كان يتناول طعام الفطور أمام بيته ، ويدعو كل من يمر لمشاركته الطعام ، ونادرًا ما كان يأكل وحده ، ومع التزامه الصدق والجد والأمانة والدأب ، إلا أنه كان محبًا للمرح ، يبتسم للنكتة ، ويحفل بالحكايات الطريفة ، والمواقف المحرجة ، ويضحك حتى يحمر وجهه الأشقر المليء بالنمش ..،كان أولاده وأحفاده وأصهاره كثيرًا ما يجتمعون حول سريره فى المساء ، ويروى كل منهم الطرائف والملح التى جمعها ، وبعض النوادر التى تحدث فى القرية ، وهو يستمع فى منتهى السعادة والاستمتاع ، وغالبًا ما ينام مبكرًا ، حتى لا تفوته صلاة الفجر ...

ومن الغريب أنه زوج بناته الثلاثة بسهولة ويسر فى أسر متواضعة ، وكان بإمكانه أن ينتظر الفرص المواتية لزيجات أفضل من الناحية الاجتماعية ، لكنه لم يكن يعطى هذا الأمر كبير اهتمام ، يكفى أى يكون الزوج مناسبًا من الناحية السلوكية والأخلاقية .. وكانت زوجة « سكينة » التى ماتت دون الخمسين ، على قدر كبير من الحكمة والدقة والذكاء ، فقد أدارت شئون بيتها على أحسن ما تكون الإدارة ، ويكون الحزم ..

كان جدى لأبى « إبراهيم » يحبه الناس ويهابونه . وكان جدى لأمى « عبد القادر » يحبه الناس ويجلونه .. غير أن لكل واحد منهما أسلوبه الخاص ، وفلسفته فى الحياة ، وتعبيره المميز عن نوعية ومنهج من مناهج الحياة التى عاصراها ..

أذكر أن جدى إبراهيم كان قد أنذر زوجه الرابعة « مبروكة » بألا تهجر البيت مرة أخرى إلى بيت أهلها فى « ميت بدر حلاوة » ، وأفهمها أنه الإنذار الأخير ، وكاد يجن عندما عاد ذات مساء ليجدها وقد سافرت غاضبة دون إذنه ، وذلك بسبب خلافات بينها وبين زوجاته الأخريات ، فما كان منه إلا أن رفض طعام العشاء ، ثم امتطى حماره وانطلق تحت جنح الليل قاصدًا « ميت بدر حلاوة » ، ولم ينزل

هناك عن حماره ، بل طلب زوجه ، فلم يجدوا إلا التسليم ، وانصرف وهى تسير كسيرة وراءه ، وتحكى لى أمى أن جدى فى هذه الليلة همّ بإلقاء مبروكة فى بئر عميق بالطريق ، لولا أنها توسلت إليه بوليدها ، وأوصته به خيرًا ، فرق قلبه ، وصفح عنها على أن تكون المخالفة الأخيرة[١] .. لم ينظر جدى إلى الأمر من زاوية حجم الجرم وحجم العقاب ، بقدر ما فكر فى الأوضاع الاجتماعية والتقاليد السائدة ، إن خروج زوجة على طاعة زوج كجدى فى مثل تلك الأيام يعتبر أمرًا مشينًا للغاية ..

واندلعت الحرب العالمية الثانية وأنا فى الثامنة من عمرى ، وشاهدت أمورًا غريبة تحدث فى القرية ، رأيت مهاجرين قدموا من الإسكندرية ليسكنوا فى حارتنا المتربة بالقرية ، وهم بملابسهم الإفرنجية ، ولهجاتهم الإسكندرانية ، وحريتهم المنطلقة ، حيث تمرح النسوة ، ويغنى الشباب ، ولا يتحرجون فى الكلام مع أحد ، وقد أحدث ذلك فى حارتنا انقلابًا كبيرًا[٢] .

وكان الفلاحون ملزمين بحكم القانون بتوريد محاصيل القمح أو أغلبها للحكومة لإعاشة قوات الاحتلال ، وهكذا شحت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، ووقع الناس فى ضوائق اقتصادية خانقة ، فكان من المألوف أن ترى الغرباء يفدون إلى القرية باحثين عن الحبوب والبقول ليشتروها ويلحون ، بل يتذللون عند الطلب ، ولم يكن غريبًا أن نسمع عن بيت فلان بأن ليس فيه كسرة خبز منذ يومين .. وأصبح الحصول على القماش والجاز والسكر والشاى والبطاطس والعدس والفول ، أمرًا بالغ الصعوبة ، إنى أتذكر أننا كنا نصنع الشاى أحيانًا بالعسل ، وكنا نستعمل البطاطا الحلوة بدل البطاطس ، وأصبح اللحم لا يشترى إلا فى فترات متباعدة ، وأسودّ لون الصابون والسكر والرغيف ، بل وجدت أثرياء البلدة يصنعون من البطاطين الصوفية الإنجليزية المسروقة جلابيب لهم ، بعد أن انعدم استيراد الصوف من بريطانيا العظمى آنذاك ، وضج الناس بالشكوى ، وأنشئت وزارة خاصة للتموين ، كانت بداية للنهب والاستغلال والسوق السوداء .

كما كثر دخول الصحف القرية ، وأخذ الناس يتحدثون عن أهوال الحرب ، وعن هتلر وتشرشل وموسولينى وستالين وروزفلت وغيرهم من زعماء العالم ، وعن الأسلحة الجديدة التى تبيد البشر ، ومن الأمور الملفتة للنظر أن أهالى قريتنا كانوا يعجبون بهتلر أيما إعجاب ، وأشيع عنه أنه رجل مؤمن يحب المسلمين والمصريين ، بل كان البعض يطلق عليه « محمد هتلر » وكانوا يفرحون لأية انتصارات يحققها الألمان ، ويقابلون الأنباء التى تتحدث عن انتصارات الحلفاء بالشك والريبة والضيق ..

وفى خضم تلك الأحداث المرعبة المتلاحقة تقرر أن التحق بمدرسة الأمريكان الابتدائية بقرية سنباط ، وهى مدرسة إرسالية تبشيرية أمريكية ... كان المفروض أننى أعد نفسى للالتحاق بالأزهر الشريف فى طنطا ، وكنت قد أوشكت على الانتهاء من حفظ القرآن ، وأكملت استعدادى لامتحان الحساب والإملاء ، فضلًا عن أن المدرسة الأولية لا أمل بعدها .. ويبدو أن جدى عبد القادر رأى عدم مناسبة الدراسة الأزهرية لخالى مالك وإبراهيم ، فرأى أن يذهب بنا نحن الثلاثة إلى مدرسة الأمريكان ،

---

(١) انظر قصة «أنين السواقي» في كتابنا «عند الرحيل»

(٢) انظر قصة «مهاجرون» في كتابنا «عند الرحيل»

وهى المدرسة الوحيدة بالمنطقة التى تدرس اللغة الإنجليزية ، وتمنح شهادة إتمام الدراسة الابتدائية ..

وفى صبيحة يوم مشرق من أيام آخر أغسطس سرنا فى الطريق إلى سنباط التى تبعد عنا ما يقرب من خمسة كيلو مترات ، كنا أنا وخالى نسير فى المقدمة ، ومن خلفنا سار جدى عبد القادر وصاحباه ، واستقبلنا مدرس اللغة العربية (الشيخ أحمد الراعي) صديق جدى بالبشر والترحاب فى غرفة الناظر (عطا الله أفندى نخلة) وكان قصيرًا جدًا ، وأديت الامتحان على السبورة السوداء المعلقة على حائط غرفة الناظر .. حيث أملوا على بعض مسائل الحساب ، واختبارًا فى الإملاء .. ونجحت بتفوق ، وكان المفروض أن يتم قبولى بالسنة الثانية طبقًا لمستواى ، لولا جهلى باللغة الإنجليزية التى تدرس فى هذه المدرسة اعتبارًا من العام الأول ..

وأصبح من المفروض أن يشترى لى أبى سروالًا قصيرًا وقميصًا من « الكاكى » ، وطربوشًا أحمر ، وحذاء جديدًا ، وكتبًا فى مختلف العلوم ، وكراسات كافية وبعض الأدوات الأخرى .. والأهم من ذلك أن يدفع أبى ستة جنيهات كمصاريف دراسية على أقساط .. وهو مبلغ كبير جدًا فى ذلك الوقت ..

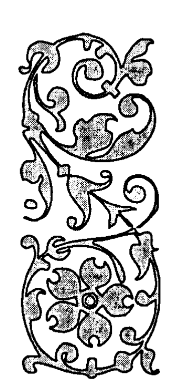
وكان على أن أذهب إلى المدرسة عند مطلع الشمس ، وأعود منها وقت الأصيل (نظام اليوم الكامل) .. بعد أن أكون قد قطعت على قدمى ما يقرب من عشرة كيلومترات كاملة .. يوميًا .. صيفًا وشتاء ... بينما كان أبناء الأثرياء يذهبون ركوبًا على الحمير ، إن استخدام الحمير بالنسبة لى أمر مستحيل ، فليس لدى أسرتى سوى حمار واحد ، وليس من المعقول أن آخذه معى من الصباح للعصر ، وأهمل متطلبات الأراضى الرراعية والمواشى وما يتعلق بحياة الفلاح من أعمال ..

لم أكن أشعر بالتعب ، كنا نسير أفواجًا ، نضحك ونمرح ونجرى ، ونحكى القصص والمُلَح ونتشاجر أحيانًا ، ونقلد المدرسين ، وخاصة حضرة الناظر ، وكان البعض منا- وأنا منهم- يخجل من لبس السروال ، فكانوا يلبسون الجلباب فوق البدلة ، ثم نخلعه عند وصولنا إلى باب المدرسة ، كما نخلع الطاقية أيضًا .. إن الذى يسير فى شوارع قريتنا بسروال أو عارى الرأس متهم .. هكذا كان ..

إن خروجى من قرية شرشابة إلى مدرسة سنباط ، كان بداية الرحلة الطويلة .. الرحلة التى امتدت إلى آفاق الدنيا .. ويا لها من رحلة ! !

❁❁❁

[٣] طريق بلا نهاية



توقظنى « خالتى » عند الفجر كل يوم ، وتعد لى طعام الفطور وتسخنه ، ثم تعطينى كوبًا كبيرًا من مغلى الحلبة المخلوط باللبن المسكر ، وتعلق الحقيبة القماشية المليئة بالكتب والكراسات فى عنقى فتتدلى إلى جانبى ، وأمسك بيدى اليسرى وجبة الغذاء اليومية ، والتى لا تخرج عن الخبز الفلاحى وقطعة من الجبن الخالى من الدسم ، ثم آخذ مليمين أو ثلاثة أو نصف قرش على الأكثر ، وهو مصروفى اليومى أو كل يومين ، ثم لا شىء بعد ذلك ..

كان الطريق إلى مدرسة الأمريكان بسنباط خاليًا تمامًا من أية سيارات ، وهو طريق مترب لكنه نظيف ، والحقول الخضراء على جانبيه ، وقبيل سنباط يوجد ضريح سيدى « نجم الدين » ، وهو ضريح بسيط للغاية ، عبارة عن مقبرة من الطوب اللبن ، تظللها شجرة جميز ضخمة ، وإلى جوار الشجرة زير ماء لعابرى السبيل ، وجوار الضريح أيضًا ، يوجد بيت صغير ، أقرب للكوخ منه للبيت ، وكنا كأطفال نعتبر سيدى نجم الدين (أو نجيم) كما يسميه العامة ، وليًا من أولياء الله الصالحين ، له رعاية خاصة بالطلبة أيام الامتحانات ، إذ كنا نظن أنه يعرف مدى ما نكابده من مشقة يومية فى المشى وفى المذاكرة ، ولذلك كنا نقدم له النذور التى لا تخرج عن بضع مليمات ، نعطيها لامرأة وحيدة ، تقيم فى البيت الصغير المجاور ، وكان إذا رسب طالب من الطلبة أقسم ألا يعطى سيدى نجم الدين أى شىء ، وقد يتشاجر معه مشاجرة طريفة ، هى فى الواقع من جانب واحد ..

ومعظم أساتذة مدرسة الأمريكان آنذاك كانوا من الإخوة المسيحيين بما فيهم الناظر ، وينتمون أصْلًا إلى أسر من الصعيد ، وكان لهجتهم « الصعيدية » تنم عن ذلك بوضوح .

وكان أبرز هؤلاء المدرسين ، وأشهرهم على الإطلاق « أنجلى أفندى حنا » ، إذ كان متين البنيان ، يلبس نظارة طبية سميكة ، ويمسك بيده دائمًا عصا خيزران ثقيلة ، يقال أنها منقوعة فى الزيت ، كما يحكم الطربوش على رأسه بصورة دائمة لا تتغير ، وهو يدرس الحساب لبعض الفصول ، وكذلك العلوم ، كما يدرس الإنجليزية للصف الأول ، وهو إلى جوار ذلك « ضابط المدرسة » المشرف على النظام ، وكان دائمًا متوترًا عالى الصوت ، لا يتفاهم إلا بالخيزرانة ، مؤمن أعمق الإيمان بالعقاب الصارم كوسيلة للإصلاح والتقويم ورفع المستوى العلمى والخلقى للتلاميذ والتلميذات ، وكان هو الذى يشرف على طابور البداية والنهاية والفسحة ، ويلقى التعليمات اليومية دون مراجعة ، وكنا نخاف منه أشد الخوف ، ونحلم به أثناء الليل ، كان إذا كثر عدد المخطئين فى الفصل ، يصر على معاقبة الجميع دون رحمة ، ويحرمهم من الفسحة الكبيرة- فسحة الغذاء- ويثقل عليهم فى الواجبات .. أذكر مرة أنه فى إحدى حصص العلوم قرر معاقبة فصلنا ، وأخذ ينادينا بالأرقام ، فقد كان لكل طالب رقم يحفظه

جيدًا ، فيقول واحد .. اثنين .. ثلاثة .. وهكذا ، وكان رقمي هو الأخير (حرف النون) السادس والثلاثون .. وكان من المعروف أنني أول الفصل في الامتحان .. وآلمني أن أتلقى العقاب بتلك الخيزرانة المؤلمة مع أني أعطيت إجابات صحيحة كاملة ، وثارت ثائرتي ، فكبتها .. إن « أنجلي أفندي » لا يتراجع عن قرار أصدره ، ولا يقبل أية مناقشة أو تفاهم .. وجاء دوري ، فخرجت من مقعدي بخطى سريعة مرتجفة وقلبي يدق ، ومددت يدي لكي أتلقى الضرب على راحتي في استسلام وأنا أقول : « يا أفندي أنا لم أخطئ ، فما السبب في عقابي »

ابتسم في صدق ، وقلما كان يحدث ذلك ، ثم نحى عصاه وقال : « حسنًا .. سوف أسألك سؤالًا آخر ، إن أجبت عليه فسوف أسامحك ..» كان السؤال سهلًا للغاية ، فأجبت عليه بسرعة ، فضحك وهو يقول : « انصرف .. سماح هذه المرة »

وكان أمرًا مثيرًا للدهشة بين الطلبة ، أن يتسامح أنجلي أفندي .. ومرة أخرى أعطانا مسألة حساب ، فقمت بحلها تحريرًا على الفور ، وكم كانت دهشتي عندما رأيته يشطب عليها ويكتب « خطأ » ، وأمسك عصاه هذه المرة ، وعاقبني عقابًا مريرًا على كلتا يدي ، فانهمرت دموعي بغزارة ، ولم يستطع أي طالب أن يقدم الإجابة الصحيحة التي يريدها ، وأخيرًا عاقب الفصل كله ، ثم وضع الحل النموذجي على السبورة السوداء ، وطلب منا جميعًا أن ننقله في كراساتنا ونتفهمه حتى لا نخطئ مرة أخرى ..

الحق أنني لم أقتنع بحله ، ولم أستطع إدخاله في رأسي ، وفي الفسحة الصغيرة تسللت إلى غرفة المدرسين ، ولم يكن « أنجلي أفندي » موجودًا فيها لحسن الحظ ، وانفردت بالأستاذ « أديب أفندي » وهو مدرس رياضيات آخر متخصص متمكن ، وشرحت له القضية ، وأبديت وجهة نظري ، فأطال الرجل النظر لدقائق قليلة ، ثم هز رأسه ، ونظر إلي في عطف وتقدير وقال : « انصرف أنت .. وجفف دموعك ..»

وفي الحصة الأخيرة جاء « أنجلي أفندي » ، وقال بصوت صارم حاسم : « اخرجوا كراسات الحساب ، واكتبوا هذا الحل السابق ..»

دق قلبي من الفرح ، إنه الحل الذي ارتأيته ، هزني الفخر ، وشعرت بالشماتة في « أنجلي أفندي » ، لكني دفنت رأسي في الكراس ولم أرفع إليه عيني حتى لا يقرأ شيئًا فيها ، ثم عاد إلى الدرس الجديد .. لكن والحق يقال كان الرجل مخلصًا في عمله ، لا يضيع دقيقة من وقتنا ، وكان يراقبنا داخل المدرسة وخارجها ، فعندما قرر أن نسكن في قرية سنباط ، حتى يتابع مذاكرتنا بنفسه أثناء الليل في المدرسة تحت الأضواء الغازية ، كان يداهمنا في مسكننا المستأجر بقروش قليلة ، ويتصنت علينا ، ليرى هل نلعب أم نذاكر ، ويا ويلنا إن كنا نلهو أو نعبث .. إنه على الفور يدخل علينا ، ونحن جلوس على الحصير الذي نفترشه ، ويأمرنا بعدم الوقوف ، ثم يضربنا « علقة ساخنة » بعصاه التي لا ترحم ..

كان شبح « أنجلي أفندي » يطاردنا في كل مكان ، وكنا نحسب له ألف حساب ، ومن لا يستطيع الصمود أمام هذه المعاملة القاسية ، عليه أن يبحث له عن مكان آخر (وهذا غير متوفر) ، أو يستسلم للأمر الواقع ويحاول أن يجتهد ، حتى يخلص بجلده ..

وكان لأنجلى أفندى أسبوع كل عام يذهب فيه إلى الصعيد ، كى يستحضر زاده من السمن والجبن والعدس وباقى مواد التموين الأخرى ، وكنا نتنفس الصعداء فى هذا الأسبوع ، وتتحول المدرسة بحق إلى حالة من الفوضى لا مثيل لها ، ويزداد العبث ، وترتفع صيحات الطلبة ، وتكثر المشاجرات والمشاحنات ، كما يكثر الإهمال والغياب والحضور فى وقت متأخر من الصباح ، وكأن الطلبة ينتقمون من قسوة « أنجلى أفندى » ونظامه العسكرى الرهيب ، فإذا ما عاد من إجازته ، ساد الصمت والحزن والنظام ، ويبدو أن الناظر « عطا الله أفندى نخلة » يدرك حالتنا النفسية ، فيترك لنا الحبل على الغارب أثناء غياب أنجلى أفندى ، كنوع من التخفيف أو الترفيه .

وذات مرة سافر « انجلى أفندى » إلى الصعيد ، وعمت الفرحة أرجاء المدرسة الصغيرة ، وكنا أثناء الليل نجلس فى غرفتنا المستأجرة فى منزل « عجايبى وزوجته كاترينا » نغنى ونضحك ، ونتبادل النكات ، ونمتص عيدان قصب السكر ، وفى ليلة من هذه الليالى الباردة الشديدة المطر ، جلسنا نتسامر بعد العشاء ، وكان معنا طالب كبير السن نوعًا ، جلس على بسطة النافذة المطلة على الشارع ، وأخذ يروى لنا عن بعض قصص العشق والغرام فى قريتنا ،ويحدثنا عن امرأة داعرة ، ويطنب فى الوصف بحماس بالغ ، وجلجل فى الصمت والظلام صوت « أنجلى أفندى » عند النافذة وهو يقهقه ويقول : « نم يا كلب حتى الصباح .. وسأعرف كيف أؤدبك ..»

وقذف المسكين بكليته من النافذة التى تعلو أكثر من متر وربع بالغرفة وساد الصمت والرعب .. يا إلهى .. من الذى أتى بأنجلى أفندى فى هذه الساعة من الليل البهيم الممطر ؟ إن أسبوع الإجازة لم ينته بعد ..

وكانت قصة مؤلمة سجلتها ذات يوم تحت عنوان « الغرباء » ونشرتها فى مجلة القصة المصرية ، ثم جمعتها مع مثيلاتها فى كتاب « عند الرحيل » .

أمر لا ينكر هو أن هذا الرجل القاسى كان سببًا فى نسبة النجاح المرتفعة كل عام فى المدرسة ، ولابد أن يكون هناك واحد منا أو أكثر من العشرة الأوائل فى شهادة إتمام الدراسة الابتدائية فى منطقة وسط الدلتا ، وهى من أكبر المناطق التعليمية ، وفى أغلب الأحيان كان أنجلى أفندى يستطيع أن يتنبأ بنسبة النجاح ، وبمن سيكون من الأوائل ..

كانت إدارة المدرسة على علاقة طيبة بأولياء الأمور ، وتتفاهم معهم حول أية مشكلة من المشاكل ، وكانت الدروس الخصوصية علنية ومسموح بها ، لكنها كانت قليلة . وكان بالمدرسة ما يسمونه « درس الأحد » ، وهو درس دينى حسب الديانة المسيحية ، وكنا نقابل الدرس بغير حماس ، فأغلبنا من المسلمين ، ثم شكونا إلى آبائنا ، فطلبوا من المدرسة قصره على الطلبة المسيحيين ، وقد تم ذلك بالفعل ، لكن هذا لم يمنع بعض المناقشات التى تدور بيننا وبين المدرسين أو الطلبة المسيحيين حول فضل سيدنا عيسى ، والمقارنة بين المسيحية والإسلام ، لكن هذه المناقشات ، لم تخرج عن إطار التسامح والآداب المرعية فى الحوار والجدل ، ولم تتسبب فى إلحاق الأذى بأحد ..

وكان أستاذ اللغة العربية شيخنا الجليل الأستاذ « أحمد الراعى سليمان » رجلًا متمكنًا من علمه ، وذا خبرة واسعة ، أحسن تدريس اللغة والدين الإسلامى لنا ، وترك بصماته على تفكيرنا وسلوكنا

وعواطفنا ، وكان صديقًا لجدى « الحاج عبد القادر الشافعى » ، وعلى الرغم من طيبته وابتسامته إلا أنه لم يكن يتسامح مع المهملين أو المقصرين ، بل كان يقسو على خالى الأصغر « إبراهيم » رغم صداقته لوالده ، ويضربه دون رحمة .

وكان الفصل مشتركًا بين البنين والبنات ، وإن كان عدد البنات لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة أو أكثر قليلًا ، ومن بين الطالبات ابنة الناظر « أيرث » وابنة « أنجلى أفندى »

– « وداد » وابنة عمدة سنباط « تهانى » وابنة أستاذ اللغة العربية والدين « محاسن » وغيرهن ..

عندما دخلت المدرسة الأمريكية لأول مرة ، كنت خائفًا جدًا من اللغة الإنجليزية التى لا أعرف فيها سوى حرف واحد وهو «L» عرفته بالصدفة ، وجاء أنجلى أفندى فى أول درس ، يكتب حرفًا لكل طالب ينطقه وحده ، وارتجف قلبى ، إننى لا أعرف شيئًا ، وهتفت من أعماقى « يا رب » ، إن كل من يخطئ يضرب بالعصا .. وشعرت بالظلم ، يجب أن يعلمنا أولًا ، ثم يجرى لنا الاختبار ، لكن كيف نجرؤ على قول ذلك ؟ وكم كانت دهشتي- عندما جاء الدور علي- ووجدته يكتب الحرف الوحيد الذى ارتسمت صورته فى مخى ، فأجبت وجلست وأنا لا أكاد أصدق ، إنها صدفة فى منتهى الغرابة ، وطوال الكيلو مترات الخمسة أثناء عودتى من المدرسة ، التقطت أحد الطلبة القدماء ، وطلبت منه أن يكتب لى الحروف الأبجدية الإنجليزية ، ثم قمت أنا بكتابة النطق فوق كل حرف ، وفى المساء جلست تحت ضوء لمبة الجاز فى بيتنا وسط ضجيج الأسرة ، وأخذت أحفظ الحرف ، ولم أنم إلا بعد أن أتقنت حفظها قراءة وكتابة .. ولم يكن فى أسرتنا أو جيراننا أو شارعنا الطويل من يعرف شيئًا عن الإنجليزية ، ومن ثم كان من الضرورى أن أعتمد على نفسى فى كل شيء ، وأن أعتصم بالله .. وهكذا مرت تلك العقبة الكئود بسلام .

كانت قرية سنباط كبيرة ، وملتحمة بكفر العرب ، وكان فيها حى كامل للإخوة المسيحيين ، يُطلق عليه « حصة سنباط » ، وكان معظم الإخوة المسيحيين من ذوى اليسار والوظائف ، فهم يعملون فى مكتب البريد ، وفى سكة حديد الدلتا وأعمال الصيرفة وتجارة المجوهرات ، ويمتلكون ماكينة الطحين الوحيدة فى سنباط ، ولهم بعض المتاجر والحرف الهامة كالنجارة وصناعة الأحذية وتربية النحل وغير ذلك ، وكان هذا يبدو جليًا على ملابس أولادهم ومصروفاتهم اليومية ، كما كان للمسيحيين كنيسة فى قلب القرية ، وقد ذهبنا إليها ذات يوم من باب الفضول ، فكان من الملفت للنظر أن نرى الزائرين من المسيحيين يقبلون الستائر والأبواب ويتبركون بها ، مثلما يفعل بعض الدهماء من المسلمين فى أضرحتهم!!

وعلى مقربة من البيت الذى نستأجره فى سنباط ، يوجد بيت تقيم فيه « الغوازى » اللائى تحدثت عنهن فى الصفحات السابقة ، وفى كثير من الليالى كنا نسمع دقات الطبول والدفوف وأصوات الغناء والموسيقى ، والضحكات المتكسرة حتى ساعة متأخرة من الليل ، وكنا نحاول أن نتلكأ حول ذلك البيت لنشاهد ما يجرى داخله من مجون وعبث ، عبر الأبواب والنوافذ ، وقد يحلو لبعض الطلبة أن يصفقوا ويرددوا مقاطع بعض الأغنيات التى يسمعونها بالداخل ، ومن أشهرها آنذاك أغنية:

البوسطجية اشتكوا من كتر مراسيلي   وعيونى لما بكوا دابت مناديلي

روح يا قمر والنبى ع الحلو مسيّ لي   ع الحلو مسيّ لي

ولم يكن من المستغرب أن ترى فى مدرستنا (وهى مدرسة أهلية خاصة) طلبة قد تخطو السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، إذ لم يكن عمر محدد للطلبة أو الطالبات ما دام ولى الأمر يدفع المصروفات المطلوبة .

وعلى غير العادة كان «أنجلى أفندى حنا» يبدو منشرحًا باسمًا إذا خرج معنا فى إحدى الرحلات ، وكان أهم هذه الرحلات إلى القناطر الخيرية ، حيث يدفع كل طالب قرشين أو ثلاثة ، تكفى كأجرة للقطار ولبعض الأطعمة المشتركة ، وكنا نأخذ معنا فى هذه المناسبة بعض الفطائر الفلاحى اللذيذة الطعم ، وكمية من الجبن والعسل الأسود ، ويتركنا أنجلى أفندى نلهو ونمرح فى الحدائق الجميلة الشاسعة ، بل ويشاركنا فى لعب الكرة بشىء من الوقار والتأنق ، ويسمح لنا بالاختلاط مع مدارس أخرى تأتى مصادفة من القرى المجاورة ، ومن مدينة زفتى ، وكانت أغنيتنا المفضلة ونحن نركب «قطار الدلتا» الصغير تقول :

الفاتحة للكمسري   قلع الطربوش وعمل وَليّ

كما كان النشيد المدرسى المقرر آنذاك :

بلادى بلادى فداكِ دمي   وهبت حياتى فِدىً فاسلمي
غرامك أول ما فى الفؤادِ   ونجواكِ آخر ما فى فمي
سأهتف باسمك ما إن حييت   تعيش بلادى ويحيى الملك .

وكان ملعب المدرسة صغيرًا جدًا ، وفيه استعدادات للعب كرة السلة ، ويشاركنا فيها بعض المدرسين الشباب ، ولم نكن نغفل حصة الألعاب على الرغم من الكيلو مترات العشرة التى نقطعها ذهابًا وإيابًا ، كما كانت تعقد المباريات المختلفة فى هذا الفناء الصغير (الملعب) ، وتوزع جوائز رمزية على المتفوقين .

وكان يجلس إلى جوارى على المقعد المدرسى الأخ «عبد الأحد جمال الدين» ، وهو حاليًا الأستاذ الدكتور عبد الأحد رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة ، ومستشارنا الثقافى السابق فى فرنسا ، وأستاذ سابق بكلية الحقوق ، وكان مولعًا بالسياسة منذ صغره ، وتربطنا معًا صداقة وطيدة ، وكان من رأيه ، أن نجمع مليمات لنشترى صحيفة يومية للفصل نقرؤها معًا بصوت عالٍ ، لنعرف أخبار الحرب والسياسة والإنجليز بالذات ، وقد وافق «أنجلى أفندى» على ذلك ، كما طلبنا فى يوم من الأيام من إدارة المدرسة أن يُسمح لنا بالخروج فى مظاهرة سلمية أثناء الفسحة الكبيرة فقط ، نعبر فيها عن مشاعرنا ضد الإنجليز ، ونطالب فيها «بالجلاء التام» ، أو الموت الزؤام» ، وذهلنا عندما تمت الموافقة على ذلك ، مع التزامنا ببعض الشروط الضرورية التى يفرضها النظام والأدب ، وسرنا فى شوارع سنباط– كما يفعل الكبار فى المدارس الثانوية– وأخذنا نردد " الجلاء بالدماء ... مصر والسودان لنا .. وانجلترا إن أمكنا .. نموت وتحيا مصر .. والله أكبر والعزة لمصر ..»

كما كان لنا بعض الهتافات المضحكة ، نقولها فى حماس عجيب مثل:

* كنت فين يا «بيغن» وأمك بتدوّر عليك
* كنت عند «تشرشل» .. الله يحنن عليك ..

وبلغنا فى مظاهرتنا الصغيرة مكتب البريد ، واعتلى « عبد الأحد » مصطبة مجاورة ، وأخذ يرتجل فى حماسة بعض العبارات المأثورة عن مصطفى كامل وسعد زغلول باشا ، وغيرهما من الزعماء ، ونحن نصفق ونهتف ونهلل ، وما إن انتهى من خطبته ورواد « سوق الاثنين » بسنباط ينظرون إلينا فى متعة وابتسام ، حتى ظهر « أنجلى أفندى » بخيزرانته ، ونادى بأعلى صوته قائلًا : « كفى يا أولاد .. لقد عبرتم عن شعوركم .. عودوا إلى المدرسة لأن الفسحة أوشكت على الانتهاء ..»

كان لطيفًا رقيقًا هذه المرة أيضًا ، رغم الخيزرانة التى فى يمينه ، وجرينا كأننا فى سباق إلى الشارع الطويل الذى يؤدى إلى المدرسة ..

وعلى ذكر الفسحة الكبيرة ، وهى عادة بعد الحصة الخامسة ، نخرج من المدرسة ، ونذهب إلى أحد المساجد القريبة ، الذى يقع ملاصقًا للغيطان الخضراء ثم نجلس فى تجمعات ، ونفك عقدة المناديل ، ونبدأ فى أكل الخبز والجبن والمخللات والخس الأخضر أو البصل ، وفى الغالب نخلط الطعام كله ، ونأكل سويًا .. إن شعورنا بالجوع يجعلنا نلتهم الطعام التهامًا رغم تواضعه ، كنا كمن يأكل لحمًا مشويًا ، ثم نشرب الماء العذب من طلمبة المسجد ، ونتوضأ ونصلى ، ثم نعود إلى المدرسة لتكملة الحصص ، وننصرف آخر اليوم الدراسى حوالى الثالثة والنصف بعد الظهر تقريبًا ..

وأمام المدرسة يباع الترمس والفول السودانى والخروب والبطاطا الساخنة الشهية ، ويمكننا أن نشترى بما معنا من مليمات أو بما تبقى لدينا من خبز جاف ، وما أكثر ما يسيل لعابنا أمام البطاطا الحلوة فى الشتاء فى وقت لا يكون معنا ما نشترى به ، فننصرف فى حسرة ، دون أن نقترب من البائعة العجوز شبه العمياء الست « إخوات » .

وكثيرًا ما كان يحدث احتكاك بين أبناء شرشابة وأبناء سنباط ، ويصل الأمر لدرجة كبيرة من التوتر ، وكان يحدث أن يتفق الطرفان على إقامة معركة رسمية فى مكان محدد ، وموعد محدد ، فيحدث الصدام بالعصى والكرابيج والأيدى ، ولا ينتهى إلا إذا سلب أحد الطرفين سلاح الآخر ، وذات مرة حضر « أنجلى أفندى » بنفسه كأنما انشقت عنه الأرض ، ووجدنا منهمكين فى المعركة ، ودوت صفارته التى نعرفها جيدًا ، والتى تشبه صفارة الخفراء فى القرى ، وسرعان ما توقفت المعركة ، فحاولنا الهرب ، لكن صيحاته أوقفتنا جامدين متلبسين .. وأوقفنا وسط الشارع طابورين متقابلين ، واحد لأبناء شرشابة والآخر لأبناء سنباط ، وأعطانا بخيزرانته درسًا عمليًا لن ننساه ، وأمسك بى من أذنى قائلًا : « حتى أنت ؟ »

وكاد يخلع أذنى ، لكنه كان رفيقًا بى لحد كبير عندما هوى بخيزرانته على كفى .. لماذا كان يحدث ذلك ؟

لم يكن هذا السلوك أمرًا غريبًا آنذاك ، إن الأسر فى قريتنا تتصارع وتتقاتل ، والدماء تراق لأوهى الأسباب ، والأخذ بالثأر أمر طبيعى ، والخلافات الناجمة عن الانتماءات الحزبية تزعج قريتنا ، والصراع على « العمودية » و « مشيخة » البلد أمر مألوف ، حتى علماء قريتنا كانوا يختلفون ويتشاجرون فى المساجد بسبب حكم شرعى ، يوافق عليه « الشافعية » ويرفضه « الحنفية » ، أو بسبب التصوف وما يدور حوله من آراء ، ورأيت بعينى رأسى عالمًا يهجم على المنبر ، ويجر عالمًا آخر لينزله ، بسبب الخلاف حول

بعض الفرعيات المتعلقة بزكاة رمضان . والأعجب من ذلك إن لى عمًّا عالمًا مقيمًا فى بلدة « حنون » ، ويعتبر واحدًا من كبار رجال الجمعية الشرعية ، كان يأتى لزيارتنا كل عام ، ويذهب إلى المسجد الكبير لخطبة الجمعة ، وذات مرة حدث خلاف بينه وبين إمام المسجد حول ركعتى السنة قبل الخطبة .. واحتدم الخلاف ، وتوتر الموقف ، ويومها وجدت الفلاحين من أسرتنا يذهبون ، ويحضرون العصى الغليظة ، استعدادًا لما قد يطرأ من معارك ، كنت صغيرًا لا أعرف أبعاد هذا ، لكن الله سلم ، بسبب حكمة عمى العالم ، وتصريحه من أراد أن يصلى الركعتين فليصلهما ، ومن لم يرد فليفعل ، وتحدث يومها عن التسامح بين المسلم وأخيه ، وإفساح الصدر للخلافات ، ومن ذاك اليوم حفظت العبارة الشهيرة التى تقول (اختلاف الأئمة ، رحمة بالأمة) وبعد أن نضجت ، وتربيت فى مدرسة « الإخوان المسلمين » ، ومررت بالعديد من التجارب المريرة ، كنت أشعر تدريجيًا بتضاؤل تلك النزعات التعصبية رويدًا رويدًا .. لقد كان زماننا القديم مليئًا بالعلل والتناقضات ، وكانت حياتنا فى القرية فى المدينة خاضعة لتقاليد ومؤثرات ومواصفات يصعب الإفلات من إسارها ، لكن هل عالم اليوم تخلص من الحروب والصراعات والعلل والتناقضات ؟ ما أشبه الليلة بالبارحة وإن اختلفت الأسباب والمواصفات ...

كانت إجازة الصيف فى المرحلة الابتدائية- بل فى المراحل التالية أيضًا- طويلة ، وكان لابد من ملئها ، لكن كيف ؟ لم يكن فى استطاعتى أن أذهب إلى المصايف ، أو أسافر إلى المدن ، ولذلك فإن الرياضة والقراءة كانا هما الملاذ الأول والأخير ..

كنت أعشق لعبة كرة القدم وألعاب القوى ، وكان بالقرية مساحات شاسعة تصلح للعب ، كما كانت « جماعات نشر الرياضة بالقرى » والتى يترأسها الأمير عمرو إبراهيم تؤدى دورًا بارزًا للفلاحين ، ولهذا استطعت أن أتقن اللعب الكثيرة مثل رمى الرمح والقرص والجلة ، والوثب الطويل والوثب بالبوصة ، والجرى لمسافات طويلة ، كما تقدمت كثيرًا فى لعبة كرة القدم ، وأصبحت واحدًا من الفريق الرسمى لمدرسة طنطا الثانوية الجديدة ، وهو أمل يحلم به الكثيرون ، وسافرت للاشتراك فى مسابقات بالنادى الأهلى بالجزيرة .

لكن تبقى فترة الصباح والمساء، حاولنا إقامة نادٍ صغير ، وأخذت ألتهم الكتب التهامًا ، وكانت معظم قراءاتى فى كتب الأدب والدين وبعض المجلات السيارة قديمها وحديثها مثل مجلة الرسالة والهلال والمقتطف والأزهر ، وكنت مولعًا بكتب الشعر خاصة .

وكان شيخ الطريقة الصوفية الأحمدية فى بلدنا المرحوم « الشيخ محمود المداح » وكان رجلًا وسيمًا نظيفًا رقيقًا كأنه ملاك ، وكان أنيقًا فى جبته الجميلة وقفطانه ، مجرد مشاهدته توحى بالراحة والاطمئنان والإجلال ، وكنا نقبل يده فى حب يقترب من العشق ، وكان - رحمه الله- يحبنى ويعجب بى لتواجدى بالمسجد كثيرًا ، ولتفوقى فى الدراسة ، لدرجة أنه اختارنى دون غيرى ، لكى يملى على خطاباته الخاصة التى يرسلها لإخوانه وأصدقائه ودراويشه فى مختلف الأنحاء ، وبعد أن أنتهى من كتابة الخطاب ، يأخذه منى ، ثم يوقع عليه « الفقير إلى الله تعالى محمود أحمد المداح » ، وكان يوصينى ألا أخبر أحدًا بمضمون خطاباته ، وبالطبع كانت وصيته أمرًا ، ولهذا كنت أحضر مجالس الذكر والحضرات منذ الصغر ، وأحفظ « المنظومة » التى تبدأ بالبيت التالى :

لأسمائك الحسنى عُبيدك قد ثنى عنانا له يرجو بها يدرك المنى

كما حفظت معظم « بردة البوصيرى » ، ، كان لإعجابى وارتباطى بهذا الرجل الكثير من الفوائد والسلوك الإيجابى فى حياتى فى تلك الفترة ، على الرغم من أن نظرتى للتصوف والمتصوفين قد تعمقت بالإطلاع والدراسة ، وتطورت إلى وضع مقبول لا غبار عليه ، ولا شبهة فيها ، تحت شعار الآية الكريمة ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ ، فسمة المؤمن الحق ، الإيمان والتقوى ..

إن قراءات الصيف التى ضمت الكثير من المؤلفات ، حتى قصص الجيب والروايات البوليسية والترجمات العديدة ، وحفظ القرآن والكثير من الأحاديث النبوية ، والشعر القديم والحديث ، وبعض النصوص البلاغية ، وسير القدماء والمحدثين وغيرها ، قد زودنى بحصيلة كبيرة من المعرفة ..

ومن حسن الحظ أن فئة من الجامعيين والخريجين ، خاصة فى الأزهر الشريف ، كانوا يجمعوننا حولهم فى القرية أثناء الإجازة الصيفية ، وكنا نرى فى أيديهم الكتب القيمة ، ونسمع حوارهم الثرى المفيد ، ونتعلم منهم الكثير من النصوص والأحكام الشرعية ، والمقارنات الأدبية ، والأخبار التاريخية ، أذكر منهم بالذات الأستاذ الفاضل محمد أحمد حسب الله المدرس ، والمحقق أيضًا فى دار المعارف فيما بعد ، فقد كان أكثرهم علمًا وثقافة ودراية ، وقد تخرج من كلية اللغة العربية ، ثم درس عامين بمعهد التربية العالى بالإسكندرية فى علم النفس والفلسفة والتربية ، وكان يطلب منى أن أشاركه فى قراءة بعض الكتب الهامة أثناء المرحلة الثانوية ، أذكر منها كتاب « قادة الفكر » و « وحى القلم » وأجزاء من دواوين شوقى ومسرحياته وديوان المتنبى وبعض قصائد أبى العلاء المعرى ..

كانت متعتى الكبرى فى القراءة .. ويخيل إلى أننى لم أكن لأشبع منها أبدًا ، لقد أصبحت نوعًا من الإدمان إن صح التعبير ، وعندما أعلم أن فلانًا لديه كتاب ذو قيمة ، كنت أفعل المستحيل لاستعارة هذا الكتاب ، ولم تكن الحالة المالية تسمح بشراء ما يلزمنى من كتب ثقافية خارجية ، لكننا كنا نتبادل الكتب كأصدقاء ، أو نشترك فى شراء واحد منها ، أو شراء مجلة من المجلات القيمة كالهلال مثلًا ، كما كنا نحرص على قراءة مجلدات الرسالة القديمة ، ونشتريها من مكتبة « فك الأزمة » الشهيرة فى طنطا ، ولم أكن أتضايق من الكتب الصفراء مثل بعض الزملاء ، بل كنت أحرص أشد الحرص على قراءة البعض منها .

كان للكلمة المطبوعة مفعول السحر فى نفسى ، لم تكن ملكة التمييز قد اكتملت بعد لدى ، لذا كنت أقرأ أى شىء ، كما كانت لدى المقدرة على حفظ الكثير من النصوص ، وقد بدأت كتابة الشعر- تقليدًا- فى وقت مبكر جدًا ، أى فى آخر المرحلة الابتدائية .. هكذا بدأت رحلة العلم .. ورحلة الكلمة ... الرحلة الطويلة التى تبدأ .. لكنها لا تنتهى أبدا ..

❁❁❁

[٤] منعطفات



في المدرسة الابتدائية بسنباط، أنشئت جمعية أدبية للطلاب، وكان لهذه الجمعية رئيس ووكيل وسكرتير ومراقب، وتعقد اجتماعها الأسبوعى بعد دروس يوم السبت، إذ كانت الراحة الأسبوعية يوم الأحد، وكل اجتماع يحضره « رئيس شرف » هو فى الغالب « أنجلى أفندى »، وتبدأ الجلسة بأخذ الغياب، وكلما نادى الرئيس اسم العضو، يقف ذلك العضو ويردد بيتًا من الشعر، بدلًا من أن يقول « أفندم »، ثم يتلى محضر الاجتماع السابق، ثم تبدأ أعمال الاجتماع، وهى عبارة عن « مباراة أدبية » بين اثنين من الطلبة، وغالبًا ما يكون موضوع المنافسة بين مهنتين من المهن، أو حرفتين من الحرف، فمثلًا تكون المباراة بين المحامى والطبيب، أو بين الصانع والتاجر، أو بين الفلاح والجندى، وهكذا، يقف أحد الطرفين، ويذكر محاسن مهنته، وأثرها الاجتماعى، وما تقدمه للوطن من أعمال بناءة تنهض به، وترفع من مستواه، ثم ينحى باللائمة على مثالب المهنة الأخرى، فإذا كان صاحبها تاجرًا هاجم السوق السوداء، والغش التجارى، وإخفاء السلع، والقسوة على الفقراء والمساكين، والجشع السائد، وبعد أن ينتهى الطرفان من إلقاء كلمتيهما، تؤخذ الأصوات، ومن يحصل على الأغلبية يكون هو الفائز، ومن ثم يُهنَّأ بعاصفة من التصفيق الحاد، ثم ينفض الاجتماع كى يعقد فى الأسبوع القادم.

وكان « المراقب » يسجل أسماء الغائبين، وأسماء الذين يتكلمون أو يثرثرون أثناء عقد الاجتماع، ثم يصدر الرئيس على الفئتين حكمه فى نهاية الجلسة بغرامة مليمين أو ثلاثة، والحصيلة السنوية فى نهاية العام يستفاد منها فى إقامة « حفلة شاى » يسعد بها الجميع- طلبة ومعلمون- قبل أداء الامتحان الأخير..

ولم يكن طالب الابتدائى بقادر على أن يدبج الخطبة المطلوبة التى تحقق له الفوز، ولذلك كنا نلجأ إلى بعض المدرسين، وأشهرهم الأستاذ « عبد العاطى زيان »، فقد كان خريجًا متفوقًا من مدرسة المعلمين، لكنه كان ضعيف البصر مما سبب له عقبة كبرى فى الالتحاق بوظيفة مدرس حكومى، لأن شروط اللياقة الطبية آنذاك كانت قاسية جدًا، ولهذا جاء ليعمل « مدرس تربية رياضية ! ! ! » بمدرستنا، رغم ضعف صحته وبصره، وبراتب شهرى ضئيل « أربعة جنيهات »، كان الأستاذ عبد العاطى إنشائيًا مبرزًا، يحفظ الكثير من شواهد الشعر، وتميل موضوعاته إلى السجع، فيقول مثلًا مهاجمًا التجار :

« يوم تأتى جهنم وتقول، فى صوت جهورى مهول، أين تجار الأقمشة وقد أخفوها، وفى السوق السوداء باعوها ...»

ولهذا كنا نلجأ إليه ليكتب لنا موضوعات المنافسة الأدبية ولا مانع لديه من أن كتب لكلا الطرفين المتنافسين، وبعض الطلبة كان يذهب إلى أحد أقربائه المقتدرين ليعد له خطبة عصماء، وكان كل طرف حريصًا على كسب أصوات الطلبة، وكان طريقة الإلقاء، وقوة الصوت، والحركات المصاحبة،

والانفعال الشديد ، من علامات النجاح ، ووصل الأمر فى بعض الأحيان إلى إثارة العصبيات الإقليمية ، فأبناء سنباط مثلًا يتكتلون ضد أبناء شرشابة ، وقد صل الأمر إلى التهديد والاشتباكات ، بل إلى شراء الأصوات ، وخاصة أصوات ذوى النفوذ والتأثير بين الطلبة ، كما إن المناصب داخل الجمعية كانت تلعب دورها فى إنجاح بعض الطلبة ، فإذا كان المراقب ، الذى يسجل أسماء الطلبة الذين تفرض عليهم الغرامات أو العقوبات ، أحد طرفى المنافسة ، حظى بأغلبية الأصوات ، لأنه يستطيع فى المستقبل أن ينتقم ممن حرموه من أصواتهم ، وخاصة أن الأصوات تؤخذ برفع اليد ، فيعرف المؤيدين والمعارضين ، ألم تكن هذه الصورة متطابقة تمامًا مع ما يجرى على الساحة الحزبية والسياسية ؟

الواقع أن جمعيتنا الأدبية كانت مجالًا خصبًا للتدريب على الخطابة ، وحفظ مأثور الشعر ، وتربية ملكة التمييز بين المواهب ، وإبداء الرأى ، رغم الظروف والعقبات .

وكان مدرس « الرسم » أديب أفندى رجل ذكى ، يختار اللوحات الجميلة ، ويضعها فى مدخل المدرسة ، أو فى صالة العرض ، ولم يكن يعطينا موضوعات جافة للرسم ، بل كان يحكى لنا قصة من القصص ، أو أسطورة من الأساطير ، ويطلب منا أن نرسم مشهدًا متخيلًا نابعًا مما سمعناه وانفعلنا به ، وقد يدرب الطلبة على مشهد تمثيلى معين ، ويختار ثلاثة أو أربعة منهم ، ثم يوقفهم جامدين ويطلب منا رسم هذه الصورة الحية ..

أما مدرس العلوم فقد كان يأخذنا إلى الحديقة الصغيرة فى المدرسة ، ويعطى لكل طالب مساحة فيها قد لا تزيد على نصف المتر ، ويساعدنا فى زراعة شتلات الزهور والورود ، ثم نتابعها يومًا بعد يوم حتى تتفتح ونسعد بألوانها الزاهية ، كما كان لمدرس العلوم جهاز تقطير بدائى نجرى عليه بأنفسنا- وبمساعدته- تجربة تقطير الأزهار ، ويأخذ كل منا كمية صغير فى قنينة من سائل الروائح الزكية .

والأمر الذى يدعو إلى الدهشة أن مدرسى هذه المدرسة لم يكن فيهم واحد حاصل على شهادة عليا ، ليسانس أو بكالوريوس ، كان أغلبهم يحمل البكالوريا « الثانوية العامة » أو ما هو فى مستواها ، بل بعضهم كان أقل من ذلك ، فمدرس الصف الأول الإبتدائى « زكى أفندى » لم يكن معه سوى الإبتدائية الأزهرية ، ومع ذلك فقد كان كفؤًا فى عمله ، ونال شهادة « صلاحية التدريس » لخبرته الطويلة ، ونتائجه الطيبة . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت هناك نشاطات وتجارب تربوية تدعو إلى التقدير والإعجاب ..

وقد كان لنا زميل من قرية « ميت البز » القريبة من سنباط ، وغالبًا ما يأتى متأخرًا فى الصباح ، وكان الأستاذ يطلق عليه « نئوم الضحى » ، ويأمره بأن يقف إلى السبورة ، أثناء شرح الدرس ، وكل خمس دقائق يطوف ويقل له « صَحَّ النومُ » ثم يلقفه بالعصا . . وهكذا حتى تنتهى الحصة .. وكان أن هرب أحمد من المدرسة واختفى تمامًا .. وذات يوم فى الصباح وجدنا أباه ممسكًا به من قفاه ، ودخل به إلى فناء المدرسة ، ودعا جميع الطلبة بأعلى صوته ليحتشدوا من حوله ، كان « أحمد » حافيًا منتفش الشعر ، يلبس جلبابًا ممزقًا قذرًا ، وقال الأب : « انظروا لهذا الشكل القبيح .. لقد هرب من المدرسة وطلب منى أن أجعله فلاحًا .. قولوا جميعًا بصوت واحد قوى : « إخص عليك يا بغل »

ودوّى صوت الطلبة هادرًا « إخص عليك يا بغل .. إخص عليك يا بغل » والأب يحرك خيزرانة مع إيقاع الهتاف كما يحرك رأسه المغطى بعمامة بيضاء نظيفة ، وأحمد يبكى بكاء مرًا .. وساد الصمت بعد أن توقفت حركة صاحب العصا (المايسترو) ..

ثم جذب الرجل سلة صغيرة وأخرج منها البدلة والطربوش والحذاء ، وأمر ولده بأن يلبسها ،

وحضر الناظر وبعض المدرسين ، وربت الناظر على كتفه فى حنان وقال : « لماذا تفعل ذلك يا أحمد ؟ أنت ولد شاطر ..»

فازداد بكاء أحمد قال : « إنهم يضربوننى ..»

ورد الناظر : « لا .. لا .. لن يضربك أحد بعد اليوم ..»

وقصد أحمد معنا صفه برأس منكسة ، وعيون محتقنة ، واستمر فى دراسته بعد ذلك حتى نهاية المرحلة ، ونال شهادة الابتدائية من الدور الأول ، ولا أعرف مصيره بعد ذلك ..لكنه كان إذا تصادم مع طالب أو تشاجر معه كان يقول له « اخص عليك يا بغل »

ويبدو أن « أنجلى أفندى » كان يعانى من بعض الضوائق المالية ، إذ إن مرتبات المدرسين آنذاك لم تكن كافية ، وفوجئنا به ذات يوم يستدعينا أنا وعبد الأحد وخالى مالك ونوفل صاحب القصص المثيرة .. وقال لنا : « أنتم أولاد مؤدبون مهذبون ، ولهذا اخترتكم لكى تسكنوا فى بيتى فى غرفة خالية ..»

كان لكلامه هذا واقع الصاعقة علينا ، إنها كارثة كبرى ، كيف نعيش فى بيت واحد مع « أنجلى أفندى » ؟ إننا لا نطيقه فى المدرسة ، ونرتعش فرقًا منه ونحن فى مسكننا المستأجر البعيد عنه ، ولا نفلت من مراقبته ومداهماته المباغتة ، فهل بالإمكان أن يرافقنا كظلنا فى البيت والمدرسة ؟ إنه أمر غير محتمل .. وأدرك الأستاذ ما نحن فيه من حيرة ورعب وتردد فقال بأدب جم : « حسنًا .. فكروا فى الأمر وأخطرونى ..»

لو أنه أمرنا بالتنفيذ لنفذنا الانتقال على الفور ، لكنه كان مهذبًا أو محرجًا ، وخرجنا نضرب كفًا بكف ، كيف نتخلص من هذه المصيبة التى حلت بنا ؟ وأقسم البعض ألا يذهبوا إلى بيته حتى ولو أدى ذلك إلى ترك المدرسة ، وقال آخرون الموت ولا هذا ، وقرر طرف ثالث أن نلغى السكن نهائيًا فى سنباط ونروح ونجئ يوميًا بين المدرسة وشرشابة .

وجاء الفرج من الله ، إذ استدعى « أنجلى أفندى » أحد زملاء السكن الكبار وقال : « خلاص .. لقد ألغيت المشروع »

وتنفسنا الصعداء ، لم تكن طريقتنا فى الحياة اليومية تتفق مع طبيعة « أنجلى أفندى » لقد كنا نمرح ونمزح ونغنى ، بل ونقيم حلقات الذكر ، ونستقبل أعدادًا هائلة من أصدقائنا فى سنباط ، وننعم بسهرات ليلية ممتعة على الرغم من القيود الصارمة التى يفرضها علينا « أنجلى أفندى » ؛ إذ كنا نختار الأوقات المناسبة التى لا يباغتنا فيها .. كانت حياتنا باختصار فوضى فى فوضى ، فالفراش منتثر هنا وهناك ، وبقايا الطعام ملقاة بإهمال فى جانب من جوانب الغرفة ، والأقلام والأوراق والكتب مبعثرة دون نظام ، ونفايات أعواد قصب السكر مكومة خلف الباب ، كل واحد ينتظر من يحملها للخارج .. وقد تبقى هكذا يومين أو ثلاثة ، وقد زارنا أبى ذات مرة ، ونظر إلى وضعنا فى اشمئزاز وألم وقال : « إن حياتكم قذرة ..»

وقام بنفسه رحمه الله لينظف الغرفة وينظمها ، لكننا هببنا جميعًا واقفين ، نتسابق إلى إصلاح الوضع ، وقد تم ذلك فى دقائق ، وأخذ رحمه الله يحدثنا عن النظام والنظافة وأهميتهما فى حياتنا العامة والخاصة ، ولم يفارق الألم ملامحه طوال الوقت ، وقد أنف أن يشرب من الزير الذى نشرب منه ، وتمتم فى حسرة : « كان الله فى عونكم »

وأخرج من جيبه كمية من العملة ذات الخمس مليمات (نصف قرش) ووزع على الحاضرين قطعة لكل واحد، ثم استدرك قائلًا: «كل شيء في أوله صعب ومتعب .. وعليكم بالصبر .. وفقكم الله ..»

ثم ودعنا وانصرف، كان يسير دون أن يلتفت إلينا، وخيل إلى أن الدموع تترقرق في عينيه وهو يعطيني يديه لكي أقبلها عند رحيله ..

كان طعامنا بسيطًا للغاية، نخرج صباح الاثنين من بيوتنا في شرشابة، وكل منا يحمل معه كمية من الأرغفة تكفي لأسبوع، مع زجاجة (نصف لتر) من العسل الأسود، وقطعتين أو ثلاثة من الجبن، ولا شيء غير ذلك، وكان المصروف الأسبوعي لي قرشين أو ثلاثة، ولم نكن نغير ملابسنا الداخلية أو الخارجية طوال الأسبوع، وفي صباح كل يوم نجلس مجتمعين ما عدا الزميل «عويس»، فقد كان له وضع خاص، ونتناول طعام الإفطار خبزًا وجبنًا، وقد يكون معنا بعض البصل الأخضر أو الفجل الذي نشتريه برغيف، ثم نذهب إلى المدرسة، وفي الظهر نفعل نفس الشيء إلا إذا اشترينا كمية مشتركة من «الطعمية» يدفع كل واحد فيها مليمين، أما العسل الأسود فنستفيد منه في العشاء كتحلية، وقد يعض أحدنا الجوع في أي وقت آخر، فيجرع جرعتين أو ثلاثة من قنينة العسل مباشرة، يتبعها بجرعة ماء، وفي منتصف الأسبوع تحضر إحدى السيدات لنا قدرًا من الأرز ونادرًا ما يكون معه كمية من البطاطس المحمرة، أما اللحم ففي المناسبات فقط، أما زميلنا «عويس» فقد كان له وضع آخر، كان ابن عمدة «عزبة عويس»، وكان ضخم الجثة، متين البنيان، متخلفًا في دراسته، أنيقًا في ملبسه، ويلبس الملابس الصوفية الثقيلة في الشتاء، بينما نرتجف نحن من البرد، كما كان له «لحاف» سميك ثمين، وكان له صندوق خاص يضع فيه البيض والجبن والزبد والقشدة والكعك، ودائمًا يغلق هذا الصندوق المعدني بالقفل والمفتاح، وإذا ما أراد أن يأكل، وضع رأسه في صندوقه، وانكب على الطعام دون أن نرى ماذا يأكل، ومن يوم لآخر يرسل له أبوه أحد الخفراء ومعه ما لذ وطاب .. باختصار كان محظوظًا في الطعام .. لكنه فشل في الدراسة ولم يكمل المرحلة الأولى . .

وإن أنس لا أنس ذات يوم وقد نفد الزاد كله، فلم يعد لدينا خبز ولا مال، وجلسنا في الصباح حائرين، وقررنا أن نسافر إلى قريتنا عقب انتهاء الحصة الخامسة فلا حل غير ذلك، وحان وقت الذهاب إلى المدرسة، وخرج معظمنا، وأغلق «عويس» صندوقه بعد أن أكل، وتأكد من إحكام الإغلاق بشد القفل مرتين أو ثلاثة، ثم مضى، وعندما هممت بالخروج جذبني أحد الزملاء قائلًا بصوت خفيض: «انتظر ..»

وانتظرت إذ لم يزل في الوقت فسحة، ورأيت زميلي يخرج ثم يدخل مسرعًا إلى الغرفة، وينقض على صندوق «عويس»، كان معه قطعة سلك صغيرة، وأخذ يعبث في فتحة القفل حتى استجاب وانفتح، كان الصندوق عامرًا بخيرات الله، والتقط زميلي رغيفين وقطعة من الجبن وأخرى من الزبد وبيضتين .. وقال في عجلة: «هيا لنفطر ..»

قلت: «هذا حرام .. هذه سرقة ..»

رماني بنظرة شذراء وقد امتلأ فمه بالطعام وقال: «الحرام أن نموت من الجوع وهذا الصندوق ملآن لعينه .. لو كان عويس عنده دم لدعانا لنأكل معه .. لكنه حيوان .. خنزير كتلك الخنازير التي تمرح في شوارع «حصة سنباط» .. كل يا رجل .. لا تكن حنبليًا ..»

سال لعابي، ودق قلبي من الخوف . أحسست أني مقدم على ارتكاب جريمة، واندفعت صوب

الباب ، لكن زميلى أمسك بيدى باسمًا وقد أحمر وجهه وتكور جانب فمه وقال : « ورب العزة لتأكل ..»

قدم لى البيضة والخبز المدهون بالجبن والزبد ، ومددت يدى فى ارتجاف .. وأكلت معه ..

كنت أمضى فى طريقى إلى المدرسة وأنا أتلفت يمنة ويسرة ، ويخيل إلى أن الناس جميعًا يعرفون أنى سارق ، وعندما التقيت « بعويس » فى الفسحة لم أستطع أن أنظر فى عينيه وجريت بعيدًا عنه ، حتى الدروس الثلاثة الأولى لم أستطع أن أستوعبها جيدًا ، وعند العودة تلكأت ، لم تكن لدى الشجاعة الكافية لكى أدخل الغرفة وأنظر إلى الصندوق الملعون ، أما زميلى الآخر فلم يكن يعبأ بشىء ، وبلغت المسكن متأخرًا ، ولدى الباب سمعت الضجة والصياح ، لقد اكتشف « عويس » سرقة الطعام ، كان كالوحش الضارى ، أخذ يلوح ويهدد ويتوعد ، وقرر أن يرفع الأمر لأنجلى أفندى أو نقطة البوليس ... وجلست أشهد الضجة صامتًا حزينًا شاحبًا ، واجف القلب أما الشريك الأساسى فى « الجريمة » فقد كان يضحك فى سخرية واستهتار ، بل الأدهى من ذلك أنه قال : « اللصوص هنا .. وأنت أكبر لص فيهم ..»

وانقض عليه زميلى فى شراسة ، وأخذ يكيل له اللكمات والركلات ، وساد الهرج والمرج ، وتدخل باقى الزملاء وفصلوا بينهما ، الحق أن « عويس » رغم ضخامة جسمه ، ومكانة أبيه ، كان جبانًا ، لذا رأيته يتراجع ، ويعود إلى صندوقه ويغلقه والدموع تتساقط من عينيه .. مضيت إليه وأنا أتألم وأربت على كتفه وأقول : « حقك على يا عويس .. أنا الذى ...»

قاطعنى عويس قائلًا : « أنت لا تفعلها .. أنت رجل طيب أمين ..»

وقهقه زميلى المعتدى فى سخرية وقال دون خوف : « أنا فتحت الصندوق .. فافعل ما تريد ..». ثم أشار ناحيتى وهو يضحك واستطرد : « وأنت أكلت معى ..»

دارت بى الأرض ، شعرت بضيق ما بعده ضيق ، حتى كدت أتقيأ ، وجلست مكانى جامدًا ، وجاءنى صوت عويس مواسيًا : « أنت بالذات لك أن تأخذ من صندوقى ما تشاء .. أنا تحت أمرك ..» وفى خضم الضجة والشجار ، تسللت خارجًا ، ومضيت فى طريقى إلى شرشابة ، لم يكن باستطاعتى البقاء أكثر من ذلك ، كنت أشعر بلدغات الندم وتأنيب الضمير طوال الكيلو مترات الخمسة، وعندما جلست فى بيتنا القديم ، وقدمت لى خالتى الطعام الشهى الساخن ، لم تكن لدى أدنى رغبة فى الأكل ..

ما أقسى وأمرّ الذكريات التى عايشناها فى تلك الفترة ، إننى أتذكر رفاق الغرفة المستأجرة فى سنباط ، ورفاق الغرفة المجاورة .. وأقارن بين الأمس واليوم ، هؤلاء الأولاد النحاف الذابلون منهم الآن الدكتور محمد مختار أستاذ الأنف والأذن والحنجرة.. وعبد الله على المهندس.. والدكتور عبد الأحد .. ورؤساء لمجالس الإدارات .. ولواءات فى الجيش .. ومفتشون فى وزارة التربية وأطباء وأدباء .. سبحان الله والحمد لله .. وعويس أصبح عمدة العزبة .. وزميلى السارق وكيل هيئة كبرى .. ومدرسة سنباط الابتدائية أحيلت إلى التقاعد ، ثم « أخنى عليها الذى أخنى على لبد » ، كما يقول الشاعر القديم .. وعطا الله أفندى عمّر طويلًا ثم قضى نحبه.. والشيخ أحمد الراعى مدرس اللغة

والدين ، وقد أشرفت على علاجه فى أخريات أيامه عندما أصبحت طبيبًا لقريتنا ، ولم أنس أن أُقبِّل يده وهو على فراش الموت كعهدنا القديم .. أما أنجلى أفندى فقد مات مبكرًا ؛ إذ كان يعانى من ارتفاع قديم فى ضغط الدم ..

كان أهلونا يشقون الأرض القاسية بالفئوس والمحاريث ، ويصبرون صبر أيوب وهم يزرعون ويحصدون ويكدحون من مشرق الشمس إلى مغربها ، وكنا مثلهم نقاسى الأهوال كى نحقق الأمل ، ونحصل العلم ، وننال الشهادة ، إنه موكب واحد متماسك يمضى فى ركب الحياة ، ويقتحم صعوباتها ، ويذلل عقباتها فى صبر وأناة دون عجل ..

وفى الأعوام الأولى من التعليم الابتدائى وقبله ، كنت أشارك أسرتى فى أعمال الحقل المعروفة ، كنقل السماد البلدى (التراب) من الحظائر إلى الحقل ، وأساعد فى زراعة القطن والقمح والذرة ، وأدير الطنبور ، وأحصد البرسيم والقمح والذرة ، ونذهب إلى حقول القطن لجمع الأوراق المصابة بالآفات طوال اليوم ، ونظل منحنين الساعات الطوال باحثين عن تلك الإصابات .. وكان طبيعيًا والحال هكذا أن نصاب بالبلهارسيا والانكلستوما وفقر الدم ، ثم نعالج ونصاب مرة أخرى وثالثة .. فالبلهارسيا صديق حميم للفلاح منذ أزمان بعيدة .. وقد وجدت مومياء قدماء المصريين مصابة بها .. كانت البلهارسيا .. والفقر .. والقهر .. والعمل الشاق ، تجعلنا نشق طريقنا بصعوبة بالغة .

وذات يوم قال جدى عبد القادر لأبى بحسم : « الآن .. وقد قطع ابنك خطوات ناجحة فى طريق التعليم ، فإن عليك أن تعفيه من أعمال الزراعة .. وأظنكم لستم فى حاجة إليه الآن ، وقد أخذتم أخاه « أمين » إلى الحقل نهائيًا ..»

ولأخى أمين الذى يصغرنى بعام وشهرين قصة ، فقد كان ذكيًا مجتهدًا ، لكن عمى « أحمد » اشتكى من ثقل عبء الزراعة ، وطلب من أبى أن يساعده بتفرغ أحد ولديه للعمل فى الحقل ، وكان أن وقع الاختيار على أمين لأنه الأصغر ، ويبدو أنه لم يمانع إذ لم يكن يدرك أبعاد هذا التحول الخطير فى تلك الفترة .. وهكذا تقرر مصيرى أنا وأخى فى لحظة عابرة ..

ونفذ أبى أوامر جدى ، ومنعت من الذهاب إلى الحقل ، وأصبح من المألوف أن ألبس الجلباب الأبيض النظيف ، وأمسك بيدى كتابًا أو مجلة أو صحيفة يومية ، أو أهرول إلى الملاعب الرياضية ، وأصبح الأصدقاء غير الأصدقاء ، والهموم غير الهموم ، والآمال غير الآمال ، لكن كيف أنسى أننى كنت ألتهم قدرًا كبيرًا من دخل الأسرة بسبب نفقات تعليمى ، وخاصة عندما ذهبت إلى المرحلة الثانوية فى طنطا ، وإلى جامعة فؤاد الأول فى القاهرة ؟ كنت ألبس البدل المصنوعة من الصوف الإنجليزى ، بينما أفراد الأسرة غالبًا ما يلبسون الدمور والجبردين ، وكنت أسكن فى غرف مجهزة بالماء والكهرباء وهم .. وإنى لأذكر أنه فى بداية كل عام جامعى ، كان أبى يعطينى نصف ثمن محصول القطن دفعة واحدة ، ويطلب منى أن أنفق منه بحساب طوال العام الدراسى ، ولما كنت أبدى رأيى أن أتقاضى مرتبًا شهريًا ثابتًا ، كان يرفض بشدة ، ويقول لى : تصرف كيف شئت ، لست صغيرًا ، وأنا أعرفك ، لن تنفق إلا فيما يلزمك ، وأعطانى الثقة كاملة ، ولم يضع على تصرفاتى أى قيد ، والواقع أننى شعرتُ بثقل المسئولية ، منذ وقت مبكر .. منذ أن أصبحت حرًا .. لذلك كنت أعيش فى المدينة ، وقلبى

معهم هناك فى القرية .. وأفر إليهم كلما حانت فرصة .. أفر إلى الصدر الدافئ الحنون .. إلى أبى وخالتى مباركة وأمى .. وجدتى .. وعمى .. وأخى أمين .. وأخواتى البنات .. وعندما أصل أشعر بالفرحة تغمرهم وكأنهم فى يوم عيد .. إننى أعود إلى الأمن والأمان والدفء العاطفى .. ويشرق وجه أبى بالنور والفرح ، وهو ممسك بيد إناء الشاى فوق النار المتقدة ، كى يعده بيديه ، وكان صمته أبلغ من مئات قصائد الترحيب ، وأهازيج السرور ، وأمى تنهمك تمامًا فى إعداد الأكلات الدسمة الشهية التى تعرف أنى أفضلها .. أما خالتى مباركة فتتحسس ظهرى وكتفى وصدرى ، وتتهمنى بأنى لا آكل جيدًا ، وأنى ضعيف الجسم ذابل العينين .. وتنهال عليّ الولائم من الأحباب والأقرباء ، وأقرأ فى عيونهم الصدق والإخلاص والوفاء ، وفى مسجد القرية الكبير لا يرانى أحد إلا ويصافحنى فى حرارة .. إن الأيام التى كنت أقضيها فى القرية تبدو رائعة جميلة ، أهيم فى صفائها وطهارتها ونشوتها ، وكأنى فى حلم رائع لا أتمنى أن أفيق منه ، ويوم السفر ينتابنى شعور بالاكتئاب والأسى ، حتى لكأنما أنا عضو ينفصل عن جسده ، لكن لا حيلة ، وأسمع « خالتى » تتمتم فى مساء ليلة السفر ، وهى تحكم حولى الغطاء :

صابح مسافر ، وفايت عندكم روحي بحق من أطلعك يا شمس وتروحي
فراق حبيبي دا أصعب من طلوع روحي

وإنى لأعجب أشد العجب من هؤلاء المثقفين الذين ينسون مسقط رأسهم وأهليهم بعد أن يتموا مرحلة التعليم ، ويستقلوا بأنفسهم ، إنه سلوك آثم حسب تصورى ، كيف ينقطعون عن ذويهم وعن مراتع صباهم ، ومطارح لهوهم ؟ أليس فى ذلكم الكثير من الجحود والنكران ؟ إن أبناء الفلاحين الذين أوتوا حظًا من التعليم وارتفاع المستوى عليهم واجبات مقدسة نحو قراهم وسكانها ، ولو آمنوا بذلك وفعلوا شيئًا ، لتغيرت الصورة ، وتطورت الأمور إلى الأفضل .

والواقع أن أخى أمين حمل العبء فى الحقل مبكرًا ، وفى غضون سنوات قليلة أصبح المسئول الأول عن الأسرة.وعن إتمام تعليمى ، وخاصة أن أبى رحمه الله لم يكن يعمل فى الحقل بيديه ، بل كان يحمل فقط مسئولية التوجيه والإشراف ، وبعد أن كبر أمين ترك له التصرف فى معظم الأمور ، وكان أمين كفؤًا فى حمل الأمانة على الوجه الأوفى ..

ولم تزل قريتنا الحبيبة حتى اليوم هى المكان المفضل حيث الاطمئنان والراحة والهدوء ، ولم يزل أهلوها هم محط الحب والصدق والوفاء .. حتى أولادى الذين نشأوا فى ظل تلك المشاعر الغامرة ، قد ساروا على نفس الدرب ، ونعموا بالمتعة التى تملأ روحى بالسعادة والرضى ..

كان للوالد رحمة الله أسلوبٌ خاصٌ فى التربية ، لم يقرأه فى كتب الفلسفة أو علم النفس ، هذا الأسلوب يتضح فى تعامله معى ، وفى علاقته بأخى الأصغر أمين بعد أن نضج ، وفى باقى الإخوة ، كان أساس تعامله الثقة ، ولم تكن ثقة عمياء ، إذ إنه كان يحاسبنا برفق عندما يرى أننا قد وقعنا فى خطأ ، ولم يكن جبارًا أو متعنتًا عند اختلافنا فى الرأى معه ، كان يكتفى بشرح وجهة نظره بإيجاز ، ثم تبين عدم صحة ما نراه ، ولا ينتظر .. بل ينصرف ، ولا يعتب إذا خالفناه ، وإذا خيبت النتائج ظننا لم يبد الشماتة أو الثورة ، بل يعلق تعليقًا بسيطًا ساخرًا : « إن كلام الفقير لا يُسمع » .. ونضحك وينتهى الأمر ، ومن العجيب أننى كنت أقع فى بعض المشاكل المحيرة المقلقة ، وأظل الليالى الطوال أفكر وأبحث

عن حل ، ولكن دون جدوى ، وسرعان ما كان يلاحظ ذلك من خلال تصرفاتي وشرودي وتعبيرات وجهي ، فيسألني ، وآخذ في شرح الأمر له ، وكان لا يطيل التفكير ، بل يبتسم ويقول وهو مشغول بعمل شيء آخر : « يا سلام ! ! ! هل هذه مشكلة ...تستطيع أن تفعل كذا وكذا »، ثم ينصرف إلى شأنه ..

وأجلس لأفكر فيما قاله ، يا سبحان الله ، ليس هناك حل سوى ما قال أبي ، كيف غاب عني ذلك ؟ لم تتح لأبي فرصة التعليم ، لكنه كان ذا فطرة صادقة ، وخبرة عميقة بالحياة ، وكان صبورًا لدرجة مذهلة حتى على آلام المرض ، وعلى السير على الأقدام ساعات ، ولم يكن يتناول في اليوم سوى وجبتين إحداهما في الصباح عبارة عن كوب الشاي المركز وكعكة صغير خالية من الدسم ، وبعد صلاة العصر يتناول الوجبة الرئيسية الكاملة ، ويحمد الله ، على ذلك ..

وكان أيضًا يتوضأ في اليوم مرتين يصلي بهما الأوقات الخمسة ، فهو على وضوء طوال النهار ، ينام مبكرًا ويستيقظ مبكرًا ، ولا يستمع في الراديو إلا للبرامج الدينية وتلاوة القرآن والشعر الشعبي ، كما كان يحفظ الكثير من الأشعار التي ذكرت في السيرة الشعبية كسيرة « أبو زيد الهلالي » و « عزيزة ويونس » وغيرهما ، كما كانت لديه هواية ترديد المواويل المختارة ، وما زلت أحفظ له موالين لقّنني إياهما منذ صغري الأول :

السيسبان اختشى والورد قال دا ميـن
« أم العنيبة »[1] قالت افتحي يا امه دا الغريب مسكين
مسكين .. ومسكين .. وما في عيشته راحه
قلبي وقلب الجميل مشبوك في تفاحه
تفاحتك يا الحبيب مشبوك فيها جلجل[2]
يفوت عليها الطير والحمام والبلبل
إللي انشبك بالمحبة ربنا غاته
واللي انشبك بالفراق اشحططت ولاياته

الثاني يقول فيه :

يا عيني روحي لحمّال الهموم وشوفيه
شوفيه يا عين مات ولّا الروح لسّه فيه
يا ما قالت العين حبيبي ربنا يشفيه
ويطلع السوق ويخطر مثل عاداته
جمل المحامل برك ، شمتت الأعادي فيه

كان يدندن بمثل هذه المواويل وغيرها ، وكنت أستمع إليه في شغف عندما نكون وحدنا في حقلنا القريب وقت الأصيل ، وكانت تأخذه النشوة أكثر وأكثر وهو يرفع صوته ويردد أغنية شهيرة لا أتذكرها كاملة :

---

(١) شجرة العنب (٢) جرس

أمـانـة عـلـيـك وز الـعـراق يـالـلـى طـايـر
يـالـلـى عـلـى الـغـربـة تـكـون صـبـور
تـرعـى مـراعـى الـنـيـل سـبـعـيـن لـيـلـه
روّح بـلادك فـى هـنـا وسـرور ..... الـخ

وكان إذا اضطجع استعدادًا للنوم ، يطلب منى أن أقرأ سورة « يس » أو « الكهف » ، وعندما أتلكأ فى آية من الآيات لا يحرجنى بكلمة ، بل ينتظر حتى أتم قراءتى ، كما كان حريصًا على أن يصحبنى دائمًا فى أسفاره وخاصة إلى القاهرة وطنطا ، ويأخذنى إلى فروع أسرتنا فى قرية « حنون » وقرية « شنراق » ، وإلى أقرباء لنا فى قرى أخرى ، بل كان يكلفنى منذ السابعة من عمرى بحمل رسائل شفوية إلى بعضهم ، فكنت أذهب وأركب القطار ، وأسافر مسافات بعيدة وحدى ، إنها الثقة لتى كان يشعرنى بها دائمًا منذ صغرى وأحيانًا يرسل معى مبالغ كبيرة نوعًا من المال كى أوصلها لمن يريد .

مرتين رأيته يبكى بحرارة ..

المرة الأولى : يوم أن رآنى فوق منضدة العمليات لإجراء جراحة عاجلة مفاجئة .. والمرة الثانية : يوم رأى فى يدى الأغلال الحديدية فى سجن « قره ميدان » ..

ويوم أن وافته المنية ، أثر مرض بالقلب ، وقد تجاوز السبعين ، بكيت الحب والصفاء والتضحية الإيثار .. بكيت عمرًا رائعًا ، وحلمًا نادرًا .. مضى .. وكتبت مقالة فى إحدى الصحف اليومية .. وكلما قرأتها حتى اليوم .. أبكى .. لكن لا شفاعة فى الموت .. رحمه الله ..

❁❁❁

[٥] ثورة الفلاحين الأولى



ذكرت أن قريتنا تضم عددًا كبيرًا من المعدمين، والزراعة هى مصدر الرزق، وكان هؤلاء المعدمون يعملون كأجراء فى القرية، أو كعمال تراحيل فى الوسايا والإقطاعيات القريبة أو البعيدة، أو يستأجرون مساحات صغيرة من الأغنياء يقومون على فلاحتها، وفى نهاية العام يستولى المالك على محصول القطن كله، ويحفظه لديه حتى يبيعه، ثم يأخذ إيجار أرضه، وإن تبقى شىء للزارع المعدم، سلمه له، أو أخذه مقدمًا للعام القادم، وغالبًا ما يعود الفلاح صفر اليدين، وينتظر المحاصيل الأخرى كالذرة أو القمح أو الشعير، أو يبيع واحدة من العجول الوليدة، كى يدبر بها شأنه. وكانت هناك طريقة مجحفة حقًا يتبعها الملاك أو وكلاؤهم، وهى أن يكتبوا عقد الإيجار بينهم وبين المستأجر، ويتركون خانة القيمة الإيجارية خالية، ثم يأخذون توقيع الفلاحين أو أختامهم «على بياض»، كما يحتفظ الملاك بصورتى العقد عندهم، كى يسجلوا عليها القيمة الإيجارية حسبما يريدون، وفى الوقت الذى يشاءون، وهم دائمًا يبالغون بصورة كبيرة فى تقدير الإيجار السنوى للأرض.

وقد عانى الفلاحون الكثير من العناء والتعاسة من هذا الأسلوب الخبيث الجائر، وكانت الأراضى المستأجرة فى غالبيتها تخص أثرياء من خارج القرية، مثل وقف «السيدتين سعاد وحكمت هانم جنيد» وأراضى «الخواجات» وغيرهم، بالإضافة إلى أراضى أثرياء البلدة أنفسهم، وكان الملاك من خارج القرية يعتمدون فى تنفيذ مخططهم على عملائهم ووكلائهم من أهل القرية نفسها، وغالبًا ما يكون الوكيل شخصية مرموقة قوية، ويكون المحاسبون والحراس من ذوى القسوة والجشع. ولم يكن الفلاح المسكين بقادر أن يواجه التيار الجارف، والتكتل الطامع، وهو لا يملك من أمر دنياه شيئًا .. وأصبح هذا الظلم مثار الضيق والجدل لسنوات طويلة، لم يكن الفلاح ليرد على هذه التصرفات اللا إنسانية بغير الدموع والضراعة إلى الله سبحانه وتعالى، وبالصبر الذى يبدو وكأن لا نهاية له .. إن السلطة الإدارية بالقرية، وكذلك أصدقاءها وحلفاءها، لا يمكن قهرهم أو الاعتراض- مجرد الاعتراض- على مشيئتهم، وفشلت كل المساعى الحميدة التى يقوم بها الرجال الطيبون لوضع حد لهذه المشكلة ...

وكان رد الملاك بسيطًا: «من لا يعجبه هذا الأسلوب فى التعامل فليترك الأرض» ...

لكن كيف يترك الفلاح الأرض؟ وماذا يفعل طوال العام؟ ومن أين يجد العلف والأكل لمواشيه ولأولاده؟ إنه على الأقل سوف يجد التبن والبرسيم والأوراق الخضراء لبهائمه التى تدر له اللبن، وسوف يجد الحبوب التى يطحنها ليصنع منها رغيف الخبز، فيملأ المعدات الخاوية، وهى الحد الأدنى الضرورى لحياته وحياة مواشيه، أما إن يكون جيبه خاويًا من المال، فتلك قضية أخرى يمكن احتمالها فى أغلب الأوقات.

وتمادى الملاك فى استبدادهم ، وأصبح الحد الأدنى للإنسان وبهائمه أيضًا مهددًا ، إن الوضع يسير من سيء إلى أسوأ ، والحياة نفسها أصبحت فى خطر ، ألا يكفى أنه لا يستطيع الإنفاق على عياله ، ولا يمكنه أن يدبر أمر العلاج ، أو ينفق على أحد أولاده إذا فكر فى تعليمه ، وأصبح الأمر بالغ الصعوبة ..

كنت طفلًا صغيرًا ، أجلس صامتًا وسط الفلاحين عند « البوابة » فى الناحية الشرقية من القرية ، ورأيت الفلاحين يتحدثون فى هذا الأمر بألم وحيرة ، حتى أولئك الذين لا يستأجرون أرضًا من الأثرياء شعروا بمأساة إخوانهم ، ووجد الجميع أنه أمر لا يمكن السكوت عليه ، بعد أن حفيت أقدامهم من الذهاب إلى السلطات ورفع الشكاوى العديدة إليهم .. وأصبحت تتردد بينهم كلمات يائسة : « الموت أحسن .. ليس هناك شيء لنبكى عليه .. ليكن ما يكون .. لو كنا يدًا واحدة لما ركبوا علينا هكذا .. نحن نستحق ما يحدث لنا ..» كلمات كثيرة ، وعبارات غاضبة كانت تتناثر هنا وهناك ..

لكن هل كان أصحاب المصلحة والنفوذ نائمين ؟ إن لهم عيونًا فى كل مكان ، ونجم عن هذا التمرد السلبى ، طرد عدد كبير من المستأجرين من الأراضى التى يزرعونها ، وسيق بعضهم إلى « الدوار » ومراكز « الشرطة » الأخرى ، وعوملوا معاملة سيئة ، وأعطوا درسًا لن ينسوه .. لكن الأمور سارت على غير هوى الملاك ، فقد ازداد الحنق والسخط ، ووصلت الأمور إلى نقطة حرجة ، وبات جليًا أن انفجارًا ما لابد أن يحدث ..

فى الصباح الباكر من أحد أيام الصيف ، أثناء الإجازة ، حدث هرج ومرج ، إن أمرًا خطيرًا قد وقع ، لقد اكتشف الخفراء أن مساحة كبيرة من الأرض قد دمرت الزراعة فيها تمامًا ، لقد تم تقطيع أعواد الذرة ، وهى لم تخرج ثمرتها من الكيزان بعد ، معنى ذلك ضياع المحصول ، وعدم الاستفادة من الأرض خلال ذلك الموسم ، وكانت البداية فى الأراضى التى أخذت من المستأجرين ، وقامت الدنيا وقعدت ، وقبض على عدد كبير من الفلاحين ، لم تكن لدى الشرطة أغلال حديدية كافية ، ولهذا ربطوهم بالحبال ، وساقوهم إلى المركز ، وحاولوا انتزاع الاعترافات منهم ففشلوا ، وفى نفس الليلة ، أتى الرجال المجهولون على مساحات أخرى مزروعة بالذرة تخص الملاك ، وهجم العسكر على القرية يضربون الناس ، ويعتقلون المزيد من الفلاحين دون تفرقة . وفى الليلة الثالثة تكرر نفس العمل ، لكن الأمر الخطير أنهم عاقبوا فى هذه المرة الوكلاء والعملاء فقضوا تمامًا على زراعتهم ، وواصلت السلطة عملية القبض والتنكيل ، وأرسلوا « الهجانة » أو راكبى الجمال من سلاح الحدود ، وحاصروا القرية ، ووضعوا الدوريات فى كل مكان وطريق ، كى يحرسوا باقى الأرض الزراعية التى تخص الكبار .. ومن الغريب والمحير أن عملية الانتقام لم تتوقف رغم هذه الاحتياطات الشديدة ..

وجن جنون السادة ، وأخذوا يعقدون الاجتماعات ، ويتبادلون الرأى ، وسافر بعضهم إلى طنطا لمقابلة مدير المديرية « سعادة الباشا » ، وقصد البعض الآخر القاهرة ليتصل بمن يعرف من الشخصيات الوزارية والحزبية أو وزارة الداخلية ، لكن الأمور ظلت تسوء طوال الأسبوع ، وأصبح من المشاهد المألوفة أن يذهب الناس أثناء النهار بحميرهم ليحملوا الذرة المقطوع قبل أن يذبل ، ولكى يطعموه طازجًا لبهائمهم ، وكانت النسوة يرمقن هذا المشهد فى الشوارع والحارات بابتسامة شامتة ، بل إن إحداهن

زغردت عدة مرات ولم تستطع أن تخفى شعورها ، ولم يعد لقريتنا حديث سوى هذه الثورة التى اقتلعت كبرياء الأثرياء مع اقتلاع مزروعاتهم ، كانت الشماتة تسود الجميع ، وترى الحفاة الممزقى الثياب يرفعون رءوسهم فى تشف وارتياح ، ولست أدرى بالضبط كيف هدأت الأمور بعد ، كل ما أتذكره أن الحكومة أفرجت عن جميع المقبوض عليهم ، إذ لم يعترفوا بشىء ، فضلًا عن أن « العمليات » استمرت وهم مقبوض عليهم ، ويوم أن أفرج عن هؤلاء الفلاحين ، خرجت أفواج هائلة من النساء والرجال والشباب فى تظاهرات متلاحقة بعد المغرب ، وهم يهتفون الهتاف التقليدى الذى يرددونه عادة عندما يخرج أحد المسجونين وهو :

سـالـمـة يـا سـلامـه — رحنا .. وجينا .. بالسلامة
يـا « جـنـيـد » يـا بـوز الـنـمـلـة — مين قال لك تعمل دى العملة
يـا « خـواجـا » يـا بـوز الـنـمـلـة — من قال لك تعمل دى العملة

كانت الهتافات تهز البلدة ، وخاصة هتاف « يحيا العدل » .. « الله أكبر على الظالم »

كانت الدموع تترقرق فى العيون ، وكانت الزغاريد تنطلق فى آفاق القرية ، كما كانت شعلات الجاز الصغير تتناثر وسط الظلمات بالمئات ، وكنا نحن الأطفال نجرى ونمرح فى سعادة ، وطوال تلك الأيام التى لا تنساها القرية ، رويت حكايات عديدة متنوعة ، فمن قائل أن فلانًا كان يحمل فوق رأسه مقطفًا مليئًا بالذخيرة الحية ، وأن فلانًا وفلانًا كان يحملان بندقيتين ، كل واحدة « بروحين » أى ماسورتين ، وأن رجالًا بعينهم كانوا يضربون بالسيوف يمنة ويسرة فيقطعون أعواد الذرة فى دقائق قليلة ، وقيل أيضًا أن العسكر كثيرًا ما كانوا يرون الفلاحين وهم يزحفون نحو الحقول تحت جنح الليل ، وخافوا أن يصطدموا بهم أو يقعوا معهم فى معركة غير ذات جدوى ، بل أشيع أن أحد الضباط أنه قال : « وماذا يفعل الفلاحون .. لم يعد فى قلوب الأغنياء رحمة .. »

وامتلأت القرية بحكايات تروى عن إطلاق الرصاص على بعض كبار الملاك ، وإفلاتهم من الموت بأعجوبة ، ولأول مرة ينكمش الكبار فى بيوتهم ، ولا يغادرونها ، انتظارًا لهدوء العاصفة ، وانجلاء الغمة ، ولقد فهمت من أبى أن الأرض قد أعيدت لمستأجريها ، وأن بعض المتمردين قد عينوا خفراء لدى العمدة ، ففرحوا بالمنصب والمرتب .

وكان من المعروف أن عقد الإيجار سنوى ، ومن حق المالك أن يسترد أرضه فى نهاية العقد ، واستطاع الملاك خلال أعوام قليلة ، وبهدوء تام ، أن يتخلصوا تدريجيًا من عدد المناوئين ، وأن يستميلوا آخرين ، ويغدقوا عليهم بالمنح أو الخدمات المختلفة ، ومن ثم عادت الأمور إلى سيرتها الأولى .

لعل هذه الثورة الصغيرة فى قرية شرشابة هى التمرد الأول من المعدمين المستأجرين ضد كبار الملاك فى تاريخ مصر ، ولم ترق فى هذه الثورة قطرة دم واحدة ، وقد حدثت فى بعض الإقطاعيات تمردات مشابهة فى « عزب » البدراوى باشا وغيره ، وسقط فيها بعض القتلى ، وقمعت بشدة وعنف ، لكنها حدثت فى أواخر الأربعينيات ، من القرن العشرين ؛ أى بعد قريتنا بما يقرب من ثمانى أو عشر سنوات .

كان جدى إبراهيم قد مات منذ زمن ، أما جدى « عبد القادر » فقد كان حيًا يرزق ، وكنت أفهم من أحاديثه حول هذا الموضوع مع أبى ، أنه يعرف القائمين على أمر هذا التمرد ، ويذكر أسماء بعينها ،

لكنه لم يتعاون مع العمدة أو الإدارة أو أقاربه الذين تعرضوا لخسائر كبيرة ، كان موقفه حياديًا من الناحية العملية ، لكنه كان متعاطفًا شعوريًا مع المظلومين ، فأحد الثوار هو ابن لبنت عمه ، والعمدة وأحد كبار الملاك المحليين وشقيقه لأولاد عمه ، لهذا آثر الصمت والاعتكاف ، وكان يعتقد رحمه الله أن التصدى للحكومة وأعوانها أمر بالغ الصعوبة ، وأن دهاء الملاك وألاعيبهم سوف تضع حدًا لهذا الأمر فى النهاية ، وقد حدث .. حدث ذلك فعلًا .. لكنه خلف فى القرية آثارًا لا تمحى ، لقد ظل هذا التمرد عالقًا بأذهاننا نحن الصغار ، ونتذكره من آن لآخر بغير قليل من الاعتزاز والفخر ، كانت تستهوينا البطولة والتصدى لعلية القوم ، وظلت هذه النزعة ترافقنا فى صبانا وشبابنا طوال مراحل التعليم المختلفة ، بل وكان لها تأثير كبير فى اختيار مسيرتنا السياسية ، وكثيرًا ما كنا نخطب على المنابر بالمساجد وفى الاحتفالات العامة ، إبان العهد الملكى ، ونهاجم الإقطاع والرأسمالية والاستبداد ، وكنا نسبب العديد من المشاكل والحرج لأنفسنا ولأهلينا ، لكننا لم نتوقف ، كما كان هذا التمرد نواة لتكتل معين من الفلاحين ، ظل متميزًا بسلوكيات وردود أفعال خاصة ، حيال ما يجرى فى القرية من أحداث وصراعات وانتخابات ، ولم يستطع بعد ذلك أصحاب السلطة والنفوذ أن يعاملوهم معاملة السادة للعبيد ، بل إن بعض أفراد هذا التكتل أو التجمع ، سببوا قلقًا دائمًا ، وصداعًا مزمنًا ، للمستغلين والمستبدين ، فكانوا يحرصون على مراضاتهم ومجاملتهم والتودد إليهم ، بل ويرضخون لمطالبهم فى كثير من الأحيان ..

ما أكثر الأحداث التى تجرى فى قريتنا ، والتى لها دلالات عميقة ! ! ! وكانت القرية قادرة على تسجيل الكثير من هذه الأحداث فى أغانٍ شعبية ترددها الصبايا فى الأفراح ، وأثناء العمل فى الحقول والبيوت ، وفى ليالى الشتاء الطويل وقت السمر ، فعندما تفشت إصابة القطن بالآفات ، وأتت على المحصول أو كادت ، كنت تسمع الكثير من الأغنيات التى تذكر المأساة ، وتذكر أسماء بعض المشرفين على حملات « المقاومة » لهذه الدودة اللعينة التى ملأت الطرقات والحقول آنذاك ، وجردت شجيرات القطن من أوراقها وأزهارها ، وإذا حدثت معركة بين أسرتين ، أو سقط « قتيل » متميز ، خرجت الأغانى الملحمية تسرد بالتفصيل ما جرى وتزيد عليه ، ثم الصراع الدائم والعنيف على منصب « عمدة القرية » كانت تقال فيه القصائد الطوال ، والأغنيات المؤثرة ، كانت الأغنية بحق هى « الإعلام » الشعبى فى تلك البقعة الصغيرة ، بل إن بعض الحوادث الشهيرة فى المديرية أو القرى المجاورة هى الأخرى كانت تحظى بنصيبها من تلك الفنون .. ولعله من الأمور المؤلمة المثيرة فى تلك الفترة (المرحلة الابتدائية) ذلك الحدث الذى ظننته بسيطًا وعاديًا فى البداية ..

كان فى حيِّنا امرأة على أبواب الشيخوخة تعيش فى بيتها وحيدة لا أنيس لها ، بعد أن توفى زوجها منذ زمن بعيد ، وفوجئت القرية ذات صباح بأنها قد تزوجت من صاحب دكان بقالة فى « كفر » صغير مجاور لقريتنا ، ولم يلفت الموضوع نظرى فى البداية ، لكنى وجدت الدهشة تعقد ألسنة الناس ، وأخذوا يتهامسون عن هذه « الفضيحة » ، ثم أخذ الهمس يعلو حتى أصبح احتجاجًا وضيقًا وغضبًا .. سألت أمى : « أية فضيحة .. الناس يتزوجون فى أى وقت .. »

قال أمى هامسة : « طبعًا يا ولدى فضيحة .. إنها امرأة كبيرة فى السن .. وهذا عيب .. »

ابتسم أبي وقال في سخرية : « ماذا تقولين له ؟ أليس هذا حقها الشرعي .. يا ناس حرام عليكم .. »

قالت أمي مستنكرة : « شرعي ؟ فيه أصول واحترام .. ماذا تريد الحاجة فاطمة من الزواج ؟ والشيخ سيد هو الآخر رجل مسن .. »

كان أبي يدافع عن المرأة لأنها وحيدة ، ومن حقها الشرعي أن تتزوج وتعيش مع رجل يحميها ويؤنس وحشتها ، وهو أمر لا غبار عليه ، وخاصة أنها لم تتزوج شابًا يصغرها في السن ، أما أمي فكانت ترى ضرورة احترام التقاليد المرعية ، والآداب العامة ، إذ لم يجر العرف على زواج امرأة في سنها قد تخطت سن اليأس ، وكانت أمي ترى أيضًا أن الشيخ سيد قد تزوجها بدافع المصلحة لأنها تدخر مبلغًا لا بأس به من المال ، وهو يهدف أساسًا إلى تنمية تجارته ، وزيادة رأس ماله وأرباحه ، وليس هناك أي إغراء آخر لعقد مثل هذا الزواج ، ويبدو أن غالبية أهل القرية كانت على رأي أمي رحمها الله .. وما هي إلا أيام قليلة حتى انطلقت الأغنيات الشعبية :

الطرطورية بتقول لكم	آه يا عُزَّاب كلوا بعضكم
أدينى اجوزت قبلكم	وادلّع يا شيخ سيد
يا حاجة يا أم حلق فضة	هاتى لعريسك يتوضا
(..............................)	وادلع يا شيخ سيد

وكانت هذه الأغاني تزيد الإثارة والافتراءات والأكاذيب ، حتى الأطفال أخذوا يرددونها ، ويتعمدون رفع أصواتهم بها أمام بيت المسكينة ، التي لم تعد يراها أحد خارج بيتها ، وكان الزوج لا يأتي إلى بيتها إلا في وقت متأخر نوعًا بعد صلاة العشاء ، ويغادره عند الفجر ، كانا- رحمهما الله- محاصرين بالأغاني والانتقادات اللاذعة ، والنظرات المسمومة ، والاستنكار الشديد ، ولو أمكنني جمع الأغاني التي قيلت آنذاك لملأت مجلدًا ضخمًا .

ولم يستمر هذا الزواج فترة طويلة ، فقد تم الطلاق فجأة كما حدث الزواج فجأة ، ولم ينس الناس القصة إلا بعد فترة ليست بالقصيرة ، وعادت المسكينة إلى وحدتها وألمها مرة أخرى ، لكني سمعت من أحد جيرانها أنها قالت والدموع على خديها : « يا بلد ظالمة .. منكم لله »

في المدينة تحدث أمور كثيرة لا تلفت النظر ، ولا يهتم بها أحد ، وتعتبر في حكم التصرفات العادية ، أما القرية فإن الأمر يختلف ، إذ ليس هناك سر يخفى ، ولا حادثة تهمل ، كل ما يجرى مجال للتعليق والنقد والمؤاخذة ، ويا ويل من يأتي عملًا يجافي العرف أو يخرج على التقاليد ، حتى ولو كان في نطاق الحلال أو الشرعية ..

وعندما ماتت المسكينة كان المشيعون يرددون : « سامحها الله وغفر لها »

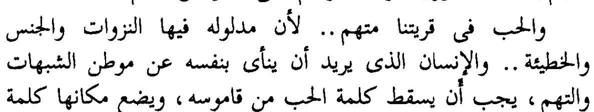
ولم يعلقوا بشيء على أنها لفظت أنفاسها وحيدة دون أن يتشهد عليها أحد ، أو يلثمّها كما جرى العرف ، ولم يكتشف موتها إلا في الصباح حينما دقت عليها الباب إحدى قريباتها ..

❁❁❁

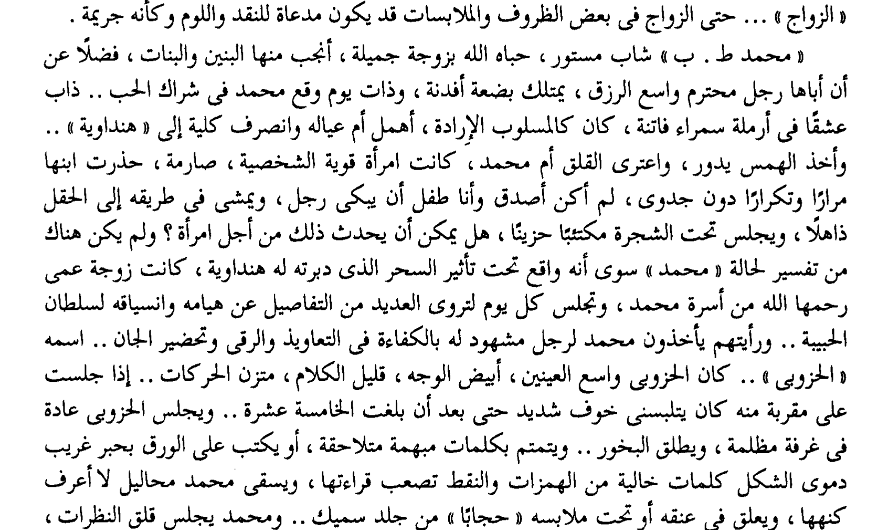
[٦] الحب فى قريتنا



قريتنا تخاف الله، ويحرص أبناؤها على أداء الصلاة والصوم والزكاة، والقادرون منهم يتسابقون إلى أداء فريضة الحج، لكنها لا تخلو من المنحرفين وهم قلة إذا ما قورنوا بالعدد الكلى للسكان، والانحراف القليل فيها له مظاهر عدة، منها تعاطى المخدرات، والسرقة، وهناك اثنان أو ثلاثة يحترفون شهادة الزور، أى أن أى واحد يستطيع أن يستأجرهم فى أية قضية من القضايا، حتى أصبحوا معروفين فى المحكمة الأهلية والشرعية، ونادرًا ما ترتكب جرائم القتل والنصب والتحايل، والذين يرتكبون هذا الإثم أو ذاك يتصفون بقدر غير قليل من الوقاحة وقلة الحياء، وأهل القرية ينظرون إليهم نظرة اشمئزاز وكراهية، فلا يتعاملون معهم إلا عند الضرورة، ويتحاشونهم حتى ينجوا من أذاهم.



والحب فى قريتنا متهم.. لأن مدلوله فيها النزوات والجنس والخطيئة.. والإنسان الذى يريد أن ينأى بنفسه عن موطن الشبهات والتهم، يجب أن يسقط كلمة الحب من قاموسه، ويضع مكانها كلمة «الزواج»... حتى الزواج فى بعض الظروف والملابسات قد يكون مدعاة للنقد واللوم وكأنه جريمة.



«محمد ط. ب» شاب مستور، حباه الله بزوجة جميلة، أنجب منها البنين والبنات، فضلًا عن أن أباها رجل محترم واسع الرزق، يمتلك بضعة أفدنة، وذات يوم وقع محمد فى شراك الحب.. ذاب عشقًا فى أرملة سمراء فاتنة، كان كالمسلوب الإرادة، أهمل أم عياله وانصرف كلية إلى «هنداوية».. وأخذ الهمس يدور، واعترى القلق أم محمد، كانت امرأة قوية الشخصية، صارمة، حذرت ابنها مرارًا وتكرارًا دون جدوى، لم أكن أصدق وأنا طفل أن يبكى رجل، ويمشى فى طريقه إلى الحقل ذاهلًا، ويجلس تحت الشجرة مكتئبًا حزينًا، هل يمكن أن يحدث ذلك من أجل امرأة؟ ولم يكن هناك من تفسير لحالة «محمد» سوى أنه واقع تحت تأثير السحر الذى دبرته له هنداوية، كانت زوجة عمى رحمها الله من أسرة محمد، وتجلس كل يوم لتروى العديد من التفاصيل عن هيامه وانسياقه لسلطان الحبيبة.. ورأيتهم يأخذون محمد لرجل مشهود له بالكفاءة فى التعاويذ والرقى وتحضير الجان.. اسمه «الحزوبى».. كان الحزوبى واسع العينين، أبيض الوجه، قليل الكلام، متزن الحركات.. إذا جلست على مقربة منه كان يتلبسنى خوف شديد حتى بعد أن بلغت الخامسة عشرة.. ويجلس الحزوبى عادة فى غرفة مظلمة، ويطلق البخور.. ويتمتم بكلمات مبهمة متلاحقة، أو يكتب على الورق بحبر غريب دموى الشكل كلمات خالية من الهمزات والنقط تصعب قراءتها، ويسقى محمد محاليل لا أعرف كنهها، ويعلق فى عنقه أو تحت ملابسه «حجابًا» من جلد سميك.. ومحمد يجلس قلق النظرات، يتلفت يمنة ويسرة، وما إن يعود إلى بيته حتى يتعشى وينام... وفى وقت متأخر من الليل يتسلل إلى بيت هنداوية..

واختفى محمد فجأة ليوم كامل، ظنوا أنه هجر البلد بعد أن بحثوا عنه لدى أصدقائه وفى

الحقول، وتجسسوا عليه لدى هنداوية، وكادت أمه تجن .. إن المعشوقة ليست من مركزه أو فى مستواه، وصهر محمد رجل مرموق وقصة الحب أساءت لكلتا الأسرتين، لدرجة أن الصهر أتى ذات يوم مصرًا على اصطحاب ابنته وأولادها احتجاجًا واستنكارًا لما يجرى، لولا أن تدخل الوسطاء الطيبون ..

لم يكن لقريتنا حديث غير محمد وهنداوية .. اعتبروا ما يحدث انحرافًا وخطأً جسيمًا وتصرفًا يغضب الله، وعند عودتى ذات يوم من مكتب تحفيظ القرآن، رأيت حشدًا كبيرًا من الخلق، نساءً ورجالًا وأطفالًا، وكان الضجيج الممتزج بالصياح، والثرثرات العالية تصم الآذان، تخيلت أن جريمة قتل قد ارتكبت، وتسللت عبر الزحام، متتبعًا خط التجمع .. ووجدتنى فى بيت هنداوية الذى لا يوجد فيه موضع لقدم .. كان محمد يقف فارعًا، وقد لفت أمه شالًا أسود حول عنقه، وهى تهز وتجره فى عنف وحسرة، وتصب عليه اللعنات والشتائم المقزعة .. ورأس محمد يهتز مع جذب الشال الذى يطوقه، ونظراته الزائغة الحائرة المبللة تثير الأسى .. وإلى جواره هنداوية ممسكة يمينه، متشبثة به .. وهى تصرخ قائلة: «محمد زوجى على سنة الله ورسوله .. زوجى يا ناس يا شر ..»

كانا قد تزوجا سرًا، ووضعت خطة الاختفاء لديها بإحكام، لكن هل يخفى على القرية شىء، وسمعت أم محمد تطلق يمينًا لا أفهم معناه: «علىّ الطلاق من ذراعى لن أخرج بدونك ..»

كان المشهد مسيئًا محزنًا، ولم يكن بإمكانى أن أتعمق مشاعر الحاضرين آنذاك، لكن غالبية النسوة الموجودات كن يكلن السخط واللعنات على هنداوية الفاجرة .. قليلة الحياء .. قليلة الدم، والتى تريد أن تخطف الرجل من امرأته وعياله . .وتعليقات كثيرة يقذف بها هنا وهناك، تتحدث عن بنت الأصول التى أهملها زوجها، وذهب إلى امرأة تافهة حقيرة .. وبرغم جمال هنداوية الذى أتملاه بنفسى كنت أسمع إحدى النسوة تقول: شكلها مثل القرد والعياذ بالله .. لكن قلبى كان مع هنداوية .. أحسست بالشفقة عليها . . لم يكن لدى طفل مثلى أسباب جوهرية مفهومة لهذا التعاطف، وكدت أبكى من أجلها، وكان لها طفلة صغيرة فى مثل سنى تقريبًا من زوجها الراحل، كانت صورة طبق الأصل من أمها .. كانت تصرخ وتتأوه فى خضم الزحام دون أن يلتفت إليها أحد ..

ثم جاء الرجال- ومعهم أبوه وخاله- وسحبوا محمد إلى الخارج، وذهبوا به إلى بيته، وأدخلوه وأغلقوا الباب ... وبقيت هنداوية مع ابنتها هى الأخرى لا يؤنسهما أحد ..

وعلمت فيما بعد أنهم أجبروا محمد على طلاق هنداوية[1].

وعاشت المسكينة سنوات طويلة بلا زواج .. حتى وافاها الأجل المحتوم .. هذا بعض ما كان يحيق بالرجال إذا فكر أحدهم فى الزواج من امرأة ثانية، لكننى على النقيض من ذلك عندما حدثت قصة أخرى رأيت للناس مواقف سلبية غريبة، مع أنه كان الأولى بهم أن يكونوا أكثر حنقًا وثورة ..

كان (ح) رجلًا من أعيان القرية موفور الصحة والقوة، تزوج من امرأة على جانب كبير من الروعة والجمال، وكانت من المدينة، ولا يعرف أحد أن قدميه ساقتاه إلى شارع «الموسمات» فى طنطا، وغرق حتى قمة رأسه فى حب داعرة يطلق عليها «روكة» ... وتدهور وضعه الاجتماعى والاقتصادى من جراء هذا «الحب الحرام»، إذ انحرف إلى المخدرات والمسكرات، واتخذ من المدينة مقرًا شبه دائم،

---

(١) انظر قصة «الأرملة الساحرة» مجلة الكواكب، وضمن مجموعات القصص القصيرة .

وأهمل زوجه وابنه ومصالحه ، بل الأدهى من ذلك ، أنه باع أكثر من ثلاثة أرباع أملاكه الزراعية ، وصمدت زوجته للمحنة فى بطولة نادرة ، لم تتمرد أو تهجر بيتها ، بل ظلت وفية لزوجها وولدها الذى تشرف على تعليمه وتدبير شئونه .. لم تكن تتكلم فى الموضوع معه أو مع غيره ، ولم يستطع أحد من أهل القرية أن يوجه إليه فى يوم من الأيام نقدًا مباشرًا ، أو حتى نصيحة أخوية ، كان ذا بطش وعنجهية ولا يقبل مجرد الملاحظة العابرة ، وألجم الجبن والخوف الأفواه .. وبقى (ح) على هذا الوضع لسنوات .. حتى أوشك على الإفلاس ، لكنه لم يكن ليرتدع لولا أن حدث أمر ..

لقد ذهب إلى « روكة » ذات يوم ، فأغلقوا الباب فى وجهه ، وأنكروا وجودها ، فدفع الباب بقوة ودخل ، كانت تجلس مع ضحية أخرى أكثر مالًا وشبابًا .. وسدد إليها نظرات اللوم والعتاب .. فقالت ببساطة أذهلته : « لم أعد أريدك .. لا أطيقك .. يا أخى أرحنى من وجهك .. ما هذا ؟ أليس عندك كرامة .. أعوذ بالله ..»

وخرج يجر ساقيه جرًا ، ذهب إلى زوجه ، أمرها بأن تتزين وتلبس أفضل ما عندها ، ففعلت ، ثم أخذها وسافرا إلى طنطا ، كانت تمضى خلفه لا تدرى أين يذهب بها ، ودق أحد الأبواب ، وخرجت امرأة وما إن رأته حتى قالت فى ضيق : « أوه .. هل عدت ثانية ؟ قلت ألف مرة لا أريد أن أرى وجهك ..»

قال فى توتر : « هذه آخر مرة .. فقط أتيت لترى هذه المرأة ..»

قالت وهى تضحك فى ميوعة : « عاشقة جديدة ؟ لقد أحسنت الاختيار يا ملعون ..»

وتدخلت زوجته قائلة : « كيف تسمح لها بأن ..»

قاطعها قائلًا : « هذه زوجتى .. أردت فقط أن أثبت لك أنها أحلى وأشرف منك ألف مرة .. أنت لا شىء بالنسبة لها ..»، ثم بصق عليها .. وانصرف ..

قالت زوجته : « ماذا يجرى ..»

هز رأسه وجبينه يتصبب عرقًا : « هذه روكة ..»

وتاب (ح) بعدها ، وذهب إلى بيت الله الحرام ليؤدى فريضة الحج ، واستقامت حياته ، وأصبحت بين البيت والمسجد والتجارة ، وقراءة القرآن ، وعاش لزوجته وولده كالأب الحنون ، بل كالخادم ، وقد ربطتنى به صداقة وطيدة فى أخريات أيامه ، وأشرفت على علاجه عندما أصيب بداء عضال من الأمراض الخبيثة .. رحمه الله ..

وما أطرف قصص الحب فى قريتنا ، قصة ذلك الدرويش الذى كان قد أخذ العهد على شيخنا المداح ، ومصدر الطرافة أنه أحد المتصوفين ، وكان هو الآخر متزوجًا ، وشاع أمر تعلقه بالحبيبة بين الناس ، وذات مساء ، وكنا نجلس لنشاهد حلقة الذكر ونستمع إلى المدائح النبوية ، وجدنا الشيخ المداح يتخذ له طريقًا بين الجالسين ، ثم يقصد ناحية بعينها فى حلقة الذاكرين ، ويمسك بطوق درويشة « المتهم » ثم يطلب منه أن يغادر الصف .. لكن الدرويش هزّ رأسه فى خضوع وهو يتمتم « حاضر .. حاضر » ، وأخذ الشيخ يرغى ويزيد بعبارات لم أفهم منها معنى واحدًا ، وعيون الناس كلها مصوبة نحو بؤرة الاهتمام ، وساد الصمت .. لكن الدرويش لم يغادر مكانه فى الصف ، وظل يذكر ويتطوح مع الذاكرين ، حتى أخذته « الجلالة » كما يقولون ، وانفعل أيما انفعال ، واستمر يردد اسم الجلالة بصوت عالٍ هستيرى يخالطه البكاء « يا الله .. يا الله .. يا الله » ، واقترب منه الشيخ « البقاش » وهو الذى ينوب عادة عن الشيخ المداح فى قيادة حركة الذاكرين ، والابتداء والانتهاء عند كل اسم من الأسماء

الإلهية ، وهتف به : « وحّد .. وحّد ربك .. واستغفر الله »

وعاد العاشق إلى الركب بعدها ، وكنا نسمعه قبل أذان الفجر كل ليلة يطوف شوارع القرية تحت جنح الظلام ، ويقول بصوت ندى :

يا نائمًا كيف المنام يطيبُ　　　الموت حق والفراق صعيبُ

ثم يستطرد : « الصلاة يا مؤمنون الصلاة .. الصلاة خير من النوم .. يا نايم .. قم وحّد الدايم ..»

وسرعان ما انطمرت القصة فى طى النسيان ..

لكى تبقى القرية متمسكة بالحشمة والخشية من الله فى كل ما يتعلق بالعاطفة التى تشب بين الرجل والمرأة ، كانت موجودة لكن كان لها آدابها وتقاليدها التى لا تخرج عنها ، وكان الحبيب يهادى حبيبته خفية ، كأن يرسل إليها زجاجة من العطر ، أو غطاء جميلًا للرأس ، وكانت هى الأخرى تبادله نفس المشاعر فترسل إليه كمية من الفواكه الشهية ، أو منديلًا رجاليًا ، أو وجبة دسمة ، تبعث بها دون أن يشعر أهلوها وذووها ، وكان انفراد الحبيب بحبيبته أمرًا بالغ الصعوبة بل متعذرًا ، وغالبًا ما تكون مثل هذه التصرفات بدايات أو مقدمات للزواج ، وليست للعبث أو للاستغلال ، ويا ويل الفتاة التى يكتشف أمرها عندما تهادى من اختاره قلبها ، كانت تحبس فى البيت ، وقد تعاقب بالعصى أو الكرباج ، وقد يصل الأمر للقتل ، وخاصة إذا لحقت الشبهة بعذراء من أسرة كريمة ذات وضع اجتماعى متميز ، ولهذا فإن التشدد فى مثل هذه الأمور أمر يقبله المجتمع القروى ويدعو إليه بإيمان وقوة ، ولا تجد المخطئة أو المخطئ تعاطفًا معهما من أية ناحية من النواحى ، فلا يمكن أن تتدخل الأم أو الأخت لحماية من تقع فى هذه المحظورات .. إنه « العيب » الذى لا عيب بعده .. لقد مر على هذه الصورة الآن ما يقرب من خمسة وأربعين عامًا .. فهل بقيت قريتنا كالعهد بها ؟

البنات اليوم فى قريتنا يسرن سافرات مبرزات مفاتنهن ، وعدد كبير منهن يعملن كمدرسات فى مدارس القرية الكثيرة ، وفى الوحدة المجمعة ، وفى القرى والمدن المجاورة ، والسيارات تزحم الشوارع ، والشبان والشابات يتقابلون ويتناقشون ويسيرون جنبًا إلى جنب ، ويتراسلون ، وينظمون شئون الحب والزواج ، ولهن حرية الاختيار ، فلا يكاد يفرض على أى طرف الزواج من شخصية بعينها إلا فى القليل النادر ، لكن لم يزل هناك عدد كبير من النسوة يرتدين الزى الشرعى ، ويتسمن بالحشمة والوقار ، لا عن خوف ، بل عن عقيدة وإيمان ..

لقد حدث انقلاب كبير فى قريتنا بعد شيوع الراديو والتليفزيون وانتشار التعليم على أوسع نطاق .. واقتضت ظروف الحياة أن يتفرق أفراد الأسرة إلى أماكن شتى فى طلب العلم والرزق وبسبب الزواج ، ومن ثم ولد مجتمع جديد له قيمه ومواصفاته الخاصة ، التى نتجت عن التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ..

كما تغير نظام الطبقات .. فصعد أقوام كانوا فى الحضيض ، وهبطت أسر طالما تعالت وأمسكت بزمام الأمور ، وفرضت مشيئتها على المستضعفين والفقراء ..

ومات كبار الملاك ، وتوزع الميراث على الأبناء والأحفاد ، وتحولت الملكيات الكبيرة إلى مساحات صغيرة ، بل إن بعض الورثة قد باعوا أملاكهم للفلاحين بنصف الثمن ، ورحلوا إلى المدينة .. ومات الشيخ المداح حيث شيع جثمانه فى موكب مهيب لا مثيل له ... وتولى أحد أبنائه الطيبين « الشيخ عبد الحكم » الخلافة من بعده ، إلى جوار عمله كموظف حكومى ، ولم يزل محافظًا على أن يأتى إلى

القرية مساء كل جمعة ، ليلتقى بالبقية الباقية من دراويش أبيه وبالأعضاء المنتسبين الجدد فى حلقات الذكر ، حيث يفوح أريج الإيمان والطاعة والحب والصفاء ..

ومات حضرة العمدة صاحب الحول والطول والبأس ! ! ! مات وخيّم السكون على « الدوار » بعد أن أقيم فى القرية « نقطة للشرطة » بها ضابط وعدد من رجال الشرطة ، ولم يعد هناك تنافس رهيب على منصب « العمودية » ، وهرب الأجراء من شظف العيش وقسوة العمل فى الحقل ، إلى آفاق الدنيا البعيدة ، حيث ركبوا الطائرات بحثًا عن موارد أفضل وأيسر للرزق ، وكثرت الحرف المتعلقة بالعمران والسيارات وغيرها ، واختفى « النورج » الذى كان يستخدم فى تخليص حبوب القمح من سنابلها ، وكذلك « الطنبور » ، وحلت الآلات الزراعية الحديثة محل الوسائل العتيقة ، وقل- إلى حد كبير- عدد العاملين فى الحقول ، حتى اضمحلت المحاصيل ، وارتفع أجر العامل الزراعى بصورة جنونية ، فبعد أن كان أجر العامل ثلاثة قروش فى اليوم أصبح أربعة جنيهات مضافًا إليها الطعام والشراء أثناء العمل . . . ولم يعد لتلاميذ المدارس من عمل أثناء الصيف سوى المناقشات السياسية ، والسمر فى الليالى الطوال ، وقصص الحب والغرام ، والانتماء لنادٍ من الأندية الرياضية ، والاستماع للمطربين الجدد- وبعضهم أجانب- والبحث عن أصباغ جديدة للشعر والملابس .

ليست هذه قريتنا التى عرفناها .. لكن هناك بقية من الجيل القديم تقرأ على وجوههم ذكريات الأيام الخوالى وما كان فيها من صفاء وبساطة وقناعة .. وليس فيهم من يعانى من أمراض الضغط والسكر أو الانهيار العصبى ..

وسبحان مقلب القلوب والأبصار .

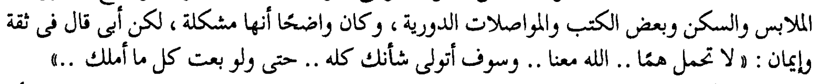
❁❁❁

[٧] إلى المدينة



انتهت المرحلة الابتدائية بهمومها ومشاقها، وكان ترتيبى الخامس على جميع طلبة منطقة وسط الدلتا، وقد أدينا الامتحان فى مدينة طنطا، كانت شهادة الابتدائية لها قيمة كبيرة فى ذلك الوقت، فالإنسان الذى يحمل الابتدائية يستطيع التحدث بالإنجليزية لحد ما، ويتقن العمليات الحسابية، وكذلك القراءة والكتابة، وبمساعدة أحد كبار الشخصيات يستطيع أن يحصل على وظيفة قد تدر عليه أربعة أو خمسة جنيهات شهريًا.

لكن الآمال أصبحت أكبر من ذلك، مع النمو فى الفكر والجسم والوعى، وانطلقت الزغاريد فى بيتنا الريفى الصغير، وأعدت أكواب «الشربات» للمهنئين، وتجلت السعادة فى وجهى أبى وأمى وخالتى مباركة وجميع من بالبيت، وبدأ التفكير فى الالتحاق بالمرحلة الثانوية، حيث لم يكن للمرحلة الإعدادية وجود آنذاك، وكانت دراسة المرحلة الثانوية خمس سنوات وهى فترة ليست بالقصيرة، وتحتاج لمصروفات



الملابس والسكن وبعض الكتب والمواصلات الدورية، وكان واضحًا أنها مشكلة، لكن أبى قال فى ثقة وإيمان: «لا تحمل همًا .. الله معنا .. وسوف أتولى شأنك كله .. حتى ولو بعت كل ما أملك ..»

وكان أقرب مدرسة لبلدتنا هى مدرسة «كشك الثانوية» بمدينة «زفتى»، وكم كان غريبًا أن ترفض المدرسة منحى المجانية مع أنى متفوق ومستوفٍ لكل الشروط، غير أنهم اكتشفوا أن أبى يمتلك عددًا قليلًا جدًا من الأفدنة، ولم يكن هناك مفر من دفع الرسوم والقسط الأول، واستأجرت مع بعض الأصدقاء غرفة صغيرة فى شارع «أبو طاقية»، كنت أدفع نصيبى فى الإيجار بضعة قروش، وكنت أنام على «كنبة» أو أريكة خشبية عليها حصير صغير، وفى داخل «الكنبة» خزانة لوضع الخبز والجبن، رصيدنا الأبدى من الطعام، لكننا كنا فى نهاية الأسبوع نركب قطار «الدلتا» حتى قرية سنباط، ثم نكمل الرحلة إلى قريتنا مشيًا على الأقدام، وكأن مشوار سنباط- شرشابة أصبح من قدرنا ..

وفى الإجازة الأسبوعية نأكل ما لذ وطاب من الطعام الدسم حتى نعوض أيام القحط فى معظم الأسبوع، وكان أمام المدرسة، وخاصة فى أوقات البرد القارس، رجل يصنع «سندوتشات» الفول والطعمية الساخنة اللذيذة، وكلما وقع بصرى على القدر النحاسى تحت موقد الجاز، يتحلب ريقى .. لكن المصروفات لا تكفى، وكنت آخذ نصف سندوتش بنصف قرش مرتين أسبوعيًا، ثم أتجنب النظر إلى القدر النحاسى فى باقى الأيام، لكنى كنت أشاهد المقتدرين يأكلون حتى يتخموا، فأتمنى أن أكون مثلهم، وسبحان مقسم الأرزاق والحظوظ!

كانت مدينة زفتى فى منتصف الأربعينيات من القرن العشرين، مدينة صغيرة أقرب إلى القرية منها إلى المدينة، وكان الفلاحون من القرى المجاورة التابعة لمركز زفتى يزحمونها كل يوم بحميرهم الكثيرة

التى تزحم الشوارع المتربة ، وكثيرًا ما كان الفلاح يترك حماره فى مبنى خاص بالحمير ، يطلق عليه « الوكالة » مقابل أجر زهيد ، وأخوف ما يخافه الفلاح فى المدينة ، أن تأخذ السلطة منه حماره إذا كان يبدو عليه العرج أو الضعف أو به بعض القروح ، طبقًا لأوامر « جمعية الرفق بالحيوان » ، لأن الحمار إذا أخذ ، فسيقضى أيامًا تحت الرعاية الصحية ، ثم يرغم الفلاح على دفع مبلغ من المال نظير ذلك ، ولذلك كان الفلاحون يرتجفون خوفًا من أخذ الحمار إلى « الشفاخانة » كما يسمونها ، وأظن أن معنى الكلمة « مستشفى » باللغة التركية ، وكان أبى يعلق على ذلك ساخرًا : « ولماذا لا يأخذون الفلاح نفسه إلى « الشفاخانة » ؛ إن حالته الصحية أسوأ من حالة حماره ..»

وتقع مدينة « زفتى » على شاطئ فرع النيل ، فى مقابل مدينة « ميت غمر » التى تقع على الشاطئ الآخر ، ويصلهما كوبرى (جسر) ضخم متين ، تمر عليه السيارات والقطارات والمشاة والحيوانات ، ولكل طريقه الخاص به ، والجلوس على شاطئ فرع النيل متعة كبيرة فى هذا المكان ، حيث توجد بعض البيوت القليلة الجميلة ، وناد لكبار الموظفين ، وبعض السفن والقوارب ، وقد كنت أرتاح لمجرد الجلوس وإطالة النظر إلى الماء الجارى ، وهو يتدفق فى وقار وهدوء وقوة ، وقد حدث بعد ذلك أن أحد زملاء أخى رسب فى إحدى السنوات الدراسية ، فجاء أبوه وأشبعه سبًا وتأنيبًا وضربًا ، ولم يستطع الولد أن يتحمل أكثر من ذلك ، فجرى صوب الكوبرى ، وأبوه يجرى وراءه ، وفى منتصف الكوبرى ألقى الولد بنفسه فى الماء .. كانت مأساة .. لم يسرع أحد لإنقاذه فى الوقت المناسب .. لقد غاص إلى الأعماق البعيدة .. وأبوه يبكى ويمزق ملابسه ..

ولقد كان لزفتى كما قلت تاريخ معروف فى مصر ، فقد اشتعلت فيها الثورة فى عام ١٩١٩ عندما اصطدم الشعب وسعد زغلول باشا بالإنجليز ، وحدثت معركة صغيرة حول هذه المدينة الصغيرة الثائرة ، وأعلنت زفتى استقلالها ، كما أعلنت عن إقامة جمهورية فيها أطلق عليها « جمهورية زفتى » ، وكان يرأسها المرحوم « يوسف الجندى » ، واستطاع الإنجليز أن يقضوا على الثورة ، وأن يخضعوا أهل المدينة ، وظل يوسف الجندى وأسرته من بعده مكروهين من الملك وحاشيته ومن الإنجليز حتى وقت طويل .. وقد وصف المؤرخ الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى هذه الواقعة فى كتابه « تاريخ الحركة الوطنية فى مصر » .

أما مدينة « ميت غمر » فقد شاع ذكرها بسبب الحريق المشهور الذى التهمها عن آخرها ، والذى كتب فيه شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدة رائعة يقول فى مطلعها :

سائل الليل عنهمو والنهارا ... كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم ... وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار ... يتداعى ، وأسقف تتجارى
رب إن القضاء أخنى عليهم ... فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومر النار أن تكف أذاها ... ومر الغيث أن يسيل انهمارا

..... الخ.

وعلى أثر هذا الحريق المدمر، قامت جهود شعبية وحكومية كبيرة، لإعادة بناء المدينة (عام ١٩٠٤)، وقد أقيمت على طراز أحدث، مما جعلها تفوق زفتى جمالًا وعمرانًا وحركة.

وفى هذه الأيام الأولى لى فى زفتى، حدث أمر هام لم أكن أعلم أنه سوف يكون بعيد الأثر فى حياتى كلها.. فقد جاء يوم الهجرة النبوية، وأشار على أحد الزملاء الذين يكبروننى سِنًا وعلمًا وقال: «هناك احتفال سيقام الليلة بمناسبة الهجرة النبوية فى ميت غمر.. وسيقيم هذا الحفل الإخوان المسلمون.. ويستحسن أن تحضروا معنا..»

لم أكن أعرف طبيعة مثل هذه الاحتفالات، وكنت فى شوق لأن أرى أى شىء جديد لا أراه فى القرية، وذهبت.. كنت أستمع إلى شاعرهم الذى سيطر على لبى وهو يحكى فى شعره قصة الهجرة، وعظمة الرسول، ووفاء أبى بكر الصديق، واستمعت إلى الخطباء، لقد تحدثوا عن الإسلام وصموده وتضحياته، ثم انتقلوا إلى واقع الحياة التى نعيشها، وربطوا بين مجد الإسلام وانتصاراته وتضحيات رجاله، ثم قارنوا بين وضع المسلمين الحالى وما هم فيه من ضعف وهوان واستعمار..

إنه أسلوب جديد فى الخطابة والاحتفال بالنسبة لى.. وتفتح قلبى وعقلى لما أسمع.. ومما لفت نظرى أيضًا الهتافات التى يرددونها.. كان المألوف فى ذلك الوقت أن نهتف بحياة الزعماء والأشخاص البارزين والحزب ورجاله.. لكننى أسمع الليلة هتافًا من نوع آخر..: الله أكبر ولله الحمد...

الله غايتنا.. والرسول زعيمنا.. والقرآن دستورنا.. والجهاد سبيلنا..،الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا.. لا إله إلا الله.. عليها نحيا..،عليها نموت..،عليها نلقى الله.. هكذا كانت الهتافات...

وسمعت نقدًا لاذعًا لرئيس الوزراء والوزراء والساسة بصفة عامة.. كان الأمر جديدًا بالنسبة لى تمامًا فى شكله ومضمونه.. وكنت مندهشًا وأنا أرى أعضاء شعبة الإخوان المسلمين يتلاقون فى شوق ومحبة وسعادة، وأرى على وجوههم النظيفة الإشراق والإيمان والثقة، بل صوت مؤذنهم وهو يؤذن لصلاة العشاء كان ذا وقع أخاذ ساحر.. يهز القلوب، ويسمو بالأرواح..

قال لنا صديقنا الأكبر «الحسينى موسى»: «هل سعدتم بهذا الحفل..»

قلت فى حماسة: «جدًا.. جدًا.. أريد أن اذهب معك كل مرة»

لم أقض فى زفتى ومدرسة «كشك الثانوية» سوى فترة لا تتجاوز الشهرين، وشعرت بضيق ما بعده ضيق، لقد انسلخت عن رفاقى وأقاربى القدامى الذين ذهبوا إلى طنطا، وشعرت بالغربة أيضًا.. غربة نفسية، وخيل إلىّ أن زفتى ضيقة ومملة.. وكم رقص قلبى من الفرح حينما عرض علىّ خالى وزميلى «إبراهيم» التحويل إلى طنطا.. ووافق أبى على ذلك.. لكن المشكلة أن الصف الأول الثانوى ليس فيه مكان شاغر فى أية مدرسة بطنطا.. وتفتق ذهن خالى إبراهيم عن حيلة، وقد كان طالبًا فى مدرسة الزراعة الثانوية بطنطا، إذ عرض على أن أتحول إلى مدرسته، سوف يمنحوننى المجانية، فضلًا عن أن الصف الأول والثانى فى الزراعة دراستهما ثانوية، ويمكن التحويل فى العام التالى إلى أى مدرسة ثانوية صرفة..

وتم الأمر بسرعة وسهولة، وودعت زفتى..

وابتسم أبى فى سعادة وقال : « كنت أعلم أنك تحب طنطا ..»

ثم أحاطنى بيمناه القوية ، وشدنى إليه فى حب وقال : « طنطا عظيمة .. وفيها شيخ العرب السيد البدوى .. لكن تجنب الأخطاء التى وقع فيها عمك « عبد الفتاح » .. ويكفى ما حدث ..»

شعرت بالألفة والارتياح فى مدرسة الزراعة ، كان معظم الطلبة كبارًا فى السن ، كما كانت قدراتهم العلمية والأدبية ضعيفة ، مما جعلنى أتألق وأتفوق وأصبح معروفًا جدًا لدى الطلبة والمدرسين والناظر ، حتى العلوم الزراعية الإضافية تفوقت فيها ، وما زلت أذكر صوت مذياع المدرسة فى الصباح ، وهو يصدح بالموسيقا والقرآن الكريم والأغانى والأناشيد العذبة ، وأذكر زميلنا القصير السمين والطربوش فوق رأسه ، وهو يقف عند سارية العلم ، ويهتف بصوت أجش :

« عاش فاروق الأول ملك مصر والسودان وملحقاتها ..»

« مصر والسودان لنا ، وانجلترا إن أمكنا »

« النيل لا يتجزأ .. شعب واحد .. وطن واحد »

ودخلت معامل العلوم لأول مرة ، وأخذت أتعلم كيف أجرى التجارب ، واستعمل الميزان الحساس ، وأتفحص الخواص الكيميائية والطبيعية لبعض المواد ... كما كنا نذهب إلى بعض المزارع الحكومية لندرس المزروعات وبعض المحاصيل فى الهواء الطلق ، وكنا نغنى ونمرح فى السيارة التى تسرع بنا صوب الحقول ..

وذهبنا ذات يوم لحضور مباراة لكرة القدم بين مدرستنا الزراعية والمعهد الدينى بطنطا .. وكانت مباراة حامية الوطيس جرت على أرض نادى فؤاد الأول الرياضى (نادى طنطا حاليًا) ، وكانت المباريات التى تقام بين المدارس والأزهر دائمًا مباريات حساسة حرجة ، تتسم بالكثير من التعصب والتوتر ، وأثناء اللعب تبودلت بعض العبارات التى لا تليق ، والتى بدأها طلبة الزراعة ، كأن يقولون :

أفقعها « هِدًّا » يا أستاذ لعلها تأتى « بجَوْنٍ »
قبقابٌ يغنى عن الجزمة مَنْتُفْلى يُغنى عن الجزمة
يا « مجاور » عمتك دابت م السلطة والفول النابت

واحتدم الخلاف ، وتبودلت الشتائم ، وجاء أحد أصدقائى الأزهريين الأخ « مصطفى عبد الحافظ » ، وهمس فى أذنى محذرًا ، ونصحنى بأن أخرج من النادى قبل انتهاء المباراة بعشر دقائق ، فقد تحدث مجزرة .. وفعلًا عملت بنصيحته ، وقبيل انتهاء المباراة ، أسرعنا بالانصراف أنا وبعض الأصدقاء ، ووقفنا لدى باب النادى بعيدًا نترقب ما سوف يحدث ، وما إن انتهت المباراة حتى اشتعلت المعركة بين جمهور المتفرجين ، وشملت اللاعبين أيضًا ، وأسفرت عن عدد كبير من الإصابات ، حيث سالت الدماء ، وتمزقت الملابس وكان أمرًا مؤسفًا ..

فى مدينة طنطا ، سكنت مع خالى إبراهيم ومالك ، فى غرفة مشتركة ، لم يكن من الصعب فى تلك الفترة أن نجد مسكنًا ، وأذكر ونحن نبحث عن السكن أن هناك عشرات الأماكن الخالية ، وبالطبع كان مقرُّنا فى أحياء طنطا القديمة ، مثل « كفرة على أغا » وكفرة « الحمرة » وغيرهما ونذهب صباح كل جمعة للحمام العمومى وندفع نصف قرش لنستمتع بالماء الساخن ، وننظف أجسادنا تمامًا ، بحيث

تكفى لمدة أسبوع فى الشتاء ، وكانت المدرسة تصرف لنا وجبة غذائية يوميًا من الأرز واللحم والخضار تعتبر الأساس الغذائى لحياتنا اليومية ، كما كنا نذهب مرتين أسبوعيًا للسينما ، وأصبحت السينما إدمانًا بالنسبة لنا ، أما المسرح فلم يكن له وجود فى طنطا ..،حتى يومنا هذا ..

أما المكتبة العامة فقد كانت مكانًا مفضلًا لى عصر كل يوم ، كنت آخذ كتب كبار الأدباء وأقرؤها بشغف زائد ، وأسجل فى كراستى الصغيرة بعض المقتطفات الهامة ، وهناك مجموعة « أصدقاء المكتبة » حيث نلتقى هناك معظم الأيام ، ونتبادل الآراء حول بعض الكتب الهامة ، لكن رواد المكتبة بصفة عامة لم يكونوا كثيرين ، مع أن المكان نظيف ، والجو هادئ ، وعلى عربات الكارو التى تتمركز أساسًا حول ضريح « السيد البدوى » تستطيع أن تشترى الكتب القديمة أو المستعملة بقرش أو قرشين .

وذات أصيل خرجت إلى شاطئ ترعة القاصد لأذاكر فى الهواء الطلق ، شعرت بآلام شديدة فى بطنى من الجهة اليمنى ، فاقتعدت كومة عالية من التراب ، وبقيت مكانى أذاكر دروسى ، ومر بى رجل من أهل قريتنا ، فقمت لأصافحه ، وأدرك الرجل بفراسته ما أعانيه من آلام ، ونصحنى بالعودة إلى البيت وشرب « كمّون مغلى » .. وفى المساء كانت الآلام فوق الطاقة ، فأخذنى خالى إبراهيم إلى طبيب قريب له فى بيته ، وقام بفحصى ثم سقانى جرعة دواء ، بعد أن شربت قلت له : « ما بى ؟ »

- « شيء بسيط .. لا تخف ..»

قلت : أخاف أن يكون عندى التهاب الزائدة الدودية .

التفت إلى وقال فى دهشة : « من أخبرك بذلك ؟ »

- « لا أحد ..»

قال فى شيء من التردد : « إذا زاد التعب ، فلتحضر إلى مرة ثانية ..»

وانصرف ، وركبنا « الحنطور » ، وأخذ الحصان الذى يجر العربة ، يدق الأرض بحوافره الصلبة ، وأنا أتأوه .. وعند الفجر وضعت يدى مكان الألم فوجدته يكاد يكون متورمًا ومؤلمًا جدًا ، ثم تقيأت .. وأرسلنا أحد الزملاء إلى الطبيب فى الصباح الباكر ليخبره بتطورات الحالة ، فأمر بنقلى على الفور إلى المستشفى ، لم يكن معنا أحد يرعانا ، فلجأنا إلى « ابن العمدة » ، وكانت له تجربة سابقة فى عملية الزائدة الدودية ، فأخذنى إلى مستشفى الأمريكان ، لم يكن معنا مال يكفى لدفع عربون مستشفى خاص ، وقام أحد الزملاء بالاتصال بالقرية عن طريق الهاتف كى يحضروا أبى .. وعرف رجل من أقربائنا الوضع الذى نحن فيه ، فحضر معنا إلى المستشفى ، ودفع عشرة جنيهات تحت الحساب ..

وأجريت الجراحة بعد وصول أبى مباشرة ، كانت هذه أول مرة فى حياتى أتعرض لمبضع الجراح ، تحت تأثير التخدير النصفى ، وكانت هذه العملية تعتبر خطيرة فى تلك الفترة ، إذ لم تكن المضادات الحيوية قد استعملت بعد ، وحضرت أسرتنا بعد ذلك عن بكرة أبيها .. النساء والأطفال والرجال ، كما حضر رهط من الجيران والأقارب . وشفيت بحمد الله ..

فى أمسيات المستشفى الساكنة ، كان يأتى أحد المبشرين ، ويعرض لنا صورًا ملونة عن سيدنا عيسى عليه السلام ، ويشرح لنا ، لماذا أرسل الله ابنه إلى الناس رسولًا نبيًا ، وأذكر أنه من ضمن ما قال : كان هناك صاحب مزرعة ، يعيش بعيدًا عنها ، ولما تمرد عليه الفلاحون وعصوا أمره ، أرسل إليهم

الرسل ، كى يلتزموا بالأصول ، وينفذوا الاتفاقات المبرمة ، ويسيروا السيرة الحسنة ، ويدفعوا ما عليهم من مال ، ويقوموا بالواجبات ، وبعد أن يئس من هدايتهم ، أرسل إليهم ابنه ، فقتلوه .. ثم ندموا بعد ذلك ندمًا شديدًا ، وتعاهدوا على الاستقامة والطاعة ... الخ .

ثم أخذ يشبه لنا صاحب المزرعة ، بالرب الخالق ، والفلاحين بعباد الله ، وابن صاحب المزرعة بالسيد المسيح ، أما الرسل السابقون فهو أنبياء الله .. وكنا كمسلمين نعترض هذه المقولات ونرد عليها بما نعرف من عقيدتنا ..

وعقب شفائى مباشرة ، تم تحويلى من مدرسة الزراعة إلى مدرسة طنطا الثانوية الجديدة فى الصف الثانى .

وذات يوم كنت أقف فى فناء المدرسة لأشهد مباريات كرة لقدم التى أقيمت خصيصًا لاختيار الطلبة أصحاب المواهب الظاهرة ، لينضموا لفريق المدرسة الرسمى ، كنت مجرد متفرج ، وكانت الفوضى تضرب أطنابها فى الملعب ، بحيث لم يستطع أحد أن يسجل هدفًا ، وفجأة رأيت الكرة تقترب منى ، وبحركة سريعة تلقفتها ، ثم قلبتها للخلف فى ركلة قوية ، لتسجل أول هدف فى الشبكة .. وصفر المدرب بصفارته فى انبهار .. ثم اقترب منى قائلًا : « لماذا لا تلعب معنا ..»

قلت- « لأنى مريض و ....»

قال- «أنت خامة طيبة .. فهمت ذلك من طريقة استقبالك للكرة وتسديدك لها فى المرمى .. لا شك أنك تلعب منذ زمن طويل ..»

وبعد تجربتين ، تم اختيارى عضوًا فى الفريق الرسمى ، ذلك الفريق الذى ظل يوالى انتصاراته فى بطولة القطر حتى وصل للدور النهائى ، وفازت مدرسة الإبراهيمية الثانوية بالكأس ، وكان ترتيب مدرستنا الثانى ، وكان يلعب ضمن فريق الإبراهيمية عدد من نجوم مصر فى كرة القدم أذكر منهم طارق سليم ..

تعتبر مدينة طنطا من أهم عواصم الأقاليم فى مصر ، فإذا كانت القاهرة الأولى والإسكندرية الثانية ، فإنّ طنطا تأتى فى المرتبة الثالثة ، وهى عاصمة محافظة الغربية ، وتقع وسط إقليم زراعى خصب ، كما أنها ملتقى شبكات المواصلات فى الوجه البحرى ، ولها شهرة فى السياحة الدينية ، وذلك لوجود ضريح السيد البدوى فيها ، بالإضافة إلى عدد من الأضرحة الأخرى الهامة ، كضريح سيدى « عز الرجال » ، وضريح « الشيخة صباح » وغيرهما ، وفى مولد السيد البدوى وعادة يكون فى شهر أكتوبر من كل عام ، يحتشد مئات الألوف فى هذه المدينة ، ويربو عدد المحتفلين ، دائمًا ، على المليون أو المليون والنصف فى ربع القرن الماضى ، ومن ثم تجد الشوارع مزدحمة ، وكذلك المساجد والمحلات التجارية، والبيوت المخصصة للإيجار ، بالإضافة إلى الساحات الواسعة التى تنصب فيها الخيام الكبيرة ، التى يخصص فيها جزء للرجال وآخر للحريم ، كما يشترك فى هذه الاحتفالات جميع فرق الطرق الصوفية كالشاذلية والأحمدية والنقشبندية والرفاعية وغيرهم ، وفى الساحة الكبيرة- كما فى مسجد الضريح- تتخذ كل طائفة مكانًا لها ، ويمارسون طقوسهم الخاصة فى الذكر والإنشاد والقراءة ،

فلا تكاد تجد موضعًا لقدم ، والضجيج يعلو حتى يصم الآذان ، وترى المجاذيب ومختلف الدراويش ، يصيحون ويصرخون من وَلَهٍ وعشق ، ويتطوحون يمنة ويسرة وأمامًا وخلفًا ، وبعضهم يرتدى الملابس المرقعة بألوان زاهية مختلفة ، وكذلك ترى ألوانًا متعددة للعمائم ، والمسابح الطويلة تتدلى من أعناقهم ، وقد تقف بعض النسوة خلف الرجال ويتطوحن هنّ الأخريات ، وكان الأزهر الشريف فى طنطا يغلق أبوابه إبان المولد ، أما طلبة المدارس فكانوا يذهبون كل مساء للتفرج أحيانًا ، وللمشاركة فى طقوس المولد أحيانًا أخرى ، ولقد كتبت- وأنا سجين فى أسيوط- قصيدة طويلة حول هذا المولد ، نشرتها فى مجلة « الأدب » التى كان يرأس تحريرها المرحوم الأستاذ أمين « الخولى » ، ثم نشرتها بعد ذلك فى ديوانى « أغانى الغرباء » ، وقد جاء فى مطلع هذه القصيدة :

بالباب اصطف مجاذيبُ — وجوار القبر محاسيبُ
ألوان الطيف جلابيبُ — وجموع تهتف من حُرَقِ
الله الله يا بدوي

وقد راعيت أن تكون موسيقا القصيدة ووزنها مرتبطة ، باللحن الشائع الذى يردده الناس عن السيد البدوى والذى يقول « الله الله يا بدوى جا باليسرى » ولعل « اليسرى » يُقصد بها الأسرى ، إذ المعروف أن « البدوى » اشترك فى الحروب الصليبية مع عدد من المتصوفين ، وخاضوا معارك ضارية ضد العدو ، وأطلقوا سراح بعض الأسرى المسلمين .

وفى ساحات مولد البدوى تجد أنشطة شعبية متباينة ، تجد اللعب السحرية والسيرك والمسارح الخاصة بالرقص والغناء والكوميديا القصيرة ، كما تجد ألعاب الفتوة والمهارة ، وألعاب الحظ والقمار ، وغُرزًا للتدخين ، وملاهى عابثة ، ولذا يختلط الحابل بالنابل ، والصالح والطالح ، والنساء والرجال ، والفلاحون وأصحاب الحرف ، والتجار والصناع ..

ويأتى يوم « زفة الخليفة » وهو موكب مشهود يستغرق الساعات الطوال ، ويبدأ بعد صلاة الجمعة آخر الموسم ، ويسير الموكب فى الشوارع الرئيسية ، وينتظم فيه طوائف الصوفية ، واحدة بعد أخرى ، ثم أصحاب الحرف كالسروجية والحدادين والنجارين والنحاسين وغيرهم ، وترفع الأعلام والبيارق والشعارات الخاصة بكل طائفة ، وتدق الطبول والمزامير وبعض الآلات الموسيقية ، وتردد الأناشيد فى هذا الموكب الطويل ، ثم يظهر « الخليفة » خليفة السيد البدوي- راكبًا حصانه ، لابسًا تاج الخلافة ، مغمضًا عينيه ، تحوطه التجلة والوقار ، وما إن يهل بطلعته على المشاهدين والمشاهدات حتى تنطلق الزغاريد ،وتعلو صيحات الفرح والاستبشار ، وتتماوج التكبيرات والتهليلات ، فى مشهد مثير رائع ، يفوق فى روعته مواكب القادة والزعماء وهم يحضرون المناسبات الهامة ، وفى الليل تطلق الصواريخ الملونة فى أنحاء طنطا وسط فرحة الأطفال والشباب وصياحهم ، وبعد أن ينتهى « المولد » ، تحمل الجمال الأمتعة والخيام ومختلف الأدوات ، وتولى وجهها شطر البلدان التى وفدت منها على أمل العودة فى العام القادم ، بعد أن يكون الزائرون قد طافوا حول الضريح طواف الوداع ! ! وتسترخى طنطا بضعة أيام تحاول فيها تعويض ليالى السهر والزحام ، وتنظف الشوارع ، ويجهز التجار ميزانياتهم ، ولا تنسى إدارة المسجد أن تحصى المبالغ الكبيرة من « النذور » التى وضعت فى صندوق السيد البدوى ، والتى يتم

توزيعها وفق لائحة محددة أقرتها وزارة الأوقاف ..

والمعاهد الأزهرية أو الدينية فى طنطا ، يطلق عليها « المعهد الأحمدى » ، وقد لعب هذا المعهد دورًا بارزًا هامًا فى حياة الإقليم الثقافية والاجتماعية ، وتخرج منه العديد من العلماء والشعراء ورجال الفكر والسياسة ، كما كان له تأثير كبير فى الحياة السياسية بالمدينة ..

وفى طنطا العديد من المصانع والمحالج والنشاطات الصناعية الأخرى ، كما تعتبر المدينة سوقًا رائجة للتجارة ..

لقد أغرمت بهذه المدينة غرامًا ملك عليّ حواسى ، فقد وجدت فيها العلم والثقافة والمتعة والذكريات الحلوة ، ووجدت فيها القديم والجديد ، والماضى والحاضر ، وعلى الرغم من رفضى للكثير من الطقوس التى يؤديها الجهلة والعوام فى ضريح السيد البدوى ، من طواف وتقبيل للأعتاب والأبواب والنوافذ ، ومن دعوات واستغاثات عجيبة ، لا يصح أن توجه إلا لبارئ السماوات والأرض ، على الرغم من كل هذا فقد كنت آنس بالذهاب إلى المسجد الكبير ، وقراءة القرآن فيه ، والصلاة فى أوقاتها ، وأحيانًا أنتحى جانبًا لأذاكر دروسى فى جوه الهادئ ، وأضوائه الكافية ، وأنا جالس على البسط الثمينة الفاخرة ، بل ما زلت حتى يومنا هذا أقضى الفترة ما بين الظهر والعصر إبان شهر رمضان بجوار المنبر ، أتلو القرآن ، وأستمع للدروس الدينية ، وهو مكان يعرفه الإخوة والأصدقاء ، نلتقى عنده كل عام ، بعد أن نعود من الخارج ..

كانت المحاضرات الثقافية فى المرحلة الثانوية قليلة جدًا فى أندية طنطا ، ولم يكن هناك مجال للنشاطات الثقافية سوى مقار الأحزاب السياسية ، وكان من الواضح أن مقار الإخوان المسلمين فى طنطا ، سواء شعبة قسم أول أو شعبة قسم ثان أو المكتب الإدارى العام ، هى أثرى وأقوى هذه المراكز فى العطاء الفكرى والثقافى الموجه ، كان الإخوان يضعون برنامجًا حافلًا للمحاضرات المختلفة ، التى تضم الفكر والأدب والتاريخ والسياسة والاقتصاد والتوعية الصحية ، وكانوا يربطون بين هذه الموضوعات كلها برباط الإسلام ، إذ إنه الأساس فى كل شىء ، كما كانوا يقيمون مهرجانات للشعر والمسرح الإسلامى والألعاب الرياضية ، كما كانوا يضعون بعض الكتب والمجلات والنشرات تحت تصرف الرواد ، وأغلبهم أعضاء فى الجماعة ، ولم يكن برنامج المحاضرات خاصًا بطنطا وحدها ، فقد كان الدعاة يخرجون أفواجًا إلى الشعب الإخوانية والمساجد ، فى القرى القريبة والنائية ، التى تتبع محافظة الغربية ، وكان المرشد العام الإمام الشهيد حسن البنا يأتى بنفسه فى زيارات متتابعة ، وكذلك الوكيل والسكرتير العام وأعضاء مكتب الإرشاد وعدد من الدعاة البارزين ، بل إننا فى نادى الإخوان بطنطا استمعنا ذات مرة إلى من يخطب باللغة الإنجليزية وإلى جواره مترجم باللغة العربية ، والواقع أننى فى هذه اللقاءات والاحتفالات سمعت ألوانًا من الشعر السياسى والدينى لها نكهة خاصة ، وكانت تتميز بالقوة والجزالة والحماسة ، ويغلب عليها الطابع الخطابى الذى يؤثر فينا نحن الشباب تأثيرًا عميقًا ، كما كانت المسرحيات التاريخية أو السياسية التى تقدم فى مناسبات قليلة ، على نفس النحو من الإثارة والنغمة الخطابية والحماسية ، ولعل هذا كان مناسبًا للفترة التاريخية ، وللموضوعات المطروحة على الساحة ، والجمهور المتلقين آنذاك .

كنت أغشى مجتمعات الإخوان ، وأنهل من ثقافتهم وعلمهم ، وأتعلم الكثير منهم على الرغم من عدم انضمامى رسميًا لهم . فكيف كان ذلك ؟ كنت من أسرة تعتنق مبادئ الوفد فى تعصب شديد ، وتعتبر الانشقاق عليه أمرًا خطيرًا بل فسادًا ومروقًا ، ولم يكن يُتصور أن يفعل أحد ذلك ، وعندما بدأ اتصالى بالإخوان ، كنت أجد ميلًا جارفًا لمبادئهم وأفكارهم وسلوكهم ، لكن المشكلة كانت فى الكبرياء والتعصب .. كانوا وهم يدعون لمنهجهم يهاجمون الوفد وتاريخه ، وكنت أرى أن ذلك يجرح كبريائى فأتضايق ، وأنفر منهم ، لكنى أعود على دورهم وصحفهم وكتبهم لأرتشف منها ، لكن هذا الحاجز النفسى الصلب تحطم فجأة بإرادة الله ، عندما رأيت أفواج المتطوعين من الإخوان المسلمين ، تجوب شوارع طنطا وهم يرددون هتافاتهم قبل سفرهم للجهاد فى أرض فلسطين ، وعندما رأيت الصدام المروع بينهم وبين حكام تلك الفترة ، وكانت أول قصيدة نشرتها فى مجلة « الإخوان المسلمين » فى عام ١٩٤٨ بعنوان « النور بين أيادينا » .. وكانت عن فلسطين ..

وذات يوم كنا نجلس فى الصف فى مدرسة طنطا الثانوية .. ودخل علينا أستاذ اللغة العربية « عبد الستار عجور » ، وكان رجلًا قويًا فى مادته وفى خلقه ، نبيلًا فى تعامله وحدبه علينا ، ووجدت الأسى والألم يكسوان وجهه ، وحيانا بتحية الصبا ح، ثم رمى بأوراقه فوق المنضدة ، ووقف صامتًا بضع لحظات ، ثم أخذ يتحدث بصوت متهدج ، وعيناه مبللتان بالدموع ، ومن جملة ما قال فى هذا اليوم الذى لا أنساه :

« يا أبنائى .. لقد مات اليوم رجل عظيم .. لقد خسر العالم الإسلامى والعربى .. وخسرت مصر بموته خسارة فادحة .. رجل وهب حياته وكل ما يملك لله . وضحى بنفسه فى سبيل عقيدته .. عرفته طالبًا فى كلية دار العلوم .. كان مثال الطهارة والإخلاص والصدق والوفاء .. وكان متميزًا بأخلاقه وسلوكه بين أقرانه .. لم أره على معصية قط .. أحبه الأساتذة وزملاء الدراسة وكل من عرفه .. ولو قيس الرجال بالمقياس الصحيح لكان « حسن البنا .. وأعظم من يعيش على رقعة العالم الإسلامى كله ..»

واستطرد أستاذنا يتحدث عن الفساد الذى حل ، والظلم الذى طم ، وعن الذين يعبثون بالسلاح ، ويردون القيم النبيلة ، ويتصدون للشرفاء والمصلحين ، ويمكنون للاستعمار والطغيان ، وعن ضيعة الحق والعدل ، وفساد الحاكم والمحكوم ، وعن .. وعن .. حتى دق الجرس ..

فتمتم فى حسرة وقال : « إن اغتيال حسن البنا وصمة فى جبين الأمة ، وفى جبين العصر السيء الذى نعيش فيه .. ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ صدق الله العظيم ..»

وجفف الأستاذ دموعه ، وحمل أوراقه ومضى ..

كنا نجلس نستمع إليه طوال الحصة ، وكأن على رءوسنا الطير .. وتكلم فى أمور شتى لا أتذكرها الآن .. وخرجت لأبحث عن الصحف ، رأيت فى « المصرى » الصحفية الواسعة الانتشار آنذاك بالخط الأسود العريض:

« مصرع الشيخ حسن البنا » ...

وأخذت أقرأ التفاصيل .. وفى الشارع كان الناس يتحدثون عن أمور أخرى كثيرة لم تتناولها

الصحف .. تحدثوا عن آلاف الإخوان خلف الأسوار ، وعن المجاهدين الذين سحبوهم فى السلاسل والحبال من ميدان المعركة فى فلسطين ، وزجوا بهم فى المعتقلات ، وعن تصرفات مرية للملك وحاشيته ، وعن الحزب الحاكم ، وعن الأوامر التى صدرت بإطفاء الأنوار فى شارع الملك ، وعن منع الأطباء من إسعاف « الجريح » الأعزل ، وعن الظلم الذى استشرى ، والفساد الذى ساد ، وفى هذا اليوم الأسود الحزين تصرفت كعضو فى جماعة الإخوان المسلمين .. وبكيت يومها بحرارة .. تحطم الحاجز النفسى تمامًا ..

وأذكر أننى فى هذه الأيام قلت فى نفسى :

« ليتنى جلست مع حسن البنا أو صافحته ! ! إننى لم أره إلا وهو يخطب ، وأنا محصور بين الجموع الحاشدة ..وظننت آنذاك أننى قد فاتنى أمر هام لا يعوض .. لكن ما الحيلة وقد لقى ربه شهيدًا وانتهى الأمر ..

وصحوت من نومى ذات ليلة وأنا فى دهشة أمرى .. لقد رأيته فى المنام .. كنا ثلاثة .. ووجدته يصافحنى ويبتسم لى .. لقد غمرتنى السعادة بعد أن أفقت من نومى .. ولم أتشتت أو أجد صعوبة فى تفسير الحلم الذى رأيته .. لقد قلت بينى وبين نفسى « إنها البيعة ..»

وتذكرت حديث رسول الله « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، وحمدت الله ..

وانخرطت فى سلك الأخوان المسلمين ، فى أقسى الأيام وأشدها حلوكة وخطرًا ، ولم أعبأ بشيء ، وصرحت بما آمنت به ، وخلعت رداء الحزبية القديمة إلى الأبد ..

وحينما علم أبى بما حدث ، لم يتضايق أو يعتب على ، لكنه سألنى مجرد سؤال عما سمعه ، فشرحت له وجهة نظرى ، والأسباب القوية التى جعلتنى أتخذ قرارى ، والهدف من ورائه ، كان يستمع بإمعان ، وقال فى النهاية :

– « افعل ما تراه صالحًا .. لكن لا تورط نفسك فى مشاكل نحن فى غنى عنها .. ولتهتم بمستقبلك ».

وكان فى قريتنا ثلاثة من الزملاء ينتمون إلى الجماعة ، كما كان أحد أخوالى (ابن عم والدتي) الحاج محمد محمد الشافعى ، هو أول من اعتنق المبدأ فى قريتنا ، وكان رحمه الله رجلًا شجاع الرأى ، صريحًا فى كلامه ، لا يدارى ولا يحابى ، ولا يتهيب أن ينتقد أقرب المقربين إليه عندما يراه ينحرف ، وكان مؤمنًا أعمق الإيمان بمبدئه ، وعلى علاقة وثيقة بالإمام الشهيد رحمه الله ، فكان يذهب لزيارته فى القاهرة ، أو يلتقى به فى زياراته للمركز والشعب القريبة ، بل إنه باع بعض مواشيه ليساهم فى شركة المعاملات الإسلامية التى أقامها الإخوان كتجربة فى المجال الاقتصادى ، كما كان حريصًا على اقتناء مطبوعات الإخوان ومجلتهم الأسبوعية التى ترسل إليه تباعًا عن طريق البريد ، وكنت أنا الذى يتسلمها من « البوسطجى » أو رجل البريد ، ثم آخذها إليه ، فيقول لى أقرأها أولًا ثم أحضرها إلىّ ، وكان رحمه الله شديد النقد للتصرفات التى تصدر عن بعض الصوفية ، ويهاجمهم بعنف ، ويدعو إلى تدمير الأضرحة ، مما أكسبه عداوات وخصومات عديدة ، كادت تودى به لولا نفوذ عائلته الكبير ، وتولى إخوته أعلى المناصب فى الحكومة ، وفى حزب الوفد بالذات .

والغريب- رغم صغر سني- كنت آنس إليه ، وأقضى معظم وقتى معه على الرغم من فارق السن الكبير بينى وبينه ، فقد كان فى عمر أبى تقريبًا ، ولم أكن أشعر معه إلا بشعور الزميل نحو زميله ، أو الصديق نحو صديقه ، وذلك بسبب بساطته ورقته فى التعامل معى ومع باقى الصحبة ، كما كانت له صولات وجولات مع المفسدين والمستغلين من أهل القرية ، فكان يكتب الشكاوى ضد تجار الأفيون والحشيش ، ويرفع الدعاوى القضائية ضد من يتجرون فى السوق السوداء ويستولون على مواد التموين ، ويهاجم المتعاملين بالربا مهما قوى نفوذهم ..

ولقد ذهب رحمه الله إلى الحج فى أوائل الأربعينيات من القرن العشرين ، ثم خطر فى نفسه خاطر ، لماذا لا يبقى فى السعودية ليدرس الفقه والتاريخ الإسلامى والحديث واللغة ؟ إنه يحفظ القرآن ، ويلم بالقليل من هذه العلوم ، ولديه من الأملاك والمال ما يكفيه ويكفى زوجه وأولاده الستة ، ومن ثم فلا عذر بعد ذلك ، وبعد انتهاء موسم الحج فوجئ إخوانه من أهل القرية باختفائه ، وهكذا بقى هناك يدرس على أساس المذهب الوهابى (السلفي) ، وبالطبع فإن هذا الموضوع أثار ضجة كبرى فى أوساط القرية عامة وأسرته خاصة ، ولوحظ أن زوجته كانت غاضبة أشد الغضب ، وبعد فترة اتخذت بعض الإجراءات من جانب أشقائه أصحاب النفوذ لإعادته ، وفعلًا تم ذلك بعد فترة أعتقد أنها تقرب من عام أو أكثر ..

ولقد عاش رحمه الله- رغم نشاطه- فى منأى عن الاضطهاد السياسى ، ولم يقع فى قبضة الشرطة إلا فى عام ١٩٦٥ ، حيث قضى فى المعتقل ما يقرب من شهرين ، ولعل اعتقاله كان السبب فى إعفاء شقيقه اللواء محمود الشافعى من منصبه كمدير لمصلحة الأمن العام بالقاهرة ، على الرغم من صلته الوثيقة بأشقاء جمال عبد الناصر ..

وعندما تم اعتقالى فى عام ١٩٥٥ كان أبى يقابله ويقول له : « أهكذا تفعلها يا حاج محمد ؟ تبقى أنت وأولادك ، ويذهب نجيب إلى السجن .. يا راجل حرام عليك ..»

فكان يضحك ويقول لأبى :

- « ليتهم أخذونى معه .. هذا شرف له ..»

وعندما اعتقلنا معًا فى عام ١٩٦٥ أفرج عنه بعد شهرين ، وبقيت أنا فترة طويلة ، فكان أبى يقبله ويقول له : « لقد فعلتها يا حاج محمد .. أوصلته إلى هناك .. ثم عدت أنت ..» فيضحك ولا يعلق بشىء ..

كان أبي- كمعظم الآباء- حساسًا جدًا لكل ما يصيبنى من أذى ، ويقضى الليالى الطوال ساهرًا حزينًا ، فإذا ما أصبح الصباح ، شد الرحال إلى هذه البلد أو تلك باحثًا عن صاحب سلطة أو نفوذ كى يوسطه فى الإفراج عنى ، ويذهب إلى كبار الضباط ، وإلى رؤساء تحرير الصحف ، أو أقارب الحكام ، وذهب ذات يوم إلى صديقى د. محمد البغدادى شقيق عبد اللطيف البغدادى عضو مجلس قيادة الثورة ، وأخذ يشرح له كيف أنه لا يتصور مطلقًا أن يكون هناك سبب وجيه لاعتقالى ، فرد عليه قائلًا :

- « لا أستطيع أن أفعل شيئًا .. ابنك مدان ..»

المهم أن خالى الحاج محمد كان رجلًا صالحًا بكل معنى الكلمة ، على الرغم من أن أهالى القرية

كانوا يتهمونه بالاندفاع وعدم التبصر بسبب شجاعته وصراحته ، كان هو يرى فى تصرفاته مقتضى الصدق والأمانة والإخلاص ، وكانوا يرون أنه يفتقد الحكمة والمجاملة ، ويعتقدون أنه يجر على نفسه المشاكل والمتاعب والعداوات ، بينما لا يشك هو لحظة فى أن ما يفعله أمر يوجبه الدين ، ويقتضيه الشرف ، فكيف يسكت عن تجارة السموم وعن الغش والاستغلال والتعامل بالربا؟

والشيء الغريب هو أنه لم يستطع أن يجند واحدًا من أبنائه فى صفوف دعوة الإخوان ، وإن ظلوا على إخلاصهم لأبيهم وتعاطفهم معه حتى آخر أيام حياته التى ختمت فى عام ١٩٨٢..

***

[٨] شعبنا المريض



جاء عقد الخمسينيات من القرن العشرين، وحتى تلك الفترة لم يكن فى قريتنا عيادة أو طبيب خاص ليعالج المرضى، ولهذا فإن المرضى- وما أكثرهم!- كانوا يعانون الأمرين، وكانت تغلب على العلاج وسائل الخرافات والشعوذة والوصفات الشعبية، كان أحد أقربائى الشباب يعانى من روماتيزم فى القلب وتورم بالجسم، فأخذوه إلى «الزار» فى قرية قريبة منا، وكما ذهب على حماره شاحبًا ناحلًا هزيلًا عاد على نفس الصورة، بل ازداد إرهاقًا ولهاثًا، ثم أخذوه مرة أخرى إلى محضر الجان والأرواح «الششتاوى شابوت»، وكان رجلًا طويلًا، أصفر الوجه، متقرح الجفنين، يرتدى عمامة بيضاء متسخة، ويسكن فى بيت كالقبو المظلم، يوحى بالخوف والغرابة، فأطلق البخور، وتمتم بكلمات غير مفهومة، وكتب وريقات صغيرة، وأوصى بدهان قدمى المريض بدم بعض الحيوانات، ولم يشعر مريضنا بالشفاء، وحاول الأهل بعد ذلك أن يسقوه خلاصة بعض الأعشاب دون جدوى..

ثم كان لابد مما ليس منه بد، حملوه فى رحلة شاقة على حماره إلى مدينة زفتى حيث فحصه الطبيب، ووصف له بعض الأدوية الخاصة بعلاج هبوط القلب، وأمر بأن يبقى المريض إلى جواره ليأخذ إبرًا يومية، فاستأجروا غرفة صغيرة، وظلوا بها حتى النهاية.. نعم فقد فوجئنا ذات يوم قبل طلوع الشمس بصراخ وعويل، وكان صوت أم المريض مميزًا وهى تصرخ بصوت يمزق نياط القلوب: «ولدى.. ولدى.. ولدى»، وهكذا عرفنا أن «سليمان» قد مات.. مات بعد أن ترك عروسه الشابة الجميلة دون أن تزف إليه.. وحدث فى هذا اليوم، أن أصرت النسوة على أن يحضرن العروس، لكى تدخل غرفة الميت، وتنام إلى جواره بعض الوقت.. وحدث خلاف شديد حول هذا الأمر، فقد أفتى بعض رجال العلم أن هذا التصرف حرام ولا يجوز، وأصرت العجائز أن تفعل العروس ما أمرن به.. ورأيتها تدخل دامعة العينين.. لم أستطع متابعتها.. فقد اقشعر بدنى، وأخذتنى نوبة شديدة من البكاء.. كنت آنذاك فى التاسعة من عمرى، وكان للموت فى نفسى رهبة لا مثيل لها، وكنت أرى أغلب الذين يمرضون يموتون، ولم نكن نرى الطبيب إلا لمامًا، وفى حالات نادرة جدًا... ومرة أخرى أخذنا عمى «أحمد» إلى عيادة طبيب فى طنطا، كان يعانى من البواسير، وفى العيادة الخاصة أجريت له العملية، وخرج منها دون أن يفيق، وبعد وقت قصير أخذ يهذى ويزبد ويبكى دون وعى، وبعد ساعة جاء الطبيب، ثم أخبرنا أن العملية تمت بنجاح، وأنه يمكننا أن نأخذه إلى القرية.. وجاءت سيارة، ومضينا به إلى حيث شاطئ النهر، آخر مسار السيارة، ثم ركبنا القارب الصغير إلى الشاطئ الآخر، ثم جيء بحمارنا فوضعناه عليه بطريقة خاصة حتى لا تؤلمه العملية.. وبقى فى البيت أسبوعين شفى بعدهما تمامًا.

وأذكر أن جدتى أخذت تصرخ ذات ليلة من آلام الضرس الحادة ، وفى الصباح جاء حلاق القرية ، وبدون تخدير أو رحمة انتزع الضرس التالف ، وهى تتلوى وتصرخ من الألم ، وتنزف بشدة ، وسارت الأمور بعد ذلك سيرها الطبيعى ، فقد كان حلاق القرية يجرى الجراحات الصغيرة ، وعمليات الختان ، بل ويشخص بعض الأمراض ويصف لها العلاج الذى يروق له ، وما أكثر الذين قضى نحبهم بعد أخذهم حقنة من الحقن ، وكنا نقول دائمًا « الأعمار بيد الله ، هذا قضاء الله وقدره » .

وذات يوم حدثت مشاجرة عنيفة فى قريتنا ، وأصيب أحد أقربائنا بفأس فى رأسه ، فارتمى ينزف وهو مغمى عليه ، ونشط حضرة العمدة فى طلب الإسعاف والنيابة ، وبقينا ننتظر فترة طويلة ، كانت النسوة قد أجلسن المصاب على الأرض فى الهواء الطلق ، ووضعن رجليه فى طشت ماء ، أما حلاق القرية فقد وقف خلفه ، يضع أكداسًا من القطن الطبى على رأسه النازف ، ومن آن لآخر يفتح المصاب عينيه للحظات ثم يغيب عن الوعى وظل هكذا إلى أن فاضت روحه إلى بارئها .. والغريب فى الأمر أن المتهم قد برئت ساحته بعد ذلك ، وكان الفضل يرجع فى ذلك إلى « المحامى الشاطر » الذى تقاضى مبلغًا كبيرًا من المال ، فاستطاع أن يستغل الشهود ، وأن يوقعهم فى بعض التناقضات الدقيقة التى لا يدركون مداها ..

وأذكر أيضًا أن أبى أصيب ذات مرة بالملاريا ، وكانت الحمى تهز جسده هزًّا عنيفًا ، ويظل هكذا حتى تنتهى النوبة ، كنا فى شهر رمضان ، ومع ذلك رفض أن يفطر ، وأثناء النوبة ، وأبى راقد مغمض العينين ، تتكوم فوقه الألحفة والبطاطين ، وجسده يرتعش بعنف ، جاءت « خالتى مباركة » أثناء ذلك ، وفى يدها سطل من الماء البارد ، ثم قذفت بالماء على وجه أبى ، فانتفض انتفاضة غريبة ، وفتح عينيه فى دهشة ، وصدره يعلو ويهبط ، وعندما تساءل فى استنكار عن هذا التصرف ، قالت له : إن هذا هو العلاج ، وأنه سوف يشفى بإذن الله ..

وجاء وقت كان لابد أن أعالج فيه من البلهارسيا والانكلستوما ، فالمدرسة الثانوية لا تقبل الطلبة الجدد إلا بعد الفحص الطبى ، والتأكد من خلوه من الطفيليات ، كان علينا أن نذهب إلى مدينة « ميت عمر » ، وهناك تُجرى لنا الفحوص الضرورية للتأكد من التشخيص ، وبقينا طوال شهر كامل نروح ونجيء يومًا بعد يوم ، لأخذ حقن « الطرطير المقيئ » ، وقبلها « شربة الزيت » المضادة للإسكارس والأنكلستوما ، وهى جرعة شديدة المرارة ، سيئة المذاق لا يطيقها الإنسان ، ومع ذلك فلا مناص من أخذها ، وإلا فالعصا والكرباج والباشتومرجى الواقف إلى جوار الطبيب مهددًا متوعدًا ، وما أكثر الذين كانوا يسقطون منا إعياءً وضعفًا بعد أخذ حقنة « الطرطير » ، وكان الطبيب الأنيق الحسن المظهر ينصحنا دائمًا فى دروسه اليومية ، بالاهتمام بالغذاء الجيد الملىء بالبروتينات والفيتامينات ، وكنا نحن ننظر إليه فى بلاهة ، ولا نفهم كلمة مما يقول ، وفى أيدينا « صرة » صغيرة من القماش بها طعامنا المفضل من الخبز والجبن .

وذات يوم نادى « المنادى » فى قريتنا ، بأن الحكومة عازمة على إنشاء وحدة مجمعة بها عيادة وطبيب بالقرية ، وأن على الفلاحين أن يتبرعوا لهذا المشروع الكبير ، وهدد الذين لا يتبرعون بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، وتسابق أهل الخير للتبرع بقروشهم القليلة ، واستعمل العمدة سلطاته فى إرغام

الكثيرين على دفع ما يجب عليهم ، ولقد رأيت الخفير ذات يوم يسوق أحد المرضى إلى الدوار لأنه رفض دفع التبرع ، وكان يردد وهم يجرونه : « لن أعيش حتى أرى المستشفى .. يوم الحكومة بسنة .. يا ناس حرام عليكم » .

وبقينا سنوات طويلة نحلم بالمستشفى ، والعمدة لا يكف عن استقطاع التبرعات قسرًا ، ولا تقضى حوائج الفلاحين ومصالحهم إلا إذا دفعوا للمستشفى ، وبعد سنوات وفد إلى قريتنا « ناظر مدرسة » من مدينة قريبة ، وتبنى موضوع المستشفى ، وأخذ يرسل الشكاوى تباعًا ، ويجمع توقيعات الفلاحين وبصماتهم ، ويسافر إلى ذوى الشأن حاثًا لهم ليساهموا بجهودهم ، وكان كل مرشح لحزب من الأحزاب يعد بإنهاء هذا الموضوع بعد نجاحه فى الانتخابات ، فإذا ما نجح نسى وعوده ، وهكذا ظلت المستشفى حلمًا حتى تحقق فى عقد الخمسينيات من القرن العشرين ، أى ما يقرب من خمس عشرة سنة ، كان يوم الافتتاح يومًا مشهودًا لا تنساه القرية[1] ..

وبمرور الوقت تضاءل دور المشعوذين والدجالين ، وانكمش دور حلاق القرية ، وقلت الوصفات الشعبية ، وكثر عدد العيادات الخاصة بالتدريج ، وأصبح غالبية أهالى القرية يذهبون إلى الأطباء ، ويسافرون إلى المدن القريبة ، بعد أن تيسرت وسائل المواصلات ، وأصبح فى القرية سيارات أجرة كثيرة ، كما أصبحت الحافلات الكبيرة تمر بقريتنا وتربطها فى مواعيد ثابتة بأغلب القرى والمدن المجاورة ، وسبحان مغير الأحوال !

كانت « خالتى مباركة » تعتقد أن السبب الرئيسى لأى مرض من الأمراض هو « الحسد » .. فإذا أصاب أحدنا رمد فى عينيه ، أو مغص فى بطنه ، أو حمى مباغتة ، فإن البحث على الفور يدور حول الأشخاص المشهورين بالحسد فى القرية ، إنهم أساس البلاء كله ، وهناك أشخاص نعرفهم بأسمائهم- رجالًا ونساء- يتوقع الشر منهم إذا تواجدوا فى المنزل ، ويقولون عنه « عينه صفراء » ، ولذلك فإن أول إجراء كانت تتخذه خالتى هو « التعاويذ والرقى » ، ووضع بعض البذور أو المساحيق- مع الملح- على النار المشتعلة ، وما إن يطقطق الملح فى النار ، وينطلق الدخان ، حتى نؤمر بالخطو ذهابًا وإيابًا على النار ، وبعد هذه الإجراءات تلجأ الجدة أو الأم إلى بعض العلاجات الشائعة ، ففى حالة التهاب العيون ، يأخذون كمية من لبن المرضع ويضعونها فى محارة خاصة ، ثم يحكون المحارة بحجر معين لا أذكر اسمه ، وبعدها يقطرون من هذا اللبن فى العيون المريضة ، وكان علاج التهاب اللوزتين عن طريق ابتلاع بيضة ساخنة بعد تقشيرها ، أما الالتهاب الحنجرى مع بحة الصوت ، فلا وسيلة سوى الذهاب إلى « جزار بن جزار » ، ليمرر السكين ظاهريًا وبرفق على عنق الطفل وهو يقول : « جزار بن جزَار أذبحك يا ذبة » ، ظنًا منهم أن هذه البحة سببها وجود ذبة تسكن الزور ، وكان علاج المغص وآلام لبطن والإمساك هو « شربة ملح إنجليزى » ، أو خلاصة بعض البذور التى تغلى فى الماء كبذور « الخلة » وغيرها ، وكانت هناك مساحيق بيضاء تعجن بلبن المرضع ، وتكحل بها العين المريضة ، ويطلق عليها

---

(١) يمكن الإلمام بأوضاع الوحدات الصحية في القرية من خلال قصة «الذين يحترقون» وقصة «الربيع العاصف» للمؤلف .

« ششم الديك » وتشترى من محلات البقالة ، وكان مسحوق البن هو الإسعاف الفورى للجروح حتى يتجلط الدم ، ويتوقف النزيف ، أما علاج القراع فيتم عن طريقة وضع طاقية من القار (الزفت) الساخن على رأس الضحية ، ويا له من عذاب!! وكان لهذه الأساليب من العلاج آثار وخيمة مدمرة فى كثير من الأحيان ، كما كان « الأفيون » يستعمل فى علاج الصداع المزمن الشديد ، وبعض الآلام الأخرى ، وكثيرًا ما يتعود عليه المريض حتى يصبح مدمنًا ، وتحل به كارثة إدمان المخدرات التى يصعب الإقلاع عنها ، والتى تدمر حياته الاقتصادية والاجتماعية ، وإنى لأذكر مريضًا ، كان يشكو من المغص الكلوى بصفة متقطعة ، فأعطاه « حلاق القرية » حقنة من سائل الأفيون ، وظل يكرر ذلك حتى أصبح المسكين ضحية الإدمان ، فباع أرضه ومواشيه ، وظل يتسول حتى ساءت صحته ، وانتهت حياته على أسوأ صورة .

وكان للعقم وسائل غريبة تستخدم لعلاجه ، فالمرأة العقيم تذهب لمحترفى الرقى والتعاويذ ، أو تخطو فوق جمجمة ميت ، أو تكتب لها كتابات معينة ، ثم تذاب الورقة فى الماء وتشربها ، أو تتعرض لأمر مخيف مرعب ، يبعث القشعريرة والهلع فى جسدها ، أو تتناول أنواعًا معينة من الأعشاب والأطعمة ، وأحيانًا توصف لها بعض التحاليل الشاذة .

أما الذين يصابون بلوثة عقلية ، أو مرض نفسى شديد ، فتوضع القيود فى أرجلهم ، والأغلال فى أيديهم ، ويوضعون فى غرف مغلقة حتى لا يراهم أحد ، لأن مثل تلك الأمراض فى القرية تعتبر عارًا كبيرًا ، وعورة يجب أن تستر ، والبعض كانوا يؤخذون إلى مستشفى الأمراض العقلية فى « الخانكة » وقلما يعودون منها ، ولا يعرف أحد مصيرهم بعد ذلك .

وكانت حفلات « الزار » ملتقى للعديد من المرضى والمريضات ، بعد أن ييأس أهل المرض من الشفاء ، وفى الزار تدق الطبول ، ويُترنم بالأغنيات الجميلة المثيرة التى تحرك المشاعر والأعضاء ، ويُعزف بالناى ، وترى حلبة الرقص يسودها الهرج والمرج ، تختلط الأصوات والشهقات والصرخات ، وقد يستبد الهياج بإحدى الحاضرات فتجد من يمسك بها ويسندها ، حتى لا تصاب بأذى ، وبعض رواد الزار كانوا يجدون قدرًا لا بأس به من الراحة النفسية والتسلية والمتعة ، فيتخففون من كآبتهم ووساوسهم ، ويشعرون بشىء من الأمل والنشاط ، ولم تستطع خطب الوعاظ فى المساجد ، ونصائح العقلاء من أهل القرية ، أن تضع حدًا للزار ، وكان لنا زميل فى المدرسة الابتدائية ، يعتبر والده أشهر صاحب زار فى المنطقة ، وكثيرًا ما كنا نمزح معه ، ونطلب منه أن يسمعنا بعض أغانى الزار الجذابة ، فكان يفعل ، وكنا نطرب لعذوبة صوته ، وغرابة كلماته ، وكنا نرد من خلفه عابثين :

شيخ محضر يا شيخ محضر اللى عليه عفريت يحضر

ولم يكن يدور بخلدنا أن زميلنا هذا ، سوف يترك الدراسة ، ويتفرغ للزار بعد وفاة أبيه .. إن نظرية أصحاب الزار فى تفسير الأمراض ، هى تلبس جسم المريض بروح شريرة ، وهى التى تسبب الأعراض والخلل البدنى والنفسى ، ولا يمكن لهذه الروح أن تغادر الجسد إلا بهذه الطقوس المثيرة من رقص وغناء وموسيقا ، والواقع أن الزار نوع غريب من الفنون والطرب ، يهز النفوس ، ويخفف عنها بعض ما يلم بها من ضيق وقتامة وقلق ، ومن الملاحظ أن بعض النسوة ذوات الأخلاق الجانحة يلجأن إلى الزار كوسيلة

للمتعة والعبث وارتكاب ألوان الحماقات ، ولا يمكن أن يتم هذا الاختلاط بين الجنسين دون أن يحدث خروج على الآداب والحياء ، وخاصة أن نسبة كثيرة من رواد هذا الفن لا تشكو من أية أمراض أو أعراض .

لكن هل بقيت تلك الصورة على ما هى عليه ؟

لقد حل اليوم الراديو والتلفزيون مكان الزار ، وانتشرت المعرفة والوعى ، وتوارت الكثير من السوءات الاجتماعية ، وإن حل محلها سوءات أخرى ، وانتشرت المستشفيات ، مع انتشار التعليم والوعى ، لقد تغيرت صورة المجتمع تمامًا ..

لم أزل أذكر وأنا فى طفولتى الباكرة أن أمرًا غريبًا حدث فى القرية ، والدليل على ذلك أن قومًا غرباء أتوا ، ونصبوا خيامهم فى المنطقة الشرقية على الأطراف ، أى بين المبانى والحقول ، وكان الناس يطلقون على هذه الخيام « الكردون » ، وكان خفراء القرية يحيطون بالكردون من كل جانب ، ومن آن لآخر أراهم يحملون فلاحًا مسجى فى فراشه ، ثم يدخلونه ، وأرى عددًا من التومرجية ، يجرى هنا وهناك ، كما أرى الطبيب يهرول هو الآخر نحو الخيمة التى يدخلون فيها المريض ، وقد لاحظت أن عددًا من أهالى القرية قد ارتدوا ملابس التمرجية وانضموا لسكان « الكردون » ، وكان الأهالى يتوجسون خيفة ، ويبدون تشاؤمًا بالغًا إزاء الخيام ومن فيها ، فكنت تسمع من يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله .. لقد أدخلوا فلانًا الكردون .. ربنا ينجى ويسلّم ..» ، أما نحن الأطفال فقد كنا نطوف حول الكردون ، ونبعث بنظراتنا الفضولية داخله كى نراهم وهم يروحن ويجيئون ، ويأكلون وينظفون المكان ، وكان الدكتور المسئول يبدو كإمبراطور بينهم ، فحينما يظهر ، نراهم يجرون هنا وهناك ، وتنطلق الأوامر ، ويصاب الجميع بالتوتر ، وكنا نضحك ونحن نرى رجل قريتنا « عبد الشكور » الذى انضم إلى جماعة المخيم ، وقد خلع جلبابه الشعبى ، ولبس قميصًا وسروالًا من الدمور الأبيض الكالح ، كان منظره فى أعيننا شاذًا وغريبًا ، وكان الحديث عن « عبد الشكور » فى كل بيت من بيوت القرية ، فقد أصبح ذا سلطة وبأس ، وأصبح فى مقدوره أن يتجسس على البيوت ، ويستطلع الأخبار ، ويكشف سر المرضى المختفين فى بيوتهم ، فيبادر الطبيب بإرسال من يدهمون البيت فجأة ، ويخرجون المريض عنوة وقهرًا ، وسط صياح النسوة وبكائهن وندبهن ، فقد كان يظن أن كل من يدخل هذا الكردون لا يخرج منه إلا جثة هامدة ، وكان يقال عنه ما يقال عن السجن « داخله مفقود ، والخارج منه مولود » .

ومن الواضح أن هذه الإجراءات كلها تتعلق بوباء خطير انتشر فى تلك الآونة ، وكان الضحايا بالعشرات ، ومن ثم لجأت السلطات الصحية لاتخاذ الإجراءات المناسبة ، من رقابة وعزل للمرضى وما إلى ذلك ، ولم يكن الأهالى على وعى كامل بتلك الإجراءات ، ولم يحاول أحد أن يشرح لهم مدى خطورة الوباء ، وأهمية الإجراءات التى تتخذ بصدده ، كان الناس يظنون أن ذلك الوباء عقاب من الله ، بسبب ما استشرى من فساد وظلم ، وأن أية قوة فى الأرض ، لن تستطيع أن تحد من الوباء أو تقضى عليه ، وإذا أنزل الله بلاء فلا كاشف له إلا هو ، ورأى الناس أن العزل لم يحم المرضى من الموت ، لم يكونوا يفهمون أن العزل أساسًا لحماية الأصحاء من العدوى ، ولهذا كرهوا « الكردون » ، وكرهوا مستشفى الحميات ، بل وكرهوا رجال الصحة ، واعتبروا أن وجودهم فى القرية شر مستطير وأخذوا

يدعون الله أن يخلصهم منهم، ونشط رجال الحلقات الصوفية فى إقامة الأذكار، وقراءة الأدعية والأوراد، آملين من الله أن يكشف الغمة، ويزيل الكرب، وظل «عبد الشكور» مكروهًا من أهالى القرية فترة طويلة، واعتبروه خائنًا لبلده، فهو الذى يبلغ عن المرضى، ويأخذهم إلى حيث النهاية المحتومة، فيودعون الحياة وليس إلى جوارهم حبيب أو قريب، أليست هذه- من وجهة نظرهم- وحشية وظلمًا وخيانة، ولذلك كنت ترى الأطفال وهم يسيرون فى الشوارع ويرددون فى نغم رتيب:

لحمة ضاني كل يا دكتور لمّ العضم يا عبد الشكور

وهم يقصدون من وراء ذلك رمى عبد الشكور بالحطة والدناءة، والرضى بفتات الموائد، وبقروش قليلة، نظير خضوعه للغرباء، ومدهم بالمعلومات والأسرار المشينة ! !

ويقال أن أحد الجزارين بالقرية رفض أن يبيع اللحم لعبد الشكور قائلًا: «أنا لا أتعامل مع أهل الكردون»

فرد عليه عبد الشكور فى حنق: «لقد أتوا لخدمتكم يا بهائم ..»

- «إنهم مجرد حانوتية ..»

ولم يوافق الجزار على بيع اللحم إلا عندما هدده العمدة ..

وأذكر أيضًا أنهم دقوا بيتنا القديم ذات يوم، وأخذونى أنا وأخى الأصغر أمين إلى مكان قريب من الكردون فى أحد البيوت، وخلعوا ملابسنا تمامًا بعد أن حلقوا لنا رءوسنا .. ثم صبوا علينا ماء باردًا- فى عز الشتاء- مضافًا إليه بعض الأدوية ذات الرائحة المميزة، ولم يعيدوا إلينا ملابسنا إلا بعد أن وضعوها فى المبخرة، وهى جهاز تعقيم حسبما أظن، وسرعان ما لبسناها وانصرفنا عائدين إلى منازلنا، ونحن نرتجف من البرد والرعب ..

ربما كان هذا الوباء هو التيفوس .. لقد كنت فى سن الرابعة أو الخامسة على ما أعتقد وكان أخى أمين يصغرنى بعام واحد .. ولذا لا أستطيع تحديد ماهية ذلك الوباء بالضبط ..

لكن فى عام ١٩٤٧ كنا على دراية تامة بما حدث آنذاك، كنا فى المرحلة الثانوية، وكان الوباء الذى انتشر هو «الكوليرا»، والتى يقال أنها جاءت من المنطقة المجاورة لمعسكر القوات البريطانية فى «القرين»، ،تفشى وباء الكوليرا بصورة رهيبة، وكانت قريتنا مسرحًا لضحايا كثر، كانوا يأخذون المرضى إلى البندر، وأغلبهم لا يرجع إلا ميتًا، وينطلع الصراخ من هذا البيت أو ذاك، وفرق التطعيم ضد المرض تجوب الشوارع، والوحدات المتنقلة ترش المبيدات وتنظف الأماكن، لتقضى على الذباب والقاذورات، وارتفع سعر الليمون آنذاك، نظرًا لأن عصير الليمون له القدرة على قتل الميكروب، ومن ثم ترى الناس يعصرونه على المأكولات والمشروبات، ويمسحون به أيديهم بعد المصافحة، أو الخروج من دورة المياه، كما كانوا يتزاحمون على مراكز التطعيم التى اشترك فيها عدد غير قليل من المتطوعين من أهالى القرية، أولئك الذين تدربوا على إعطاء الحقن، كما كان أئمة المساجد والوعاظ يوصون الناس بالنظافة، وعدم مغادرة القرية إلى أماكن أخرى، ويرددون حديث رسول الله: «إذا كان الطاعون (الوباء» بأرض فلا تدخلوها، وإن كنتم بها فلا تخرجوا منها أو كما قال».

الواقع أن صورة القرية فى هذه المرة، تختلف تمام الاختلاف عن صورتها أيام الوباء السابق، لقد

أصبحوا أكثر وعيًا وفهمًا ونضجًا، وشاركوا بأنفسهم فى مكافحة الوباء، وكثيرون منهم كانوا يتخذون الإجراءات الوقائية، ويشترون محلول السليمانى الذى يستخدمونه فى تطهير أيديهم وبعض الأطعمة والمواد الأخرى، وامتنعوا تمامًا عن شراء البلح الذى كان يظن أنه وسيلة نقل المرض من القرية الشهيرة بزراعة البلح، بل إن بعض الناس كانوا يرفضون أن يصافحوا أحدًا حتى لا تنتقل إليهم العدوى.

وأذكر أننا كنا فى مدينة طنطا حينما صدر الأمر بمنع السفر من بلد لآخر، فأردنا العودة إلى القرية، فلم نجد وسيلة من وسائل المواصلات، فكان أن اضطررنا إلى العودة مشيًا على الأقدام ما يقرب من عشرين كيلو مترًا، وأثناء الطريق كنا نفاجأ ببعض فرق المكافحة، وهى تسألنا هل أخذنا الطعم الواقى أم لا، وكان كل فرد معه بطاقة عليها صورته، مثبوت فيه جرعات التطعيم وتاريخها، ومن لا يحمل مثل هذه البطاقة لا يمكن أن يفلت من أخذ الحقنة.

ولقد أخذ منى الهلع كل مأخذ حينما دخلت دورة المياه ذات مرة، ووجدنى أعانى من إسهال بسيط، وخرجت مذعورًا لأروى لهم ما حدث، وعلى الرغم من الارتباك الذى ساد البيت إلا أن أبى قال متماسكًا: «لقد أخذت الحقنتين.. فلا يعقل أن تصاب بالمرض بعد التطعيم.. هذه واحدة والثانية أن الكوليرا تأتى بقىء شديد، وإسهال أشد.. وأنت لم تسهل غير مرة واحدة.. اعتمد على الله يا رجل.. اذهب واشرب كوبًا من عصير الليمون ..» ومر الأمر بسلام.

كانت الصحف اليومية آنذاك تتخذ من الكوليرا موضوع الساعة، وتذكر أرقام الإصابات فى كل محافظة من المحافظات، وتسجل أيضًا عدد الوفيات، وتكتب تحقيقات صحيفة عن واقع الوباء، وآراء الأطباء، وتبرز الإرشادات الواجب اتخاذها، كما كانت الإذاعة تفعل نفس الشىء، وبعد أن تناقصت الإصابات، وخفت حدة الوباء، خففت الحكومة إجراءات الانتقال، وغيرها من الإجراءات المتعلقة بالغذاء والماء والمطاعم، لكنها حذرت من حدوث موجة جديدة من الوباء بعد أشهر قليلة، وأخذت تعد الإجراءات الواجبة عند حدوثه.

لقد تذكرت ما جرى فى عام ١٩٤٧، ثم تذكرت ما حدث فى عام ١٩٨٣، لقد حاولت السلطات الصحية إخفاء الأمر، ووضعت عليه تعتيمًا إعلاميًا، وأطلقت على الكوليرا اسم «أمراض الصيف»، ووقع الناس فى حيص بيص، وعلى الرغم من أن الصحافة ألمحت إلى الموضوع، وعتبت على وزارة الصحة، إلا أن الوزير- سامحه الله- رد بشجاعة، مؤكدًا تصريحات المسئولين السابقة بأنها أمراض الصيف، ولم يذكر كلمة واحدة عن الكوليرا، على الرغم من معرفة الجميع الحقيقة التى لا مراء فيها.. أيمكن أن يكون الناس فى الأربعينيات من القرن العشرين، أنضج فكرًا، وأصدق قولًا، وأكثر صراحة من جيل الثمانينيات؟ إنها كارثة، حتى لو كان السبب الحرص على السياحة ودخلنا الكبير منها، إن قانون منظمة الصحة العالمية، يلزم أية دولة بالإبلاغ عن أية أمراض معدية تظهر فيها، حماية لصحة المجتمع العالمى، ولاتخاذ الإجراءات المحلية والدولية المناسبة، ولكى تساهم المنظمة بخبراتها وقدراتها فى التخلص من ذلك الوباء، وخاصة أن نسبة نجاح التطعيمات اليوم بالنسبة للكوليرا أصبحت محدودة، بل لا يعول عليها كثيرًا، والإجراء الأساسى الوقائى هو ما يقوم به الجمهور من خطوات

وقائية فى المنزل والمؤسسة والسوق والشارع ، فهل يستطيع الشعب أن يؤدى دوره بكفاءة واقتدار ، وهو لا يعلم حقيقة الوباء الذى يتعرض له ؟ إنها لمصيبة .. لو كنت مكان هذا الوزير الطبيب لأعلنت الحقيقة صراحة ، وإلا فالاستقالة أشرف .. ورحم الله « أيام زمان ...»

ولقد حفل الشعراء والكتاب بموضوع الكوليرا ، وقرأت عنها بعض الأشعار ، فالشعراء هم أسرع الناس استجابة لما يجد من أحداث ، وكان للكوليرا أسماء شعبية ، وأسماء فى اللغة الفصحى ، وأذكر أن المرحوم الجارم قال فيها قديمًا :

سمعت بأن فى مصر وباء اسمه « الهيضا »
ومن يك عنده مغص فقد أضحى من المرضى

ومع أن شاعرنا أبرز أعراض « المغص »- وهو نادر- إلا أن الأعراض الطبية البارزة هى الإسهال المميز والقىء ، والجفاف الشديد الذى يصيب المريض ، نتيجة لفقدان السوائل ومعها الأملاح الهامة بالجسم ، بسبب الإسهال والقىء ..

وعقب هذا الوباء بعام اندلعت حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ ..

❁❁❁

[٩] ذكريات شباب



كان مسكننا فى « كفرة على أغا » بطنطا ، وهو حى شعبى عتيق ، به بعض البنايات الحديثة ، وكان الشاب « غازى » هو فتوة الحى دون منازع ، كان قوى البنية ، مفتول العضلات ، ذا نظرات حادة ، سريع رد الفعل ، ويده تسبق لسانه ، على الرغم من أنه شاب متعلم ؛ إذ كان فى نهاية المرحلة الثانوية ، ويقال أنه يفرض بعض الإتاوات على صغار الحرفيين وأصحاب الحوانيت الصغيرة ، والمهم أنه يصادق الفتيات الجميلات بالمنطقة ولا يستطيع أحد أن يقترب منهن بدون إذنه ، ومن ثم فإن هواة قصص الحب والغرام ، عليهم أن يبحثوا لهم عن « حبيبة القلب » خارج دائرة غازى ، والحقيقة أنه « فتوة » من نوع ملفت للنظر ، فأبوه مستور الحال ، وموظف ذو دخل لا بأس به ، والأسرة بصفة عامة طيبة ، وأخته بارعة الجمال ، وتذهب إلى مدرستها الثانوية كل يوم ، مرفوعة الرأس كملكة ، وكان أبناء شرشابة يشكلون عددًا كبيرًا ، لكننا لم نكن نصطدم بأحد ، وكان علينا أن نرضى بالأمر بالواقع ، ولا ننازع غازى عرشه .

لكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، كان زميلنا أحمد مشاغبًا لحد كبير ، وهو الآخر يتمتع بقوة جسدية فائقة ، ويشغل حيزًا كبيرًا من تفكيره بالنساء أو الفتيات الجميلات بمعنى أصح ، ولم يكن يكترث بواجباته الدراسية على الرغم من كبر سنه ، فضلًا عن أنه من أبناء الأثرياء فى القرية ، ولديه ما يكفيه وزيادة من المأكل والملبس والمال ، كان أحمد يغازل إحدى فتيات الحى فرآه « غازى » ، ولم يفكر طويلًا إذ انقض على « أحمد » كالوحش المفترس ، ووقفنا فى البداية مشدوهين ، لكن أحمد تلقفه بين ذراعيه القويتين ، ثم رفعه إلى أعلى وقذف به وسط الأوحال ، وعاد لينحنى فوقه ، ويجره من طوقه ، ثم يوقفه ، ويهوى على وجهه بالصفعات ، ويتناوله بالركلات ، واحتشد الناس من كل صوب ليشهدوا المعركة التى بدت وكأنها من طرف واحد ، وذهلنا إذ رأينا غازى يبتسم فى مرارة ، ثم يمد يده مصافحًا لأحمد ويقول له : « مبروك .. أنا تحت أمرك » .

وهكذا أصبح أحمد « فتوة الكفرة » ، وأتى الحاضرون يصافحونه ، وكأنهم يبايعونه، وجلس أحمد من يومها على عرشه ، واستمر هكذا لبضع سنوا ت، حتى تزوج إحدى قريباته واستقام أمره ، وطوال تلك الفترة ، كان صاحبنا أحمد يمشى فى الحى فى عنجهية وكبرياء ، وكانت له غزوات نسائية مشينة لم نسمع بها من قبل ، وأصبح ذكره على كل لسان ، ورغم ذلك يلقى الاحترام أينما رحل ، وحيثما حل ، لكنه لم يستغل مكانته فى شىء آخر ، فلم يفرض الإتاوات ، أو يعتدى على الأبرياء ، أو يسمع للوشايات ، كانت نظراته المخيفة المتوعدة تكفى لإسكات أى صوت للمعارضة أو النقد ، ولقد كانت هذه « الفتونة » كارثة حاقت به ، إذ توقف تمامًا عن النجاح فى مراحله الدراسية ، وترك المدرسة بعد أن كبر دون أن ينال شهادة الثقافة العامة (الرابعة الثانوية) ، واستطاع أن يحصل على وظيفة متواضعة فى

إحدى الشركات التابعة للقطاع العام ، وظل يتدرج فيها حتى أصبح ذا مرتب كبير ، لكن الأبناء كثروا وكبروا ، وانشغل تمامًا بشئون الحياة ، ومال إلى المهادنة والهدوء والدأب حتى يستطيع أن يتحمل عبء أسرته الكبيرة ، ولكنى أراه لمامًا .. فأرى الشيب قد خط رأسه وشاربه .. والتجاعيد تكسو وجهه ، والابتسامة الطيبة ترتسم على فمه ، لقد ذهب العبث والغرور والغطرسة ، ولا ظل لنظرات التهديد والوعيد ، ودائمًا يبدى الندم على السنوات التى ضاعت هباءً ، وفرصة التعليم التى فرت منه أيام الغفلة ، لكنه يحرص أشد الحرص على أن يدفع أولاده دفعًا للنجاح فى دراستهم ، كى يعوضوا ما فقده هو فى شبابه العابث ..

لا شك أن مرحلة الثانوى كانت مرحلة حرجة بالنسبة للشباب القادمين من القرية ، لم تكن هناك رقابة منزلية أو توجيه ، فهم غرباء ، ولذلك نسمع كل يوم عن قصة من قصص الانحراف ، أو حادثة من حوادث المروق والفساد ، فيقال إن زميلنا فلانًا قد تسلل إلى بيت مشبوه ، وأنفق مصروفه الشهرى لدى مومس ، وعاد ليقترض من هنا وهناك كى يأكل ، أو أن زميلًا آخر قد أحب إحدى بنات الحى ، ويذهب معها إلى السينما ، ويستعير ملابس مناسبة لكى يتنزه معها ، ويبذل المستحيل ليحصل على مال ينفقه عليها ، وزميل ثالث يلعب القمار ، ورابع يرتاد غرز الحشيش والمخدرات ، وبعضهم انضم لفريق اللصوص كى يجد ثمن السجائر التى يدخنها ، وكنا نكاد نستلقى على ظهورنا من الضحك ، عندما يجىء ذكر واحد يحب شرب القهوة بجنون ، ويمشى فى شوارع طنطا باحثًا عن مأتم ، كى يدخل ليقدم واجب العزاء ، ويشرب القهوة مجانًا ، وقد يذهب البعض إلى مقام السيد البدوى حيث الطعام الذى يقدمه أهل الخير ، من لحم وثريد ، فيأكلون ويشبعون ، ولم تكن هذه الأمور أو غيرها تثير لدينا ألمًا عميقًا ، فقد كانت شائعة نراها أو نسمع عنها كل يوم ، والواقع أن حياة الطلبة القرويين فى المدينة ، حياة صعبة ، فيها الكثير من المتاعب ، لكنها كانت تمضى هينة ، لكثرة ما تعودنا عليها أو ألفناها ، فأصبحت تلك الأمور ملازمة لنا كظلنا ..

وإن أنس لا أنس تلك الفتاة الجميلة التى كانت تسكن على مقربة منا عندما انتقلنا إلى السكن فى شارع « سلامة حجازى » ، كانت صغيرة كالوردة الندية ، لا يتجاوز عمرها السادسة عشرة ، لم أسمع صوتها مرة واحدة ، كنت أراها فقط ، وأشعر بحب عميق نحوها ، وأحرص أشد الحرص على رؤيتها دون كلام ، كانت ترمقنى بنظرة عابرة ، وأختلس أنا إليها النظرات المحرومة ، وبقيت العلاقة هكذا .. أنا أحلم .. وأتخيل وأتخيل .. ويدور بينى وبينها حوار وأنا نائم على سريرى ، أو سابح فى أحلام اليقظة ، وأضع الخطط ، وأتخذ القرارات ، وأقول لنفسى لابد أن أفاتحها الأمر ، وأحكى لها عن مشاعرى نحوها ، ونذهب معًا لكى نتمشى على شاطئ الترعة ، أو نتسكع فى شوارع طنطا ، أو ندخل السينما .. وأظل هكذا أفكر ، فإذا ما أصبح الصباح ، وقصدت مدرستى ، وشاهدتها فى الطريق ، دق قلبى ، وذابت شجاعتى وتبخر كل شىء .. وكأن لم أسهر وأتعذب .. كان يكفى أن ترمينى بنظرتها ، فيضيع كل شىء ، كان فى عينيها صفاء غريب ، وعلى وجهها نضرة وحيوية تشى بالفتنة الآسرة ، واستطاعت أن تملأ خيالى ...، جلست لأكتب فيها شعرًا :

قلت والريم تجاهى قد رنا ... أى معنى ذلك الريم عنى

أعــتــابًــا أم هــيــامًــا أم ضــنــى ذاك ســر لأم تُــرد أن يــعــلــنــا
فــكــفــانــي أن أرى وجــه المنــى وكــفــى الــقــلــب لــقــاهــا .. والــســنــا

* * *

أى غــاز قــد غــزانــى يــا شــبــابــي أى رام قــد رمــى خــلــف الــنــقــابِ
خــفــى الــرامــى بــطــيــات الحجــابِ فــتــهــاويــت .. وقــد طــال عــذابــي
بــجــراحــى ودمــوعــى وخــضــابــي .... الــخ

كان زملائى يسمعون هذا الشعر ويعلق أحدهم قائلًا : « من هذه يا نمس ؟ »

ويعلق آخر قائلًا فى سخرية : « هذا شارع فقر : ليس فيه واحدة تملأ العين »

وثالث يعلق : « الشعراء يقولون أى كلام .. أوهام وأحلام وتخريف ..»

ولم أكن أعلق بشيء .. كنت أكتم ما بقلبى ، وأتجول فى عالمى الخاص الذى لا نهاية له ، عالم الأحلام .. والورود .. والسماء الزرقاء الصافية .. والفجر الفضى .. ونجوى الشعر والعواطف الجياشة .. وأظل أحلم حتى أفيق على صوت الواقع والدروس والمدرسة وكرة القدم وأخبار السياسة ، والطعام والشراب ..

وجاء يوم لا يمكن أن أنساه .. كنا نتحدث عن الحب والبنات ، ويحكى كل تجربته ، وعندما جاء ذكر فتاتى ، قهقهوا حتى كادوا يستلقوا على أقفيتهم وخاصة عندما قلت : « أخلاقها ممتازة » ، وعلمت ويا لهول ما علمت ، لقد فهمت أنها على علاقة آثمة بزميل لنا لا يسكن معنا اسمه (م .) ، لم أصدق فى بداية الأمر ، ورميتهم بالنذالة والكذب والافتراء والبذاءة إلى آخر ذلك القاموس من الصفات الحادة ، لكنهم أخذونى إلى « المتهم » الذى حاول أن ينكر فى البداية ، وسرعان ما انفجر ضاحكًا وأخذ يروى تفاصيل علاقاته معها ، وأنا استمع إليه فى ذهول ، وعندما رأيتها فى اليوم التالى وجدت فتاة أخرى تمامًا .. سددت إليها نظرات صارمة عاتبة دون أن أنطق ، ورأيتها تنظر ، ثم تهرب نظراتها .. لم أعد أرى الصفاء والنضارة ، وبدت لى ملامحها منفرة تثير الحنق ، وخيل إلىّ أن أحمر الشفاه مقزز سمج .. كل شيء تغير فيها ، دون أن يحدث بيننا نقاش أو مواجهة .. شعرت بأشد الندم إزاء الساعات والليالى الطوال التى قضيتها مفكرًا فيها ، وأسفت على الشعر الذى كنت أسطره بروحى فى حماس بالغ ، ونشوة عارمة ..

وذات مساء قلت لهم : « يجب أن نرحل عن هذا المكان »

– « لماذا ؟ »

– « إنه مكان ردىء .. ضيق .. وجيرانه سيئون ..»

ولما رفضوا الانتقال ، حملت سريرى وحاجاتى ، وانفصلت عنهم ، دون أن يعلم أحد بالسبب الرئيسى لنفورى من المسكن والشارع بأسره

كانت تجربة مرة عانيت منها كثيرًا ، ولم تتكشف لى أبعادها إلا بعد أن رحلت بشهور ، أدركت أنها تجربة طائشة لا معنى لها ولا هدف ، كانت فتاة غير متعلمة ، ولم أفكر فى هدف عاطفتى نحوها ، فلم يكن خاطر الزواج على بال ، إذن ما معنى هذا العبث ؟ أكان مجرد إشباع عاطفتى فى هذه الظروف

التى تتسم بالقحط والوحدة والقلق النفسى والانفعالات ؟ هل كان ذلك بتأثير ما نشاهده من أفلام ، وما نقرؤه من روايات عاطفية ، وما نسمعه من قصص الزملاء والأصدقاء ؟ لا أدرى .. المهم أننى كرهت الموضوع برمته ، بل كنت أتحاشى مجرد المرور فى هذا الشارع ، ودفنت أساى فى الدروس والقراءات الخاصة والشعر ، وكم كان يؤلمنى أن يأتى أحد الأصدقاء ويقول لى : « أعلم أنك تجيد الشعر والإنشاء ، ألا تتكرم بإعطائى رسالة جميلة- شعرًا أو نثرًا- كى أبعث بها لحبيبة القلب ؟ إنها خدمة لأخيك المسكين ..»

كان قصيرًا أنيقًا ، منسق الشعر ، ويلبس حذاءًا ذا كعب عال كى يبدو طويل القامة بعض الشىء ، وكان يحرص على تنميق شاربه ، ويروى الكثير عن مغامراته ، ويقدم لنا كدليل بعض الصور الفوتوغرافية لحبيبته ، وأحيانًا يقدم لنا خطابًا منها ، مكتوبًا على ورقة منزوعة من كراسة المدرسة ، وكنت أعجز عن فهم هؤلاء الزملاء كيف يستطيعون الوصول لهذه الدرجة من العلاقة ؟ بل كيف يستطيع بعضهم أن يتمادى حتى يرتكب ما لا يصح .. وأقارن بينى وبينهم فتدور رأسى ، وأعجز عن التفسير الصحيح ..

وفكرت فى تلك الفترة أن أزيد من اهتماماتى الأدبية ، وأن أحاول جمع ما كتبته من أشعار فى المناسبات الوطنية والدينية والعاطفية كى أصدر ديوانًا صغيرًا ، والواقع أن هذا الموضوع قد ملك على تفكيرى تمامًا ، على الرغم من أننى لم أكن أمتلك أى مبلغ فائض من المال كى أطبع ذلك الديوان على نفقتى الخاصة ، لكننى كنت أردد دائمًا « مع العزيمة تهون الصعاب » .. وقد تم ما حلمت به ..

❁❁❁

[١٠] بعض من عرفت



الذى لا شك فيه أن الوازع الدينى كان يحكم تصرفاتنا فى هذه السن الباكرة، ونبدو كما لو أن هناك قيودًا خفية تحد من حركتنا الجانحة، وتمنعنا من الزيغ والانحراف، وكنا منذ الصغر نشعر بغم واكتئاب إذا تكاسلنا عن الصلاة، أو ارتكبنا مخالفة تتنافى مع الآداب الدينية، إن ضميرنا الدينى يلهبنا بسياطه دون رحمة، ولعل الدروس الدينية التى كنا نتلقاها فى المدرسة كانت أقل تأثيرًا فى سلوكنا مما نحصله من آداب ومعلومات دينية خارج المدرسة للأسف الشديد، ومناهج التربية الإسلامية فى المدارس قاصرة فى عمومها، وتؤدى بطريقة جافة لا إثارة فيها، اللهم إلا سير عظماء المسلمين التى كانت تهز مشاعرنا، وتجعلنا نمتلئ فخرًا، ونتمنى أن نكون على شاكلة أجدادنا العظماء.

وكان أكثر ما يؤثر فينا فئة من الخطباء الأفذاذ فى بعض المساجد والمحافل السياسية والدينية، نقصدهم عن طواعية، فنسمع منهم موضوعات شائقة تربط الدين بالدنيا، وتمضى بنا فى ركب الحياة ومشاكلها وهمومها، وتعالج القضايا الحساسة فى المجتمع على ضوء التعاليم الأساسية والدينية، وترسم منهجًا للسلوك العام، يشبع الروح والعقل، كما كان فى مدرستنا الثانوية «الأستاذ تحفة» وهو رجل طلق اللسان، حلو الأسلوب، دفاق العاطفة، يهيم بنا فى آفاق عليا من الأمجاد الإسلامية، وأحداث التاريخ الباهرة، وخاصة فى مناسبات الهجرة والمولد النبوى وغيرهما، وكنا ننتظر كلمته على أحر من الجمر، فإذا ما تكلم، أصاخت الأسماع، وحملقت العيون، ثم تلتهب الأكف بالتصفيق، وتنشق الحناجر بالهتاف والتكبير والتهليل، وكانت الصحف والمجلات التى تحفل بالموضوعات ذات المنحى الدينى تجذبنى إليها جذبًا، وكذلك المؤلفات الجيدة، والبحوث المعاصرة التى تتناول قضايا السياسة والمجتمع والاقتصاد والعلم فى ضوء القيم الدينية، والواقع أن الناظر فى صحافة تلك الفترة يجد أنماطًا ثلاثة من الأداء الفكرى:

فهناك الصحافة الدينية ذات الطابع المميز، والتى تمزج بين الأصالة والمعاصرة، وفيها زاد لا ينفد من الآراء والأحكام والأحاديث النبوية والبحوث الفقهية..

وهناك الصحافة العصرية، بصورها الخليعة، وآرائها الجريئة، والتطرق إلى موضوعات حساسة تبعث على الخجل وقلة الحياء، وفيها أيضًا تصوير لحياة غربية صرفة، ودعوة للأخذ بأساليب الانطلاق والتحلل دون وازع من ضمير أو دين، ومثل تلك المطبوعات لا تتورع عن مهاجمة المتدينين، ورميهم بالتحجر والجمود والرجعية والتعصب، لا فى المقالات والأخبار فحسب، بل فى القصص والشعر والكاريكاتير، وكان لها جمهورها العريض المخدوع، كما كان لها دعم داخلى وخارجى لا يعلم الله إلا مدى خطورته.

وهناك الصحافة المنافقة ، التى تحاول إرضاء أذواق هؤلاء وأولئك ، فهى تحتفى بالحفلات الفنية والسياسية والسلوك العصرى ، وفى نفس الوقت تفرد بعض مساحاتها للفكر الدينى .

وكان لنجوم الفن فى هذه الأيام مكانة لا تعلو عليها مكانة ، كانت أخبارهم وتصريحاتهم ومذكراتهم وصورهم ، تشغل حيزًا أكبر من الساسة والأمراء والفلاسفة وكبار الكتاب ، وأصبح رجل الشارع يعرف عن كوكب الشرق وعبد الوهاب وفريد الأطرش ويوسف وهبى وليلى مراد وأنور وجدى ، أكثر بكثير مما يعرف عن العقاد وشوقى وطه حسين والمازنى والرافعى ومحمد فريد وجدى والمراغى وغيرهم .

وقد يتصادف أن يموت مفكر كبير ، فلا تجد فى جنازته إلا القليلين ، بينما تسد الطرقات وتزدحم الشرفات إذا شيعت جنازة فنان من الفنانين ، فلم يكن غريبًا أن نلجأ إلى شراء بعض المجلات القديمة التى صدرت فى الثلاثينيات من القرن العشرين ، لنستمتع بما فيها من أدب وفكر ، حتى الآداب المترجمة كانت تحرص على تحقيق الربح والتسلية ، ومن ثم كان أغلب المترجم يدور حول الموضوعات العاطفية والجرائم الشهيرة ، والقصص الرومانتيكى المثير ، وقليل من أدب الشوامخ ، وهذا ما حدا بوزارة المعارف إلى إنشاء مشروع « الألف كتاب » كى تترجم من خلاله ، ما يسد الفراغ من أدب ناضج ،وفلسفة مفيدة ، وفنون مستحدثة ، وعلم جديد ، كى تثرى حياتنا الفكرية والأدبية ، حتى السينما هى الأخرى كانت تغص بالأفلام الأجنبية المستوردة التى تحفل بالجنس والإثارة فى غالبيتها ، ويظل عرضها مستمرًا لأيام طويلة ، والناس يتزاحمون عليها من كل فج ..

وامتلأت الساحة الفكرية بتيارات متصارعة شرقية وغربية ، وشيوعية ورأسمالية ، ودينية وإلحادية ، وعاش شباب جيلنا فى هذا الطوفان الهادر من التناقض والقلق ، حتى عميت السبل ، واختلطت الأمور ، وأصبح من العسير أن يعرف الخطأ من الصواب ، والصالح من الطالح ، والمفيد من الضار ، وغرق فى هذا الخضم من غرق ، ولم ينجح إلا من عصم ربك .

ومن المؤسف أن عددًا من كبار الكتاب قد أوقع فى هوة الخلافات الحزبية والمذهبية ، وكذلك الحزازات الشخصية ، فأضاعوا الكثير من هيبتهم وثمرة جهودهم ، وفقدوا الكثير من التأثير والتوجيه لأبناء مجتمعهم ، فأصبح منهم من يناصر « القصر الملكى » ، ويترنم شعرًا ونثرًا بأمجاده وعظمته ، متجاهلًا ما ينخر فيه من فساد ومظالم وموبقات ، وفى نفس الوقت يتصدى بالهجوم والنيل من خصوم القصر مهما كانت سلامة نواياهم ، وشرف مقصدهم ، وعدالة قضيتهم ، وهناك من ناصر حزبًا على آخر ، وأغلق عينيه عن انحرافات حزبه أو خيانته ، وانصرف بكل همه يهدم أمجاد الحزب الآخر إن صح التعبير ، حتى علماء الأزهر لم يسلموا هم الآخرون من الانضواء تحت لواء حزب من الأحزاب ، بل إن بعضهم للأسف سار فى ركاب القصر ، وبعضهم الآخر عادى القصر ، وأدانه علانية فى شجاعة تبهر العقول .

ومن البديهى أن يختلف الناس فى زوايا الرؤية والتحليل والأحكام ووجهة النظر الفكرية أو السياسية ، لكن لابد أن يكون هناك قدر من الاتفاق حول القضايا الجوهرية المصيرية مهما كان الأمر ، فلا يصح أن يقال مثلًا : « إن الاحتلال على يد الوفد خير من الاستقلال على يد عدلى باشا » أو أن يعلن أن « الملك الصالح فاروق من نسل بيت النبوة ..» أو « لقد تزوجت بريطانيا من مصر زواجًا كاثوليكيا » ، أو أن « العقاد عميل لبريطانيا ..،طه حسين كافر ..،السعديون برادع الإنجليز .. والإخوان المسلمون رجعيون ..» الخ تلك العبارات والشعارات التى تفيض بها الصحف والمطبوعات فى تلك الفترة ..

لقد غلب الهوى على الموضوعية ، والمطامع الشخصية على المصلحة العامة ، والحقد الشخصى على سلامة الأحكام عند تقييم الرجال الأفاضل ، وأصبحت الحزبية للأسف دينًا جديدًا تراق فى سبيله الدماء ، ويرفع السلاح ، وتجند الأقلام ، ويُضحى بالغالى والنفيس ، وكاد الجميع أن ينسوا العدو الرابض على أرضهم ، والعدو الذى يزحف شرقًا على فلسطين ، لولا فئة من المخلصين الواعين لم يقعوا فى ذلك الشرك اللعين ، واعتصموا بالأمانة والصدق ، ودعوا بإلحاح إلى تحرير الإنسان والأرض ، والعودة إلى قيم الحياة الفاضلة ..

وأذكر أننى فى هذه الفترة كنت أحب مجلة « الرسالة » ، سواء ما كان يصدر منها آنذاك أو مجلداتها القديمة ، وكنت أحرص على قراءة باب الشعر فيها بالذات لأنه كان يضم نخبة من شعراء العالم العربى ، ممن عرفوا بعمق الفكر وجمال الأداء ، وعلى صفحات الرسالة عرفت الزيات والرافعى وزكى مبارك ودرينى خشبة والزهاوى وأنور المعداوى ، وعدد كبير من الكتاب عرفوا بالصدق والأصالة والموضوعية فى معظم أعمالهم .

كما حرصت على اقتناء مجلة « الهلال » ، وفيها عرفت أحمد أمين والعقاد والمازنى وطه حسين وتوفيق دياب وفكرى أباظة والشاعر محمود عماد وعلى الجارم فى قصصه التاريخى والعريان ومهدى علام وغيرهم .

كانت كتابات توفيق الحكيم تستهوينى بشدة ، فهو دائمًا صاحب فكرة ما ، ويحرص على تبسيطها وبلورتها بأسلوبه السهل الممتنع كما يقولون ، وكان ذكيًا فى حواره ، يستطيع أن يفتح آفاقًا عديدة أمام القارئ ، وكانت قصصه القصيرة مبتكرة فى موضوعاتها ، غنية بصورها الملفتة للنظر ، لكنه فى رواياته كان يستطرد كثيرًا فى السرد ، ويتدخل مباشرة فى عدد كبير من الأحداث ، وكان أيضًا يمعن فى تصوير بعض الأحداث والتفاصيل التى تخدش الحياء ، ومع ذلك فقد استفدت منه كثيرًا ، حتى أن آراءه الفلسفية أو النقدية فى كتابه « التعادلية » وفى كتابه « فن الأدب » تناول قضايا حيوية من وجهة نظره تبدو شيقة وجادة ومثيرة للجدل .

وشغفت بعمق العقاد ودراساته التحليلية ، ومعلوماته الوافية ، وإطلاعه الواسع ، وقدرته الفذة على إبداء الرأى ، حول ما يتعرض له من قضايا ، كان ينتقد فلاسفة الغرب ومفكريه انطلاقًا من فهم عميق ، وقدرة فائقة ، وكان جديد الفكرة ، جديد الرأى ، يأنف من أن يتبنى رأى أحد ، كان بحق عملاقًا فى فنه ، واثقًا بنفسه لأبعد حدود الثقة ، ولا يستطيع أحد أن ينكر مواقفه المشهودة ضد قوى « الزحف الأحمر » فى مصر وغيرها ، فى وقت استطاعت فيه الماركسية والماركسيون أن يتخذوا لهم مواقع حصينة فى ساحة الفن والصحافة والسياسة والتنظيمات الحزبية الحكومية ، فلم يكل العقاد أو يمل ، بل ظل مثابرًا فى مهاجمتهم ، وتعرية مقاصدهم ، ولم يتوقف عن دراساته الإسلامية التى ظلت تصدر تباعًا حتى فى أحرج الأوقات ، وأشدها حساسية .

وكانت نقطة الضعف فيه- وجلّ من لا يخطئ- هى انتماؤه الحزبى السابق ، وعندما حدث الصدام بين حزبه وبين الوفد ، لم يتوان عن إشهار سيفه فى وجه خصوم حزبه ، ولما تدهورت الأوضاع بين القصر الملكى وحزب السعديين والدستوريين من جانب ، وبين الإخوان المسلمين من جانب آخر ، ورأيناه يعلن حربه دون هوادة ، ويتصيد أمورًا غريبة لا تمت إلى الحقيقة والواقع والصدق التاريخى

بصلة ، كتلك المقالة التى كتبها عن الإمام الشهيد حسن البنا يجرحه فيها ، ويفترض فى نسبه افتراضات مستحيلة لا أساس لها من الصحة إطلاقًا ، وهذا ليس رأيى وحدى ، بل رأى كاتبين كبيرين من كتاب اليسار هما محمود أمين العالم والدكتور عبد العظيم أنيس ، إذ إنهما- رغم عدائهما للإخوان- قد فضحا أفكار العقاد المخترعة من الوهم حول الإمام الشهيد ، واتخذوا هذا الإسفاف والزعم الباطل حجة عليه ، وهناك آخرون غيرهما ردوا أباطيل العقاد حول نسب الإمام الشهيد - رحمه الله ، ولم يكن يحدث هذا من مفكر كبير مثل العقاد لولا تعصبه الحزبى ، وولائه غير المشروط لزعماء الحزب ، كانت هذه هى نقطة الضعف الأساسية فى العقاد .

وهناك أمر آخر لا يمكن إغفاله وهو غضبه الشديد على كل من يوجه إليه نقدًا ، والمتصفح لكتاباته النقدية ، يجد نماذج محزنة تؤكد ما نرمى إليه ، ولقد أتيحت لى فرصة الذهاب إلى ندوة العقاد الأسبوعية فى بيته- أيام الجمع- ورأيت بنفسى طبيعة الرجل ورد فعله بالنسبة للأحداث ، وسمعته يتحدث عن الرافعى رحمه الله بأسلوب سيئ ، وينعته بصفات لا يصح أن تصدر عنه ، كما سمعته يتحدث عن الدكتور زكى نجيب محمود ومعتقده الفلسفى وأفكاره ، وقال كلامًا شديد اللهجة ، من الواجب ألا يقال ، ثم تكلم عن صحافيين وأدباء بنفس الطريقة ، ولم يكن أحد من تلامذته الجالسين يرد له قولًا .

وكان من أشد المعجبين به من تلامذته المرحوم الدكتور عبد الحى دياب ، وعبد الحى صديق قديم ، وكان أيامها طالبًا بدار العلوم ، ولا حديث له غير العقاد وآراء العقاد ، وحياة العقاد ، وجاء مجموعة من الأدباء الشبان يشكون عبد الحى للعقاد ، لأنه يتطاول عليهم ، وينسب الكثير من الآراء والأفكار لأستاذه العقاد ، إنه يضرب بسيفه ، ويهاجم بآرائه ، ولا يرحم أحدًا ، فابتسم العقاد وسأل عبد الحى : « هل قلت هذا يا عبد الحى ؟ »

ولما تلعثم عبد الحى ، قهقه العقاد وقال مرددًا بيتًا من الشعر القديم :

وكُلٌّ يدّعى وصلًا بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

ويبقى- رغم كل ذلك- جهد العقاد الكبير فى مجال الدراسات الإسلامية وشخصيات التاريخ الإسلامى الفذة ، لقد ترك موسوعة لا يباريه فيها أحد ، وكان له طريقته وأسلوبه الخاص فى الدراسة ، وعلى الرغم من انتقاد البعض لمنهجه فى الكتابة الإسلامية ، إلا أنه يظل علمًا بارزًا على مدار التاريخ فى هذا الجانب ، الذى أشرق بنور الإسلام ، وترجم عن مبادئه وأيامه ، وأبانَ عن سر عظمته وانتصاراته ..

باختصار .. لقد تركت كتابات العقاد فينا أثرًا لا يمحى ، وتعلمنا منها الكثير ، وتحفظنا إزاء بعض الآراء التى لم ترتكن إلى دليل قوى ، وبرهان أكيد ، وهذا الأثر الذى تركه فينا العقاد ، قد استطاع أن يغزو آفاقًا أخرى غيرنا ، من رجال الفكر والتاريخ فى أوربا عندما قرءوا ترجمة بعض أعماله ، كما أنه- رحمه الله- سدد سهامًا قاتلة للأدعياء من رجال التبشير والاستشراق ، أولئك الذين عاشوا يحاربون الإسلام ويناوئونه .

وأحببت كتابات محمود تيمور ، كان رحمه الله ، يكتب الرواية والقصة القصيرة ، والمسرحية وأدب الرحلات ، كما كانت له كتابات نقدية قليلة ، ولقد أتيح لى أن أجالسه وأحاوره فى السنوات الأخيرة من عمره ، فرأيت فيه رجلًا مهذبًا نبيلًا متواضعًا ، متفرغًا تمامًا للأدب ، وكان يحرص أشد الحرص على نقاء العبارة ، وجمال الأسلوب ، ويستفيد من التراث بذكاء واقتدار ، ومن يقرأ مسرحيته

« اليوم خمر » عن امرئ القيس ، يجد فيها الحوار القوى ، والأسلوب العربى الأصيل الجزل الذى يشع الجو التاريخى لزمن المسرحية ، وكان رحمه الله يعيش الأحداث بقلب متفتح ، وفكر ثاقب ، وأذكر أنه بعد حريق القاهرة الشهير فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ كتب قصة قصيرة فى مجلة الهلال الشهرية بعنوان « الديك » يسجل فيها هذا الحدث البارز تسجيل فنان حصيف .. فماذا فعل معاصرو تيمور الكتاب المشهورون ، وماذا فعل هو ؟ المعاصرون كتبوا شعرًا وقصصًا قصيرة وروايات تصور الحدث المباشر .

أما تيمور فى قصته القصيرة « الديك » فقد لجأ إلى طريقة أخرى .. لقد صور شابًا كسيحًا مريضًا ، يجلس على إحدى نواصى شارع فؤاد بالقاهرة يتلقى الصدقات التى يجود بها المارة ، لكن عين ذلك التعس كانت دائمًا تنظر إلى الديك المشوى الموضوع فى فاترينة زجاجية فى مدخل أحد المطاعم الشهيرة .. وريقه يتحلب منذ زمن طويل .. وما إن اندلعت المظاهرات ، وشبت الحرائق فى شارع فؤاد ، وأخذ الدهماء يستولون على البضائع الثمينة وخزائن الأموال ، حتى زحف الكسيح المسكين صوب المطعم ، وتناول الديك المشوى وارتمى فوقه .. كانت المظاهرات تزحف كالطوفان ، وكانت الأقدام تدوسه وتركله .. وما إن هدأت العاصفة العاتية ، حتى جاءوا وحاولوا تحرى شأن ذلك الكسيح ، وجدوا روحه وقد فارقت جسده .. ووجدوا الديك من تحته هيكلًا عظميًا .. هكذا كان تيمور الفنان الرقيق الحساس ..

وفى مجالات السياسة كنا نقرأ لكتاب عرفوا بالحماسة والعاطفة الوطنية المشتعلة أذكر منهم أحمد أبو الفتح وأحمد حسين وسيد قطب وفؤاد سراج الدين وصالح عشماوى ومحمد الغزالى وغيرهم .

ومن الدوريات الشهيرة التى كنا نتابعها بانتظام تقريبًا ، سلسلة « اقرأ » لدار المعارف ، و « كتب للجميع » و « قصص للجميع » و « كتابى » و « كتاب الهلال » و « روايات الهلال » ومجلة « المختار » الأمريكية المترجمة ، والكتاب الفضى والكتاب الذهبى وغيرهما .

كما كنت حريصًا على اقتناء مجلة « لواء الإسلام » و « الإخوان المسلمون » و « الرسالة » و« نور الإسلام » و « الهلال » وغيرهما ، كما كنا نتسابق فى حفظ الأشعار القديمة والحديثة على السواء .

وكان للروائى الكبير محمد عبد الحليم عبد الله نكهة خاصة فى قصصه الرومانسى المؤثر ، وتصويره للعواطف الإنسانية ، والمآسى المؤلمة ، كما كان صديقه المرحوم على أحمد باكثير يتميز بخطه الإسلامى ، وفكره السياسى المبلور ، وتعبيره الواعي- من خلال مسرحياته وقصصه- عن قضايا إسلامية معاصرة ، ومشاكل اجتماعية شائعة ، ويستلهم التاريخ فى الكثير من نقصصه ومسرحه ..

وأحببت فى عبد القادر المازنى خفة روحه ، ورشاقة أسلوبه ، وصوره الساخرة الناقدة ، وكشفه عن خبايا النفس وأسرارها ، كما كان صادقًا شجاعًا فى أدبه الذاتى ، وسيرته الشخصية ، لولا هنات تؤخذ عليه فى أدبه السياسى ..

وكرهت أدب سلامة موسى ، فهو رغم علمه ، ودعوته للأخذ بالأساليب الحديثة والمنهج العلمى ، لم يكن موفقًا ، وخاصة عندما دعا للعامية ، ونفر من الدين ، وتجاهل قيم الحضارة الإسلامية ، بل شكك فيها ، ولقد قرأت له الكثير ، وفهمت أنه يدعو إلى الانسلاخ من قيمنا وتقاليدنا العريقة ، واتباع الأسلوب الغربى فى السلوك والأداء والعلاقات الاجتماعية والفردية ، وكان خصامى الأبدى معه بعد

واقعة شهيرة فى كلية العلوم جامعة القاهرة ، إذ أجريت مسابقة للخطابة بين طلبة هذه الكلية ، وكان هو رئيس لجنة التحكيم ، ورأينا وجهه يكفهر ويشحب كلما وقف خطيب متسابق ، وبدأ خطبته باسم الله الرحمن الرحيم ، واستشهد ببعض الآيات القرآنية ، أو الأحاديث النبوية ، ثم يضع قلمه على الورقة ويضع « صفرًا » ، فإذا جاء الخطيب ودخل فى الموضوع مباشرة دون أن يسمى وضع ١٠ درجات .. وهاج الطلبة وماجو بعد إعلان النتيجة ، أما هو فلم يسكن ، بل وقف يعلق على المسابقة ويقول :

« حسبتنى وأنا أحضر لكلية العلوم أننى سوف أسمع خطبًا تنهج النهج العلمى ، وتبعد عن الميتافيزيقا والغيبيات .. فإذا بى للأسف أجد نفسى فى كلية لاهوت .. »

واحتدت المناقشة ، وكاد يحدث تشابك بالأيدى ، لولا أن الطلبة أصحاب الحق المهضوم أنفسهم تحلقوا حوله ، وحموه من غضبة الجمهور ، فانصرف سالمًا وهو يسب ويسخط ويلعن .

ومن الأمور المثيرة للدهشة ، أن سلامة موسى فى أخريات أيامه- عام ١٩٥٦ على ما أذكر- أدلى بتصريح مضمونه ، أنه يتخلى عن الدعوة إلى استخدام اللغة العامية فى الكتابة وذلك فى سبيل القومية العربية .. هكذا قال ..

وعلى الرغم من الكثير الذى كتب عن هذا الرجل فى حياته وبعد مماته ، وخاصة بالنسبة للمجلات التى ساهم فيها ، ودعوته إلى المنهج العلمى ، وترويجه لنظرية النشوء والارتقاء ، وإلحاحه على اتخاذ العصرية أسلوبًا فى الحياة الحديثة ، على النمط الأوربى ، واستمساكه بالفرعونية ودعوته الدائبة لها ، وقيام بعض الكتاب والأدباء بالسير على نسقه ، حتى أن نجيب محفوظ فى بداية حياته الأدبية ، كتب رواياته الأولى عن العصور الفرعونية ، أقول على الرغم من كل هذا ، فماذا بقى لسلامة موسى ؟ لقد قامت محاولات لإعادة نشر تراثه ، لكنه لم يلق القبول ،وأنشئت مكتبة باسمه تخليدًا لذكراه ، من صنع أسرته ، لكن دون جدوى .. لقد كان فقاعة كبيرة روج لها المغرضون وأعداء الإسلام ، وسرعان ما انفجرت وذابت دون دوى ..

أما خالد محمد خالد فقد خالفته وأحببته ، فعندما أصدر كتابه « من هنا نبدأ » ، ورد عليه الشيخ محمد الغزالى بكتابه « من هنا نعلم » ، كنت حريصًا على تحرى الحقيقة ، كان خالد يستمتع بقدرة فائقة فى اختيار الكلمات الوثابة الموحية المشعة ، والأسلوب الحماسى المجلجل ، والشعارات والاقتباسات الرنانة ، ترى ذلك فى اختيار عنوان الكتاب ، وفى عنوان كل فصل ، وفى المقتطفات التى توضع فى بداية كل فصل ، حتى النقط وعلامات الاستفهام والتعجب ، كان يتأكد منها عند الطبع ، واستطاعت كتبه التالية « هذا .. أو الطوفان » و« لكيلا تحرثوا فى البحر » أن تجذب الاهتمام ، وتجعله من الكتاب المرموقين ، وكانت تربطنى به صلة صداقة لم يستطع خلاف الرأى الشديد أى يقضى عليها ، كان رجلًا صريحًا ، لكنه كان قلقًا متوترًا . رغم ثقافته الدينية ، وكانت له مواقف مشهودة حينما قال لعبد الناصر فى اجتماع المؤتمر القومى ، على شاشة التليفزيون والإذاعة وأمام الحشد الكبير ، دون خوف :

« يا سيادة الرئيس .. لا علاج لمشكلة الحرية إلا بالمزيد من الحرية » ويومها قال له عبد الناصر : إن الحكومة قد أفرجت عن كتبه المصادرة ، وأنها تركت له الحبل على الغارب .. وخاصة عندما قيل إنه إسلامى الاتجاه .. ثم شيوعى .. ثم .. ثم .. وظل خالد يتحول تدريجيًا .. وجدناه يكتب بين « يدى

عمر » ويكتب عن أبى بكر الصديق ، وعن عمر بن عبد العزيز .. ثم يفاجئ قراءه بمقالة شهيرة نشرت فى جريدة الأخبار ، يعترف فيها بعد قرن من الزمان بخطئه حينما كتب « من هنا نبدأ » وما تبعه من مؤلفات تهاجم الدين ومنهج الحكم فيه وخلطه بالسياسة وما إلى ذلك ، كما اعترف بما ذكره محمد الغزالى من قبل من أنه كان متأثرًا بآراء المستشرقين والمبشرين وأعداء الإسلام .. اعترف بشجاعة ، بل إنه بكى فى أحد مواقف الاعتذار والاعتراف فى التليفزيون .. وكان شجاعًا فى اعترافه بالحق ، كما كان شجاعًا بالأمس فى تمرده .. وأنا لم أكف عن القراءة له سواء فى ثورته الجانحة أو عودته إلى الحق ، لم يمنعنى خلاف الرأى أن أتابع ما يكتب وأجالسه وأناقشه ، والواقع أننى كنت أتوقع من شخصية كشخصية خالد أن تنزل يومًا إلى الصواب ، وكنت أتساءل بينى وبين نفسى طوال ربع قرن لماذا تأخر عن العودة ؟ ، حتى فوجئت بمقالته وأنا فى دولة الإمارات تنشر فى الأخبار القاهرية ، فحمدت الله ، ودعوت له بالتوفيق وطول البقاء .

وقرأت الكثير والكثير لطه حسين ، إنه أولًا وقبل كل شيء أديب وفنان أكثر من أى شيء آخر ، أديب حتى فى تأريخه وفى بحوثه وفى نقده ، وله أسلوب أديب متميز بين كتاب العربية لا يشاركه فيه أحد ..

وقبل أن نخوض فى الحكم عليه ، يجب أن تعرف أنه تراجع عن الكثير من آرائه التى أغضبت العلماء والغيورين على الإسلام ، تراجع فى خطاب رسمى لمدير الجامعة آنذاك أحمد لطفى السيد باشا ، وحج بيت الله الحرام ، وكتب مؤلفات جديدة تجب ما قبلها مثلما رأينا فى « مرآة الإسلام » ، و « على هامش السيرة » و « الوعد الحق » وغيرها .. لكن الذى لا مراء فيه هو أنه أساء إلى الأزهر وإلى الفكر الإسلامى بالآراء المنحرفة التى تبناها ردحًا من الزمن ، وكذلك بترديده لأفكار بعض المستشرقين المغرضين ، وخاصة أن الأوساط الغربية قد روجت لمثل تلك الأفكار ، بل إنها تركت بصمات واضحة فى الفكر العربى المعاصر نفسه .

ولعل الكثيرين ممن تلقفتهم الحضارة الغربية ببريقها ، أو ممن ساء رأيهم فى الدين ، فانحازوا إلى الشيوعية أو الوجودية ، لعل الكثيرين من هؤلاء قد تربوا على فكر طه حسين القديم ، وتحليله لأحداث التاريخ الإسلامى ، وإبرازه لجوانب مثيرة ومحزنة فى علاقات الأشخاص الأوائل فى فجر الدعوة الإسلامية ..

لكن يبقى طه حسين المتحرر ، المدافع عن المعذبين فى الأرض ، والمتغنى بتضحيات عمار وياسر وسمية ، والحامل لمرآة الإسلام وعظمته ، والمترنم بذكريات البيت العتيق ، ومسيرة المد الإسلامى فى صباحه وظهره وحتى اليوم ...

بل إن طه حسين نفسه أنكر ألوانًا من نقده لمعاصريه ، وزعم أنه كانت أيام الشباب واندفاعه ، وكان حديثه الصحفى يتناول واقعة نقده المرير لشوقى وحافظ ، وأسفه العميق على ما بدر منه .

لقد أدى طه حسين دورًا لا شك فيه ، وخلف مدرسة أدبية متميزة ، وكان همزة وصل بين ثقافات أجنبية وثقافتنا العربية ، وكانت نقطة الضعف فيه هى عداؤه القديم للأزهر ورجاله ، ولفقيه المكتب الذى كان يحفظه القرآن الكريم ، فتمادى فى سوء الظن ، وحاول أن يثأر لنفسه ، ويثبت أن ذلك

الأعمى الضعيف ، الذى رسب فى الامتحان ، أقوى من الأزهر ومن شيوخه ، بل أقوى مما يتصورون .. وكانت تجربة ..

ولا يشك أحد أن طه حسين فى بدايات عمره ، ليس هو طه حسين فى سنى حياته الأخيرة ، أى بعد أن تولى وزارة المعارف وأعلن كلمته الشهيرة « التعليم حق للجميع كالماء والهواء » .

وللأستاذ أحمد أمين جهد كبير فى الكتابة عن الإسلام وتاريخه الاجتماعى والسياسى والثقافى ، وعلى الرغم من استفادته من الترجمات والدراسات الاستشراقية والمؤلفات المتنوعة فى عصره وقبل عصره ، إلا أنه قدم سجلًا حافلًا ، غير أن نظرته لفلسفة الحكم فى الإسلام لم تكن سليمة ، وخلط السيىء بالحسن ، ولم يتحر الدقة فى أحكامه على العصور المختلفة ، وما جد فيها من عوامل خارجية وداخلية ، كان ناقلًا أكثر منه محللًا ، ولهذا فإن من يقرأ له يجب أن يكون على حذر بالغ ، ولا تهوله ضخامة جهده المبذول ، وموضوعاته الكثيرة التى تبدو مترابطة ، والمؤرخ كما نعلم إما إن يكون متذوقًا ومستوعبًا ومحللًا لأحداث التاريخ ، وإما إن يكون مجرد ناقل أو جامع للآراء ، وهذا النوع الأخير قد يستسهل أمر إصدار الأحكام السريعة .. وهو أمر فى غاية الخطورة ، وأرجو ألا أكون مخطئًا إذا قلت إن الأستاذ الكبير أحمد أمين من ذلك الطراز الثانى ..

❁❁❁

[١١] ذكريات سياسية



كان الطالب (ب. ب. غ) هو سكرتير اللجنة الوفدية للطلبة بمحافظة الغربية، وكان يمشى فى مدرستنا الثانوية منتفخ الأوداج، يتكلم من أطراف أنفه، ويتعالى على خلق الله، رغم وضعه العلمى العادى، وملابسه المنفرة، وطربوشه العتيق، وذات يوم أمره أحد مدرسى اللغة الإنجليزية بالعودة إلى فصله، فلم يمتثل للأمر، وحدثت مشادة كانت نتيجتها للأسف الشديد أن ضرب الطالب أستاذه بالكتب التى كانت معه، وهنا ثارت ثائرة الأستاذ، وذهب على الفور، وهدد بالاستقالة إذا لم يفصل ذلك الطالب، وفوجئنا؛ إذ رأينا المدرسين عن بكرة أبيهم يمتنعون عن إلقاء الدروس، ليس هذا فحسب، بل قدموا استقالاتهم تضامنًا مع زميلهم، كانوا يعرفون مكانة الطالب فى التنظيم الحزبى، والحزب لا يمكن أن يضحى بواحد من أتباعه المخلصين، وكان الطالب هو الآخر واثقًا من ذلك حتى أنه قال: «ولا الملك فاروق نفسه يستطيع أن يصدر قرارًا بفصلى»، وظلت المدرسة بلا عمل طوال، ذلك اليوم واليوم التالى، وأبدى الناظر نجيب بك دميان استياءه لما حدث، وأبلغ المنطقة تضامنه مع المدرسين.

وكان وزير المعارف فى ذلك الوقت هو الدكتور طه حسين باشا (١٩٥١)، وكان فؤاد سراج الدين باشا وزير الداخلية، وحاول الطالب أن يكتل طلبة المدرسة حوله، كى يقوموا بمظاهرة احتجاج ضد المدرس والمدرسة، ولكن لم يستجب له أحد، وعلمنا فيما بعد أن وزير المعارف، غضب أشد الغضب من تصرفات الطالب، وخاطب سكرتير حزب الوفد فؤاد باشا بشأن ذلك التصرف الذى ينبو عن الذوق والأخلاق وصمم على فصل الطالب، واقتنع فؤاد باشا، وصدر قرار بفصل الطالب (ب. ب. غ) لمدة عامين، وعاد كسيرًا حزينًا إلى قريته، ليتلقى أقسى درس فى حياته.

وكم كان عظيمًا حينما رحب الطلبة- وفديين وغير وفديين- بهذا الإجراء، فالطالب كان أسوأ ممثل لحزبه، فى كثير من التصرفات، وكانت عنجهيته مثارًا لكراهيتنا له، والواقع أن زعامات الطلبة فى المدرسة، لم تكن على نسق واحد، فزعماء أحزاب الأقلية، مثلًا لم يكن لهم شعبية كافية لحمايتهم، ولهذا كانوا يتحاشون الصدام، ويلجئون إلى وسائل أخرى للنيل من خصومهم، فإذا كانت الوزارة الحاكمة هى وزارتهم، وشوا بالمعارضين لدى البوليس المخصوص أو القلم السياسى (المباحث)، وأوعزوا إليهم بمطاردتهم، أو حجزهم لأيام فى أقسام الشرطة، أو تأديبهم بوسائل الحكومة المختلفة، وكان زعماء الطلبة من الإخوان المسلمين أفضل القيادات فى عموم الأمر، إذ كان هؤلاء الأفراد المسئولين حريصين أشد الحرص على اكتساب النفوس إلى دعوتهم، وإقناعهم بالانضمام أو الانتساب لجماعتهم، كما إن أغلب هؤلاء الشباب يحرصون على أداء الصلوات فى مسجد المدرسة، ويلقون الدروس الدينية، ويتحاشون ارتكاب ما ينفر من سلوك وأقوال وأفعال، وفى أغلب الأحيان، كان يشرف عليهم ويوجههم بعض المدرسين المنتمين إلى الجماعة، ولذلك كانوا يحظون بالاحترام والثقة،

لكن الأمر لم يكن يسلم من بعض المشاغبات والصدامات التى تحيط بها ظروف معينة ، كأن يُجرّوا إلى معركة ، أو يُدفعوا دفعًا للشجار مع من يحاول الاعتداء عليهم ، أو أن بعض أفراد الجماعة غير المسئولين يتصرفون تصرفات شخصية تؤدى إلى العراك ، وجمهور الطلبة قد لا يعرف المسئول وغير المسئول ، وكثيرًا ما يحدث خلاف حول أهمية حدث من الأحداث الجارية بالنسبة للطلبة ، فيرى البعض أن هذه مناسبة للتظاهرات والاحتجاج ، بينما يرى البعض الآخر عكس ذلك ، ومن المعروف أن طلبة الإخوان المسلمين لا يتحركون إلا وفق خطة وأوامر ، وهكذا يصبح خلاف الرأى حول مناسبة من المناسبات مدعاة للجدل الذى قد يتطور إلى معركة ، ومع ذلك فلم يحدث فى مدرستنا طوال سنى دراستى فيها صدامٌ عنيف ، أو إراقة للدماء والحمد لله ، ويوم أن اغتيل محمود فهمى النقراشى باشا ، ثم تبعه مقتل الإمام الشهيد حسن البنا ، اهتزت أوساط الطلبة اهتزازًا عنيفًا ، كانت الشماتة تبدو فى أعين الوفديين عندما اغتيل خصمهم النقراشى باشا ، وكانوا مرتاحين بعد الانتقام من حسن البنا ، واعتقال الإخوان المسلمين بالجملة ، وتقديمهم للمحاكمة ، لماذا ؟ لأن الطرفين خصومهم ، وسوف يؤدى ذلك- حسبما يعتقدون- إلى إضعاف هذا وذاك ، وسيتأزم الموقف أكثر ، وتضطرب الأمور ، وخاصة أن الغليان الشعبى قد بلغ مداه ، وبالطبع سوف يفكر القصر الملكى فى وسيلة ، لتهدئة الموقف ، ونزع فتيل الخطر حتى لا يزداد السخط على الملك وحاشيته ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بإسقاط وزارة السعديين التى تولاها إبراهيم عبد الهادى باشا ، ومن ثم يصبح الجو مهيئًا لمجىء حكومة الوفد التى حرمت من الحكم فترات طويلة ، ولهذا أخذت المعارضة لحكومة السعديين وللملك تنتعش وتقوى يومًا بعد يوم ، وأخذوا يتحدثون عن الإمام الشهيد ، وعن هؤلاء المعتقلين المظلومين ، وعن القهر والاستبداد ، وبعد فترة ليست بالطويلة ، جاءت وزارة حيادية لإجراء انتخابات حرة ، ونال الوفد الأغلبية الساحقة ، بمساعدة المعارضين ، وخاصة الإخوان المسلمين .

وفى هذه الفترة رويت عشرات القصص عن تعذيب المسجونين السياسيين والمعتقلين ، وأصبح الرعب مرادفًا لكلمة « البوليس السياسى » ، وذكرت حكايات عن « العسكرى الأسود » الذى لعب دورًا بارزًا فى محاولة انتهاك الأعراض ، واستخدام وسائل القهر والتعذيب الرهيبة ، وأشارت أصابع الاتهام إلى شخصيات كبيرة فى خدمة القصر والحكومة ، وكان الناس يتحدثون عن ذلك فى مجالسهم الخاصة ، ثم تجرأت الصحف أخيرًا ، وأخذت تنثر الأقاويل هنا وهناك ، بل حاولت إحدى الصحف البحث عن العسكرى الأسود وكشف سره ، وذهبت إلى قريته ، وعلمت الكثير عن شخصيته الشاذة ، وسمعته السيئة ، وألحت إلى ، إلى ، هناك قوى خفية تحاول حمايته ، ومنع يد العدالة من أن تطوله .

كنت سعيدًا بنجاح الوفد فى الانتخابات ، فقد كانت الانتخابات حرة بالفعل ، وكانت أحلام الحرية تداعب خيالنا ، لسوف يفرجون عن المعتقلين ، ويحاكمون الأشرار ، ويظهر الحق ، وسينجاب ظلام الكبت والقهر ، وسيذهب حكم الأقلية المستبدة إلى الأبد ، هكذا ظننا ، وفى ظل الحرية المرتقبة لن يكون هناك تكميم للأفواه ، سنتكلم ونكتب كما يحلو لنا ، وستفتح الأبواب من جديد للدعاة كى يصولوا ويجولوا ، وستنتعش الآمال من جديد بالنسبة لقضية فلسطين التى كانت- هى وقضية الجلاء عن مصر- قضية الشباب الأولى فى تلك الفترة ، لقد خيبت الهدنة آمالهم ، وكان قاسيًا على النفس أن يُساق المجاهدون الأبطال من ميدان القتال إلى معتقل « الهاكستب » ، على الرغم من قصص البطولة التى كانت تروى عنهم ، وعلى الرغم من شهادة قيادات الجيش لهم ، وشهادة مفتى فلسطين وقادتها ، وقد أشيع فى ذلك الوقت أن الملك فاروق عندما ذهب لزيارة جيشنا المجاهد فى فلسطين ، فوجئ بأعداد

كبيرة من متطوعى الإخوان المسلمين ، كما وجدهم على كفاءة عالية من القدرة القتالية والتضحية ، فداخله خوف كبير ، وأوعز إليه مستشاروه وكذلك السفير البريطانى ، بأن هؤلاء المجاهدين من الإخوان سوف يشكلون خطرًا كبيرًا إذا ما عادوا إلى بلادهم بعد انتهاء حرب فلسطين ، واستتباب أمر إسرائيل ، لأن هؤلاء الإخوان المدربين المسلحين ، يستطيعون أن يغيروا نظام الحكم فى البلد ، وقد حدث اجتماع فى قاعدة « فاير » البريطانية حضره السفراء الثلاثة لبريطانيا وفرنسا وأمريكا ، وكان نتيجة هذا الاجتماع هو تقديم النصيحة للحكومة المصرية وللملك فاروق بالذات بحل جماعة الإخوان المسلمين تحسبًا لمخاطر أكيدة ، وقد أزيح الستار فيما بعد ، أى بعد ربع قرن عن وثيقة بريطانية تحمل هذا المعنى .

واضطربت سياسة الملك إزاء هذه الجماعة ، فقد أوعز بالتصدى لهم والقضاء عليهم ومحاربتهم فى أرزاقهم وأعمالهم ونشاطهم ، ولما لم يفلح هذا السلاح لجأ إلى محاولة مهادنتهم ، ثم عاد لمحاربتهم وهكذا ، وللأسف فإن الملك كان يستثمر الخلافات السياسية الطاحنة ، وضيق الأحزاب بالإخوان الذين يزداد أتباعهم يومًا بعد يوم ، وحاول أن يصب البترول على نار الخلافات ، حتى يضعف هذه الجهة وتلك ، وبذلك يظل مسيطرًا على الموقف .

كانت أيامًا مليئة بالأحداث والاضطرابات والفتن ، وكانت الأمور تتطور بصورة سريعة ومعقدة .. وكانت جريدة الاشتراكية (مصر الفتاة سابقًا) تنشر مقالات ملتهبة لأحمد حسين مثل مقالته الشهيرة « رعاياك يا مولاى » ، ومقالات سيد قطب وغيره ، كما نشط الشيوعيون فى إصدار منشوراتهم السرية التى يطبعونها على ماكينات الرونيو ، والمخطوطات المختلفة والأخبار العديدة ، وتجرأت الصحف ونشرت الكثير صراحة أو رمزًا على فساد البيت الملكى وقصص المغامرات والمقامرات والمؤامرات والأسلحة الفاسدة وغيرها ، حتى أصبح الجو معبأً بالحنق والتمرد ، وكان فشل الجيش المصرى فى أداء مهمته فى فلسطين نقطة سوداء فى جبين ذلك العهد الفاسد ، كما كان له أعمق الآثار فى مجريات الأحداث بعد ذلك .

حينما جاءت وزارة الوفد ، كان من المتوقع أن يعود الإخوان المسلمون إلى نشاطهم العلنى والقانونى مباشرة ، لكن فوجئت الجماعة بما يسمى « بقانون الجمعيات » ، وكان المقصود به ، وضع القيود والعقبات فى طريق عودة الإخوان المسلمين ، فما كان من الجماعة إلا أن قامت بمظاهرة سلمية ضخمة ، فاجأت مجلس النواب (البرلمان) وهو يستعد لمناقشة مشروع القانون ، وأعلنوا رفضهم لهذه الإجراءات التى تحد من حرية الشعب وحركته ، فى وقت يحتل فيه الاستعمار الأرض ، وتنمو الصهيونية المنتصرة على الحدود ، ويداوى الشعب جراحه من وطأة حكم السعديين الجائر ، ولم تستطع وزارة الوفد فى بداية عهدها أن تصمد لهذا التيار الجارف والعادل من المعارضة الشعبية ، ومن ثم أغمضت العين عن ذلك القانون ..

وجاء المستشار حسن الهضيبى مرشدًا عامًا للإخوان المسلمين فى المكان الذى شغر بوفاة مؤسسها الأول الإمام الشهيد حسن البنا ، ولم يكن الهضيبى معروفًا لدى جماهير الإخوان ، فكان الأمر بمثابة مفاجأة كبرى للجميع ، سواء الإخوان أو غير الإخوان ، إذ ليس من المألوف أن يتولى التنظيم الدينى أو السياسى رجل ليس للجماهير سابق معرفة به ، وهذا الأمر أثار تساؤلات عدة داخل مصر وخارجها ، إذ كان للإخوان تنظيمات فى بعض البلدان العربية والإسلامية .

ومما خفف من وقع التساؤل والحيرة أن مكتب الإرشاد- أعلى سلطة فى الإخوان المسلمين- وكذلك الهيئة التأسيسية ، وهى بمثابة اللجنة المركزية ، قد صوتتا إلى جانب اختيار الهضيبى مرشدًا عامًا

للإخوان ، وهما أقرب لإدراك الأمور ، وفهم مجريات الأحداث ،وهكذا استتب الأمر للهضيبى ، على الرغم من أصوات معارضة قليلة العدد فى مكتب الإرشاد ، وفى الهيئة التأسيسية ، وفى النظام الخاص الذى أطلق عليه الجهاز السرى ..

لقد مضى عهد بالنسبة للإخوان

وأتى عهد جديد ...

مضى عهد الإمام الداعية المنشئ المنظم العبقرى الملهم ، ذلك الذى كان يستحوذ على عقول المستمعين ووجدانهم ، وينفذ إلى نفوسهم بعاطفته الجياشة ، وصدق يقينه ، وروعة أسلوبه ، وسرعة حركته ، ووضوح رؤيته .

وأتى عهد الرجل القانونى الذى يؤثر الصمت على الكلام ، ويقابل الثورة الملتهبة بالهدوء والرزانة ، ويجابه أعتى المواقف وأخطرها بإيمانه الفذ ، وكلماته القليلة ، وموقفه الصلب الذى لا يتزحزح عنه ، وفى أول خطبة له بدار الوثبة المباركة فى شارع « الظاهر » بالعباسية ، جلسنا وكأن على رءوسنا الطير ، كان هادئًا بطيئًا وهو يوصينا بقراءة القرآن وفهمه ، وبالصبر والصلاة ، وبأن نكون قدوة حسنة لإخوتنا ولغيرنا .. وأكد فى كلمته القصيرة أهمية العمل .. فالدعوات لا تقوم إلا بالعمل الجاد .

كنا شبابًا ، وكنا نريد أن نستمع إلى خطبة عاصفة تشعل القلوب ، وتحرك المشاعر ، وتدفعنا إلى خوض المخاطر ، وتشحننا بمعانى التضحية والفداء حتى نتسابق إلى الموت دون خوف ، كنا نريد أن نكتسح الطغاة ، وندمر الجبابرة الظالمين .. لكأنما أراد الرجل أن يشير إلى مرحلة جديدة تختلف طبيعتها عن المرحلة الأولى ، وأن هذه الحقبة تحتاج إلى التخطيط الحكيم ، والهدف الواضح ، والعمل الدائب وتجنب الأخطاء التى قد تجر إلى مشاكل عويصة ، وإلى عقبات كأداء تعترض مسيرة الدعوة .. وبمرور الأيام أحببناه ووثقنا به ..

ولم نكن نعلم أنه جاء ليحمل أعتى الأعباء وأثقلها .. وليصارع أقوى الأحداث وأشرسها .. وليصمد لما هو أقسى وأبشع من الموت نفسه .. لقد كانت الجماعة تضم عددًا كبيرًا من ألمع الخطباء والشعراء والكتاب والصحفيين الذين تربوا على يدى الإمام الشهيد ، ولم تكن فى حاجة إلى المزيد من هؤلاء ، كانت فى حاجة إلى العلماء المتخصصين ، وإلى الباحثين المتعمقين ، وإلى ممارسات عملية دقيقة ، بعد أن اتسعت الدائرة ، وتعمقت التجربة ، وصبغ تاريخ المسيرة بالدم الأحمر ، والتفتت إليها قوى الاستعمار والشيوعية والصهيونية الشرسة ، وقعدت لها قوى الغدر الداخلى بالمرصاد ... وكان حسن الهضيبى صاحب التاريخ الناصع ، والطهارة الملائكية ، والإيمان العميق ، والرؤية الصادقة ، كان هو رجل الأقدار ، ولقد كان صموده فيما بعد قصة مثيرة لا مثيل لها فى تاريخ الدعوة الحديث ، فالأحداث الجسام التى تعرض لها سنوات طويلة سواء فى ساحات السجون ، أو فى بيته قد أكدت أصالة معدنه ، وصدق نظرته ، وقوة إرادته ، هذا إذا أردنا أن ننفى عن العمل السياسى ، والدعوة إلى الله ، خبث الميكافيلية ، وعبث الغدر والمداراة ، وألاعيب الحكم والسيطرة وأقذارهما ، كان ملاكًا يواجه جوقة من الشياطين ، وكان إنسانًا يصارع حفنة من الذئاب والوحوش المفترسة ، كان الأمانة فى مجابهة الخيانة ، والصدق فى تصديه للكذب ، والتجرد فى صراعه مع الأنانية ، والصفاء فى تحديه للبذاءة والقذارة ، والحب فى منازلته للكراهية ، والتضحية فى عراكه مع النفعية ، والتسامى فى نضاله مع السفالة والسقوط .. حتى حينما دب الخلاف الفقهى بين أتباعه خلف الأسوار ، وانشق عنه جماعة التكفير والهجرة ، أعلن صيحته العلمية الصادقة المدعمة بالأدلة والبراهين ، وقال فى كتابه الشهير نحن

« دعاة لا قضاة » ، ورفض التطرف ، ورفض فكرة تكفير المجتمع وهجرته .. رفضها ممن ؟ من بعض أبنائه فى الدعوة ، لم يدخر وسعًا فى تبصيرهم وتوجيههم ، رغم ظلام السجن وآلامه ومآسيه .. ذلكم هو حسن الهضيبى الذى لم يأت بعد من يكتب تاريخه الصحيح الكتابة الأمينة ، بعيدًا عن مهاترات الصحف وأخبارها المبتورة ونصوصها المفتعلة ، وادعاءاتها الكاذبة ، وبعيدًا عن الإعلام المتحيز الموجه ، الذى لفق الأدلة ، وزعم الأباطيل ، وملأ الدنيا بالتحليل المبتذل ، والروايات الملفقة ..

لقد قطعنا استطرادنا المتأنى ، وقفزنا بالأحداث إلى بعيد ، لكن ذكرى الرجل جرتنا إلى أمور كانت مثار جدل كبير ، ومن ثم لم يكن هناك مفر من الولوج فيها بقدر قليل ..

وهل التاريخ إلا تجارب ؟

لكن لا يستطيع إنسان أن يكتب السطر الأخير فى أحداث معاصرة ، والليالى كما يقولون حبالى ، ويلدن كل عجيب ...

***

الجزء الثاني

المقدمة



إن الأحكام التى يطلقها الدارسون على الأفراد والجماعات وأنظمة الحكم المختلفة، ليست بالسهولة التى يتصورها البعض، والناس فيما يعشقون مذاهب، ومن الصعب أن نخلص المؤرخين من عقائدهم وأهوائهم وأمزجتهم الشخصية مهما حاولوا الالتزام بالموضوعية والحياد، أو ادعوا ذلك، والمشكلة الرئيسية أن طبيعة الإنسان لا يمكن أن تتسم بالخير المحصن أو الشر المحصن، بل تحتوى على نسب متباينة من هذا وذاك، ومن هنا تأتى الخلافات فى الرأى والتحليل والتقييم.

والذين عاصروا ثورة يوليو ١٩٥٢، انقسموا إلى مؤيد ومعارض، بالإضافة إلى فئة ثالثة آمنت أنه لا جدوى من اتخاذ موقف محدد، فبعدوا عن الساحة، والتزموا الصمت، إما بعدا عن المشاكل، أو يأسًا من الإصلاح، أو رضوخًا لبطش القوة والسلطان.

ويخطىء من يظن أن خفايا الأمور فى مصر كانت متضحة بصورة كافية بين عامة الناس، لأن المعروف أن « النظم الشمولية » أو الدكتاتورية لها قناعاتها الخاصة بقضية الحرية والرأى والمعارضة، ولا يصح أن يعرف الناس إلا ما يريده الحاكم، ولا يتحدثون إلا فى إطار ما يراه الحاكم صوابًا، ولابد لهم أن يعادوا ما يعاديه، ويصادقوا من يصادقه، والويل كل الويل لمن تراوده نفسه إبداء رأى مخالف، أو اتخاذ موقف خاص، وحجة النظم الدكتاتورية فى ذلك أنها تريد النهوض بمستوى الشعب، وتحقيق الرخاء والعدالة الاجتماعية، والقضاء على الطبقات الطفيلية والمستغلة، والتخلص من الاستعمار والرجعية، وتقوية الجيش، وتحقيق الخطة المناسبة للتنمية

والازدهار، ولا بأس بعد ذلك من أن تكمم الأفواه، وتُملأ السجون، وتصادر الأموال، وتقنن السلطات والقوانين الاستثنائية باسم الشعب.. وباسم المصلحة العامة.. وغرور الدكتاتورية يدفعها دائمًا للقول بأنها هى الأصلح والأمثل والأدرى بمصلحة الجماهير، وأن أسلوبها هو الأسلوب الوحيد القادر على التغيير والتحرير والتقدم.

وعلى الرغم من مرور ثلاثة وثلاثين عامًا على قيام الانقلاب العسكرى المصرى، إلا أن الحوار لم يزل يدور حول تقييم الدور الحقيقى لتلك الحركة التاريخية التى تركت بصماتها على الحياة والناس، ليس فى مصر وحدها، ولكن فى معظم أنحاء العالم العربى، وفى مناطق أخرى من العالم الإسلامى والعالم الثالث...

لكن تبقى التجربة الشخصية.. بكل صدقها وانفعالاتها وتفاعلاتها.. يبقى الفرد الذى يحاول أن يكون له وجهة نظر.. أو بمعنى آخر المثقف العادى الذى لا يحتل مكان زعامة، ولا يحمل راية قيادة، وإنما ينشد أن يستمتع بحياة حرة كريمة، يمارس فيها وجوده قولًا وعملًا، إنه يريد بتجربته أن تنمو، ولفكره أن يناقش، ويحلم بأن يعيش فى إطار قيم تشريعية محترمة، وممارسات سياسية حرة، فى ظل المبادئ والتجارب التاريخية الشريفة.. ويبحث له عن انتماء أصيل يحقق ذاته، ويُعلى من قيمته كإنسان..

القضية إذن بكل تفاصيلها قضية « إنسان ما » عانى وقاسى.. قضية صاحب « وجهة نظر ».. أين مكانه؟ وما مصيره؟ وكيف يكون الحكم عليه؟ وفى ظل أى قوانين يحاسب؟ وما مدى التناسب بين حجم الخطأ « إن كان خطأ » وحجم العقوبة؟.

المأساة هى فرض « وجهة النظر الواحدة » فرضًا على كل الناس، فكيف يكون مآل أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب إزاء هذا الوضع؟ إن الذين كرهوا الإسلام خافوا من عدله لما ارتكبوه من مظالم، وهلعوا من مساواته لما نالوه من تمايز، وارتعدوا من حريته بسبب ما مارسوه من إذلال وعبودية لخلق الله، وارتعبوا من دستوره الإلهى الخالد لكثرة ما صنعوا من قوانين استثنائية وإجراءات طوارئ وقمع وتشفٍ، ويستوى فى هذه المشاعر الخبيثة طواغيت الأمس واليوم.. لكننا دائمًا - كشعوب - ندفع الثمن غاليا، جزاء استسلامنا وخنوعنا أمام منطق البطش والإرهاب..

ولقد حاولت فى هذا القسم من الكتاب أن أتعرض لقضية الإخوان المسلمين والثورة المصرية، من خلال ما عايشته بنفسى، دون أن أتحرج فى ذكر مآخذ أو مثالب هنا وهناك، وليس من رأى كمن سمع، لكن هذا الجزء لا يشتمل على كل شىء فالرواية لم تتم فصولًا، فلقد انتهيت فى هذه الصفحات إلى أواخر اكتوبر عام ١٩٥٥،

ولم يزل أمامى الكثير مما يجب التعرض له من ذلك التاريخ حتى عام ١٩٦٥ حيث بدأت أحداث الصدام الثانى المروع بين الإخوان والثورة.. وما تلا ذلك من أحداث جسام، أرجوا أن أتعرض لأهم ملامحه فى القسم الثالث إن شاء الله...

إن تجربة العمل الإسلامى يجب أن توضع أمام الأجيال بأساليب شتى، ومن مواقع مختلفة، فليؤرخ القادة، وليكتب أفراد الجماهير فى القاعدة، وليسجل العدو والصديق، فإن تلك المصادر سوف تثرى البحث الجاد، وتصل بنا إلى الحقيقة « لكن حذار! » ، من ثم ؛ لأننا أدرى بما تفعله الصحف والإذاعات والتلفاز والمنشورات التى تسيطر عليها قوى السلطات الدكتاتورية فى أية بقعة من بقاع العالم ...

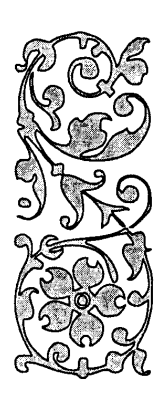
والله أسأل أن يهدينا إلى الصواب، وأن يجنبنا الزلل، وأن يعفو عما بدر منا من هفوات، وأن يأخذ بأيدينا إلى طريق الخير والسعادة والنور ؛ طريق الإسلام الصحيح.. وبالله التوفيق.. والسلام.

دبى فى ١٩٨٤/١١/١٠م
الموافق ١٤٠٥/٢/١٦هـ

الدكتور نجيب الكيلانى

❊❊❊

[١] المدينة الجامعية



كان اسمها عندما دخلتها لأول مره عام ١٩٥١ « مدينة فاروق الأول الجامعية بالأورمان » ولقد لعب هذا المبنى الصغير دورًا بارزًا فى الحياة السياسية، كما أثر إلى حد كبير فى حياتى الخاصة، فقد كانت هذه « المدينة » مأوى لعدد لا بأس به من زعماء الأحزاب - الطلبة -، كما اختلط فيها أبناء وجه بحرى والصعيد، فى مختلف الكليات بجامعة « فؤاد الأول » - جامعة القاهرة الآن - وقد حرصت الأحزاب المختلفة فى مصر على أن يكون لها ممثلون فى هذه المدينة، ولذلك فإن الصراع الفكرى والسياسى كان على أشده، وكانت الاجتماعات السرية وشبه السرية تُعقد فى مكان ما بالمدينة، وتتخذ فيها القرارات التنفيذية للمظاهرات والاضرابات، إبان تلك الفترة الحاسمة من تاريخ مصر والعرب عمومًا، كما كان فيها فى وقت من الأوقات معسكر لتدريب الفدائيين الذين يتصدون تباعًا للإنجليز فى منطقة القنال.

كانت المدينة الجامعية مكونة من عمارتين « جديدة وقديمة »، وكل مبنى من خمسة طوابق، والحجرة يسكن فيها طالب أو طالبان حسب المرحلة الدراسية، وفى الغرفة سرير ومكتب وأباجورة ودولاب للملابس، وحمام به الماء البارد والساخن، وملحق بالمبنيين مطعم كبير على أحدث طراز، ومغسلة، وملاعب للجامعة، ومكاتب للإدارة، وحرس جامعى على مستوى طيب، وعمال معظمهم من أهل النوبة يجيدون الخدمة، ويحسنون التعامل بأدب.

وكان مدير هذه المدينة رجل مهذب من رجال السلك الدبلوماسى القدماء، ومن المحبوبين فى القصر الملكى هو « رمسيس بك شافعى »، ويبدو من ملامحه أنه تركى الأصل تقريبًا، وخلفه بعد فترة رجل طيب القلب طيب الأخلاق هو الأستاذ « عاكف »، ومن المشرفين أيضًا على هذه المدينة الممثل المشهور الآن الأستاذ فؤاد المهندس، الذى عرف آنذاك بالمرح، وصداقته الوطيدة للكثيرين من طلبة المدينة.

وكان كل طالب يدفع اشتراكًا شهريا قدره « خمسة جنيهات مصرية » مقابل الإقامة والطعام والشراب، وما لا شك فيه أن الحياة فى المدينة الجامعية كانت حياة مريحة مرفهة، تختلف تمامًا عما كنت أعانيه فى المرحلة الابتدائية والثانوية، فوجبة الإفطار تتكون من البيض المقلى والفول المدمس ونوع من الجبن والزيتون والشاى واللبن الزبادى ووجبة الغداء تتكون من اللحوم والخضروات المطبوخة والأرز والسلاطة والفواكه، وأشياء أخرى، وكذلك وجبة العشاء.

ولقد كتبت إحدى الصحف آنذاك مقالًا نقديا نددت فيه بالبذخ والترف الذى يوجد فى المدينة الجامعية، ثم قارنت بين ذلك وما يحدث بالنسبة للطلبة الغرباء الآخرين الذين يسكنون حى « بين

السرايات » المجاور للمدينة، وما يعانونه من فقر وجدب وازدحام فى المساكن الضيقة القذرة، وكان عنوان التحقيق الصحفى المكتوب « قصر الرخام.. وموائد الدجاج والحمام »، وضمنت التحقيق صورًا متناقضة لما يحدث فى المدينة، وفى حى بين السرايات، ويومها تظاهر طلبة المدينة الجامعية، واحتجوا على الصحيفة، وذهبوا - وكنت معهم - إلى جريدة « المصرى » حيث استقبلنا يومها المرحوم الأستاذ زكريا الحجاوى - الأديب المعروف وأحد محرريها - وقال له زميلنا « محمد الفوال »: « أن ما ينفق علينا فى المدينة الجماعية ليس من أموالكم، ولكنه من أموال الشعب الكادح الذى يشقى ويعرق من أجل المحظوظين من رجال الحكم والإقطاع والسراى.. وكان الأحرى بكم أن تطلبوا لإخواننا الغرباء فى « بين السرايات » مزيدًا من المبانى والخدمات، بدلًا من أن توحوا إلى المسئولين بإحالتنا إلى طائفة أخرى من المتسولين ..».

وقد اعتذرت الجريدة فى اليوم التالى، ومرت الأزمة بسلام.. لكن إلى حين.. والواقع أن الإغداق على المدينة الجامعية كان فعلًا أمرًا ملفتا للنظر، لدرجة أن البعض فسر ذلك « الكرم » الزائد بأنه رشوة من الملك لطلبة الجامعة.

ومن الطلبة المشهورين فى المدينة الجامعية آنذاك الأستاذ/ حسن دوح زعيم الإخوان المسلمين وأحمد الخطيب زعيم الوفديين وزميله الشربينى « لا أذكر بقية اسمه »، والدكتور إبراهيم الصياد أستاذ بكلية الطب جامعة الأزهر حاليا، ود. سعيد الرازقى أستاذ بالقصر العينى، والدكتور إبراهيم الأحمدى - بطل كمال الأجسام - وأستاذ بطب الأزهر حاليا، والسيد الشوربجى من رجال القانون وكاتب تمثيليات ومسرحيات، وكان يصدر وهو بالمدينة صحيفة أو مجلة دورية اسمها « السويس » لأنه كان من السويس، وكانت حافلة بالموضوعات السياسية والنقد اللاذع، وكان منهم أيضًا الدكتور محمد البغدادى - شقيق عضو مجلس قيادة الثورة فيما بعد عبد اللطيف البغدادى، ومحمد أبو شلوع طالب الحقوق، وفتحى البوذ، وهو من تنظيمات الإخوان الرئيسية، ومحمد نصاير طالب الحقوق الذى اتهم فيما بعد بأنه كان ينوى اغتيال عبد الناصر بالحزام الناسف، وحكم عليه بالإعدام فى محكمة الشعب، ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، حيث قضى بضع سنوات فى الواحات سجينا، وأفرج عنه بعدها، وهو يعمل حاليا بمدينة الزقازيق، وغير هؤلاء كثيرون ممن لعبوا أدوارًا بارزة فى مجال الطب والقانون والسياسة والعلوم والفنون.

ولا يمكننا أن نمر دون أن نذكر بكل تقدير وإعجاب البطل « حسن دوح » طالب الحقوق الذى يعد بحق من نجوم الخطابة السياسية فى أيامنا، وكانت كلماته القوية المعبرة تصل إلى قلوب الجميع، وكان يرتدى دائمًا زيا شبه عسكرى، فقد كان منهمكًا فى معسكرات تدريب الفدائيين، ويقضى أيامه متنقلًا بين القاهرة وقناة السويس، حيث يقود كتيبة الجامعة التى تقوم بعمليات مؤثرة ضد الإنجليز فى قاعدة قناة السويس، كان رجل قول وعمل، ويكاد يكون متفرغًا تمامًا للعمل الفدائى، وهذا ما جعله يحظى باحترام الجميع، ويستقبله مدير الجامعة وعمداؤها وأساتذتها بكل تقدير واحترام، ويوم أن ذهب إلى مجلس قيادة الثورة استقبله عبد الناصر بترحاب شديد وقبّل وجهه بحرارة، وعندما تراجع حسن دوح للخلف قال له جمال عبد الناصر: « لا.. لابد أن أقبلك من الناحية الأخرى »، لكن الأمور لم تمض على

ذلك النحو من المودة، فقد ألقى حسن دوح خطبة الجمعة فى مسجد « شريف » بالروضة فى عام ١٩٥٤ بعد ذلك، وتناول بالنقد الصريح بعض الإجراءات غير الدستورية للحكومة، فقبض عليه قبل حادث المنشية، ثم حوكم بعد الحادث أمام محكمة الشعب، وصدر ضده حكم بالأشغال الشاقة، وقضى فى السجن سنوات طويلة، وعندما خرج بعفو من عبد الناصر، عمل بالصحافة فى دار أخبار اليوم، وفى الاجتماع الدورى للصحيفة استقبله مصطفى أمين بترحاب وقال: « أيها الصحفيون أن بينكم اليوم رجلًا، كانت الصحف فى يوم من الأيام تكتب عنه، وتضع صورته فى صفحاتها الأولى.. وقد انضم إليكم ليبدأ رحلة الصحافة من أول درجات السلم.. إنه رجل يستحق التقدير والاحترام.. ذلك هو حسن دوح ..».

لقد كان لحسن دوح تاريخ عطر فى حركة الجهاد، ومناوئة الاستعمار، والتصدى للقصر الملكى وهو فى عنفوانه، جاهد بالكلمة وبالسلاح، وكانت فيه كل مؤهلات القيادة الناجحة، رأيته عندما تعرض عليه مشكلة، سرعان ما يستوعبها، ثم يصدر الرأى الحاسم فيها ببساطة غريبة، وترى فيه الرأى الصادق الذى لا رأى بعده.. إنه السهل الممتنع كما يقولون..

أذكر خطابه الشهير فى ميدان الأوبرا وعند مسجد « الكخيا » بالقاهرة، يوم تشييع جنازة الشهيد « عمر شاهين » الطالب بكلية الآداب، الذى استشهد فى معركة « التل الكبير » مع رفيقه الشهيد « أحمد المنسى » الطالب بكلية الطب، وهم مشتبكون فى معركة ضارية مع قوات الاحتلال، كما أسر سبعة آخرون من الطلبة.. أقول أذكر خطاب حسن دوح فى يوم الجنازة التى شاركت فيها جميع أحزاب مصر آنذاك يوم ١٩٥٢/١/١٢ أى قبل الثورة المصرية بشهور قليلة، لقد قال:

« لقد تقاعست قوات الحكومة عن حماية ظهر الفدائيين، عند انسحابهم، بعد أن أتموا عمليتهم بنجاح، وهكذا صمد الأخوان الشهيدان حتى يحموا انسحاب إخوانهم، إن القصر المتواطىء مع الحكومة، قد جامل الاحتلال، وأنا أقول فى هذه اللحظات الحاسمة من تاريخنا أنه سوف يأتى يوم ينهار هذا القصر على من فيه، وعلى من يحميه ..».

وهنا ضج عشرات الألوف المحتشدون بالهتافات الصاخبة الحانقة..

وأذكر أيضًا حسن دوح فى إبان تلك الفترة العصيبة، عندما حاول البعض إثارة الفتنة الطائفية فى الجامعة، لقد وقف يومها وأعلن فى حماس: « إننى كاليهود أؤمن بموسى ... وكالنصارى أؤمن بعيسى ... وأنا مسلم لأنى أؤمن بمحمد ».

وكانت هذه الكلمات بردًا وسلامًا على قلوب الجميع، حتى أن بعض الإخوة المسيحيين انضموا إلى كتائب الفدائيين فى حماس منقطع النظير.

وعندما سقطت حكومة الوفد - حكومة الأغلبية - بعد حريق القاهرة الشهير، جاء « على ماهر باشا » إلى المدينة الجامعية، ووقف يتناقش مع حسن دوح حول ضرورة إلغاء معسكر تدريب الفدائيين بالمدينة الجامعية، قال له حسن دوح: « لماذا يا باشا؟ »

- « لأن فى خطتنا أن نقيم معسكرات للفدائيين فى كل أنحاء مصر ...».

قال حسن ببساطة مذهلة : « إذن فليكن هذا المعسكر واحدًا منها ..».

فسكت الباشا ولم ينطق بكلمة واحدة.. كان ذلك أمام الطلبة الذين احتشدوا من حوله.

واعتزل حسن دوح السياسة أو كاد، بعد خروجه من السجن وعمله بالصحافة، ثم سافر للعمل بالكويت، وهناك نازعته نفسه العودة إلى الكتابة، فتولى مسئولية رئيسية فى مجلة «الإصلاح» التى تصدرها جمعية الإصلاح الاجتماعى فى الكويت، وهى جمعية إسلامية، تعتنق المفهوم الشامل للإسلام، ثم ترك الكويت، وترأس مجلس إدارة إحدى شركات الاستثمار الأجنبى فى مصر، وعاد لممارسة نشاطه الصحفى بقدر قليل فى الأخبار القاهرية، كما افتتح مكتبا للمحاماة، وصدرت له فى تلك الحقبة كتب عن معركة القنال وغيرها، لكن حسن دوح الكاتب، لم يصل إلى هامة حسن دوح الخطيب المفوّه، والمجاهد الكبير، ومازلت أقول بأن حسن دوح صفحة ناصعة من تاريخ مصر المكافحة.. مصر الطاهرة.. مصر التضحية والفداء... مصر الإسلام فمتى يأخذ هذا الرجل حقه من التكريم والتقدير؟.

وحسن دوح لديه الكثير من الأحداث والأسرار المثيرة، فلماذا لا يمسك بالقلم ويسجل تجربته الفّذة كشهادة لمعاصر شريف، قدم أقصى ما يستطيع لدينه ووطنه.. وليس حسن دوح القادم من قرية «تفنيس المطاعنة» بالصعيد هو الوحيد الذى تجاهله قومه.. فهناك الآلاف من الرجال الأبطال الذين طوى ذكرهم النسيان.. أذكر أننى كنت فى معتقل «أبو زعبل» الجديد، وكان معى رجل صعيدى اسمه «عويس»، أراه هادئًا صامتا يرطب لسانه بقراءة القرآن وذكر الله، وكنت أظنه فلاحًا قحًا من أقاصى الصعيد، وعندما تعرفت عليه فهمت أنه مدرس ابتدائى.. وذات يوم من أيام المعتقل الطويلة القاسية كنت أجلس معه خلف باب «الغرفة»، وهو باب من قضبان حديدية صلبة، ونستطيع من خلال تلك القضبان مشاهدة المارين أمام الغرفة، بل ونصافحهم ونحادثهم.. وذات يوم مر بالباب من الخارج المعتقل حسن دوح «عام ١٩٦٥»، وفجأة وثب عويس من جوارى وهب واقفًا وصاح: ««حسن» أخى حسن ...».

والتفت حسن نحو مصدر النداء، وسرعان ما اندفع نحونا والفرحة تغمر وجهه، ثم يمد يديه من خلال القضبان، وهو يهتف: «عويس.. أخى عويس.. كيف حالك؟».

ودهشت لحرارة العاطفة الجياشة بينهما، وأخذت أرقب المشهد بانبهار شديد.. ما الذى ربط بين «عويس» مدرس الابتدائى، الذى عاش فى قرية «الخيام» النائية، بحسن دوح زعيم الطلبة فى جامعة القاهرة، والمجاهد فى فلسطين والقنال..

ولم يكد يمر يوم أو يومان حتى التقيت بحسن، وعلى التو أخذت أسأله عن علاقته بالمدرس الصعيدى «عويس»، فابتسم حسن، وأخذ يروى لى كيف أن عويس كان من المتطوعين فى فلسطين، وأنه أظهر بطولات فذة هناك، وتولى القيادة للمتطوعين فى بعض المواقع، ثم قال حسن: «إذا استطعت أن ترى بطن «عويس» فسترى عليها سطورًا خالدة ...» نعم..

لقد قاد عويس معركة صعبة فى حربه مع اليهود فى فلسطين عام ١٩٤٨، كان معه بضعة أنفار، وأصابت بطنه رصاصات عديدة.. حتى بدت بقع الجروح القديمة متناثرة متقاربة.. كيف عاش عويس بعدها؟.

وروى لى أصدقاء عويس حكايات عديدة عنه فى أقاصى الصعيد، كيف كان يقاوم جرائم الثأر، ويفصل بين المتشابكين، ويعرض نفسه للأخطار، وكيف ساهم فى محو الأمية، وإرشاد الفلاحين، وكيف درَّب مجموعة من الفلاحين أيام العدوان الثلاثى ١٩٥٦.. وكيف! وكيف! ويبدو أن هذه المؤهلات كلها، كانت السبب فى اعتقاله مرات عديدة بعد ذلك، بل، وقبل ذلك..

لقد خرجت بنا الذكريات عن المدينة الجامعية..

أقول كانت المدينة الجامعية مأوى للعديد من التيارات السياسية والفكرية.. كان فيها الإخوان المسلمون، والوفديون، والشيوعيون، وكان فيها تنظيمات مسيحية وفيها طلبة لا ينتمون لأية فئة، وفيها العاشقون للفن والتمثيل والشعر، وكان من المناظر المألوفة أن ترى « قسيسا » يدخل بزيه الرسمى على المدينة، ويقصد بعض الغرف، ويعقد الاجتماعات، ويلقى الدروس، كما تستطيع أن ترى شخصية بارزة من المركز العام للإخوان المسلمين، أو أحد رجالات حزب الوفد المرموقين، أما أحزاب الأقلية الأخرى كالسعيديين والدستوريين والكتلة الوفدية والحزب الوطنى وحزب مصر الفتاة « الحزب الاشتراكى » الذى يرأسه أحمد حسين، فلم يكن لهم صوت مسموع، وإن كان لبعضهم صحافة، تُقرأ على نطاق ضيق، باستثناء صحيفة الاشتراكية الثورية التى يصدرها أحمد حسين رحمه الله..

وكان بالمدينة الجامعية ساحة تؤدى فيها شعائر صلاة الجمعة، وهى ساحة بالمبنى القديم، وعادة يكون الخطيب طالبًا أو عضوًا من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين، ويكون مضمون الخطبة سياسيًا، سواء إبان حكم الملك فاروق أو بعد قيام الثورة، وكان لمثل هذه الخطب دلالات هامة، تترك آثارها على أفكار الطلبة وتحركاتهم السياسية بالجامعة.

وأذكر أننى كلفت ذات يوم بإلقاء خطبة الجمعة، وفكرت طويلًا فى الموضوع الذى سوف أتناوله فى خطبتى، وكان جمال عبد الناصر قد قال فى إحدى خطبه « إن عجلة الثورة ستسير، وستحطم فى طريقها كل من يعترضها ..».

وقال أيضًا مهددا المعارضة السياسية:

- « إننا على استعداد لأن نضحى بربع الشعب حتى يستطيع ثلاثة أرباعهُ أن يعيشوا فى سلام ..».

وكانت هذه العبارات هى موضوع الخطبة حيث تناولت « شرعية المعارضة » وحرية التعبير، وأهمية تبادل الآراء حول مصير الأمة ومستقبلها والسياسات التى تطبق فيها، وأن هذا أمر يكفله شرع الله، ونصوص الدستور والقوانين الوضعية، وأن إلغاء دستور ١٩٢٣ لا يعنى إلغاء هذه الحقوق المقدسة، التى لا يمكن أن نكون بدونها دولة مسلمة.. أو دولة متحضرة، وأن إهدار هذه القيم يلحق بالشعب وبالثورة أفدح الكوارث، ويفتح الباب أمام صراعات عنيفة قد تراق فيها الدماء، وأخذت أتمثل ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواقف التاريخية عن الشورى وحرية الرأى، كما استشهدت بأبيات من الشعر لأمير الشعراء أحمد شوقى « .. والأمر شورى والحقوق قضاء ..»

وفى نهاية الخطبة قلت ما معناه:

« نحن لا نعترض مسيرة النهضة والبناء والإصلاح وسنفتح عيوننا جيدا على كل ما تقدمه الثورة من أقوال وقرارات، أو تقوم به من ممارسات، وسوف نعترضها حتما عندما تحيد عن الحق، أو تغتال

الحقوق المقدسة للإنسان فى حرية التعبير والشورى، فكيف يُستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ ».

وقلت أيضًا: « إن مقولة التضحية بربع الشعب مقولة مردودة على صاحبها، ونحن لا نقبلها، لأن دماء الناس وأموالهم وأعراضهم حرام.. والزعم بأن القضاء على بعض وإراقة دمائهم من أجل الحفاظ على بقية الشعب مقولة فاسدة أيضًا، لا تصدر إلا عن تطلعات دكتاتورية جائرة، ولا تستند إلى قانون أو منطق سليم، وهى إفراز النفوس المستعلية. التى تضيق بالنقد البناء، وتتوهم أنها وحدها القادرة على اتخاذ القرار السليم، وهى نتيجة للسلطة المطلقة التى تغرى بالقسوة والتصرفات الهوجاء ..».

وأذكر أنه بعد أيام قليلة عقد فى قاعة الاجتماعات بالجامعة مؤتمر كبير حضره جمال عبد الناصر « ولم يكن بعد قد أصبح رئيسا للجمهورية » ومعه عدد من ضباط الثورة، ولم يحضر الرئيس محمد نجيب هذا المؤتمر، ووقف جمال عبد الناصر ليلقى كلمته وسط هتافات عارمة تطالب بالحرية، والعودة إلى الحياة النيابية...

وبان الضيق على وجه جمال عبد الناصر وهو يخطب، عندما قاطعة الطلبة هاتفين: « استفتوا الشعب ... استفتوا الشعب »

كانت الهتافات كالرعد القاصف، وكان يرددها جميع الطلبة من كل الأحزاب دون استثناء، ورأيت جمال عبد الناصر – وكان يرتدى الزى العسكرى – يخلع « الكاب » من فوق رأسه، ثم ينظر إلى الشرفات العالية فى القاعة، تلك التى كانت تكتظ بآلاف الطلبة، ويصرخ بأعلى صوته فى تحد: « لستم أنتم الشعب... الشعب هو آباؤكم وإخوانكم الذين يحملون الفئوس الآن، وينحنون تحت حرارة الشمس يزرعون الأرض... الشعب هو عمال المصانع الذين يكدحون ويعرقون... الشعب هم إخوتكم فى القوات المسلحة الذين يضحون بأنفسهم عند الحدود ..».

وساد الصمت.. وتوقفت الهتافات الداوية، وأخذ جمال عبد الناصر يتحدث عن المبادئ الستة الشهيرة التى كانت الثورة قد أعلنتها وعلى رأسها قانون الإصلاح الزراعى وتحديد الملكية..

وكان المفروض فى هذا اليوم أن يلقى الأستاذ مصطفى البساطى كلمة الجامعة، لكن الأوامر صدرت بمنعه من الكلام، وما إن انصرف جمال عبد الناصر ومن معه، حتى عقد مؤتمر آخر أمام قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، حيث ألقى مصطفى البساطى الطالب بالجامعة كلمته، وقد تناول فيها بعض النقاط الهامة التى يراها الطلبة واتحادهم أساسية فى حياتنا السياسية، وهى فى مجملها تتحدث عن الضوابط الدستورية والقانونية لمسيرة الأمة، والعودة إلى المؤسسات الشرعية كضمان لحرية الشعب، وكبح جماح الإرهاب البوليسى الذى أخذ يهدد حياة الناس وأرزاقهم، ويكمم أفواههم، ويلجأ إلى أساليب العنف والقهر.. كما أشار المتكلم إلى الخطأ الفادح الذى وقع فيه منظمو الحفل وهو منع مندوب اتحاد الطلبة من إلقاء كلمته. وكان هذا المؤتمر فى الواقع بداية سيئة للعلاقة بين طلبة الجامعة والثورة، وأخذت جميع الأحزاب تتشكك فى نوايا الثوار وخاصة ما يتعلق منها بالحريات العامة..

وأستطيع أن أعود قليلًا إلى الوراء، وأروى بإيجاز أحداث مؤتمر آخر عُقد فى الجامعة نفسها فى بدايات الثورة.. كان الأمر مختلفا تمام الاختلاف.. كيف؟

لقد جاء موعد الاحتفال بذكرى شهداء الجامعة، وكان كما قلت قبل هذا المؤتمر بشهور.. وأرسل

جمال عبد الناصر إلى مدير الجامعة يخبره بأنه سوف يحضر المؤتمر ويحتفل مع الطلبة بذكرى شهدائهم، ويلقى كلمة فيه..

كيف سارت أحداث ذلك المؤتمر.. أو ذلك الحفل؟

لم يكن للثورة حتى ذلك الوقت تنظيم أو منظمة فى الجامعة، وكانت جميع التنظيمات السياسية بالجامعة « باستثناء الإخوان المسلمين »، تقف من الثورة موقفا مضادًا، فالوفديون لم ينالوا بغيتهم فى إعادة البرلمان المنحل، أو إجراء انتخابات جديدة، والسعديون والدستوريون كانوا محط الهجوم والازدراء من الثورة، وخاصة بعد أن حوكم قتلة الإمام حسن البنا، وقدم إبراهيم عبد الهادى باشا زعيم السعديين ورئيس الحكومة التى اغتيل فيها مرشد الإخوان، قُدِّم للمحاكمة، والشيوعيون لم يجدوا من الثورة سوى المطاردة والاعتقال فى البداية، والحزب الوطنى ليس له ثقل يذكر فى الجامعة وكذلك حزب مصر الاشتراكى، ومن ثم كان من البديهى أن يعتمد رجال الثورة على القاعدة الإخوانية فى الجامعة، إذ إن العلاقة بين الإخوان والثورة كانت طيبة فى ذلك الوقت، على الرغم من امتناع الإخوان عن الاشتراك فى الوزارة، ولهذا فإن الاحتفال بيوم الشهداء كان ذا صبغة إخوانية تقريبًا، وقد أقيم الاحتفال أمام باب صالة الاحتفالات فى الساحة الواسعة بالجامعة، وأحاطت جموع الشباب من الإخوان المسلمين بالمنصة التى يشغلها جمال عبد الناصر ورفاقه، ومعهم مندوبو الإخوان فى الحفل، وكان الشباب يتحلقون حول المنصة وقد تشابكت أيديهم، فى صفوف دائرية لا يمكن اختراقها، إذ كان من المتوقع أن تحاول الأحزاب أن تندس وتشوه جمال اليوم، وقد يلجئون إلى السخرية أو التعدى على رجال الثورة.. وبُدِئَ الحفل بآيات الذكر الحكيم، ثم رددت مجموعة الأناشيد الإخوانية الحماسية منها نشيد:

فى سبيل الله قمنا نبتغى رفع اللواء

ونشيد السجون أيضًا الذى يقول:

فى سبيل الله أدخلنا السجون والمخرجون من الديار بلا ذنوب يُسجنون

ثم تحدث مندوب الإخوان المسلمين عن ذكرى الشهداء، ومكانة الشهيد عند الله، ودعا ضباط الثورة إلى الإسراع فى اتخاذ الإسلام منهجًا للحياة والحكم، والعمل على « أسلمة » المؤسسات والأجهزة المختلفة، والعمل الفورى على إجلاء القوات البريطانية عن قاعدة قناة السويس، بالأسلوب الذى ثبتت فعاليته، والذى نفذه شباب الجامعة المؤمنون، والتصدى للصهيونية المعادية على أرض فلسطين، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وإقرار قيم الحرية دون إبطاء، وذلك وفاء لهؤلاء الشهداء الذين بذلوا دماءهم فى سبيل الله.

وعندما بدأ « جمال عبد الناصر » فى إلقاء كلمته، فوجىء الجميع بضوضاء وضجة عالية تصدر من جهة كلية الحقوق التى تبعد عن منصة الحفل بما يقرب من مائة متر أو أقل، فماذا حدث؟ لقد احتشد المعارضون أمام كلية الحقوق، ووضعوا مكبرا للصوت، وأخذوا يهتفون هتافات صاخبة، تعنى فى مضمونها الاعتراض على أسلوب الثوار فى الحكم، وتطالب بالانتخابات الحرة، وهكذا تعذر على جمال عبد الناصر أن يواصل كلمته، وكان لابد من التصرف بطريقة تحفظ للحفل استمراريته ووقاره، فتقدمت مجموعة من الطلبة صوب المنصة المقامة أمام كلية الحقوق، لإسكات الميكروفون وكان من

البديهى ألا يمر الأمر ببساطة، فقد حدث الصدام، واستعملت الأيدى فى معركة قصيرة، تم فيها السيطرة على الموقف، والاستيلاء على الميكروفون، وساد الهدوء مرة أخرى، عندئذ وقف « جمال عبد الناصر » مرة أخرى ليواصل خطابهُ وهو فى غاية من التوتر والغضب بسبب المقاطعة السابقة له من قبل المعارضين من الوفديين وغيرهم، وصاح قائلًا وموجها حديثُ نحو هؤلاء المعارضين:

« .. أين كنتم أيام كان إخوانكم هؤلاء « يقصد الإخوان المسلمين » يحاربون ويستشهدون فى القنال؟ أين كنتم أيام كان إخوانكم هؤلاء يجاهدون ويتصدون للصهيونية فى فلسطين؟ وأية انتخابات تريدون؟ لقد أجلسكم الشعب فعلًا على كرسى الوزارة مرات عديدة، فماذا فعلتم؟ لقد كنتم أداة طيعة فى يد الملك والاستعمار ...».

ألا شتان بين هذا المؤتمر وذاك!! شتان بين اليوم والبارحة!! إن هؤلاء الذين وقفوا محيطين بعبد الناصر ورفاقُه إحاطة السوار بالمعصم ليحموه من بطش المعارضة، سيقوا بعد ذلك إلى المحاكمات الرهيبة كما يعلم الجميع..

وتعرض الإخوان المسلمون لنقد لاذع بسبب موقفهم يوم الاحتفال بذكرى الشهداء، واعتبرهم المعارضون مخطئين فى مساندتهم لرجال الثورة، وفى اشتباكهم بالأيدى مع اصحاب الرأى الآخر، ولم يُوجه هذا النقد من المعارضين وحدهم. فقد قال لنا الأستاذ الدكتور محمد سليمان أستاذ الطب الشرعى بكلية طب القصر العينى، حينما اجتمع بنا فى مدرج « على باشا إبراهيم »:

« إنه لأمر مؤسف أن تشتبكوا بالأيدى مع أصحاب الرأى الآخر.. خير لكم أن تكتسبوا قلوب الناس بالمحبة والتفاهم لا بالضرب والقسوة ..» وكان الدكتور محمد سليمان عضوًا بارزا قديمًا من الإخوان المسلمين.. كما علمت أيضًا من أحد الإخوان الثقاة الذين التقوا بالأستاذ حسن الهضيبى مرشد عام الإخوان المسلمين رحمه الله أنه اعترض على ذلك التصرف، وأوصى بالبحث عمن تسببوا فيه حتى يحاسبوا، وعندما حوكم رجال العهد السابق، وصدر حكم بالإعدام على « إبراهيم عبد الهادى باشا » – ولم ينفذ الحكم – كان المرشد العام متضايقًا، وقال: إن مثل هذه المحاكمات الاستثنائية خطر بالنسبة للأمة ومستقبلها، وقد يأتى يوم تتصرف معنا الثورة مثلما تتصرف الآن مع أعدائها من رجال العهد البائد، ولا تعجبوا عندما تروا مرشدكم العام يقدم للمحاكمة بنفس الأسلوب وبنفس الطريقة.. ولم يكن هذا غريبًا من الهضيبى رجل القانون المسلم والمستشار القديم الذى يعرف قيمة القانون واحترامه، ولهذا رفض الرجل منذ البداية كما سبق وشرحت فى الجزء الأول من هذا الكتاب فكرة السلطات الاستثنائية وإلغاء الدستور، وعاب على الشيخ محمد الغزالى مقالته الشهيرة التى كان يستعدى فيها الثورة على الفاسدين من رجال العهد البائد، وكانت تلك المقالة بعنوان « إضرب والحديد ساخن ».

والواقع أن عددًا من شباب الإخوان المتحمسين، كانوا يذكرون للأحزاب القديمة سياستهم الجائرة، وزجهم بالناس فى السجون، وقتلهم الأبرياء، واضطهادهم لأصحاب الرأى والمعارضين، ولم يكن أمامهم دليل أكثر من سوق المجاهدين فى فلسطين وفى القنال إلى المعتقلات فى عهد النقراشى باشا وإبراهيم عبد الهادى باشا، وكان هؤلاء الشباب المتحمسون يرون أن رجال العهد البائد لابد أن

يحاسبوا حسابًا عسيرا، وإلا استوى الظالم والمظلوم، والمحسن والمسيء، وكانت الفكرة فى حد ذاتها تبدو منطقية، لكن العقلاء كانوا مؤمنين بأن العقاب لابد وأن يتم بالطريقة القانونية الصحيحة، وأن يعطى المتهمُون الفرصة للدفاع عن أنفسهم، فى ظل ضمانات عادلة كافية، وكان على رأس القائلين بذلك المرحوم الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام الثانى للإخوان المسلمين، وظل هذا رأيه حتى وافاه الأجل المحتوم، وأذكر أنه فى المعتقل بعد أحداث عام ١٩٦٥، وقضية الشهيد سيد قطب الشهيرة، رأى بعض الإخوان يشتطون فى عدائهم لجمال عبد الناصر، ويتهمونه بالكفر، ويعلنون أن العنف والقوة وحدهما هما السبيل لردعه، فما كان من الهضيبى رحمه الله إلا أن أخرج كتابه الشهير بعنوان « دعاة لا قضاة » أوضح فيه رأيه مدعما بالدليل من الكتاب والسنة، وانشق عدد من هؤلاء الإخوان عنه، وكونوا فيما بعد ما يسمى بقضية « التكفير والهجرة » وإن لم يكن اسم تنظيمهم كذلك، أطلقوا على أنفسهم « جماعة المسلمين »، لكن الصحافة فيما بعد أعطتهم اسم التكفير والهجرة استنادًا إلى بعض التعاليم التى يؤمنون بها..

كانت المدينة الجامعية كما قلت مركزا لصراعات الرأى والفكر، بما يحتدم فيها من تيارات سياسية وفلسفية متناقضة، على الرغم من أن لائحة المدينة الخاصة تشترط على من يقيم فيها عدم الاشتغال بالسياسة، وكان الصراع السياسى فيها معروفًا لدى الجميع، وقد أدركت جهات الأمن والمخابرات ذلك، فدست فيها عيونها، وحاولت تباعًا أن تفسح المجال لشباب جدد موالين لها.

وعلى الرغم من اندماجى الشديد فى العمل السياسى إلا إننى كنت شديد الحرص على متابعة دراستى بانتظام، فلابد من الحضور يوميا بالكلية سواء بالنسبة للدروس العملية أو النظرية، وقد ينتهى المؤتمر السياسى فى الثانية عشرة ، مثلًا ، ظهرًا، ثم ترانى جالسًا على مكتبى بعد نصف ساعة لأستذكر دروسى وأراجعها، كنت أدرك عظم المسئولية الملقاة على عاتقى بالنسبة لى ولأسرتى ولدينى، وأى تقصير ولو بسيط كان يورثنى الندم والألم وتأنيب الضمير، فلم يكن غريبا أن أنجح كل عام بتفوق والحمد لله، وبقى شأنى هكذا حتى وقعت ذات يوم فى قبضة البوليس السياسى « المباحث العامة »، وهذا ما سوف أتناوله بالتفصيل إن شاء الله فى مكان آخر.

ولاحظت فى المدينة الجامعية ملاحظة غريبة : إن بعض شباب الإخوان المسلمين المرموقين قد ابتعدوا عن الساحة، واعتكفوا بعيدًا عنا، ولم يعودوا يواظبون على حضور الاجتماعات أو المشاركة فى الرأى، وعندما استفسرت عن الموضوع أدركت أنهم « موقوفون » عن العمل فى صفوفنا لأجل غير مسمى، وفهمت أيضًا أن هناك اختلافًا وقع بينهم وبين المرشد العام ومكتب الإرشاد، وكان أغلب هؤلاء الأعضاء منتظمين فيما يسمى « بالنظام الخاص » وهو ما أطلقت عليه أجهزة الإعلام « الجهاز السرى » وقد حدثت بعض الأمور الملفتة للنظر بالنسبة لهذا الجهاز فمثلًا:

١- إعفاء رئيسه « عبد الرحمن السندى » من منصبه.

٢- تعيين المهندس « سيد فايز » مكانه.

٣- اغتيال المهندس « سيد فايز » بإرسال طرد حلوى إلى منزله، ووفاته وبعض أفراد أسرته فى ظروف غامضة.

٤- تعيين « يوسف طلعت » رئيسا له..

٥- اعتراض المرحوم الهضيبى مرشد الإخوان على وجود هذا الجهاز أصلًا.

٦- حدث أن اعتصم أعضاء الجهاز القديم « وكان رئيسه السندى » فى المركز العام، وكانت لهم مطالب معينة، وقد كان من رأى الأستاذ الهضيبى ألا ينشر شىء عن هذا الموضوع حفاظًا على كيان الجماعة، وحتى تتبين الأسباب الرئيسية وراء ما حدث، ولكن الحكومة وجدتها فرصة ذهبية، فأمرت الصحف بنشر أنباء ذلك الاعتصام فى الصفحات الأولى للجرائد اليومية.

٧- كانت هناك صلة قديمة وثيقة بين بعض رئاسات وأعضاء هذا الجهاز وجمال عبد الناصر، قبل وبعد الثورة.

٨- عند اعتقال أعضاء الإخوان فيما بعد، ولم يشمل الاعتقال عددًا من الأعضاء البارزين فى التنظيم مثل عبدالرحمن السندى وغيره.

وقد كثر الحديث حول هذا التنظيم الخاص، وتناولت الصحف نواياه الإرهابية، والواقع أن أفراد هذا الجهاز كانوا طليعة الجهاد فى فلسطين والقناة، وتصدوا للإنجليز واليهود، وكان تدربهم على حمل السلاح بادئ ذى بدء لهذه الغاية: مقاومة الإنجليز واليهود، وكان بعض ضباط الثورة ومجلسه ممن يدربونهم ويعطونهم السلاح، ويشتركون معهم فى المعارك التى دارت فى منطقة القنال وفلسطين، ومن هؤلاء الضباط كمال الدين حسين وكمال رفعت ، بل وجمال عبد الناصر نفسه، ويتضح ذلك بأدلة لا تقبل الشك، عند الاطلاع على تحقيقات قضايا السلاح أمام محكمة الشعب، كما يمكن النظر فى مذكرات المرحوم حسن العشماوى « الإخوان والثورة ». وكانت كميات من هذه الأسلحة يحتفظ بها فى عزبة « حسن العشماوى » بمعرفة جمال عبد الناصر.

المهم أن رسالة التنظيم أساسًا هى مقاومة الاستعمار والصهيونية، ولكن الأحداث قد أوجدت لهذا التنظيم مهمة ثانوية أخرى هى الحفاظ على أمن الجماعة والتصدى لمن يناوئونها، وقد ثبت أن هذه الممارسات حدثت دون علم المرشد العام وأعضاء مكتب الإرشاد، وخاصة فى الأوقات العصيبة التى كان تنقطع فيها الصلة بين القيادة وجماهير الجماعة، ولنضرب لذلك مثلًا:

١- معاقبة النقراشى بالقتل حدثت أثناء اعتقال الإخوان وقيادتهم فى جبل الطور والهاكستب.

٢- قضية الاعتداء على حامد جودة والأوكار حدثت فى نفس الظروف.

٣- حادثة مصرع الخازندار لم يثبت أن القيادة لها أدنى علم بها.

٤- حادثة المنشية أو محاولة الاعتداء على جمال عبد الناصر، ثبت بالدليل القاطع أمام محكمة الشعب أن الهضيبى وأعضاء مكتب الإرشاد لم يكونوا على علم بذلك.

إن الأيام العصيبة، والإجراءات الظالمة الجائرة، بالنسبة للشعوب تفرز تصرفات وأحداثا هى من صنع اللحظة، ومع ذلك فإنها قد تجعل مسار التاريخ يتحول إلى جهة لم يكن يتصورها أحد ومما لا شك فيه أن هذه القضية - أعنى قضية « النظام الخاص » - تحتاج إلى مجال آخر، وإلى دراسة وتحليل مستفيضين، لكنى حاولت فى هذه العجالة أن أبرز أهم النقاط الجديرة بالبحث والدراسة.

تغيرت الأوضاع لحد ما فى المدينة الجامعية، وصارت نوعية الطعام أقل جودة مما كانت عليه،

وافتتحت أبواب المطعم لطلبة الجامعة فى وجبة الغداء بمبلغ زهيد، وكان لهذا الازدحام وقت الظهر أثره فى تدنى الخدمات، وحدث ذات يوم أن ثار طلبة المدينة الأصليون، ووضعوا كمية من الأطعمة المختلفة فوق «عربة يد» وساروا فى مظاهرة من المدينة إلى إدارة الجامعة كى يرفعوا شكواهم لمديرها.. وعلى الرغم من ذلك فإن الأمور لم تتحسن..

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن المدينة الجامعية بنظامها وإمكاناتها قد أتاحت لنا فرصة ذهبية للتحصيل والتفوق أيضًا، فقد كان بها نسبة كبيرة من أوائل الدفعات فى مختلف الكليات والمراحل.

وفى يوم الخميس من كل أسبوع يخرج عدد كبير من الطلبة للفسحة أو زيارة أقاربهم وأصدقائهم فى القاهرة، أو يقضون السهرة فى سينما أو مسرح، وبعضهم قد يسافر إلى مدينته أو قريته لقضاء ليلة أو ليلتين بين أفراد أسرته، وكان الوضع الأخلاقى فى المدينة الجامعية بشكل عام لا بأس به، ونادرًا ما تحدث سرقة أو مشاجرة، أو خلاف بين زميلين فى غرفة واحدة، ويبدو أن السبب الرئيسى فى ارتفاع المستوى الأخلاقى هو غلبة أصحاب المبادىء على غيرهم من الطلبة، فالهوية العقائدية - مسلمين ومسيحيين - والالتزام السياسي. والحفاظ على الشعائر الدينية، وكون الجميع غرباء عن القاهرة، جاءوا بهدف العلم، فضلًا عن أن الرسوب المتكرر قد يتسبب فى فصل الطالب من المدينة، كل هذه الاعتبارات كانت سببًا فى سيادة جو الهدوء والنظام والالتزام فى هذه المدينة الصغيرة..

لقد كان «الدكتور مورو باشا» مديرًا للجامعة قبل الثورة وبعدها، وكان رجلًا وطنيا مخلصًا، حفظ للجامعة حريتها واحترامها، وخاصة فى الأيام العاصفة التى سبقت قيام الثورة، وشجع حركة المقاومة ضد الإنجليز، ولم يحفل بتهديدات الملك، وتبرع بالكثير من الجهد والمال فى هذا المجال..

وبعد الثورة بفترة شغل منصب مدير الجامعة العالم الفذ، والأديب البارز الدكتور أحمد زكى، الذى ارتبط اسمه فيما بعد باسم «مجلة العربى» الشهيرة، وكان الدكتور أحمد زكى مستقلًا، ولا أعرف أنه انتمى لحزب من الأحزاب، كما كان عضوا فى المجمع اللغوى، ومن جملة ما قاله عنه المرحوم عباس العقاد «إننى أتصور الدكتور أحمد زكى وهو يكتب ممسكًا بقلم ومسطرة»، إيماءً إلى دقته فى التعبير، وتحديده لأفكاره، وترجمته لما يفرزه من علم ومعرفة على نسق فريق واضح..

وكانت الفترة التى تولى فيها إدارة الجامعة فترة من نوع خاص، فالرجل يريد للجامعة أن تظل حصنا للحرية والرأى الصادق، والثورة تريدها أن تكون مؤسسة ثورية ملتزمة بمبادئ الجيش وأهدافه، ولا يصح أن يكون بالجامعة مكان لأستاذ معارض، وعاش الرجل هذه الفترة الحرجة، وهو تحت معاناة نفسية لا يعلمها إلا الله، لكنه ظل وفيا لمبادئه وأفكاره، متجنبا الصدام مع كبار مسئولى الدولة، حتى تحقق له الارتياح التام بترك العواصف والأنواء التى ليس أهلًا أو ندًا لها، فلم يكن من طبيعته أن يخوض المعارك العنيفة الدامية، أن يقتحم ساحات النار والأشواك، إنه يعرف العلم والدراسة المتأنية، ويؤمن بالتدرج والتوعية دونما عنف أو ضجيج.. لم يكن المكان مكانه، ولا الزمان زمانه، ولم يجد ضالته بعد ذلك إلا فى تلك المجلة الثقافية الرائدة فى الكويت، مجلة العربى، حيث استطاع أن يسير بسفينتها ببراعة منقطعة النظير، على شواطىء البلدان العربية، دون أن تعوقها رياح اليسار أو اليمين، بل ظل أمينا على قيم الحرية والثقافة الأصيلة، والإبداع الرائع، يؤدى ذلك كله فى براعة واقتدار وحكمة، وهكذا حظى

باحترام الجميع، وحب الجميع، مما جعل «العربى» تصبح أول مجلة عربية فى أمتنا الشاسعة وفى غيرها..

لقد قضيت فى المدينة أربع سنوات كانت كالحلم الجميل... شعرت أنها قلب الأم الحنون التى تضم فتاها الريفى القادم من القرية النائية. يكاد يبهره البريق، ويذهله زحام المدينة الصاخبة..

وفى المدينة العزيزة لقيت أعز الأصدقاء وأحبهم إلى قلبى... وقرأت فى السياسة والأدب والطب... وفيها عاصرت أعتى الأحداث وأخطرها..

كانت حياتى فيها حياة مثيرة جديدة بكل ما تحمله هذه الكلمات من معنى..

وخلال تلك السنوات الأربع الخصبة التقيت خارجها بوجه حبيب.. وجه ظل يضىء لى طوال رحلة حياتى الشاقة.. التقيت بأم أولادى..

ترى، أيمكن فى صفحات معدودة أن أسجل تلك الذكريات الحلوة، فى هذه المدينة الجميلة؟

لا أعتقد..

لكن ماذا أفعل، والأحداث كثيرة، والوقت قصير، والعمر يمضى. والتجربة لابد وأن تُسجل أهم سطورها؟

سلام على تلك الأيام... وسلام على تلك البقعة الحبيبة..

وسلام على أيام الشباب النابضة بالقوة والإيمان والثقة والحب.. العامرة بالذكريات والآمال والآلام والمفاجآت..

❁❁❁

[٢] مأساة الأقلام



سبحان مغير الأحوال! بعد قيام الثورة بفترة وجيزة، واعتقال قادة العهد السابق، وطرد الملك فاروق والاستجابة المبدئية من الشعب بالتأييد الكبير للحكام الجدد، بعد ذلك تغيرت الصورة بسرعة عجيبة، «الأخبار» و«أخبار اليوم» أخذت تنشر القصص والصور والتحقيقات والأسرار المسيئة للملك والقصر والأسرة الحاكمة، ونحت نحوها بعض الصحف الأخرى مثل صحافة روز اليوسف ودار الهلال وغيرها، وتحفظت قليلًا جريدة الأهرام والمصرى، كما صدر طوفان من الكتب للصحفيين والأدباء القدامى تندد بما مضى، وساهمت الإذاعة والسينما بنصيب موفور فى هذا المجال. لكن طه حسين والعقاد والحكيم وغيرهم من كبار الكتاب لم يشاركوا فى هذا الاندفاع الجارف، بل تناولو بعض القضايا الإنسانية العامة، وكانت كتاباتهم تتسم فى البداية بالحذر، وبالتلميح دون التصريح..

أنا لا أقول إن الصحافة فى العهد الملكى كانت كلها تسبح باسم الملك، أبدًا.. فقد كان هناك عدد لا بأس به من الكتاب المتحررين والملتزمين، هاجموا القصر بأسلوب أو بآخر، وكانت النتيجة أن اعتقلوا وحوكموا وسجنوا، وتعرضت بعض الصحف والكتب للمصادرة والعقاب، وما أكثر الشعراء والمحللين السياسيين الذين انتقدوا السراى بعنف، وتعرضوا لشتى ألوان الاضطهاد، وفى المنتديات والمجتمعات الخاصة المحدودة! كانت تصرفات الملك والأحزاب، تتعرض لنقد لاذع دون مواربة، بل إن طلبة الجامعة «جامعة فؤاد - أو القاهرة حاليًا» هتفوا بسقوط الملك، وهو فى عنفوانه، وطالبوا بتطهير الجيش من الفساد، وتخليص الحكم من الاستغلال والرشوة والظلم، ولم تغفل السراى عن هؤلاء جميعًا، بل وضعتهم تحت طائلة العقاب بصور شتى، بل إنها دبرت اغتيال البعض منهم أمثال حسن البنا والضابط «طه»، كان ذلك إبان الحكم الملكى، ومعظم الصحفيين آنذاك لم يتكاسلوا عن تقديم فروض الطاعة والولاء فى شتى المناسبات، وهذه الفئة الأخيرة تحاول اليوم أن تتصدر كوكبة المنددين بالحكم الملكى.

ومما لا شك فيه أن مقالات أحمد حسين وسيد قطب وإحسان عبد القدوس وأبو الفتح وعدد من كتاب الوفد المخلصين، وخاصة فى فترات اضطهاد الوفد واستبعاده عن ساحة الحكم، وطه حسين «وخاصة فى كتابه «المعذبون فى الأرض»» بطريق رمزى أو غير مباشر، بل إن أحد شيوخ الأزهر، وأظنه الشيخ عبد المجيد سليم قد طرد من منصبه الحساس بسبب تصريح صحفى عرض فيه بالملك نفسه وهو فى «كابرى»، وكانت معاداة الإخوان والشيوعيين للملك لا يختلف عليها اثنان، ولا عبرة بما يقال حول استدعاء الأستاذ الهضيبى مرشد عام الإخوان المسلمين لمقابلة الملك قبل الثورة، وتصريحه الذى جاء فيه «زيارة كريمة لملك كريم»، فقد كانت هذه الكلمات الرسمية لمندوب الصحافة لا تعنى شيئًا

بالمرة، فهى أقل ما يقال علنًا، وعلى المستوى الرسمى فى تلك الفترة، بعد العداء والدماء التى صبغت العلاقة بين الملك والإخوان، أى بعد سجنهم وإرهابهم واضطهادهم وقتل مرشدهم العام، فالهضيبى لم يفعل مثلما فعل غيره، من أولئك الين قبّلوا يد الملك، أو نعتوه بالملك الصالح، والعادل، وأنه من أهل البيت.. وأنه وأنه...

وعلى الرغم من التأييد الشعبى الكاسح فى البداية، إلا أن الأمر أخذ يتناقص تدريجيًا، حينما اكتشفت الأحزاب أن الضربة قد وجهت إليهم ، وللأحزاب فى القرى والمدن اتباع ومصالح وبدأت بعض الصحف فى انتقاد الثورة، ومهاجمة بعض سياساتها وتصرفاتها، عندئذ جاء دور الرقابة على الصحف، وإصدار صحف تخص الثورة مثل مجلة التحرير وجريدة « الجمهورية »، وقد تجرأت « روز اليوسف » على الثورة بالنقد، فقبض على إحسان عبد القدوس، كما فعلت « المصرى » نفس الشىء، فحوكم أصحابها ثم توقفت عن الصدور.. وأخفقت الصحف الحزبية الأخرى الصغيرة، مثل جريدة « الأساس » وجريدة « صوت الأمة » وغيرهما..

وكانت الصحف وكتابات الإخوان المسلمين ترتكز فى سياستها على نقطتين:

الأولى: الإلحاح فى دعوة مجلس قيادة الثورة للأخذ بالمنهج الإسلامى.

الثانية: تأييد الثورة ومؤازرتها فى شتى المجالات، لكن بقدر غير قليل من التحفظ فى بعض الأمور المختلف عليها..

لكن ذلك التأييد لم يستمر طويلًا، فبعد أن كبحت الثورة جماح الأحزاب، وقلمت أظافرهم، وفرقت بالتهديد والوعيد أتباعهم، لم يبق أمامها إلا جماعة الإخوان، عندئذ بدأت الأقلام الحكومية والمعادية تشن الهجمات على الإخوان، وتحاول الوقيعة بين أعضاء الجماعة، وتلفق التهم والأخبار ضدهم، وعندما يتساءل القادة الإخوانيون عن سر ذلك، يتبرأ منه جمال عبدالناصر، ويزعم أن الصحافة حرة، وأن كل فرد له الحق فى أن يعبر عن رأيه تحت مسئوليته الخاصة، وهكذا ظلت العلاقة بينهما تسوء حتى صدر قرار الحل الأول للإخوان المسلمين فى بداية عام ١٩٥٤.. وهكذا تأكد الجميع أنه لم يعد هناك لقاء فى المستقبل بين الإخوان والثورة.. وبدأت سطور مأساة دامية لم يعرف لها التاريخ المصرى مثيلًا فى أشد مراحله قتامة وظلمًا..

نعود ونقول إن هناك أقلامًا اختفت.. وأقلامًا جديدة ظهرت.. وأقلامًا تأقلمت بسرعة وظلت لها شهرتها القديمة، بعد أن خلعت عن جسدها وفكرها الرداء القديم ولبست رداء الثورية..

وأصبح الذين كانوا يترنمون بأمجاد العهد الملكى ومنجزاته السياسية والاقتصادية، من ألد أعدائه وكارهيه، أما الأقلام الأصيلة التى عانت وتعرضت لكثير من الاضطهاد فإن غالبيتها قد تنوسيت، إما لخلاف فى الرأى مع القيادات الجديدة، أو لأن طوفان النفاق قد غمر الأسواق والساحات، أو لأن الثوار قد أتوا بأصدقاء وأقرباء أطلق عليهم أهل الثقة..

وجاءت حركات التطهير لتخفض وترفع، وقد يكتسح طوفانها أبرياء لا ذنب لهم ولا وزر، سوى الحزازات الشخصية، أو الانتماءات الفكرية المخالفة، أو الشائعات التى لا ترحم، وأخذ معظم كبار رجال الصناعة والتجارة والزراعة باتهامات كثيرة لا تفرق بين الجانى والبرىء وأصبحت اليد العليا للسلطة البوليسية والمخابرات، ولم يعد للقانون مكان أصيل فى خضم السلطات الاستثنائية الواسعة، وتبدل الأمن إلى خوف، والحرية إلى إلزام، وأصبح الولاء الأعمى هو العصمة لمن يريد أن يعيش ويربى أبناءه، وسيطر

الشك، ولوثت الحقائق لمجرد أنها قديمة، وزيف التاريخ لمجرد أنه زمن ما قبل الثورة، فثورة ١٩١٩ لم يكن لها مضمون اجتماعى كما يزعمون، فسعد زغلول ومصطفى النحاس وحسن البنا أعداء للعدالة والحرية والتقدمية، والفكر الدينى الصحيح رجعية وتأخر، والليبرالية استعمار وحماقة وإمبريالية، والنقد جريمة بل خيانة، وحقوق الأمن والأمان الفردى خرافة، وفسر هذا كله بأنه من أجل الشعب، وصالح الديمقراطية، وحماية للقاعدة العريضة من أبناء الأمة.

وتحول الفنانون إلى زمارين وطبالين يترنمون بالثورية وبطولة القائد وعظمته ووفائه وعدالته، وأصبحت الأقلام المسبحة بمجد الثورة وزعيمها هى الجديرة بالتقدير والاحترام، مما جعل الكثيرين يبحثون عن الإذاعات الأجنبية ليستمعوا فيها إلى حقيقة الأخبار، وتحولت المسرحيات والقصص والأشعار والأخبار إلى مظاهرات تأييد صاخبة، حتى أطلق عليها البعض من باب السخرية «الأدب الهاتف» إشارة إلى ضياع «الأدب الهادف»..

وكان من نتيجة السياسات الخارجية الخرقاء، إن تمزقت علاقاتنا الدولية والعربية والإسلامية، ووجدنا أنفسنا بين عشية وضحاها لا ملجأ لنا إلا الارتماء فى أحضان الروس ومن يلوذ بهم، وفتحت الأبواب على مصارعها للثقافة الماركسية بكل ألوانها، واعتلى الشيوعيون قمم الفكر والصحافة والفن والتنظيمات، ثم ظهر «الميثاق» بعباراته البراقة إنجيلًا جديدًا لأجيال سممت أفكارها وسيق الذين آمنوا أو أخلصوا إلى أعواد المشانق، أو زنازين السجون والمعتقلات، وضربت إسرائيل ضربتها القاسية فى عامى ١٩٥٦ و١٩٦٧، وانهار الكثير من قيمنا الروحية العريقة، ووقعنا فى قبضة الحيرة والديون، والإفلاس وغرقنا فى مستنقع «اليمن»، و«الكونغو» و«الانقلابات العسكرية» للدول الصديقة والشقيقة، وفقدنا جزءًا كبيرًا من أرض الوطن «سيناء»، وتراجعت القضية الفلسطينية إلى الوراء، واحتل اليهود الضفة الغربية وغزة، وتفشت الأحقاد والعداوات والرشوة والفساد، وكان لزامًا على كل مخلص أن يهتف من أعماقه «تحيا الثورة»

- «يحيا الزعيم» و«الموت للخونة»، و«لا حرية لأعداء الشعب».. «اقتل.. اقتل يا جمال.. لا محاكمة ولا اعتقال».. وتسيطر الأوهام.. ويتحدثون عن الانتصارات والأمجاد.. والأجيال الجديدة تترنم بالأناشيد، وحب الزعيم، فى أكبر عملية «لغسل المخ» فى تاريخ شعبنا المسلم..

لا يستطيع منصف اليوم - حتى أقلام الثورة نفسها - أن يزعم بأنها كانت فترة حرية وديمقراطية، وأستطيع أن أحيل القارئ إلى مذكرات قائد الثورة الأول محمد نجيب، ومذكرات كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادى وحسن التهامى وغيرهم من رجالات الثورة أنفسهم، بل مذكرات أنور السادات نفسه، وهو خليفة عبد الناصر، وكذلك كتابات الصحفيين الذين تألقوا إبان عهد عبد الناصر «باستثناء محمد حسنين هيكل»، قد كتبوا بعد وفاته ما يؤكد وجهة نظرنا، بل إن المحاكم فى عهد السادات قد قدمت حيثيات مثيرة، وأحكامًا قاطعة، بالجناية الكبرى التى جنتها الثورة على حرية الرأى، وتطور الفكر، وازدهار الفنون والأداب..

لقد عاشت الأقلام الحرة فى مأساة مؤلمة، حتى الذين نافقوا وكتبوا ما لا يؤمنون به، كانوا وجهًا آخر للمأساة، ولا شك أن قوانين الصحافة الجائرة وما تعرض له القضاء ونقابة الصحفيين والمحامون والمعلمون وغيرهم من عقاب وإرهاب و«تطهير»، كان دلالة واضحة على الجور والفساد، وضرب الدكتور السنهورى فى «مجلس الدولة» - حصن العدالة، أصبحت مثلًا يروى، ولم يعد للشعب سلاح بتَّار يشهره فى وجه ذلك الفساد الضارى سوى «النكتة».

واعتقد أن « النكتة » المصرية هى السجل الحقيقى لرأى الشعب فى تلك الفترة الخطيرة، ولو قدر لمؤرخ أن يجمع هذه النكات ويحللها لوجد أنها هى التعبير الصادق، والمترجم الأمين، والمعيار الصحيح لرأى الغالبية العظمى من الناس، هذا إذا قارناها بالاستفتاءات الزائفة التى كانت تبلغ ٩٩,٩٩٩٩٪، أو بالأغانى « الرائعة » التى يترنم بها كبار المغنين، أو بالكتب الأنيقة التى برع بعض الكتاب فى تأليفها وزخرفتها بالصور والألوان، أو بالتسجيلات التليفزيونية والإذاعية والسينمائية التى تبرز تأييد الجماهير وهديرها الصاخب إبان الاحتفالات الدورية والمؤتمرات الصاخبة..

لقد ضاع الكثير من الحقائق العظيمة فى خضم هذا الطوفان الهائل من الزيف ، تلك كانت صورة « العهد الزاهر » الذى خلصنا من طغيان فاروق ومظالمه!!

دعوت على عمرو فمات فسرني   بليت بأقوام، بكيت على عمرو

لكن ما الذى أذكره وأنا فى طفولتى، وفى ريعان الشباب قبل أن تقوم الثورة؟ فى القرية كنا نوقر الملك، ونعتبره رمز السلطة والعظمة والقوة، ولا ننظر إليه من خلال الأحزاب وصراعاتها، وكنا نسمع عنه حكايات كثيرة كالأساطير، تظهر ذكاءه وعدله وحبه لشعبه، كما كنا نردد الأناشيد التى يلقنونها فى الكتاتيب والمدرسة الابتدائية، وبعد أن كبرنا وقرأنا وسمعنا، أخذت عقولنا تستوعب حقائق جديدة عن فساد القصر ومظالمه وألاعيبه، كما أخذنا نعرف لأول مرة شيئًا عن « الملوك الصغار » أعنى الإقطاعيين والباشاوات وأصحاب النفوذ، والعائلات ذات البطش والسلطان. وعن قيام الحكومة بحماية كثير من الظلمة والمجرمين، وبعد انضمامى لجماعة الإخوان المسلمين، لم يكن من الصعب أن أدرك أن الجماعة تتناول بالنقد اللاذع تصرفات الملك والأحزاب، وعرفت الكثير من مباذله ومفاسده، وأصبح من الأمور المسلم بها بين صفوفنا أن الملك والأحزاب والإقطاع والإنجليز رباعية مقيتة لا يصح السكوت عنها..

وأذكر أننا كنا نذهب إلى مساجد القرية، ونخطب فى الناس مبرزين تلك المظالم والمفاسد، وندعوهم إلى الخلاص من ذلك الظلم، ونؤكد أنه لا وسيلة لنا إلا بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله، وكنا نحمل حملات شعواء على أصحاب الإقطاعيات الزراعية ومغالاتهم فى إيجارات الأراضى، واستغلالهم للفلاحين، وقد وصل الأمر بأحد الإقطاعيين إلى قتل أحد الإخوان فى شعبة من الشعب الإخوانية الكثيرة المنتشرة فى أنحاء البلاد، بسبب تصدى ذلك الضحية لمظالم وتعديات صاحب الأرض، وهى قضية معروفة عرضت آنذاك أمام القضاء.. ولا شك أن مقالات أحمد حسين وسيد قطب فى عصر ما قبل الثورة كانت من أبرز ما كتب فى هذا المجال، وهناك عدد آخر من الكتاب قد أدوا واجبهم فى مجابهة الاستعمار والإقطاع والفساد، وقد أصدر الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى مجلة يسارية اسمها « الغد » صدر منها أعداد قليلة قامت هى الأخرى بنفس المهمة، كما استطاع بعض كتاب الرواية والقصة القصيرة أن يضمنوا كتاباتهم الكثير من هذه الأمور، ولعل كتاب طه حسين « المعذبون فى الأرض »، ورواية « الأرض » للشرقاوى، وبعض كتابات نجيب محفوظ ويوسف السباعى والخميسى والوردانى وغيرهم حملت قدرًا متنوعًا من هذه القضايا..

وكان الأمر أكثر وضوحًا فى السينما، حيث استطاعت الشاشة أن تعرض الكثير من مباذل الطبقة « الراقية »، وأحزان الطبقات المطحونة ، والفلاحين خاصة، لكنها كعمل تجارى تملكه نخبة قادرة ذات مصالح، لم تتمكن من الأداء المكتمل لإبراز جوانب الفساد المتراكم المنتشر هنا وهناك..

لكن الأمر الذى لابد من تسجيله بكل احترام وتقدير وهو أن نخبة من أعلام الفكر الدينى منذ جمال الدين الأفغانى وحتى قيام الثورة، قد أدركت عظم المسئولية الإسلامية الملقاة على عاتقها، فكانت أصواتا حرة أمينة سواء فى ثورة عرابى أو ثورة ١٩١٩ أو إلغاء الدستور فى عهد صدقى، وإبان حرب فلسطين، وفى فترات الكبت والإرهاب، استطاع هؤلاء العلماء الأفاضل أن يعلوا صوت الحق، من فوق المنابر، وفى قاعات الدرس، وفى الأندية والمحافل المختلفة، وصاروا قادة فى مجال حرية الرأى والدعوة إلى الإصلاح الشامل، ولم يتقاعس عن ركبهم إلا فئة قليلة، كان لها طبيعتها الرسمية أو النفسية، فانخرطت فى مخططات السراى والأحزاب، ضمانا للسلامة وأملًا فى الكسب، وتطلعا إلى المناصب الكبيرة، ومع ذلك فإن الأزهر الشريف قد لعب دورًا بارزًا وحاسمًا فى عهد ما قبل الثورة، وهو دور تاريخى إيجابى لا يمكن أن يغفله أى مؤرخ حصيف، وهل ينكر أحد أن القيم الدينية التى رسخها علماء الدين، والمفكرون الإسلاميون، هى التى حمت بلادنا من الغرق فى محيط الشيوعية الواسع، والضياع فى متاهات الفكر الغربى الملحد، والسقوط فى براثن العلمانية مثل تركيا؟

إن مصر اليوم والأمس هى مركز الإشعاع الإسلامى فى العالم دون ريب، وإن مصنفات علمائها ومفكريها الإسلاميين هى الزاد الذى يتغذى عليه أبناء الأمة الإسلامية فى كل أنحاء الأرض، وإن حركتها الإسلامية الكبرى فى الثلث الأوسط من القرن العشرين، والتى أشعل شرارتها الإمام الشهيد حسن البنا، لم تزل نبراسًا لكل العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية، تلك الحركة بأحداثها وتراثها ورجالاتها ومعاركها الدائمة تجربة تاريخية هامة، ما زالت تشد الانتباه، وتغرى بالمتابعة، وقد حظيت باهتمام المؤرخين والدارسين فى كل مكان، حتى فى روسيا وأمريكا وأوربا الغربية والشرقية، لكن هل تعى مصر مسئوليتها العظيمة تلك؟

أقول مرة أخرى إن قبضة الثورة الحديدية، قد غلَّت الفكر، وأورثته الكثير من العلل والأرزاء، وأفرزت الكثير أيضًا من الأقلام الهزيلة الهازلة المريضة، وعوقت الانطلاقة الفكرية الرائدة التى ساهم فيها رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وحسن البنا وغيرهم، وفتحت الباب أمام تيارات فكرية شيوعية وغربية، كان هدفها الأول والأخير، زلزلة عقيدة الأمة، والنيل من تراثها وأصالتها، فقد كان من الواضح أن القوى المضادة أو المعادية للإسلام لا تستطيع أن تبلغ مآربها إلا عن ذلك الطريق، ولهذا صنعت نجومًا جديدة فى الفن والفكر، وأبرزت شخصيات فى عالم السياسة والاقتصاد والتعليم والتخطيط، تنفر بشدة من كل ما هو إسلامى، وأوجدوا تناقضا مفتعلًا بين العروبة والإسلام، وأشعلوا – باسم القومية – معركة وهمية، لكى يجدوا الفرصة لضرب الرباط الوثيق الذى يربط شعوبنا العربية والإسلامية، ثم تأخذنا الدهشة بعد ذلك حينما نرى شاه إيران يعترف بإسرائيل، وتقيم تركيا المسلمة علاقات معها، وتنشب المعارك بين العربى والعربى، والمسلم والمسلم، وينقسم أبناء الأمة إلى رجعيين وتقدميين، وأعداء وأصدقاء، ويصبح من أهم عناصر خطب «الرئيس» سب إخوانه من الرؤساء المسلمين والعرب.. ثم تتبارى الصحف فى متابعة السباب والشتائم والافتراءات، وتتفنن المخابرات فى صنع المؤامرات، وتبرع الأجهزة الخفية الأخرى فى ترتيب الانقلابات، ويغرق عالمنا الإسلامى التعس فى أحزان وخلافات ومخاوف لا حصر لها، بدلا من أن ننصرف إلى البناء والتصنيع والتعمير، نحاول أن نبحث عن وسائل لتحمينا من غدر الصديق، ومكائد القريب..

إن صورة الواقع الإسلامى العربى المحزن تعبر بصدق عن تلك الجريمة البشعة التى جعلت من العروبة والإسلام نِدّين متناقضين، والتى جعلت من القومية أوعية تصب فيها الشعارات المذهبية

المستوردة من الشرق أو الغرب، بحجة أن القومية والعروبة ذات مضمون ، وأن هذا المضمون هو الحرية والوحدة، والاشتراكية.. من قال أن عروبتنا كانت خاوية البناء، فارغة الوعاء؟ الضالون المضلون هم الذين سكبوا فى الوعاء من ماء الحياة، حينما حاربوا الإسلام وحاربوا الله ورسوله.. وشوهوا تاريخ أمجادهم.. هم الذين نسوا انتماءهم فأخذوا يجدون فى البحث عن انتماءات ومضامين من خارج تراثهم وعقيدتهم وأرضهم وتاريخهم وأنفسهم..

أى ضلال وأى عمى؟

إن التقدمية والتنمية والتصنيع والتخطيط الناجح ليس من شروطها أن تتخلى عن انتمائك الإسلامى.. فالعالم كله انتماءات متباينة.. فالصين غير روسيا غير أمريكا غير اليابان غير ألمانيا الغربية أو الشرقية فى مجال الانتماء.. والأخذ بالعلم الحديث والتكنولوجيا أمر مفروض ولا خيار لنا فيه.. ومفهومنا للدين لا يقف عقبة فى طريق نهضتنا ، بل إنه يساعد على بناء النفوس الطاهرة القادرة على صنع التقدم والحضارة..

لكن القضية الأساسية كانت.. وما زالت.. هى الاحتفاظ بالسلطة والنفوذ وذلك فى نظر المتسلطين لا يتم إلا بالقضاء على كل صوت حر ينادى بالعدالة والحرية والصدق والأمانة..

تلك هى القضية..

القضية التى صنعت « مأساة الأقلام ».

القضية التى أعادت « عصر العبيد ».

أليست مأساة حقيقية؟

❁❁❁

[٣] أشواق قلب



حينما جئت للقاهرة بعد الحصول على الثانوية العامة، لم يكن يشغل ذهنى سوى أمرين هامين أولهما: المرحلة الدراسية الشاقة القادمة فى كلية الطب، وثانيهما: البحث عن المحافل والأندية الأدبية للتزود منها، إذ كنت شغوفًا بذلك أيما شغف، وفى اليوم الأول من وصولى « قلعة الكبش » - حيث نزلت مع عمى عبد الفتاح وزوجه - تساءلت عن مكان كلية طب القصر العينى، كانت الفرحة تشرق فى عينى عمى وزوجه، وقالت «أم عبده» وهى فى غاية السعادة: «سوف تكون طبيبا.. يالفرحتى.. إذا خرجت من هنا فانزل من شارع « الدحديرة » وبعده تمشى فى شارع قدرى باشا قاصدًا ميدان « السيدة زينب »، وإلى جوار « المقام » تجد شارعًا آخر ينتهى بك إلى ضريح « سيدى أبو الريش »، وبعدها تتجه يمينا وتظل فى مشيك لا يمين ولا يسار حتى تجد القصر العينى أمامك ..».

كان البناء أصفر عتيقًا، أحسست بالرهبة وأنا أقف أمامه، وانتابنى قدر لا بأس به من الخوف والقلق، وأخذت أعتب على نفسى لماذا أتيت بنفسى لكلية الطب؟ أما كان الأحرى بى أن أتجه إلى الدراسات الأدبية التى أتعشقها فى كلية الآداب؟ لكن فات الأوان، وأصبح التراجع عن كلية الطب أمرًا صعبًا، بل ومحرجًا فى نفس الوقت، إذ ماذا يقول أبي؟ وماذا سيكون رد الفعل لدى الأقرباء والمعارف فى القرية؟ وأدركت فى تلك اللحظات أننى مسير تمامًا لا مخير، وأن الملابسات والظروف تدفعنى دفعًا لأن أمضى قدمًا..

كنا فى شهر سبتمبر ١٩٥١، والتقيت بعدد من الزملاء الجدد، وكان يشغلنى موضوع السكن، وأخذت أبحث عن سكن مشترك، لكن أحدهم أشار عليّ بتقديم طلب التحاق بالمدينة الجامعية، لم أكن أعرف عنها شيئًا، وأخذت أبحث عمن يزودنى بتوصية، لأنها لا تقبل إلا عددًا قليلًا من الطلبة كل عام، وبشروط خاصة، كما إن المدينة لم يسبق لها أن قبلت أحدًا من طلبة « الطب » لبعد الكلية عن مقر الجامعة، لكنهم فكروا فى هذا العام أن يفتحوا الباب أمام قبول طلبة الطب، بحكم دراستهم العلمية التى تحتاج إلى مزيد من التفرغ والجد، وكم كانت دهشتى عندما وجدت نفسى بعد أيام من المقبولين، وكان أغلبنا من الطلبة الفقراء الذين يتلهفون على الدراسة والانتهاء منها فى أقصر مدة ممكنة، لكن دراسة الطب تستغرق ستة أعوام ونصف، يتبعها التدريب أو « سنة الامتياز » كما يسمونها، ومعنى ذلك أن أمامى سبعة أعوام ونصف حتى أقف على بداية الطريق..

وفى الأيام الأولى كنت كالتائه.. فقاعة المحاضرات بكلية العلوم تكتظ بالمئات من الطلبة ، لأن السنة الإعدادية نأخذها فى مقر الجامعة بكلية العلوم، وبعدها ننتقل إلى كلية طب القصر العينى نفسها، وكنا نأتى إلى المحاضرات فى الصباح الباكر، وبعدها نذهب إلى « المعامل » أو المختبرات للدروس العملية،

وكانت المحاضرات باللغة الإنجليزية، وفى البداية وجدت بعض الصعوبة فى متابعة الأساتذة، كانت اللغة الإنجليزية مليئة بالمصطلحات والتعبيرات والرموز العلمية المربكة سواء فى الكيمياء أو الفيزياء أو الحيوان أو النبات، وكان كتاب الحيوان ضخمًا يبعث على الشك فى استيعابه، وكانت كتب الفيزياء والكيمياء متعددة، وتحتاج إلى شرح.. إن الانتقال فجأة من الدراسة باللغة العربية إلى الإنجليزية يورث الطالب الكثير من الارتباك وصعوبة الفهم، وكان علينا أن نتعلم تشريح «الضفدعة» و«الأرنب» والصرصور.. وهى كلها تبعث على التقزز والضيق، لكن لا مفر، ولابد أن أمسك الضفدعة بعد تخديرها، وأثبتها بالدبابيس، وهى ملقاة على ظهرها فى حوض شمعى خاص، ثم أحضر أدوات التشريح وأبدأ فى تشريحها بدقة لمعرفة أجهزة جسمها، ولحفظ أسماء العضلات والعظام والأعصاب والأوردة الدموية وغيرها، وكان تشريح الصرصور أشدها قذارة وتقززا.. لكن ليس لنا فى الأمر حيلة..

كنا نعود فى المساء ونجلس معا لنستذكر ما تلقيناه فى الصباح، يساعد بعضنا بعضا، وفى هذا الخضم من الانشغال والمذاكرة، والمواظبة يوميا على الحضور، نسيت الكثير من الأحلام والأوهام، لقد وجدت أن الضيق والتبرم ليسا هما الحل، وليس أمامى من وسيلة سوى التكيف مع الوضع الجديد والبحث الدائب عن طريقة عملية للتغلب على المشاكل والعقبات، إن الصمود هو الحل، وهو الذى يقود إلى إنجاز الواجبات، والوفاء بالمسئوليات، عندئذ ينزاح كابوس الضيق والتبرم..

وفى هذا الأثناء اندلعت المظاهرات فى الجامعة تطالب بإلغاء اتفاقية عام ١٩٣٦ بيننا وبين الإنجليز، وجلائهم عن وادى النيل، كانت المظاهرات عنيفة صاخبة، وقد اتفقت جميع الأحزاب على المطالبة بإلغاء الاتفاقية، وأمام هذا الضغط الشعبى الهائل الذى اشتركت فيه الجامعات والمدارس والهيئات، خرجت مظاهرة حاشدة كبرى من ميدان «الإسماعيلية» - التحرير حاليا - اشترك فيها زعماء الأحزاب وقادة الفكر والرأى، بل وبعض الأمراء، رأيت فيها النحاس باشا وزعيم الحزب الوطنى وحسن الهضيبى مرشد الإخوان المسلمين، والفنانة أم كلثوم.. وكثيرون آخرون، كما شاركت الصحف على اختلاف مشاربها فى الدعوة إلى إلغاء تلك الاتفاقية، وأخيرًا استجابت حكومة الوفد وأعلن النحاس باشا فى «البرلمان» قولته المشهورة: «من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغاء معاهدة ١٩٣٦» وكان يوجه حديثه المذاع على الهواء إلى نواب الشعب فى البرلمان وسرد النحاس باشا فى خطابه الشهير المبررات والحيثيات القانونية، ونصوصًا من القانون الدولى، وضرب أمثلة مشابهة فى السياسة الدولية، حتى يدلل على صحة الخطوة التى أقدم عليها بإلغاء الاتفاقية..

والواقع أن هذه الفترة من تاريخ مصر، حظيت باتحاد شعبى كامل، لا مثيل له إلا فى ثورة ١٩١٩، ولو استمرت الأمور على هذا النحو، لتغير تاريخ مصر إلى الأحسن، وبأسلوب ديموقراطى هادئ، لا عنف فيه ولا دماء، لكن إرادة الله فوق كل إرادة، لقد تلكأ الإنجليز فى موضوع الجلاء عن قاعدة قناة السويس، وأثاروا الإحن والخلافات، ودسوا بين الأحزاب، وأوغروا صدر الملك، وكان أن هبت وحدات الفدائيين من الإخوان المسلمين، تحمل السلاح، وتتصدى للإنجليز فى قاعدتهم، مما أشعل الموقف، وألهب الشعور، ودفع بعض ضباط الجيش للاشتراك فى المقاومة، وتهريب السلاح للفدائيين، والقيام ببعض العمليات الخاصة.

فى أواخر ١٩٥١ وبدايات ١٩٥٢، احتدمت المظاهرات والاحتجاجات، مما دعا المسئولين لإغلاق جامعة فؤاد الأول « القاهرة » لأجل غير مسمى، ووجدت أن فترة الإغلاق قد تطول، فحملت كتبى، وغادرت المدينة قاصدًا قريتى شرشابه، تحت إلحاح من أبى، ووجدت فى القرية فرصة كى أركز فى مذاكرتى، وأحاول استيعاب الدروس بصورة كاملة، وأحسست بغير قليل من الرضا، حينما وجدت نفسى فى وضع مطمئن بعض الشىء..

فى هذا الأثناء وُلد لفاروق ولى العهد الأمير أحمد فؤاد، وبعد أربعين يومًا من ولادته. حدث حريق القاهرة الشهير يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢، وقبل الحريق بيومين حدثت معركة التل الكبير بين فدائيى الجامعة والإنجليز، تلك المعركة التى استشهد فيها الراحلان عمر شاهين – طالب الآداب – وأحمد المنسى – طالب الطب .. كما أسر عدد من طلبة الجامعة والمجاهدين، ثم جاءت وزارة الهلالى باشا حيث تم الإفراج عن الأسرى واستقبلوا بحفاوة بالغة فى قاعة الاحتفالات بالجامعة، ويومها قال زعيم الطلبة الأستاذ حسن دوح فى خطابه الملتهب: « .... نحن نقول للحكومة، لقد أفرج الإنجليز عن الأسرى.. فلتستحى ولتفرجى عن المسجونين السياسيين ...».

وكان هناك عدد من هؤلاء المسجونين السياسيين فى قضايا تتعلق بالإنجليز واغتيال النقراشى باشا وعثمان أمين باشا والخازندار وقضية سيارة الجيب والأوكار والاعتداء على حامد جودة رئيس مجلس النواب السابق، وكان أغلب هؤلاء المسجونين من الأخوان المسلمين، لكن الحكومات – رغم الإلحاح الشديد – لم تستجب لذلك، ولم يفرج عن هؤلاء إلا بعد قيام الثورة بشهور..

فتحت الجامعة أبوابها، وعدنا إلى الدراسة من جديد، وكانت نهاية العام الدراسى قد اقتربت، إذ كنا فى أواخر شهر فبراير، والأحداث سريعة متلاحقة، وكان الأساتذة يحاولون الانتهاء من المقررات بأسرع ما يمكن، وكنا نلهث وراءهم حتى يمكننا هضم ما يلقونه من دروس، وبدا الأمر بالنسبة لامتحانات آخر العام غامضًا وسط هذه الظروف، لكن الله أدركنا بحل لم يكن يخطر لنا على بال، لقد عرض بعض الأساتذة الجامعيين فى كلية العلوم بأن يقوموا بإعطائنا دروسًا بالمجان لمجموعة الإخوان فى المدينة الجامعية والذين يدرسون علوم السنة الإعدادية بكلية الطب، وكان ذلك الحل هو الذى أنقذنا فعلًا... كنا مجموعة من ١٨ طالبًا، وفينا اثنان أو ثلاثة من الإخوة المسيحيين، وهكذا أمكننا دراسة المنهج فى جلسات متكررة مطولة، وكتبنا ملخصات له، وبهذا نجحنا آخر العام.. وكان هذا أمرًا مبهجًا لى جدًا..

فى هذه الأيام التى استحوذ فيها العلم والسياسة على ألبابنا، هل كان فى مقدورى أن أفكر فى شىء آخر؟

أليس من الطبيعى أن يفكر شاب فى العشرين من عمره فى عواطفه نحو الجنس الآخر؟ الجامعة مختلطة.. والزميلات بين صفوفنا.. وقصص الحب تروى عن هذه وذاك.. والشارع يكتظ بالغاديات الرائحات، ووسائل النقل والمواصلات يتزاحم فيها النساء والرجال، والسينما أساسًا تعتمد على قصص الحب والغرام، وأفلام الجنس والإثارة الوافدة من الغرب تحظى بالإقبال الشديد، والأدباء الجدد يكتبون الروايات الغرامية سواء أكانت رومانسية أو واقعية أو وجودية، والدعوات الملحدة من شيوعية وغيرها،

تفلسف التحلل، وتشحن الغرائز، والصور شبه العارية تتصدر المجلات والصحف وإعلانات السينما، والفضائح الاجتماعية فى مختلف الأوساط تزكم الأنوف، وقصة أخت الملك التى تزوجت شابا على غير الإسلام، يتناقلها الناس فى كل مكان.. كان هذا هو المجتمع..

أكان فى الإمكان ألا يفكر شاب فى المرأة؟

لكنه الحب كان مرتبطا فى ذهنى بأشياء كثيرة تتنافى مع ما أؤمن به من قيم دينية.. كنت أتهيب ألف مرة قبل أن أخاطب فتاة، وأشعر أنى مقدم على عمل شاق مخيف، إن جسدى يرتجف، ولسانى يتلعثم، وإذا بدرت منى كلمة، أو صدرت عنى حركة، أعود فألوم نفسى، واشتد فى الملام، ويخالجنى إحساس بالإثم، قلت ذات يوم لأحد الإخوة: « هل الحب حرام؟ ».

ابتسم فى ذكاء وقال: « لقد سأل أحدهم أستاذنا الإمام الشهيد رحمه الله نفس السؤال ..».

قلت فى لهفة: « وماذا كانت الإجابة ...»

هز كتفيه، ثم طوقنى بذراعه وجذبنى إليه قائلًا: « قال: الحب الحلال حلال.. والحب الحرام حرام ..»

لم يكن من الصعب أن أدرك معنى الكلام، فالحب الحلال كما أعلم لا يمكن أن يجتمع فيه رجل وامرأة وحدهما؛ لأن الشيطان سيكون ثالثهما، والحب لا يعنى الخطيئة واختلاس اللذة، والحب الحلال طريقه ونتيجته الزواج لكن أين نحن من الزواج الآن؟ إننا نجد بالكاد ما ننفقه على تعليمنا وطعامنا وكسائنا...

ولم يكن لنا خيار.. وهكذا عشنا نحلم بالمرأة..

ذات يوم رأيتها..

كانت لم تزل صغيرة بريئة.. لكنها ذات ذكاء حاد أراه فى بريق عينيها.. وشعلة من الحركة والنشاط.. أدركت أنها تبش لمجيئى، وتبالغ فى إكرامها لى، وتستمع إلىّ بشغف وأنا أتحدث مع أبيها العالم الجليل عن السياسة والجامعة والفكر، وكان رحمه الله حجة فى فقه الإمام الشافعى، وكثيرًا ما وضح لى الكثير من الأحكام والقضايا، لقد عاش طول حياته بعيدًا عن السياسة، كان سىء الرأى فى تصرفات الثوار، كما كان ينتقد بعض تصرفات العهد الملكى، لكنه كان دائمًا ينذرنا بأن الأمور لا تسير فى مسارها الصحيح، وأننا - حتما - مقبلون على كارثة إن لم تكن كوارث، وكانت كلمته الشهيرة « بكره يخربها، ويقعد على تلها ...»، ويوم حدثت الهزيمة النكراء عام ١٩٦٧.. تذكرت كلماته، كثيرًا ما كنت أعارض، وأحكى له عن بعض المنجزات التى تمت، وأؤكد له أن الأمور تتحسن، فكان يبتسم فى مرارة ويقول: « غدًا تقولون الله يرحمك يا محمود.. كان كلامك صحيحًا ..».

الواقع أننى كنت أرتاح لمجلسه، وأسعد بحديثه، وكنت أعرض عليه بعض كتاباتى الإسلامية، وأسمع توجيهاته ورأيه فيها باهتمام، وكان يزودنى ببعض النصوص أو الكتب التى تتعرض لذات الموضوع، وكان لثقته بى يجعلنى أنوب عنه فى إلقاء خطب الجمعة فى المسجد الذى يخطب فيه إذا ما سافر فى إجازة، وأصبحت جلساتى معه من أحب الأوقات إلى نفسى، وكان يعاملنى كواحد من أبنائه، ويسر إلىّ ببعض خصوصياته دون حرج، وكنت أعرض عليه بعض ما يصادفنى من مشاكل،

الواقع أننى كنت أنظر إليه كوالد فى المدينة الكبيرة الصاخبة، أجد لديه الأمن والاطمئنان والصدر الحنون، وقد عهدته طيب القلب، متحرر الفكر، واثق الفكرة، وكثيرًا ما أثبتت الأيام صحة رؤيته.

ويوم أن قررت الاختفاء من مطاردة الشرطة فى عام ١٩٥٤ بعد أن ألقيت كلمة الطلبة فى المؤتمر الكبير الذى عقد فى كلية الطب. إبان أزمة محمد نجيب وجمال عبد الناصر، والحل الأول للإخوان المسلمين فى أوائل ذلك العام، أقول عندما قررت الاختفاء لم أجد مكانا إلا فى بيته، وعلى الرغم من أنه ينأى بنفسه دائمًا عن المشاكل السياسية وصراعاتها – كإمام وخطيب فى تلك الظروف الحرجة – إلا أنه أفسح لى مكانًا إلى جواره، وخصص لى غرفة، وشدد فى التنبيه على أفراد أسرته ألا يذيعوا سر وجودى بينهم حتى تمر الأزمة..

وبقيت معه، حتى عاد محمد نجيب إلى رئاسته للدولة، وتم الإفراج عن الإخوان المسلمين، وهدأت الأمور مؤقتا، ثم عدت إلى ممارسة دراساتى بالجامعة وأنا فى غاية التقدير والامتنان له..

ومن حسن الحظ أنه كان صديقًا حميما لعمى عبد الفتاح، وكانا يقضيان أوقاتا كثيرة معا، ومسكنهما متقاربان.. وكانت أوقات فراغى أقضيها هنا وهناك.. وكثيرًا ما كنت أجرهما للحديث فى السياسة، وخاصة أن عمى من موظفى وزارة الحربية والبحرية، وكانت آراؤهما بعامل السن تتسم بالهدوء والروية والحكمة، ولم يكونا ميالين للحماسة والشطط أو الاندفاع..

وكنت أراها دائمًا..

إن كل شىء فيها يوحى بالثقة والمحبة والبراءة..

كانت تكبر جسديا وعقليا.. وتنتقل من مرحلة دراسية إلى أخرى.. وعندما نالت الإعدادية قال أبوها الشيخ: «أريدها أن تكون ربة بيت فاضلة.. لا أريدها مهندسة أو طبيبة.. ولهذا أعتقد أنه من المناسب أن تلتحق بالثانوية الفنية.. هناك ستتعلم الاقتصاد المنزلى والطهى والتطريز والحياكة والديكور.. أليس هذا أفضل؟ ».

وجاءت اللحظات الحاسمة..

لقد طرق الخطّاب الباب..

قال الشيخ رحمه الله: «إنها ما زالت صغيرة ...».

وقالت هى: «لن أتزوج قبل أن أتم تعليمى ».

وابتسم أبوها قائلًا: «يقولون البنت سر أمها.. وأنا أقول إنك سر أبيك.. بارك الله فيك يا ابنتى.. يجب أن تنالى الشهادة أولًا.. من يدري؟ قد تحتاجين إليها فى يوم من الأيام ..».

وقاومت الفتاة الكثير من الإغراءات المادية والمعنوية، لم تكترث لما يقدمه الخاطب من صداق أو مؤهلات عالية، قلتُ لها ذات يوم وأنا أرتجف وأتلعثم: «أريدك لى ...».

وخفق قلبى، ولكنها قالت: «وأبى؟ هل يعرف؟ »

– «لم نتكلم فى ذلك.. لكن قلبى يحدثنى بأنه ...».

ثم صمت.. وانشغلت بالنظر على قرطها الجديد فى سعادة..

كنا نسير فى الطريق العام فى يوم عيد ميلادها فى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر، وكنت على

موعد لأشترى لها هدية.. وقدمت لها القرط الذهبى الصغير.. وكانت دموع الفرح فى عينيها ونحن نقف فى ميدان سيدى « زين العابدين ».

لم يكن الأمر على هذه الصورة من السهولة واليسر، لقد كان للأسرة رأى قديم فى أن أتزوج إحدى قريباتى، والتخلى عن ذلك أمر محفوف بمخاطر شديدة، فالأمور فى القرية وبين الأقرباء تمضى على نحو خاص، وعدم إتمام زيجة متفق عليها - حتى ولو كان هذا الاتفاق فى سن الطفولة - قد تدمر العلاقات الأسرية، وتورث الأحقاد والضغائن، وهو أمر لم يغب عن ذهنى قط، لقد ظل يشغلنى سنوات طويلة، وخاصة أنه كان شائعًا بين المعارف والأقارب..

أين المخرج من هذا كله.. قيود سياسية.. مسئوليات علمية.. أوضاع اجتماعية.. ضوابط أخلاقية ودينية.. آمال عراض.. إمكانات متواضعة..

عندما عدت إلى المدينة الجامعية فى المساء قلت لزميلى وأخى سمير خلاف: « ألم تفكر فى الزواج؟ »

قهقه بصوت عال، ونحن وحدنا فى الغرفة، وقال: « هل السنارة غمزت؟ »

- « أنا لا أمزح ..»

- « وأين نحن من الزواج؟ هل تترك لنا كلية الطب فرصة للتفكير فى ذلك؟ » اقتربت منه وقلت له: « أنظر إلىّ.. ودع الشاى الذى تعده ..»

رفع إلىّ عينين مستغربتين وقال: « ماذا بك؟ »

- « تكلم بصراحة.. أليست لك قريبة تنوى الزواج منها فى قريتكم « حتّون » » احمر وجهه خجلًا وقال: « كيف عرفت؟ أنت تعرف تصورات الأهل وتصرفاتهم فى مثل هذه الأمور المحرجة.. أمى تريد أن تزوجنى من ابنة أخيها.. تصور ..».

ثم ذهب إلى مكتبه وأخرج صورة فوتوغرافية وقدمها لى، نظرت إليها، فوجدت طفلة تجلس على مقعد خشبى، وسمير يقف إلى جوارها فارع الطول، ووجدتنى أضحك على الرغم منى للمفارقة العجيبة، وقلت: « أهذه هى العروس؟ »

قال فى ألم: « نعم.. وأنا أكبرها بثمانية عشر عامًا.. تصور ..»

وبعد فترة صمت قال سمير: « أمى تقول من الأفضل أن تربيها على يديك ..»

ودخل علينا زميل آخر هو « عبد الرحمن حسن »، وكان عبد الرحمن مرحًا ساخرًا، لا يفكر عادة إلا فيما يزيد دخله، كان أشد فقرًا منا، وكثيرًا ما كان يعوزه المال، فيذهب إلى قريته فى محافظة الشرقية، ويفتح عيادة مؤقتة - على الرغم من أنه لم يتخرج بعد - ثم يظل يعمل لمدة أسبوعين، ويعود ومعه ثلاثون أو أربعون جنيها، تكفيه لبضعة شهور.

سألنا عما نتحدث فيه، وعندما أخبرناه قال: « أنتم مجانين.. فكروا فى لقمة العيش أولًا.. وعندما يحين وقت الزواج بعد التخرج إن شاء الله، فلتبحثوا لكم عن صيد ثمين، وإلا أدمنتم الفقر حتى تموتوا.. الفقر من أخطر الأمراض « المزمنة ».. قالها باللغة الإنجليزية ..».

قلت لعبد الرحمن: « هل هذه هى أفكار « الوطنى الصغير »؟ ».

وللوطن الصغير هذه قصة، فقد كان لعبد الرحمن رغبة جامحة فى العمل بالصحافة، وكان وهو بالمرحلة الثانوية يكتب مجلة بيديه، ويتلوها أو يمررها على أصدقائه، وكان مكتوبًا عليها « يحررها الوطنى الصغير عبد الرحمن حسن »، وظل عبد الرحمن على حبه للصحافة، فكان يكتب بعض التعليقات والمقالات القصيرة فى روز اليوسف، وألف كتابا عن « تحديد النسل » وهو طالب.. قال عبد الرحمن فى جد: « نحن فى عصر لا يعترف بالمواهب والكفاءات وحدهما.. لابد أن يكون هناك من يمهد لك الطريق، ويأخذ بيدك.. من له ظهر لا يُضرب على بطنه.. فكروا أولًا فى البحث عن مكان لائق فى زحام هذه الحياة المقرفة.. جنازة ولا جوازة ..»

وعاد يقول: « حتى الزواج بالأمر.. لتسقط التقاليد الزائفة.. الثورة قامت فى الجيش، وفى دواوين الحكومة.. لكنها لم تستطيع أن تصل إلى الأسرة.. اتركوا هذا الكلام الفارغ، وتعالوا نذاكر « الفارماكولوجيا » »..

وسادت فترة صمت قال عبد الرحمن بعدها: « هل سمعتم بالخبر؟ » رد سمير: « أى خبر؟ »

- « تعرفون قصة زميلنا منير وزميلتنا زينب ..»

قلت نعم: « لقد تزوجا منذ عام ...»

قال عبد الرحمن: « وأنجبت طفلًا.. واشترت لمنير سيارة.. إنها ثرية جدًا.. إنها ليست جميلة.. ومنير يبدو كنجم سينمائى.. وعاشا فى بحبوحة من العيش.. المهم أن زينب ماتت اليوم فى حادث سيارة.. وورثها منير وولده ..»

قلنا: لا حول ولا قوة إلا بالله...

وعدنا من حيث بدأنا، ورأينا أنه من الأفضل ألا نشغل تفكيرنا حاليا بمسائل الزواج.. وخاصة الزواج بالقائمة، ذلك الذى تفرضه عجائز البيوت، وزعماء العشائر فى قرانا النائية، وبعض الأمور إذا تعذر حلها فليس هناك مناص من « تجميدها » بعض الوقت، لكن عبد الرحمن يرفض نظرية التجميد تلك، ويعتبرها هروبًا ومزيدًا من التعقيد، ولا حل فى رأيه سوى الحسم، إما إن تقول لا أو تقول نعم:

قال سمير بمرارة: « من الصعب أن يقول الإنسان لأمه « لا » ».

علق عبد الرحمن: « ستقولها يومًا ما.. إن لم يكن اليوم، فسيكون غدًا.. أنا شخصيا قلتها.. لم أجد صعوبة تذكر، كنت مؤمنا وواثقا بما أقول.. ولدى الأسباب القوية.. سوف أبحث عن زميلة لى وأتزوجها.. طبيب وطبيبة.. أمر طبيعى جدًا ...».

قبل الفجر بساعات ثلاث، اقترحت أن نطوى الكتب وننام، لأن زميلنا إبراهيم سوف يأتى قبيل الفجر ليوقظنا للصلاة، ولن يفلح التناوم فى صرفه وإلحاحه علينا..

وقد كان..

إن العواطف نحو الجنس الآخر قضية شائكة.. وتحتاج لوقفة قصيرة لابد منها.. ومن المفيد للدعاة أن يتمعنوا فى هذه الأمور العاطفية، ويحددوا موقفهم منها بطريقة واضحة حاسمة، لأن التجارب العاطفية - حسبما رأيت - تترك ظلالًا على سمعتهم، وتؤثر إلى حد كبير فى مدى استجابة الناس

لدعوتهم وأفكارهم، وخاصة فى مجتمع كمجتمعنا، حيث إن الناس ينظرون بشك وريب إلى ما هو عاطفى، أعنى تلك العلاقة بين الرجل والمرأة، فهى دائمًا فى ظل الناس علاقة مشبوهة، وتسىء إلى سمعة الطرفين مهما كانت طبيعتها، ومهما كان الحرص والتحفظ، عندئذ يتحول الداعية فى نظر الناس - إن ظلمًا أو حقا - إلى رجل غير موثوق فى كلامه، ولا يصح أن يكون قدوة، وبالطبع فإن ذلك يؤثر على وضعه كشخص متميز كما يؤثر على مستقبل دعوته فى الوسط الذى يعيش فيه، فضلًا عن أن العلاقات النسائية البريئة، قد تتضاءل طهارتها يومًا بعد يوم، وقد يخالطها شىء من الخطأ أو الممارسات التى يأباها الدين الحنيف، وقد رأيت بنفسى كيف أن الخصوم السياسيين من الأحزاب الأخرى يلجئون إلى نشر الإشاعات والتشنيع، بابتكار القصص الغرامية، أو اختراع العلاقات الآثمة، ثم يلصقونها زورًا وبهتانًا ببعض الدعاة الكبار أو المؤثرين، وربما يستغلون حادثًا عارضًا جرى فعلًا، ثم يضيفون إليه الكثير من الحواشى والتفاصيل الزائفة، كى يهدموا شخصية من الشخصيات الفعالة.

ما أريد أن أقوله هو أن الداعية - فى مجال العقيدة الدينية بالذات يجب أن يكون على حذر تام من هذه الناحية، ولى فى ذلك تجربة قديمة لا أنساها، قد يكون من الخير أن أذكرها، حتى يعى شبابنا الدرس جيدًا، وتكون خطاهم بين مجتمعهم محسوبة وبحذر، حتى لا تتعثر أقدامهم، ويعانوا من النقد الجارح، والمؤاخذات اللاذعة.

كان ذلك قبل قيام الثورة بعام، وعلى وجه التحديد فى العطلة الصيفية التى تفصل بين السنة الإعدادية والسنة الأولى بكلية الطب، وعادة ما كنت أقضى أجازتى الصيفية فى القراءة وممارسة الألعاب الرياضية، وإعطاء بعض الدروس الخصوصية للطلبة الذين لم يحالفهم الحظ فى امتحان الدور الأول بالمرحلة الابتدائية، أو الثانوية على حد سواء، كما كنت أشارك فى إلقاء بعض الدروس التى تمزج بين الدين والسياسة كتوعية للمواطنين والزملاء، وجذبًا لهم إلى صفوف جماعة الإخوان المسلمين.. وجاء أبى ذات مساء وانتحى بى جانبًا وقال: « تعرف أن « الحاج عبد المجيد » صديقى »

- « أعرف.. لكنه رجل مخيف، ويسخر ماله ورجاله فى تأديب كل من لا يروق له.. ونفوذه فى كل مكان ..».

ابتسم أبى قائلًا: « تصرفاته له أو عليه.. والمحاسب هو الله.. وعلاقتى به قديمة، وفى حدود ما أمر الله. أما مظالمه فالله وحده يعلم بها، ولا دخل لى فى شىء منها ..»

- « ما علينا ..»

قال أبى وهو ينظر إلىّ فى أمل: « لقد طلب منى خدمة ..»

- « هل لى صلة بها؟ »

- « أنت الذى تستطيع القيام بها ..».

الحقيقة أن كلمات أبى شدت انتباهى، ما الذى يربطنى بالحاج عبد المجيد حتى يفكر فى طلب شىء منى، وهو الذى يستطيع أن يشترى كل شىء بماله.. يشترى الرجال والشرطة والبهائم والسلاح والحشيش والأراضى الزراعية والنساء؟ لم تستمر حيرتى طويلًا فقد بادر أبى قائلًا: « يريدك أن تعطى درسًا خصوصيًا لابنته « أنصاف » .»

كان الخبر مفاجأة تامة بالنسبة لى، لأنه لم يخطر لى على بال من قبل، وكانت أنصاف تصغرنى بعام أو عامين، أى أنها مكتملة الأنوثة، وعلى جانب من الجمال، وكانت فى السنة التى قبل الثانوية العامة، وهى تتلقى علومها فى مدرسة تدرس بالإنجليزية.. مدرسة أجنبية خاصة – أى بالمصروفات – وتقع هذه المدرسة فى عاصمة الإقليم، ومنذ أن دخلت أنصاف القسم الداخلى بالمرحلة الثانوية بهذه المدرسة ولم تعد تسير فى الشارع سافرة، أو تختلط بالناس، اللهم إلا عند سفرها من القرية إلى المدرسة، وعند عودتها فى عطلة نهاية الأسبوع أو غيرها من العطلات.. وهذا على النقيض مما كان يحدث وهى فى المرحلة الابتدائية، إذ كانت تختلط بالصبية وكأنها ولد مثلهم، وتتعارك وتحمل العصا، وتشترك فى المعارك الصبيانية التى تجرى عادة بين التلامذة فى مثل هذه السن، وفكرت فيما عرضه أبى مليا، كنت ميالًا لتنفيذ المهمة بعاطفتى، ربما اشباعًا لغرورى، وإظهارًا لتميزى على زملائى، إذ كنت الوحيد الذى وقع عليه الاختيار، وربما إثباتا لوجودى وأهميتى، وربما رغبة فى اقتحام المجهول، والخوض فى تجربة جديدة مثيرة، لكنى فى نفس الوقت كنت أتهيب الإقدام على ذلك، إذ ماذا سيكون « رد الفعل » عند إخوانى، وعند أولئك الذين يستمعون إلى توجيهاتى ودروسى فى الدين والأخلاق، من وقت لآخر؟.

الحق أننى وقعت فى حيرة شديدة.. ثم لماذا يفعل الحاج عبد المجيد ذلك وهو الرجل المتصلب، المحافظ جدا، والذى لا يتهاون قيد شعرة فى أمر يتعلق بالنساء؟ لقد كانت أنصاف كبرى أولاده، ولكم تمنى أن تكون ولدًا، لكن هذا لم يكن بيده، فلم يرزق بالذكور إلا بعد ثمانية عشر عامًا.. لكنه رغم أميته، آثر أن يرسل ابنته الكبرى لتلقى التعليم فى أحسن مدرسة داخلية بالإقليم آنذاك..

قلت لأبى: « أنت تعلم أن كلام الناس كثير ..».

قال لى: « ما لنا وللناس؟ المهم أنت.. ما أخلاقك؟ وكيف ستتصرف؟ هذه مهمة لمدة شهر ونصف أو شهرين.. ثم يذهب كل لحال سبيله ..».

ووجدتنى أقول بحماسة: « بشرط ألا أتقاضى منهم أجرًا ..».

قال بهدوء: « لسنا فى حاجة إلى أموالهم.. إنها مجرد خدمة لرجل يتعشم فينا خيرًا، ولا يصح أن نرفض رجاءه ...».

وفى الليلة الموعودة، ذهبت إلى البيت العتيق، المبنى بالطوب الأحمر، تحت جنح الظلام، كان الوقت صيفا – كما قلت – والنخلات العالية، تقف عملاقة فى فناء المنزل، واستقبلنى الحاج بعوده القصير الممتلئ، وابتسامته الواثقة، وقادنى إلى الداخل، لنشرب الشاى، وبعد تقديم واجبات الضيافة اصطحبنى إلى غرفة واسعة النوافذ تطل على الفناء المسوّر، كانت أنصاف تقف خافضة الرأس، مرسلة الشعر، تلبس رداءً وردى اللون، ولم يزد الرجل على أن قال: « صافحى أخاك يا بنت ..».

كانت أعصابى متوترة، وكانت هى تبدو هادئة وادعة خجول لا تكاد ترفع إلىّ طرفًا، أين أنصاف الطفلة المشاكسة المتعاركة؟ وسرعان ما انصرف الرجل، وجلس فى الصالة أمام باب الغرفة المفتوح، كانت الكتب مرصوصة على الطاولة الرخامية إلى جوار لمبة جاز كبيرة، وفى محاولة لتبديد الحرج والتوتر قلت وأنا أتصنع الهدوء: « بماذا نبدأ؟ ».

قالت وهى تبتسم وصوتها خفيض لا يكاد يسمع: « كما تشاء ...»

- « لابد أن تختارى ..».

قالت وهى تسحب كتابًا: « الفرنساوى ..».

عندما خرجت من بيتهم حوالى العاشرة مساءً، كان النسيم عليلًا، وقليل من العرق يندى وجهى « يا إلهى » يا لها من تجربة؟ ولم أستطع أن أصرف خيالها عن بالى إلا بعد أن أغمضت عينى، وكنت فى حيرة من أمرى، ما هذا الذى يحدث؟ ولماذا يشتط بى التفكير؟ أخذت أبدو كغريق تتقاذفه الأمواج دون إرادة، وخف الحرج والتوتر ليلة بعد ليلة، وأخذنا نتحدث بطلاقة، ونضحك أحيانا، وقطعنا شوطًا لا بأس به فى مختلف المواد.. وما هى إلا أيام قلائل حتى انتشر الخبر فى القرية، إن زملائى يتغامزون، ويلقون التعليقات الساخرة، وأخذ بعض الإخوة يوجه النقد بصراحة وحدة، كما أشيع أن خطبتى لإنصاف على وشك الإعلان، مما أغضب أمى إغضابًا شديدًا، إذ خافت على مصير قريبتنا التى ينوون تزويجى منها، وساد الهرج والمرج..

تصدت لى زوجة جدى « مباركة » التى تفرغت من قديم لتربيتى وخدمتى وقالت صائحة فى غضب: « أتترك قريبتك.. بنت الأصول.. وتذهب إلى ..».

قلت فى ضيق: « كفى يا جدتى.. كله كلام فارغ أنت تعرفين أن بينى وبين الزواج مسافة طويلة ..»

- « لكن الناس يا ولدى يقولون ..»

- « وما ذنبي؟ ».

وتدخلت أمى قائلة فى غيظ: « إنها مؤامرة للإيقاع بك، ومن تدبير نسوة أعرفهن ..»

- « يا أمى لم يخطر لى شىء من هذا على بال ..»

- « وهل ننتظر حتى تحل الكارثة؟ لقد أرسلت أمها بعض الهدايا إلينا فرفضتها وأرجعتها إليهم.. إنى أعرف هذا الأسلوب ..».

ووجدتنى أقول وقد شعرت بالحرج: « ولم هذا يا أمي؟ »

- « ماذا كنت تظن؟ »

- « أعنى.. المجاملة.. و ..».

قاطعتنى قائلة: « لا مجاملة بيننا وبينهم.. منذ متى ونحن نتبادل الهدايا؟ ».

لم أعد أستطيع أن أخرج كعادتى إلى الصحاب، وتوقفت تمامًا عن برنامج الدروس التى كنت ألقيها على الزملاء والفلاحين، وشعرت أننى آتى تصرفا لا يليق، كان قلبى يحدثنى أننى أذنب، على الرغم من عدم وجود أسباب ملموسة أو مادية لذلك، لكن اللوم الداخلى الذى أعانى منه أشعرنى بالإثم، وبينما أنا على هذا الوضع من القلق والعذاب، جاءنى أحد الإخوة وقال: « عليك أن تذهب غدًا لمدينة « زفتى » ...»

- «لماذا؟»

- « لمقابلة المسئول هناك ...».

كانت كلمة المسئول مفهومة لدينا جيدًا، وهى تعنى أنه أحد المكلفين بالمركز فى مكتب الإخوان

المسلمين الرئيسى، وعندما ذهبت كان فى انتظارى الأخ محمد الوكيل «وهو الدكتور محمد الوكيل الأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة حاليا». وكان محمد إنسانًا طيبا، يريحك النظر إلى وجهه الذى تعلوه زبيبة الصلاة، ثم أخذ يحدثنا - كمجموعة - كيف أن الدعاة يجب أن يخلصوا وجههم لله، دون النظر إلى أى مغنم دنيوى، وأن الدعاة الحقيقيين قوم متميزون بعلمهم وأخلاقهم وسلوكهم ومبادرتهم بالخير، والتزامهم بأوامر الله ونواهيه، وأفاض فى هذه المعانى حتى جاء وقت الظهر، ثم صلينا جماعة فى مقر الشعبة، وبعدها دعانى لتناول الغداء، وما إن انتهينا من الطعام حتى انفرد بى جانبا وأخذ يحدثنى: «أنا أعرفك» لقد تقدم إلى بشكوى أحد إخوانكم بالشعبة فى قريتكم بأنك تعطى دروسًا خصوصية لفتاة.. وأن هذا التصرف قد أثار القيل والقال، وأثر على مسيرة الأمور عندكم.. قلت أنا أعرفك من قديم، ولا يراودنى أدنى شك فى إيمانك.. ولهذا دافعت عنك.. وكلنا قد يقع فى مواقف محرجة تمليها ظروف معينة، ولا ينجينا إلا ثقتنا بالله وبأنفسنا.. ورسولنا يقول «ﷺ»: من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.. ومجال الخدمات الإنسانية واسع ومتعدد الجوانب. وليس قاصرًا على درس خصوصى لفتاة.. والحمد لله.. انتهت العطلة الصيفية أو كادت.. ويمكنك منذ اليوم وقف هذه الدروس.. لمصلحتك ومصلحة دعوتك..

حاولت أن أدافع عن نفسى، وأشرح له الموقف، لكنه كان يقابلنى بابتسامته المعهودة، وكلماته الحانية، مؤكدًا لى تقديره التام للموقف، وتفهمه الكامل لظروفى، وأشار إلى أن هناك كثيرين غيرى نساءً ورجالًا يستطيعون القيام بهذه المهمة عنى، ولأنصرف أنا إلى البرنامج الموضوع للدعاة فهذا أهم من وجهة نظره..

وافقت عن طيب خاطر..

ثم أخذ محمد يسألنى عن الأوضاع فى القرية، وموقف العمدة والأحزاب منا، ومدى استجابة الفلاحين لنا، وهل تصلنا المجلة والمطبوعات بانتظام؟ وما الأنشطة الاجتماعية التى نخدم بها القرية؟ وهل تصادفنا مشاكل أم لا؟ ثم وعدنى بزيارة قريبة فى مقر شعبتنا..

وقبل أن أغادر مكانى دخل أحد الإخوة من قريتنا، وكان منفعلًا وقال: «أنا الذى تقدمت بالشكوى.. فعلتها لا لشىء إلا غيرة على دعوتنا والحفاظ على هيبتها وكرامتها، بعد أن تحدتنا ألسنة السوء..» وأعفانى «محمد» من الرد أو التعليق حينما أردف قائلًا: «لا تهول فى الأمر.. ليست شكوى.. المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى.. إنها مجرد نصيحة أخوية جاءت على مستوى أخ أكبر لكم.. هذا كل ما فى الأمر.. وقد حلت المشكلة تمامًا.. ولتستأنفوا برنامجكم كالمعتاد، وكأن شيئا لم يحدث.. مفهوم؟». وذهب كل منا لحال سبيله..

وكانت تجربة... وما أكثر ما يعترى سنى الشباب من تجارب... لكنى من حين لآخر كنت أحاسب نفسى.. لقد كتبت آنذاك أبياتا من الشعر العاطفى.. فيها رومانسية الجيل.. وأحلامه اليائسة، وذكرياته الباكية.. وآماله المحلقة فى السماء.. وأتذكر الآن كيف أن «النظرة الأولى» كانت تطول.. وتطول.. وتتبعها نظرة ثانية وثالثة.. وعاشرة.. وأتذكر كيف أن أيام الانقطاع الأولى عن الدروس قد أورثتنى الأرق والكآبة.. كان مثلى كمثل الذى أدمن على فعل شىء ثم منع عنه فجأة.. ألا نعرف

أعراض وقف الإدمان؟ لقد كانت ليالينا بريئة خالية من العبث تمامًا.. لم تخرج عن النظرات والكلمات النظيفة.. لكن يكذب من يدعى أن نفسه لا تحدثه بشيء وهو يجلس منفردًا مع امرأة، حتى ولو كان بينهما منضدة رخامية سميكة ضخمة.. والعفة صراع شديد، والحرمان نار تتلظى، ومقاومة الأمواج والتيارات الكاسحة معاناة ومشقة.. تلك هى الحقيقة.. ومن يقل غير ذلك فهو مدع ولم يذق مرارة التجربة، ولذلك فقد رسخت فى ذهنى عقيدة لا تتزعزع، ألا وهى الزواج المبكر متى توفرت أبسط الإمكانات لذلك..

وسافرت «انصاف» بعد انتهاء دراستها الثانوية إلى الخارج، وعاشت سنوات طويلة فى أوروبا تدرس الصيدلة، وانقطعت أخبارها عن أهلها أو كادت، وفى هذا الأثناء وقع أبوها فى صراع مع إحدى أسر القرية، حيث أريقت الدماء، وأزعج الرصاص الغادر سكون الليل،. وأخيرًا عادت متزوجة، معها الزوج والأطفال، وتذهب كل يوم للعمل فى صيدليتهم الخاصة مع زوجها.. لكنى لم أرها منذ ذلك التاريخ..

أجل، لم يكن لدى وقت للتفكير فيها بعد أن ساقتنى الأقدار إلى أم أولادى، فملأت حياتى بالحب، وأثرت دنياى بالبهجة، ووجدت لدى الزواج منها الاستقرار بعد القلق، والوحدة بعد الشتات، والأنس بعد الوحشة، ووجدت فيها سندًا أتكئ عليه فى المحنة. وقلبا يخفق إلى جوارى فى الشدة والرخاء ويدا تدفعنى إلى الأمام، وتسمو بى إلى أعلى، ووجدتها تبكى لألمى، وتسعد لسعادتى، بل وتقذف بنفسها فى مواطن الخطر يوم أن غيبتنى السجون فى ظلامها الدامس، وذهبت إلى رئيس الجمهورية نفسه تسائله عن السبب فى هذا العناء كله..

ولهذا قصة طويلة سوف يرد ذكرها فيما بعد..

أقول إن ذلك هو الحب الحقيقى... ألم يجعل الله لنا من أنفسنا أزواجًا لنسكن إليها؟

الحب الحقيقى هو عودة جزء من النفس إلى النفس حتى تتكامل وتؤدى وظيفتها المقدسة.. والحب الحقيقى هو المودة والرحمة بين الزوجين كما جاء فى القرآن الكريم.. لكن هل نحن جميعًا ندرك تلك الحقيقة إبان اشتعال الشباب وعنفوانه؟

وليس أمام دعاة الشباب فى مثل هذه المآزق إلا واحد من اثنين لا ثالث لهما: **أولهما**: اتخاذ الأساليب والطرق الوقائية للبعد عن المزالق. **وثانيهما**: الزواج إذا توفر الحد الأدنى من متطلباته..

وغير هذين السبيلين يكون الخطر والخطأ، قلا أو كثرا.. والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين..

❁❁❁

[٤] اللواء محمد نجيب يتصدر الحركة

قبل أن نتناول مأساة اللواء محمد نجيب الذى قبل أن يتصدر حركة الجيش فى يومها الأول «٢٣ يوليو ١٩٥٢»، أريد أن أشير إلى قضية هامة، ألا وهى قضية «التغيير» المنشود قبل حركة الجيش. كان فى مصر إجماع كبير على ضرورة التغيير، وحينما أقول «إجماع كبير» أقصد أن غالبية الشعب وتنظيماته السياسية لم تكن على رضى أووفاق مع الملك، فالوفديون ساخطون خارج الحكم، وشبه راضين داخل الحكم، لكنهم كانوا يرغبون فى التغيير نظرًا لأن الملك لا يترك لهم الفرصة كى يستمروا فى الحكم بعد أن يكتسحوا الانتخابات الحرة، ولهذا فهم لم يحكموا منذ صدور الدستور فى عام ١٩٢٣ وحتى قيام الثورة إلا أقل من سبع سنوات، مع أنهم حزب الأغلبية التى لا يستطيع منصف أن يشكك فيها، وحتى عندما كان يحكم الوفديون كان الملك يسبب لهم الكثير من المنغصات والمضايقات، ويفرض عليهم بعض الأمور والسياسات التى تخرج عن برامجهم، ويوقعهم فى إحراج شديد.

وكان الوفديون يتحايلون على البقاء فى الحكم بأساليب شتى، كانت تعرضهم للنقد الشعبى، وتهجم الأحزاب الأخرى عليهم، ورميهم بالخيانة، والتنكر للمبادىء والوعود التى بذلوها، بل واتهموا النحاس بأنه ذنب للسراى وخاصة بعد حادث ٤ فبراير الشهير، الذى تولى بعده النحاس الحكم، وقالت المعارضة يومها: «لا، لقد جاءت حكومة الوفد على أسنة الرماح البريطانية» إذ إن الإنجليز يومها وجهوا إلى الملك إنذارًا وطلبوا منه أن يكلف النحاس باشا بتشكيل الوزارة، ومع ذلك فإن الوفد فى قرارة نفسه كان ينقم على الملك، ويلعبان معًا لعبة «القط والفأر» ويتبادلان الابتسامات رغم ما فى القلوب من كراهة متبادلة، وشك مقيم، وكثيرًا ما استعمل الملك حقه الدستورى فى حل البرلمان ذى الأغلبية الوفدية، وأسقط حكوماته، وكان بعض الكتاب الوفديين يجاهرون بالسخط على أسلوب الملك، ويلمحون إلى أنه وراء محنة الحرية والدستور، وكثيرًا ما كانوا يقدمون للمحاكمة.

وكانت هناك فئة لها مصالحها المضمونة فى ظل الحكم الملكى، وبينهم عدد كبير من رجالات أحزاب الأقلية ورجال المال والأعمال، وأصدقاء الاستعمار، وأصحاب المصالح والمغانم والسلطات المستقرة.

أما الإخوان المسلمون - كما سبق وأشرنا - فقد كانوا يصرون على التغيير، تشير إلى ذلك خطبهم وبرامجهم ومطالبهم الدستورية، والإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التى ينادون بها، وإعلان الحكم الإسلامى، وجعل الشورى والحرية حقيقة واقعة، كما كانوا ينقمون على الملك وأسرته وأعوانه أسلوبهم فى الحياة الخاصة والعامة، وكان شائعًا فى أوساطهم أنه لابد أن يعزل، هذا على الرغم

من اتباع الصمت والمهادنة فى بعض الأوقات الحرجة، وإيهامه بأنهم لا يشكلون خطرًا عليه أو على نظام الحكم، حتى يتجنبوا بذلك الصدام الرهيب الذى يمكن أن يحدث، والذى حدث فعلًا بعد ذلك..

ومما لا شك فيه، أن الملك كان يعتمد اعتمادًا رئيسيا على تأييد الجيش له، وإخلاص قيادته لسياسته وأفكاره. كما كان يعتمد فى الوقت نفسه على حماية التقليديين - الإنجليز -، وكذلك على أنصاره فى السراى وخارج السراى، وأجهزة الأمن والمخابرات، تلك التى ظلت على ولائها له حتى النهاية..

لكن الجيش الذى أفرز عرابى وأمثاله من قبل، استطاع أن يوجد فئة واعية من الرجال تدرك أبعاد الحكم الملكى وأخطاره، وتدرك أيضًا أن قيادتها فى الجيش على ولاء تام لولى نعمتها وحلفائه، ولم يكن عزيز المصرى باشا وتلامذته إلا مثلًا لهذا التحرك المضاد للسراى وأعوانها، وهذا هو بداية تكوين الخلايا السرية فى الجيش قبل حرب فلسطين، فقد جاء فى مذكرات بعض ضباط مجلس قيادة الثورة أن أول من أسس تشكيلًا سريا للضباط فى الجيش كان هو الصاغ «محمود لبيب» وكيل جماعة الإخوان المسلمين فى فترة من الفترات فى الأربعينيات من القرن العشرين، وهذا خبر متواتر ومعروف لدى الجماعة من قديم، ثم جاءت حرب فلسطين وفترة التصدى للقوات البريطانية فى القناة، وحمل الإخوان عبء هذه الأعمال الفدائية التطوعية فى غالبيتها، ومن ثم تكونت كوادر قادرة على مستوى الجماعة ومستوى الجيش، لعبت دورها بعد ذلك عند قيام الثورة..

نستطيع على ضوء تلك المقدمة أن نبلور صور التغيير المنتظر فى ثلاثة خطوط رئيسية:

- **الخط الأول**: ويمثله بعض رجال الجيش المنظمين، ويرغب فى التغيير عن طريق استعمال القوة أو الثورة أو الانقلاب.
- **الخط الثاني**: ويمثله الوفد ومن على شاكلته، وهؤلاء يميلون إلى تغيير سلمى ديموقراطى، يتمثل فى احترام الدستور، وتقليص سلطات الملك، وإعطاء الصلاحيات لرئيس الوزراء المنتخب والذى يمثل الأغلبية.
- **الخط الثالث**: وهو خط متميز يريد التغيير بالأسلوب الهادئ الديموقراطى، لكن تحت حماية القوة التى يمكن استعمالها عند اللزوم، أو عندما يحاول الملك أو الإنجليز أو غيرهم أن يجهضوا حركة التغيير السلمى، أو ينحرفوا بالمسار الإصلاحى المنشود، هذه الفئة يمثلها الإخوان المسلمون، ولعل هذا هو السر فيما كان يحدث عندهم من تطورات لا تخفى على أعين الفاحضين المنصفين الواعين نذكر منها:

١- تغلغلهم فى الأوساط الشعبية، وإنشاء «الشُعب» فى المدن والقرى والكفور، داعين إلى عدم الفصل بين الدين والدولة، وإلى تحقيق العدالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتحقيق الحريات.

٢- تغلغلهم فى أوساط العمال والموظفين، وتأكيد نفوذهم فى النقابات المهنية وغير المهنية، وتحقيقهم للأغلبية فى بعضها عن طريق الانتخابات، أو الحصول على مقاعد بنسبة كبيرة فى نقابات المعلمين والأطباء والعمال وغيرهم، مما جعل إحدى صحف الحكومة بعد الصدام مع الثورة تقول: «الإخوان يشكلون أجهزة أخطر من الجهاز السرى» قاصدة بذلك تغلغلهم فى النقابات.

٣- تغلغلهم فى المؤسسات التعليمية وخاصة الجامعات، حيث كانت الانتخابات تجرى كل عام،

بواقع مندوبين اثنين منتخبين عن كل سنة أو صف من صفوف الكليات، وقد استطاع الإخوان أن يحققوا أغلبية مطلقة فى جميع الجامعات ما بين ٨٠-٩٠٪، ولم تستطع تحالفات الأحزاب فى الجامعة، وبعض القوى الدينية المضادة، فيما سمى « بالجبهة الوطنية » أن تهزم الإخوان فى الانتخابات التى كانت تجرى قبيل الثورة أو بعدها.

٤- التفكير فى دخول الانتخابات النيابية، واعتراض الإنجليز على ذلك، وتقديم النحاس باشا النصيحة للإمام الشهيد حسن البنا كى لا يتقدم للترشيح، وتأجيل ذلك لما بعد؛ أى عندما تأتى الظروف المناسبة.

٥- إنشاء فرق الكشافة والجوالة الإخوانية الكبيرة العدد، ووضع نظام خاص لها يختلف فى تدريباته ونظمه ولوائحه عن النظام العالمى، والتأكيد فيه على التربية الروحية والبدنية والعقلية، والاهتمام بالتعارف والارتباط خارج المخيمات بين الأفراد، وبعض التدريبات العسكرية.

٦- إنشاء « النظام الخاص »، وهو ما أطلق عليه بعد ذلك « الجهاز السرى » للاشتراك فى معركة فلسطين وقناة السويس، وحماية الجماعة ومؤسساتها وأفرادها القياديين عند الضرورة.

٧- إصدار الصحف والمجلات العلنية، وذلك بقصد نشر الدعوة، وتقديم البحوث الدينية والسياسية والاقتصادية والعلمية، وفتح المجال أمام ما يمكن أن يسمى « بالأدب الإسلامى »، وتأليف المسرحيات والأناشيد، ووضع برامج للدراسة والقراءة الحرة، والتوصية بالاطلاع على كتب وأفكار أدباء ومفكرين بعينهم، دون التقيد بكتاب الجماعة، فكثيرًا ما كانت تقرأ كتب العقاد والرافعى ومحب الدين الخطيب وغيرهم.

٨- تشجيع المنافسات الرياضية والانضباط، وتأدية الشعائر والعبادات والرحلات والزيارات والبعثات الدراسية فى أوربا وأمريكا وغيرها، وعقد الصلات مع المنظمات الإسلامية فى العالم العربية والإسلامى، وما زالت آثار ذلك باقية حتى كتابة هذه السطور، وبصورة أوسع وأكبر.

٩- إنشاء مؤسسات اقتصادية مساهمة، على أسس إسلامية.

١٠- إنشاء مدارس ومساجد على النمط الإسلامى الصحيح، وتشجيع إنشاء المستوصفات ودور النشر والإعلام والإعلان.

١١- تشجيع أفراد الجماعة على الالتحاق بالشرطة والقوات المسلحة والكليات العلمية كالطب والهندسة والعلوم والصيدلة والزراعة وغيرها.

١٢-إعداد برامج خاصة لتربية الأطفال، وتوعية النساء، وكانت مدرسة « الجمعة » للأطفال من المدارس الشهيرة.

١٣- دراسة النظم الإدارية، والمواقع الجغرافية فى القاهرة خاصة، وفى مصر عامة، وتقسيم البلاد إلى مناطق ومكاتب وشعب، وفق هيكل تنظيمى فريد، وطرق اتصال سهلة وسريعة وناجحة.

١٤- تجنب الصدام مع الجمعيات الإسلامية الأخرى، بل وتقوية صلة المودة والمحبة معها.

١٥- عدم القيام بالتصرفات الفردية التى قد تسبب للجماعة فى عمومها مشاكل لا حصر لها، والالتزام برأى الجماعة وقيادتها فى الأمور الأساسية والسياسية العليا، والتصرف بحكمة وروية فى الأمور المحلية الثانوية.

١٦- عدم الهتاف بأسماء الأشخاص أو الزعامات مهما كانت.

١٧- التفقه في الدين بكل فروعه ما أمكن، ليستوى فى ذلك الجميع، وحفظ القرآن الكريم أو قدر منه، والأحاديث النبوية الصحيحة، والتفسير، وترك الخلافات المذهبية جانبًا، والتخلق بأخلاق النبوة حتى يصبح الفرد الداعية قدوة حسنة.

.... الخ

وقد أفاضت بعض المؤلفات فى هذه الجوانب، وإنما قصدت بإيجاز معظمها الوصول إلى النتيجة الهامة ألا وهى:

« إن الإخوان المسلمين كانوا يريدون التغيير، ويعدون له، بل وبدءوا فيه، وأنجزوا الكثير، وكان هذا التغيير، كما هو واضح من منهجهم وتصرفاتهم - تتخذ الأسلوب الديموقراطى السليم، ويتخذ من القوة رصيدًا لحماية ذلك التحرك السلمى كما قلنا ».

ولعل هذا هو السبب فى اختيار رجل القانون الضليع الأستاذ حسن الهضيبى - رحمه الله - مرشدًا للإخوان، بل يمكن القول بأن تردد الهضيبى فى الموافقة على قيام الضباط بحركتهم المسلحة كان نابعًا من تلك الخطة الإخوانية، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أيضًا محاولة الهضيبى لتصفية « النظام الخاص » وعزل رؤسائه، واختيار قيادة جديدة لتذويب ذلك التنظيم، مما أثار ثائرة أعضائه القدامى، فحاولوا عزل المرشد والقيام بانقلاب ضده.. انقلاب داخلى فى مقر المركز العام للإخوان المسلمين بحى الحلمية بالقاهرة، وفشلهم فى تنفيذ ما أرادوه، وفصلهم فصلًا تامًا من الجماعة، والغريب أن الثورة وصحافتها استغلت الحادث أسوأ استغلال، كما قامت الثورة بتقريب المنشقين إليها، والإغداق عليهم، وعدم اعتقالهم فيما بعد، وقال الهضيبى قولته المشهورة « لا أريد جهازًا سريًا.. لا أريد عصابة.. أريد الإخوان المسلمين أن يكونوا تنظيمًا واحدًا.. وفى النور ..».

إن تلك العلانية، وهذه البرامج، التى استمرت لسنوات، والخطوات الديموقراطية فى مختلف المجالات، وتصفية الجيوب المتميزة أو المسلحة، بعد أن أدت دورها المرحلى فى فلسطين والقنال، والمؤسسات الديموقراطية المختلفة، ثم إصرار الهضيبى على عودة الديمقراطية بعد قيام الثورة، واختلافه الشديد مع جمال عبد الناصر لهذا السبب الرئيسى، مضافًا إلى ذلك مطالبة حكومة الثورة باتباع النهج الإسلامى.. كل هذه الأمور تؤكد ما أشرنا إليه من برنامج الإخوان فى ديموقراطية التغيير، وهذا ما تؤكده نصوص الخطب التى أوردها حسن البنا، وخطاباته للناس ولرؤساء الدول، وما تشهد به أيضًا صحف العصر وما فيها من تصريحات للهضيبى والقيادات الإخوانية وصحفهم وكتبهم.

نعود - بعد هذه المقدمة الطويلة - إلى اللواء « محمد نجيب »:

ولد محمد نجيب من أبوين مصريين فى السودان عام ١٩٠١، ونال البكالوريا من مدرسة الخرطوم، ثم دخل الكلية الحربية. وتخرج منها ثم التحق بالجيش، واشترك فى الحرب العالمية الثانية، وفى حرب فلسطين لعب دورًا بارزًا - على المستوى الفردى والمستوى القيادى - وأصيب فيها إصابات بليغة، ومن أشهر معاركه فيها معركة التبة ٨٦، وعرف بحسن الخلق، والصبر والدأب، وتعلم عددًا من اللغات الأجنبية « خمس لغات »، وأخذ دبلومات عليا فى القانون والاقتصاد، وكان كثير الاطلاع، كما كان خطيبًا مفوهًا، ومعلمًا فذًا، نظيف السمعة والتاريخ، اختاره الضباط رئيسًا لناديهم، وأسقطوا

مرشح الملك، واعترض الملك على تعيينه وزيرًا للحربية، وكان على وشك فصله من القوات المسلحة لولا أن قامت الثورة.

لم تغره السلطة حينما جاءت إليه، ولم يوجه انتقامًا شخصيًا لأحد ممن ناوءوه أو حاربوه. وكان طيب القلب سرعان ما يعفو ويصفح مهما وُجهت إليه من إساءات، ووقف كالطود الشامخ فى مواجهة الأحداث ليلة قيام الضباط بالثورة.. لم يكن أحد يعرف هؤلاء الضباط، لكن محمد نجيب كان ملء السمع والبصر، على الأقل بالنسبة للمثقفين والمهتمين بمستقبل الأمة ومصيرها..

إن شجاعة محمد نجيب ونزاهته كانت مضرب الأمثال قبل وبعد الثورة، لقد دُعى إلى مجلس القيادة ليلة الثورة لتولى مسئوليته التاريخية، ولم يتردد فى الحضور رغم المخاطر الكبيرة التى يواجهها، لم تكن حركة الجيش قد تمت لها السيطرة بعدُ على الأغلبية العظمى من وحدات الجيش، لقد كانت هناك وحدات كثيرة فى قلب القاهرة لم تعلن عن انضمامها بعد، وكانت قوات الفرقة الأولى مشاة فى سيناء، وهى أكبر تشكيل فى الجيش وقتئذ، لا تدرى شيئًا عن الحركة، أما قوات الإسكندرية فلم تكن قد سمعت بعد أية أنباء عن هذه الحركة، وكانت الخطورة كامنة فى الإسكندرية، حيث مقر الملك فى « قصر المنتزه »، والحكومة فى « بولكلى »، والفريق محمد حيدر باشا القائد العام للقوات المسلحة فى معسكر مصطفى كامل، وحيث توجد أكثر القوات ولاءً للملك كما كان مفترضًا، وهى قوات الحرس الملكى، والسلاح البحرى، وخفر السواحل، وقد ثبت أن البيان الأول للثورة الذى صدر باسم اللواء محمد نجيب من دار الإذاعة كان هو العامل الحاسم فى انضمام جميع قوات الجيش غير المشتركة فى الحركة إلى القوات الثائرة، وخاصة أن نجيب كان هو الشخص المعروف بنزاهته وشجاعته وتصديه للملك قبل الثورة، وعلى المستوى الجماهيرى والعسكرى بوجه خاص، ولم تكن الأوساط الشعبية أو المثقفون يعرفون مجرد اسم جمال عبد الناصر.

إن مجرد إذاعة البيان الأول باسم اللواء محمد نجيب فى الساعة السابعة والنصف صباحًا من دار الإذاعة، معناه أن الرجل حمل على عاتقه مسئولية الحركة بأكملها تاريخيًا أمام حكم التاريخ، وجنائيًا أمام الملك وحكومته، وأصبح هو الرمز المجسد لها، ينتصر إذا دان لها النصر، وإذا فشلت فسيكون عليه تحمل وزرها وعواقبها.

ولقد نال محمد نجيب شعبية ساحقة لم ينلها أحد قبله فى تاريخ مصر الحديث إلا سعد زغلول، وكان مجرد ظهوره فى المؤتمرات العامة كفيلًا بأن ينتزع الهتافات الحارة، والتصفيق الحاد، كما كان محل ثقة رجال الفكر والسياسة والأحزاب القديمة، وكانت مكانته بين أبناء القوات المسلحة قمة عالية لا يدانيها أحد..

وبين مواكب النصر والتأييد التى غمرت محمد نجيب وكلماته وشعاراته، لم يلحظ الرجل الطيب الأيدى التى تعبث فى الخفاء، ولم يتعرف فى البداية على النفوس الدنيئة التى حقدت عليه لشعبيته، وانتصاره على الأطماع الشخصية، والطموحات الساقطة، ورويدًا رويدا أخذ الرجل يكتشف مهازل لا حصر لها:

١ - تكوين مراكز القوى والشلل منذ البداية.

٢- إنشاء خلايا سرية جديدة فى الجيش تدين بالولاء لجمال عبد الناصر.
٣- تلفيق التُهم، واستئجار الشهود لإلصاق مؤامرات وهمية ببعض الضباط الأحرار المخلصين.
٤- الاستيلاء على بعض القصور والشقق الفاخرة، وبعض محتويات القصور الملكية.
٥- أحد القادة يذهب مخمورًا فى المساء ليطارد أميرة من أميرات البيت المالك، والأميرة تستنجد بمحمد نجيب قائلة: « إنه يتصور نفسه ملكًا جديدًا ».
٦- زوجة أحد ضباط القيادة تتصرف وكأنها « الكل فى الكل » وتقول: « الجيش فى يمينى والبوليس فى يسارى »، وتستغل وضع زوجها أبشع استغلال.
٧- ضابط آخر يطارد « ناهد رشاد » زوجة طبيب الملك السابق الخاص.
٨- عبد الناصر يوعز إلى أعوانه المخلصين، حتى ينفرد بالسلطة، ويوعز أيضًا إلى مصطفى أمين كى ينشر صور ضباط مجلس قيادة الثورة، وإلى جوارهم صورة كبيرة له، توحى بأنه « كل شىء »، وغضب عدد كبير من الضباط الزملاء من ذلك.
٩- محمد نجيب يكتشف أن جمال عبد الناصر، على حد تعبير نجيب نفسه: « .. قوة عبد الناصر فى شخصيته، وشخصيته من النوع الذى يتكيف ويتغير حسب الظروف، فهو مرة مع الشيوعيين ومرة مع الإخوان المسلمين، وعشرات المرات ضد الجميع ومع نفسه ..».
١٠- ازدواجية الحكم بين الوزراء وبين ضباط القيادة وتضارب الآراء.
١١- تعطيل صلاحيات محمد نجيب عن طريق قرارات الأغلبية التى يتخذها مجلس قيادة الثورة بتدبير من جمال عبد الناصر.
١٢- نجيب يقول إن السيطرة الآن أصبحت « لأصحاب الجلالة الضباط ومواكب المنافقين ..» ويقول أيضًا: « وبدأت أشعر أننى لا أمارس سلطاتى كما يجب ..».
١٣- فى البداية، وعند الحاجة الماسة إلى وجود محمد نجيب كقائد للمسيرة الشعبية، وقف جمال عبد الناصر فى بنى مر يقول: « باسم أبناء هذا الإقليم أرحب بك من كل قلبى، وأعلن باسم الفلاحين، أننا آمنا بك، فقد حررتنا من الفزع والخوف، وآمنا بك مصلحًا لمصر، ونذيرًا لأعدائها.. سيدى القائد.. باسم الفلاحين أقول سر، ونحن معك جنودك ..».

وفى النهاية يرمى نجيب بأبشع التهم ومعاملته للأحزاب والرجعية، وباستلابه لمغانم الثورة وانتصاراتها ثم عزله.

١٤- رفض جمال وصحبه الأسلوب الديموقراطى، وأصروا على أن يحكموا هم بأنفسهم وتصدى بعض الضباط لجمال أمثال خالد محيى الدين وثروت عكاشه وعبد المنعم أمين وأبو المكارم عبد الحى وغيرهم..
١٥- نجيب يقول: « فى البداية عاملتهم على أنهم أولادى، ثم أصبحوا أفظع من زبانية جهنم »، وقلت لهم: أفضل أن يلتف حبل المشنقة حول عنقى ولا أصدق على إعدام إبراهيم عبد الهادى.
١٦- عبد الناصر يعقد اجتماعات مجلس قيادة الثورة برئاسته، بعيدًا وفى خفية عن الرئيس محمد نجيب...الخ.

الواقع أن اللواء محمد نجيب، الرجل الطيب القلب، الحسن النية، ذا الخبرة والأمانة والأصالة والروية، وجد نفسه وسط عصابة لا ترعوى ولا ترحم، ولهذا فكر فى الاستقالة التى رفضت بشدة فى

البداية، لم يكن نجيب يحب تكوين الخلايا وتجنيد المخابرات، لأنه كان يؤمن أن ذلك الأسلوب سلاح ذو حدين، وقد يؤدى إلى قلاقل ومصادمات فى الجيش، والظروف لا تسمح بذلك وخاصة أن قوات الاحتلال تجثم على أرض مصر، واليهود يتربصون، والدولة تعانى من مشاكل لا حصر لها عقب الانقلاب، ومراكز القوى المتصارعة تشغل الساحة، فلم يكن نجيب ليفكر فى إضافة عنصر جديد من عناصر الارتباك والقلق والصراع.

وبدأ جمال عبد الناصر يقاوم شعبية « محمد نجيب » بشتى السبل والوسائل، ولم يكن هناك مفر من احتدام الخلاف، واشتداد الصراع حتى أصبح التعاون بين الرجلين ضربًا من المحال.

وفى يوم ٢٣ فبراير ١٩٥٤ قدم محمد نجيب استقالته إلى مجلس قيادة الثورة، وكان من رأى الجميع قبولها، بينما عارض فى ذلك خالد محيى الدين، وطلب قبول استقالته هو الآخر، ولكن المجلس طلب إليه إرجاء ذلك إلى أن تمر الأزمة.

وفى صباح يوم ٢٥ فبراير صدرت صحف القاهرة، وفى صدر صفحاتها بيان مجلس قيادة الثورة الذى يعلن قبول استقالة محمد نجيب، ويعين جمال عبد الناصر رئيسًا للوزراء، وتضمن البيان هجومًا شديدًا، وافتراءات سافرة كاذبة ضد محمد نجيب، وأذكر أن إحدى الصحف وضعت صورة كبيرة لجمال عبد الناصر، وكتبت عنوانًا بارزًا بخط كبير فى الصفحة الأولى يقول: « قائد الثورة يتولى رئاسة الوزراء ..».

لقد أعد جمال العدة لهذه الضربة المبكرة، لكن الله مخلف الظنون، نعم لقد رتب كل شىء بمهارة وذكاء، فقد أصدر قرارًا - لم يوافق عليه محمد نجيب - بحل جماعة الإخوان المسلمين، القوة الشعبية الوحيدة القادرة على حماية ظهر محمد نجيب لتأييدها السابق له، وارتياحها لأفكاره، وحرصه على الديموقراطية، كما تخلص من الكثيرين الذى يؤمنون بقيادة نجيب وحكمته، وبعث رسله هنا وهناك ليشوهوا سمعة اللواء نجيب النظيفة، ووقف صلاح سالم يكيل التهم والسباب له، وقائد البوليس الحربى قدم إلى الجامعة، وإلى المدينة الجامعية بالذات، وأخذ يذم ويقدح فى عرض محمد نجيب، ونحن الطلبة نتجمهر حوله، ونكذبه ونحرجه، ونرد عليه افتراءاته، فما كان منه إلا أن غضب، وهاج وماج، وهددنا بالضرب والاعتقال، ومعه قوات كثيرة، فانصرفنا عنه إلى غرفاتنا، ونحن أشد ما نكون احتقارًا وازدراءً له..

المهم كان تأثير البيان على عكس ما أراد مجلس الثورة، فقد تفجر الموقف فى سلاح الفرسان، وفى وحدات أخرى كثيرة، وفى وحدات الإسكندرية، وفى صفوف الشعب الذى خرجت جموعه الحاشدة يوم ٢٨ فبراير.

إننى أذكر هذا اليوم جيدًا، فقد صدرت أوامر سرية من قادة الإخوان الذين لم يعتقلوا - وبالذات من المرحوم الشهيد عبد القادر عودة وكيل الإخوان المسلمين - بأن نخرج فى مظاهرة سلمية ضخمة من جامعة القاهرة، ثم نمضى فى الطريق حتى قصر عابدين نطالب فيها بإعادة قائد الثورة محمد نجيب إلى مكانه، والإفراج عن المعتقلين من الإخوان المسلمين وغيرهم، وتحكيم القرآن، وإعادة الديموقراطية الصحيحة، وعودة الجيش إلى ثكناته..

وكانت الهتافات التى نرددها فى هذا اليوم - وكنت واحدًا ممن يرددونها - كالآتى:

الحرية.. الحرية، يا أعداء الإنسانية
يا أعداء الإسلامية
يا أعداء الروحانية
إسلامية.. إسلامية.. لا شرقية ولا غربية.
يسقط حكم البكباشية..
نحن معك يا نجيب..
يسقط جمال عبد الناصر
يسقط صلاح سالم الكذاب.

وشملت المظاهرة جميع الأحزاب والطوائف، كما كان لإخواننا السودانيين قطاع خاص فى المظاهرة، وكان عددهم كبيرًا، وكانوا يرددون نفس هتافاتنا إلا أنهم كانوا يضيفون هتافات أخرى:

السودان يكره المنافقين يا صلاح.
السودان يكره المنافقين يا باقورى « هكذا ..»

وانضمت إلى المظاهرة بعض المدارس الثانوية مثل مدرسة السعيدية وغيرها، وكنا ونحن نتجه إلى كوبرى قصل النيل، نرى الناس فى الشرفات، وفى المؤسسات الحكومية والبيوت يلوحون لنا سعداء، على وجوههم وفى هتافاتهم التأييد المطلق، بل إن أحدهم فى شرفة عالية، كاد يقذف بنفسه فوقنا تحمسًا وتأييدًا.

وما إن وصلنا إلى كوبرى قصر النيل، حتى انهمر علينا الرصاص كالمطر، ورأينا الجنود يخرجون من أسفل الكوبرى على الشاطئين، ويسارعون بعمل ما يشبه الكماشة عند مخرج الكوبرى ناحية ميدان الإسماعيلية « التحرير حاليًا »، وكنت محمولًا فوق الأكتاف أردد الهتافات، وما إن رأيت وسمعت الرصاص حتى تململت وقلت لإخوانى: « أنزلونى بسرعة ..» .

وسار الهرج والمرج، واندفعت الجموع هنا وهناك دون نظام، لم نكن نظن أن الأمر سوف يصل لهذا الحد من الصدام الدموى، لم يكن معنا أى شىء ندافع به عن أنفسنا حتى ولا الطوب.. وسقط بعض الشهداء أذكر منهم اسمين هما الطالب « السحرتى » والطالب « عجينة ».. وهذه ألقابهم.. كما سقط العديد من الجرحى، وقبض على أعداد أخرى لا أعرف عددهم..

كان الاتفاق أن تمضى المسيرة - كما قلت - إلى ميدان عابدين، وبرغم ما حدث فقد استطاع أغلبنا الوصول إلى هناك، كانت هناك حشود قادمة من كليات الأزهر وعين شمس والمدارس المختلفة والعمال والموظفين.. وكم كانت دهشتنا عندما وجدنا محمد نجيب يقف فى شرفة عابدين ومعه آخرون.. كان بعضنا يلوح بالمناديل البيضاء الملطخة بالدماء ويقولون: « الدماء يا نجيب.. الإرهاب يا نجيب.. الحرية يا نجيب ..» وحدثت فى الصفوف ثورة وصخبًا بسبب إطلاق الرصاص على طلبة جامعة القاهرة والمدارس الثانوية.. وكان من الصعب السيطرة على هذا الضجيج الهائل.. ولم يجد محمد نجيب مناصًا من أن يستدعى مُدبر هذه المسيرة التاريخية ألا وهو الأستاذ عبد القادر عودة وكيل الإخوان المسلمين الذى استثنى كما قلت من الاعتقال لسبب أو لآخر، وصعد عبد القادر عودة إلى

الشرفة، وما إن أشار إلى الجموع الهادرة حتى ساد الصمت التام..

إن جمال عبد الناصر لم ينس هذه الواقعة لعبد القادر عودة، فبعد هذه الواقعة بشهور سيق «عودة» إلى المحاكمات أمام محكمة الشعب برئاسة جمال سالم، ولفقت له التهم الكثيرة، ثم تم إعدامه وهو يردد:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي

ثم تمتم بالدعاء قائلًا: «اللهم اجعل دمي لعنة عليهم ...».

أقول هذا الكلام لمن زعموا أن الإخوان وقفوا على الحياد في أزمة محمد نجيب والثورة لأول مرة، فكيف يقف الإخوان على الحياد وهم الذين قادوا التحرك الشعبي الكبير ونفذوه بإصرار ودفعوا الثمن غاليًا؟ ثم هل نسي هؤلاء أن قيادات الإخوان في تلك الفترة كانوا معتقلين بأمر عبد الناصر، وأن السجون والمعتقلات كانت مكتظة بهم، ولم يفرج عنهم إلا بعد أن عاد محمد نجيب بفترة؟

يقول أحد ضباط الثورة جمال حماد: «وكاد حادث قبول استقالة محمد نجيب يؤدي إلى حرب أهلية في البلاد، فقد صدرت الأوامر من بعض ضباط الصف الثاني بمحاصرة سلاح الفرسان بكوبري «القبة» بوحدات من المدفعية المضادة للدبابات، وحلّقت بعض الطائرات من فوقه لإرهاب ضباطه».

واضطر مجلس قيادة الثورة، إلى إصدار بيان قصير قال فيه بالحرف:

«حفاظًا على وحدة الأمة، يعلن مجلس قيادة الثورة عودة الرئيس اللواء محمد نجيب رئيسًا للجمهورية، وقد وافق سيادته على ذلك ..».

وفي اجتماع مجلس قيادة الثورة يوم ٢٥ مارس، الذي استمر خمس ساعات متصلة، أعلن صلاح سالم على الشعب القرارات الشهيرة التي كانت تنص على ما يلي:

١- يُسمح بقيام الأحزاب.
٢- مجلس الثورة لا يؤلف حزبًا.
٣- لا حرمان من الحقوق السياسية لأي مواطن.
٤- تُنتخب الجمعية التأسيسية انتخابًا حرًا مباشرًا بدون تعيين، ويكون لها السيادة والسلطة الكاملة.
٥- حل مجلس الثورة في ٢٤ يوليو المقبل، باعتبار الثورة قد انتهت، وتسلم البلاد لممثلي الأمة.
٦- تنتخب الجمعية التأسيسية رئيس الجمهورية بمجرد انعقادها.

وأحدثت هذه القرارات دويًا هائلًا في الحياة السياسية لمصر، وتوقع البعض بزوغ فجر الديموقراطية، وخاصة بعد أن تم الإفراج عن الإخوان المسلمين، وإلغاء قرار حل الجماعة، وذهب جمال عبد الناصر ورفاقه، ومعهم محمد نجيب إلى منزل المرشد العام للإخوان المسلمين بحي الروضة للتصالح، والاعتذار عما بدر منهم من أكاذيب وافتراءات في حق المرشد والجماعة، كما قام الهضيبي بتهدئة الخواطر بين جمال عبد الناصر ورئيس الجمهورية محمد نجيب، وكنا يومها نحتشد حول منزل الهضيبي بأعداد غفيرة نشهد تلك اللحظات التاريخية.

لكن العالمين ببواطن الأمور كانوا يتحسبون وقوع أحداث خطيرة؛ إذ كان بالإمكان في هذا الوقت الإطاحة بالنزعة الدكتاتورية ورجالها، ولم يكن مرشحًا للقيام بهذه المهمة إلا الجيش والإخوان المسلمون كقوة شعبية غالبة منظمة، لكن الفرصة أفلتت بسبب: طيبة قلب نجيب وسماحته وصدق نواياه.

لانشغال الإخوان بتضميد جراحهم بعد الخروج من المعتقلات، ولم شملهم، ورغبتهم الأكيدة فى اتخاذ الأسلوب الديموقراطى السلمى. للوعود البراقة، والقرارات التى أصدرها مجلس الثورة. لتجنيب البلاد الفتن والدماء. للتصالح الذى تم بين الجهات المتصارعة فى الجيش. ولتشتت الأحزاب الأخرى وضعفها وتمزقها وخوفها.

نقول كانت المؤامرة تدبر فى الخفاء لوأد الديموقراطية، ولكى يتراجع مجلس قيادة الثورة، عن قراراته الخطيرة، وفى يوم ٢٨ مارس ١٩٥٤ أضرب عمال اتحاد النقل المشترك الذى يسيطر على مواصلات القاهرة، واعتصم العمال، وتم استدعاء إدارات النقابات الأخرى، لتتخذ قراراتها بالإضراب والاعتصام، وفقا للتنسيق مع هيئة التحرير التى يتزعمها طعيمة والطحاوى، وأخذت دار الإذاعة المصرية، فى إذاعة قرارات النقابات حتى من قبل اتخاذها فعلًا، وانتقل الاضطراب من القاهرة إلى خارجها طوعًا أو كرهًا، حتى شلت حركة المواصلات فى البلاد تمامًا، وذهب المضربون إلى مجلس الدولة واقتحموه وضربوا الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهورى، فكانت وصمة عار فى جبين الثورة، لاعتدائها على سدنة القانون، وحماة الدستور.

وانتشر رجال الأمن والمخابرات يحطمون كل معارضة، ويقمعون أى فكر بناء، وقبض على عدد من رجال الصحافة والسياسة وساد الرعب والإرهاب وحددت إقامة عدد من الضباط المؤثرين، وإزاء هذا الموقف قرر محمد نجيب أن الأمور بينه وبين أعضاء مجلس الثورة، قد وصلت إلى نقطة اللاعودة، لكن عبد الناصر وزملاءه أصروا على بقائه رئيسًا للجمهورية، ورئيسًا لمجلس الثورة، حتى لا تحدث انتكاسة كانتكاسة أواخر فبراير سنة ١٩٥٤، وخلت الساحة لمجلس قيادة الثورة بعد هذا الإضراب، فأخذت فى الانتقام من كل القوى السياسية المعارضة كما قلنا، كما أخذت تعد السجون والمعتقلات مرة أخرى استعدادًا للزج بالإخوان المسلمين فيها باعتبارهم القوة الوحيدة المناوئة، التى تهدد سلطانهم، وتقف لتجبرهم وسطوتهم، كما أجريت تنظيمات وتعديلات كثيرة، فى صفوف رجال الأمن والجيش، والإعلام استعدادًا لليوم المرتقب.

كنا فى الإخوان المسلمين نعرف ذلك، وندرك أننا مقدمون على كارثة، وكانت الأحداث تمضى بسرعة رهيبة، ولعب الطامعون فى الداخل، والحاقدون فى الخارج أدوارهم الرخيصة فى التحريض والاستعداد، ولم يكن أمامنا حل سوى التنبيه إلى ما قد يحدث فى اجتماعاتنا وصحفنا ولقاءاتنا مع بعض المنتمين لمجلس الثورة، وكان واضحًا أن عبد الناصر يريد أن ينفرد بالحكم، وأن يتخذ أى وسيلة للوصول إلى هدفه، وأحاط نفسه بنخبة من الخبراء فى الدعاية والإعلام، وفى التصدى للمناوئين والمعارضين، حتى قيل أنه استقدم بعض المتخصصين من أوربا وأمريكا وروسيا فى هذه المجالات كلها، كى يدربوا كوادره لليوم الموعود.

كان نجيب يميل إلى المهادنة والتفاهم والصبر، وهذا ما أفقده الكثير من قوته كرجل ذى شعبية كبيرة، وكان الهضيبى ملتزمًا بالأسلوب الديموقراطى فى حركته، وكانت تحركات الإخوان أبطأ مما يجب، ربما للأسباب التى ذكرناها بعد خروجهم من المعتقلات، وربما استنادًا إلى شعبيتهم الكبيرة، واتفاقهم فى الرأى والتحليل مع محمد نجيب. وربما لتأفف جميع الأحزاب من حركات التطهير

والتمزيق التى قادها عبد الناصر ضدهم.

كانت الأحداث تجرى بسرعة كما قلنا، وحدثت مقدمات لا تخفى على العين الراصدة، لقد بدأت الحكومة فى اعتقال بعض العناصر الإخوانية الفعالة، وافتعلت حادث « مسجد شريف » بالروضة، وتم اعتقال خطيب الجمعة فى ذلك اليوم زعيم الطلبة الأستاذ حسن دوح وبضعة أنفار معه، كما افتعلت الحكومة أيضًا حادثًا مشابها فى « مسجد عزيز فهمى » بطنطا، واعتقل فيه أيضًا خطيب الجمعة الأستاذ فتحى عرس، واعتقل عدد من أعضاء الجهاز الخاص الذين لم يستجيبوا لإغراءات أو تهديد الحكومة، مثل سيد الريس، وحدث نفس الشىء فى كثير من الشعب والمساجد بأنحاء البلاد، كل ذلك قبل حادث المنشية الشهير بالإسكندرية، وعلم الهضيبى بعد عودته من رحلته إلى سوريا ولبنان أن النية متجهة لاعتقاله، فاختفى عن الأنظار فى مكان غير معروف، واتضح فيما بعد أنه فى الإسكندرية، وقد حاول بعض أفراد الجماعة، وخاصة ممن هم على صلة قديمة وطيبة بعبد الناصر، وقف الصدام المرتقب دون جدوى..

ثم كان ذلك الحادث الغامض المشبوه، حادث المنشية، الذى أطلق فيه الرصاص على جمال عبد الناصر ونجا من الإصابة، عندئذ اندلعت أبشع حرب عرفها الناس حتى ذلك التاريخ ضد جماعة الإخوان المسلمين، مما لم يكن له مثيل فى بشاعته وفظاعته فى تاريخ الأمة الإسلامية والعربية الحديث..

لقد اغتنم جمال عبد الناصر هذا الحادث الذى جرى يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٥٤ لتصفية حركة الإخوان على يد زبانية السجن الحربى، وعلى يد محكمة الشعب التى تشكلت برئاسة جمال سالم، وكانت خاتمة المأساة بالنسبة لمحمد نجيب يوم الأحد ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ حين دخل عليه عبد الحكيم عامر، ومعه قائد الجناح حسن إبراهيم، وذلك فى مكتب نجيب بقصر عابدين، وطلبا إليه الخروج معهما ليصحباه إلى منزله للاعتكاف فيه أسبوعًا أو أسبوعين، إلى أن ينتهى التحقيق الذى ظهر فيه اسم الرئيس نجيب متورطًا - كما يزعمون - مع الإخوان المسلمين فى محاولة اغتيال جمال عبد الناصر، وقال محمد نجيب: « إن ما تقولانه يشير إلى أن لى علاقة بمحاولة اغتيال عبد الناصر، وأنتما تعرفان أنه ليس من طبعى الاغتيال ..».

رد عليه عبد الحكيم عامر قائلًا: « ولهذا جئنا نرجوك أن تعتكف فى منزلك حتى لا يستغل أولاد الحرام الموقف، ويثيروا فتنة، نحن أعرف الناس ببراءتك منها، ودلالة على مدى احترامنا لك، فقد جئت خصيصًا لتوصيلك إلى منزلك محاطًا بالإجلال والاحترام ». وأمام إلحاح عبد الحكيم، وبعد أن أقسم له بشرفه العسكرى، خرج الرئيس محمد نجيب من مكتبه، ودخل إلى السيارة المنتظرة، التى سارت به وبمرافقيه، لا إلى منزله بالزيتون ولكن إلى قصر السيدة زينب الوكيل « حرم النحاس باشا » بالمرج، الذى ظل به تحت الإقامة الجبرية، حتى صرحوا له بالخروج تحت الحراسة عام ١٩٦٠، وبعد أن تولى أنور السادات الحكم، رفعت عنه الحراسة، وعاد ليزاول حياته الخاصة.

وحدث رد فعل عنيف فى مصر والسودان على وجه الخصوص.. وحضر وفد من السودان على مستوى عالٍ ليتوسط فى موضوع نجيب، فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن قال سنكتفى بعزله وعدم محاكمته، وهو يعلم علم اليقين أن الرجل برىء تمامًا من أية تهمة، وعندئذ تراجعت قضية « وحدة

وادى النيل » أى الوحدة بين مصر والسودان، تراجعت إلى الوراء كثيرًا، بل إن حزب الأغلبية الذى ظل سنوات طويلة يدعو إلى اتحاد مصر والسودان، والذى يتزعمه الأزهرى رحمه الله، تحول إلى الدعوة إلى استقلال السودان عن مصر، وإنشاء جمهورية منفصلة، وقال الكثيرون من السودانيين: لا يمكن أن نسلم رقابنا لضباط الثورة فى مصر كى يذيقونا الأمرين، ومن ثم لا يمكن لأى مؤرخ منصف أن ينكر أن الضربة التى وجهت إلى محمد نجيب الذى يحبه السودانيون حبًا شديدًا، كانت سببًا مباشرًا وأساسيًا فى انفصال السودان عن مصر، لقد ظلت مصر طوال العهد الملكى محافظة على تلك الرابطة السودانية المصرية، وكان النحاس يردد « تقطع يدى، ولا يقطع السودان عن مصر »، ولم يكن هناك فرق بين سودانى ومصرى فى ممارسة الحياة التجارية والتعليمية والثقافية فى القاهرة، لكن ذلك ذهب أدراج الرياح.. من أجل أن ينفرد جمال عبد الناصر بالسلطة.. وبعد سنوات ذهب ليبحث عن الوحدة بعيدًا عن السودان..

وفى خضم أيام الرعب والإرهاب وأكاذيب الصحافة والإعلام، انكمش الناس فى مصر، وحاول كل فرد أن ينجو بجلده، وأصبحت الحرية حلمًا من الأحلام، وأصبح الأمل ألا يتعرض المواطن لشك أو مؤاخذه تودى به إلى غياهب السجون.. وربما الموت..

وأصبح الشعار السائد « وأنا مالى ».. « لنربى أولادنا ».. « ولا يهمنا إلا لقمة العيش ».. ويستطيع الناظر فى صحافة تلك الفترة أن يرى الأعاجيب والأكاذيب التى لا حصر لها، ويقرأ لكتاب كبار.. وصغار.. مقالات لا تصدر إلا عن عبيد.. أو حاقدين.. أو عملاء.. وتشوه كل شيء.. حتى الصفحات النيرة المشرقة فى تاريخ مصر تلوثت.. تلوثت سمعة علماء الدين.. قاضى محكمة الشعب يطلب من أحد المتهمين أن يقرأ فاتحة الكتاب « بالمقلوب ».. كلمات قذرة بذيئة توجه للمتهمين.. الإخوان عملاء لإسرائيل التى كانوا يحاربونها بالأمس.. الإخوان عملاء للإنجليز الذين كانوا يقاتلونهم فى القنال ومعهم بعض الضباط الأحرار.. قيادات الجماعة منغمسة فى الإثم والفجور.. وأخذ محمد حسنين هيكل « قلم النكبة والنكسة والديكتاتورية » يدبج المقالات المقنعة الكاذبة.. ويؤلف الأدلة، ويزيف البراهين.. وأخذ يسمى حياة الدكتاتورية والعبودية « بالحكم الشمولى ».. ويضع شعارات « الرجعية » و« الثورة المضادة ».. و« لا حرية لأعداء الشعب ».. حتى نجوم « ساعة لقلبك » بالإذاعة أخذوا يؤلفون البرامج والنكت المضحكة حتى يضحكوا الشعب على حساب المجاهدين المؤمنين.. وشاعر العامية بيرم التونسى هو الآخر يكتب فى مجلة التحرير قصيدة يقول فيها:

كفاية يا مصر لو يبقى الهضيبي	وأعوانه على عرش الإمارة
وتسلم مصر من عيلة الدخاخني	إلى عيلة الخواتكى أو شراره

ويظل ينظم شعرًا يقول فيه عن حال مصر لو حكمت بالشريعة، إذ إن الحدود لن تقام، وسوف يكون « الحشيش ملو السيجارة » – على حد تعبيره، ولن تقطع يد اللص، ولا الزانى يرموه بالحجارة..

بالإضافة إلى آلاف الرسوم الكاريكاتيرية، والمقالات الآثمة التى تتناول أعراض الناس، دون أن يسمح لأحد بالرد.

أقول.. ذهب نجيب إلى منفاه.. وأخذ الهضيبى وإخوانه إلى السجن.. وانكمشت الأحزاب

القديمة، فلم يعد أحد يسمع لها صوتا، وتوارى المخلصون من الضباط، وبعض الضباط الأحرار الذين شاركوا فى الثورة، وكانوا ينتمون إلى الإخوان المسلمين، إما سجنوا وإما هجروا مصر، ومن الذين سجنوا. حسين حموده. فؤاد جاسر. جمال ربيع. سعيد بلبع. نجيب عطيه. عز الدين صادق. أحمد رمزى. معروف الحضرى «بطل فلسطين». عمر أمين .. الخ.

ومن ضباط الشرطة، ذوى التاريخ الحافل سجن أيضًا: صلاح شادى. كمال عبد الرازق. جمال إسماعيل. عباس أبو كرم...الخ. وممن غادروا مصر: عبد المنعم أمين «المشهور بعبد المنعم عبد الرؤوف». أبو المكارم عبد الحى. وعبد المنعم أمين من الشخصيات ذات التاريخ الحافل، فقد شارك مع أنور السادات فى قضية تهريب عزيز المصرى باشا، وكان من أوائل الضباط الذين سبقوا عبد الناصر فى إقامة تشكيلات بالجيش على أسس عقائدية سليمة، وشارك بجهد كبير فى أحداث الثورة بصورة رئيسية، ثم حاول عبد الناصر التخلص منه، فهرب من سجنه، وسافر إلى الأردن حيث عمل نائبًا لرئيس الحرس الوطنى هناك، وطارده عبد الناصر، فذهب إلى بيروت، ولم يكف عبد الناصر عن مطاردته، فأخرجوه من بيروت حيث قصد تركيا، وعاش هناك ثلاثة أعوام يشتغل بائعًا جوالًا، وأبى أن يتحالف مع أية جهة غير مصرية لمحاربة عبد الناصر، ورضى بحياة الفقر والنكد، حتى عاد إلى بيروت مرة أخرى بعد أن سمحوا له بتوسط أهل الخير، وظل بها حتى مات عبد الناصر، وجاء السادات، وعفا عنه، إذ كان قد صدر ضده حكم بالإعدام غيابيًا أيام عبد الناصر، وعاد إلى مصر فى أخريات حياته، حتى توفاه الله بعد سنوات قليلة.. والغريب فى الأمر أن عبد الناصر وعبد الحكيم عامر قد ظلا على ولائهما لزوجه التى مُنعت من السفر إلى خارج مصر هى وابنتاها.. وكان يصرف لهما معاش شهرى، وتم تزويج البنتين بضابطين من القوات المسلحة بإشراف عبد الحكيم عامر وحضوره الزفاف، وذلك تقديرًا للدور الريادى والرئيسى الذى لعبه عبد المنعم أمين فى إنجاح الثورة.. وماتت زوجة عبد المنعم قبل العفو عنه، ماتت إثر نوبة من مرض السكر الذى كانت تعانى منه. فى بيتها الكائن على ناصية شارع قدرى باشا بالسيدة زينب.. ولقد كانت زوجتى زميلة للبنتين فى المدرسة، وكانت على اتصال دائم بهما وبأمهما..

وذات يوم أذكره جيدًا.. جاءت زوجتى محتقنة العينين باكية.. وعلمت منها أنها ذهبت لزيارتهن، فوجدت الباب مغلقًا بالقفل.. وسألت الجيران عن السيدة «أم عزة» زوجة عبد المنعم، وعلمت بوفاتها.. فلم تتمالك دموعها... وكان عبد المنعم رحمه الله قد تزوج فى بيروت، وأنجب عددًا آخر من البنات.. بالحديد والنار، خلا الجو لعبد الناصر.. وأصبح حاكم مصر بلا منازع.. وامتلأت ساحات الحكم بالمنافقين والمادحين، وفلاسفة التبرير والتأييد والتأليه.. وفسد الفكر.. وفسد الفن.. وضاعت الحرية.. وكأنى به يقول: «أليس لى ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من تحتي؟».

إنها العبارة التى وردت على لسان فرعون فى القرآن الكريم.. وسرعان ما اختفى اسم محمد نجيب من الصحف والمجلات، وعدلت كتب التاريخ فى مدارس الدولة، وتحول المؤرخون إلى الحديث عن «القائد الحقيقى» للثورة جمال عبد الناصر!!، وحذف اسم محمد نجيب من الكتب، بل أكثر من ذلك حذفت أسماء بعض الضباط البارزين الذين شغلوا الصحف والإذاعة لفترة طويلة، يروى الأستاذ حلمى سلام رئيس تحرير جريدة الجمهورية سابقًا، أن صلاح سالم اتصل به فى عام ١٩٥٨ وقال: «تصور

يا حلمى.. لقد حذفوا اسمى من معاهدة الجلاء التى وقعت عليها فى عام ١٩٥٤.. حذفوه وأنا حى.. ولم يمض على توقيعها إلا أربع سنوات، فماذا سيفعلون بى بعد أن أموت؟ لقد جاءت ابنتى من المدرسة وقالت لى: لقد قلت لى يا أبى أنك ممن وقعوا على اتفاقية الجلاء، وها هو كتاب المدرسة وليس فيه اسمك ..».

يقول حلمى سلام: «وكان صلاح منفعلًا وثائرًا.. لكنى طمأنته، وقلت له إن التاريخ سوف يعيد لك حقك.. وفعلًا بعد شهور صدر كتاب «فى أعقاب الثورة المصرية» لمؤلفه المؤرخ عبد الرحمن الرافعى، وكان فى تسجيل لمعاهدة الجلاء ومثبت به توقيع صلاح سالم، فبادرت بالاتصال به تليفونيًا، وأخبرته بالأمر، وكانت سعادته عند سماعه النبأ فوق التصور ..».

وتناول العبث ثورة ١٩١٩ العظيمة، وتاريخ أبطال الثورة وقادتها الأفذاذ، بحجة خلوها من المضمون الاجتماعى، وتجاهلها لحقوق الفلاحين.

وفسدت الحياة الاجتماعية والأسرية بصورة غريبة، وإنى لأذكر هذه الواقعة بكل أسف، فقد كان لى صديق من القيادات العمالية فى نقابة السكك الحديدية، هو الأخ «على الشربينى»، وكان له ابن متزوج اسمه مصطفى تربطنى به هو الآخر علاقة حميمة، وذات يوم اكتشفت أن هناك قطيعة تامة بين الأب «على» وابنه «مصطفى»، وبطبيعة الحال حاولت القيام بمساعى الصلح بينهما، لكنى فشلت مرارًا وتكرارًا، وذلك لأنى لم أستطع معرفة سبب القطيعة، وذات يوم ألححت على الأب إلحاحًا شديدًا، كى يشرح لى سبب ما حدث، وبعد محاولات وضغوط قال الأب فى غضب وعيناه تدمعان: «هذا الكلب كاد يسلم عنقى لحبل المشنقة ..».

صحت فى دهشة: «كيف؟»

– «كتب فِيَّ تقريرًا سريًا للمخابرات يتهمنى فيه بعداء النظام، وباستغلال نفوذى، وأنت تعلم أنى نقابى، ومكلف بمسئوليات سياسية هامة.. ولولا أنهم فى التحقيق أعطونى الفرصة للدفاع، وللتدليل على كذب الاتهام، واستدعاء الشهود لكنت قد انتهيت.. وكانت حجتى أن ابنى فعل ذلك لأننى تزوجت غير أمه.. أنا أعرف أن الحكومة قد أفسدت الشباب بتكليفهم بكتابة التقارير السرية، وإعطائهم أهمية تفوق الحقيقة.. واستطاعوا أن يسخروهم أبشع تسخير.. حتى ضد آبائهم وأسرهم.. تصور ..».

لم أكن أتصور أن الأمر يصل إلى هذا الحد من الانحراف، وكانت الحكمة تقتضى أن أنصرف عن هذا الموضوع كلية، لكننى استطعت بلباقة أن أتناقش مع الابن مصطفى، وأشرح له أصول العلاقة المقدسة بين الآباء والأبناء، وحقوق الأب نحو ابنه، وكيف أن خلافات الرأى السياسية لا يصح أن تدفع الابن لكى يلقى بأبيه فى محاكمة أو سجن..

وعلى نفس الصورة فسدت العلاقات فى دواوين الحكومة، وبين الأصدقاء والجيران، وتدخلت الأهواء الشخصية فى الأمر، وانتشرت الشكاوى الكيدية، فصاحب البيت إذا تضايق من ساكن اتهمه بأنه من الإخوان المسلمين، وأنه يعقد اجتماعات فى بيته، والزيجة الفاشلة، تدفع الخطيبة إلى أن تتهم خطيبها بأنه من الجماعة المنحلة، والنكتة السياسية تلقى بقائلها وراء الشمس، وإظهار الغضب أو السخط، على غلاء الأسعار، أو اختفاء سلعة من السلع، أو إبداء الحنق لزحمة المواصلات، أو تأخير

المعاملات فى المصالح الحكومية، كان ذلك كله كفيلًا بأن يلصق التهم بالناس، مما جعلهم يتدربون على الصمت والكتمان، وإظهار خلاف ما يبطنون: وأذكر أننى كتبت العديد من القصائد حتى الآن وهى أغانى الغرباء، وعصر الشهداء، وكيف ألقاك؟ ومن القصائد التى وردت فى هذا المجال قصيدة بديوان أغانى الغرباء جاء فيها:

أبـى مـا بـالـنـا نـمـضـي ... وروح الـحـق مـقـهـورة
يُـقـال الـنـاس أحـرار ... ودنـيـا الـنـاس مـهـدورة
وأحـلامـى وآمـالـي ... بـسـجـن الـلـيـل مـأسـورة
أريـد الـفـجـر بـسّـامًـا ... وأعـشـق يـا أبـى نـوره
قـطـيـع نـحـن يـا أبـتـى ... ولا فـرقٌ سـوى الـصـورة
سـيـاط الـقـهـر تـدفـعـنـا ... لـوادى الـعـسـف والـنـقـم

وفى نفس القصيدة يجيب الأب ابنته حينما تساءلت عن أخيها المسجون فيقول الأب:

أخـوك الـحـر يـا لـيـلـى ... أراد الـنـاس أحـرارا
ويـمـقـت شـيـمـة الـعـبـدان ... والإذعـان إن سـارا
ويـكـره شـيـعـة الـطـغـيـان ... أن تـبـقـى لـنـا جـارا
أقـامـوا فـى طـرائـقـنـا ... وحـول الـفـكـر أسـوارا
هـم الـذؤبـان يـا لـيـلـى ... أثـاروا الـبـغـى والـعـارا
فـأقـسـم أن سـيـقـهـرهـم ... وكـان الـبـر بـالـقـسـم

ولكى أتحايل على نشر تلك القصيدة الطويلة، أعطيتها اسم «سجين الجزائر» حتى لا تعترض الرقابة على أرض الجزائر إبان ثورة البطولة التى انتزعت الاستقلال فيما بعد.

كما استطعت أن أكتب عددًا من القصص والروايات مختبئًا وراء التاريخ، أو فى فترات زمنية لا تومىء بالشك نحوى، سواء فى الفترة التى كنت فيها داخل السجن أو خارجه، كنت أريد أن أعبر عما يختلج فى نفسى، وأعكس رؤى الأحداث الرهيبة التى تسود البلاد، ولم أجد وسيلة سوى ذلك، وكان يكفينى أنَّ الدلالات العامة للعمل الأدبى يمكن أن تنسحب على أى عصر من العصور إذا توافرت جوانب معينة لا تخفى على القارىء، أما الكتابات الصريحة، فكنت لا أستطيع نشرها، بل أتداولها مع الأصدقاء الموثوق فيهم سرًا، ومع ذلك فإنه لا يغنى حذر عن قدر، فقد وقع ديوان شعرى المخطوط ذات يوم فى يد ضابط السجن أثناء التفتيش المفاجىء، وكانت مشكلة، إذ أصر الضابط على استدعاء المباحث العامة، وتقديمى لمحاكمة جديدة من داخل السجن فى الوقت الذى كنت أمضى فيه عقوبة عشر سنوات، لكن الله سلم، فقد كان المدير فى سجن أسيوط رجلًا طيبًا ألوفًا مهذبًا آنذاك هو صدقى محمود على ما أذكر، فقد أقنع الضابط «زكى» الذى أمسك بالمخطوط بأن يتسامح وقال له: «يكفى ما هو فيه من نكد وضياع مستقبل.. ألا ترى أن عقوبة السنوات العشر أكثر من اللازم؟».

أحكم عبد الناصر قبضته، وشعرت آنذاك أن السواد يعم كل شىء، وكاد اليأس يتحكم فى النفوس تمامًا، ولم نعد نرى أملًا فى الخلاص أو التغيير، وما قرأت فى تاريخ مصر عن فترات حالكة مثل

تلك الفترة، حتى أيام الحملة الفرنسية والاستعمار الإنجليزى وإبراهيم عبد الهادى.. لكنى قرأت ذات يوم رسالة من الأستاذ أمين الخولى « شيخ الأمناء، وزوج الدكتورة بنت الشاطئ » جاء فيها « ... الفلك دوار، ولم يدق فيه مسمار ...».

فى مصر يعجب رواد السينما بما نسميه « الشجيع »، وهو بطل المسلسلات السينمائية قبل عصر التليفزيون، وكان بطل المسلسل أو « الشجيع » كما يسميه العامة، يأتى بأعمال تكاد تكون خارقة، ويهزم المهاجمين، وينجو من المآزق الخطيرة، ويوجه اللكمات القاتلة، ويتسلق البنايات، ويثب فوق الأسطح، ويفوز فى النهاية بحبيبته، وكان رواد « الترسو » أقل درجات السينما، يحرصون على متابعة تلك المسلسلات السينمائية، وأغلبهم من المتسولين وجامعى أعقاب السجائر واللصوص والعاطلين والتلاميذ الصغار.

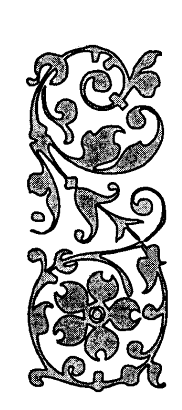
كانوا يرون « الشجيع » على الشاشة، ويرون « الفتوات » فى الأحياء الشعبية، لكنهم لأول مرة يرون « الشجيع » على مسرح السياسة.. ذلك « الشجيع » الذى يسب رؤساء الدول، ويطرد الوزراء، ويقبض على الكبار ويحاكمهم ويضعهم فى السجن، ويسخر من الملوك والباشاوات والأغنياء، ويطرد السفراء خلال أربع وعشرين ساعة، ويدبر الانقلابات، ويمد أصدقاءه بالسلاح، ويسحق معارضيه دون رحمة..

وكانت جماهير « الشجيع » لا تتعمق قضية، ولا تعرف أبعاد حدث من الأحداث، وهكذا بدأت شعبية عبد الناصر فى الشارع، بعد أن أحاط نفسه بقوة عنيفة من رجال الأمن والمخابرات، وكان عبد الناصر شكلًا فارع الطول، قوى الصوت، يجيد الخطابة بالعامية والفصحى، دائم التوتر، دائم الصخب، قلما يضحك فى الاجتماعات العامة..

أصبحت القوة التى يمثلها، والرعب الذى يبثه أعوانه، والإعلام الواسع الذى يتغنى باسمه، أصبحت هذه كلها – ولو إلى حين – قادرة على أن تصنع له مجدًا ومكانة، لا يمكن أن يتحققا إلا فى دولة من دول العالم النامى.. لقد كان خديعة كبرى رغم كل شىء.. ترى ماذا كان يحدث لو بقى نجيب، وسادت الديموقراطية كما حدث فى اليابان والهند وإسرائيل.. أكان يمكن أن يتحول المسار؟ الله أعلم..

***

[٥] الحل الأول أوائل عام ١٩٥٤



حينما قامت الثورة أشيع أن الإخوان هم الشريك الأول فيها، حتى أن الملك فاروق عندما ذهب إلى منفاه فى إيطاليا بعد أن طرد يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢، وتنازل لولى عهده الأمير أحمد فؤاد عن الملك، كتب مذكراته بعد شهور، وذكر فيها أن الثورة قام بها الإخوان المسلمون، وبتمويل من الشيوعيين «هكذا!!»، وكان استنتاج فاروق الساذج مدعاة للسخرية، وعلقت عليه الصحف آنذاك، ورد سكرتير عام الإخوان المسلمين عبد الحكيم عابدين رحمه الله على مزاعمه، وكذلك بعض المنتمين إلى مجلس الثورة، ومما لا شك فيه أن الإخوان أيدوا الثورة منذ انطلاقها، وكان فيها عدد من الضباط الإخوان كما ذكرنا، منضمين إلى تنظيم الضباط الأحرار، صحيح أن الثورة لاقت تأييدًا شعبيًا كبيرًا منذ قيامها، لكن تنظيم الإخوان وكوادرهم المنتشرة فى كل مكان من أنحاء البلاد، وفى المؤسسات المختلفة بما فيها الشرطة والجيش، قد جعل لتأييدهم ثقلًا من نوع معين، ثقلًا فعالًا، يختلف تمام الاختلاف عن التأييد الشعبى غير المنظم، والذى لا يملك قوة تأثير منظمة، تستطيع أن تتدخل فى الوقت المناسب، كما كان اللواء محمد نجيب الرجل المحبوب المتزن على رأس الثورة فى ذلك الوقت، وهو ذو تاريخ ناصع.

وكانت الثورة فى بدايتها فى حاجة ماسة إلى هذا الدعم الإخوانى المنظم، وهذا ما جعلهم يطلبون من المرشد العام ترشيح ثلاثة وزراء فى وزارة الثورة ممثلين للإخوان المسلمين، ولم يتم هذا المشروع، لأن الإخوان رفضوا أن يشاركوا ويتحملوا العبء والمسئولية الرسمية دون شروط مسبقة واضحة محددة، وهذا ما جعل جمال عبد الناصر يصرح فيما بعد، بعد أن اتخذ العدة، ونوى الغدر «إن الثورة لا تقبل وصاية عليها من أحد» وكان يقصد بذلك «الأحد» الإخوان المسلمين، وكان يقصد بكلمة «وصاية» الشروط التى قدمها الإخوان فيما يتعلق بالحريات العامة والدستور، وتحمل العسكر لمسئولية الحكم..

وبإيجاز شديد، فإن العلاقة بدأت تسوء بين الطرفين، وبدأ العد التنازلى كما يقولون، وجدت أمور، وجرت أحداث لا يتسع المجال للإفاضة فيها، وفى يوم من الأيام فى أوائل عام ١٩٥٤ عقد مؤتمر بجامعة القاهرة، ومن الطريف أننا وجدنا فى هذا الاجتماع شابا ملتحيا يلبس شالًا أخضر وعمامة، وينطق العربية بصعوبة.. كان ذلك الشاب هو «نواب صفوى» الإيرانى الجنسية، وزعيم منظمة «فدائيان إسلام» الإيرانية الشهيرة، وكان هذا الرجل على عداء سافر ومعروف بشاه إيران محمد رضا بهلوى آخر أباطرة تلك الأسرة، التى قضت عليها الثورة الإيرانية بقيادة الخومينى.. كان «نواب صفوى» متوسط الطول، متوقد الحماس، وأخذ يهتف معنا بقوة وحرارة «الله أكبر ولله الحمد»، وقد لعب نواب صفوى دورًا بارزًا فى ثورة «آية الله الكاشانى»، وفى الحركة التى قادها «مصدق» رئيس وزراء إيران لتأميم البترول، والخروج على إرادة الغرب، وقد اتهم «نواب صفوى» فى محاولة اغتيال

الشاه التى جرح فيها، وفى الترتيب لقتل « رازمارا » وفى عدد آخر من القضايا السياسية التى شغلت إيران والعالم آنذاك. وكان « نواب » قد استقبل فى مصر استقبالاً حافلاً، وحضر بعض الاحتفالات الشعبية الكبيرة التى خطب فيها عبد الناصر.. لكن الأمر تغير بعد هذا اليوم.. يوم المؤتمر.. فبينما كان المؤتمر منعقدًا، إذ بسيارة « جيب » تقتحم الجموع فى ساحة جامعة القاهرة، وفيها عدد من الشباب الذين جمعتهم الثورة فى منظمة الشباب، ومن شباب « المؤتمر الإسلامى » الذى أنشأه عبد الناصر حديثًا برئاسة أنور السادات، وكان يتزعم هذه المجموعة من الشباب شاب أذكر أن اسمه « يعقوب »، ومن الغريب أن هذه المجموعة كانت مسلحة بالمسدسات والعصى والكرابيج، وانهالوا على الموجودين ضربًا.. كنت أقف على مقربة من المنصة، نحرسها فى دائرة ونحن متشابكو الأيدى.. وقفنا مذهولين بعض الوقت، لكن سرعان ما اندثر أثر المفاجأة، وهجمنا عليهم وجردناهم من السلاح والعصى والكرابيج وأمسكنا بهم، ولم يكن الأمر سهلاً، فقد أصيب البعض منا بجروح، وكان أحد الإخوان يقف وأثر السوط على وجهه الدامى، ولست أدرى ماذا حدث؟ فقد انقلبت سيارة الجيب، واشتعلت فيها النيران، وتم تسليم المعتدين للشرطة.. كنا حتى ذلك الوقت حسنى النية، لكننا وجدنا الشرطة تتدخل لصالح المعتدين، ووجدنا عددًا كبيرًا من رجال الأمن والمخابرات، واختلط الحابل بالنابل، وسمعت أحد الإخوان يهتف « يسقط الطحاوى المجرم » وكان الطحاوى هو ضابط من الضباط الأحرار، ويتزعم هذه المنظمة « منظمة الشباب » الجديدة.. ورأيت « نواب صفوى » هو الآخر يهتف بلهجته العربية المميزة « يسقط الطحاوى المجرم » وكانت « الحاء » مقلوبة إلى « هاء » فى هتافاته..

وانفض المؤتمر فى جو عاصف، وبدأت حملة اعتقالات سريعة فى نفس اليوم لأعداد هائلة من قيادات الإخوان فى المركز العام ومن الشباب الجامعى أيضًا، وكم كانت دهشتنا عندما خرجت الصحف فى اليوم التالى تندد بالإخوان المسلمين، وبأنهم لم يطيقوا أن يسمعوا صوتًا آخر للثورة فى الجامعة « يقصد منظمة الشباب ». وبأن الإخوان اعتدوا بالضرب على شباب الثورة، وأشارت الصحف إلى أن الهضيبى اتصل بالإنجليز من خلف ظهر الثورة، ودللوا على ذلك بمحادثات « الهضيبى إيفانز » التى سبق وتحدثنا عنها، وقلنا أنها كانت بالاتفاق مع مجلس الثورة، وأن محضر الجلسات قدم إليه، وأثنوا يومها على الهضيبى، وكانت الصحف تنشر أخبار تلك المحادثات أولا بأول، ولم يكن الهضيبى يطيل فى أحاديثه للصحف آنذاك، كان يعلق بجملة صغيرة.. المهم أن حكومة الثورة استغلت ذلك كله، واتهمت الإخوان فى وطنيتهم وشرفهم، ولفقت لهم التهم جزافًا وهكذا صدرت صحف ذلك اليوم تحمل قرار حل الإخوان المسلمين الأول فى عهد الثورة.. وامتلأت الصفحات الأولى بصورة قيادات الإخوان المقبوض عليهم، وامتلأت المعتقلات بالآلاف، وهرب من هرب، وتوتر الموقف، واندلعت المظاهرات، مما أدى إلى مزيد من الاعتقالات، وأفرج عن قتلة حسن البنا، وعن الذين عذبوا وقتلوا الإخوان قبل ذلك، نكاية فيهم، ووقفت الأحزاب الأخرى تتفرج شامتة، وكانت غالبية الشعب تتوقع الهزيمة للحكومة، والإفراج عن الإخوان، وكان نفس الاعتقاد يساورنى، وخاصة بعد أن عزل نجيب فى المرة الأولى فى بدايات سنة ١٩٥٤، ثم تحرك الجيش، وخرجت الجماهير فى مظاهرات صاخبة، تندد بجمال عبد الناصر والمجلس، وفاضت أنهار الصحف بالاتهامات البذيئة ضد الإخوان، وزعموا أن الحكومة ضبطت كميات كبيرة من السلاح، لكن الهضيبى كتب رسالة تاريخية أرجو الرجوع إليها، فى جريدة « المصرى » آنذاك، لأن الرسالة هربت من ا لمعتقل إلى جريدة المصرى وحدها، ونشرتها كاملة، وهى من الهضيبى إلى جمال عبد الناصر، وفيها رد حاسم مفحم على ادعاء جمال

عبد الناصر واتهاماته، ثم ختم الهضيبي رسالته بآية قرآنية جاء فيها: ﴿.. فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، وكان لهذه الرسالة عند نشرها وقع المفاجأة الصاعقة على المفترين، إذ تناقلها الناس، واستبد بها الحنق والضيق، ورأوا أن الثورة قد اختطت طريق الغدر والكذب والتلفيق..

وكاد تطور الأحداث المتلاحقة يسبب انهيارًا كاملًا، لولا براعة جمال عبد الناصر فى المناورة إذ أعاد نجيب إلى منصبه، وألغى قرار حل الإخوان، وأفرج عن الغالبية العظمى منهم، وعلى رأسهم المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبى، ومجلس الإرشاد ومعظم أعضاء الجمعية التأسيسية، وأبقى فى المعتقل على عدد من أفراد النظام الخاص، ولم يكتف عبد الناصر بذلك، وإنما ذهب بنفسه إلى الهضيبى فى بيته بالروضة – كما سبق وقلت – للمصالحة..

وكانت هناك قضية تسمى قضية « الجبهة الوطنية » قبل ذلك بقليل أو أثناء ذلك، وقد اتهم إحسان عبد القدوس، وجعلوه المتهم الأول، ووضع فى السجن الحربى لأكثر من شهرين، بسبب نقده اللاذع فى مجلته الشهرية « روز اليوسف » لسلوكيات بعض أعضاء مجلس الثورة، وتصرفاتهم اللاديموقراطية، وقال عن المجلس تحت عنوان كبير « الجمعية السرية التى تحكم مصر »، وكان ذلك بعد يومين من إعلان الثورة حرية الصحافة التى لم تستمر إلا ثمانى وأربعين ساعة، فاستغل إحسان الفرصة، وأصدر عددًا من مجلته تكلم فيه بحدة وصراحة.

وفى نفس الوقت قبض على عدد من الطلبة اشتركوا فى مظاهرة كبيرة فى جامعة « عين شمس » تندد بإهدار الحريات، وعندما قبض عليهم، ومن قلب المظاهرة وجدوا أنهم ينتمون إلى أحزاب مختلفة، فمنهم الإخوانى ومنهم الوفدى ومنهم المستقل.. لأن الاعتقال كان عشوائيا، والمظاهرة شاملة لكافة التيارات، وتقارير « عيونهم » لم تكن دقيقة.. المهم أنهم فى « المباحث العامة » أطلقوا عليهم اسم « الجبهة » وحاولو بشتى الطرق أن يجدوا صلة بين ما كتبه إحسان عبد القدوس وبين هذه المظاهرة، ففشلوا.. فكانت النتيجة أن أفرجوا عن إحسان.. وأمسكوا بهؤلاء الطلبة، وقدموهم لمحكمة عسكرية برئاسة الدجوى كما أتذكر.. وكان من هؤلاء الطلبة المرحوم محمود عجوة الطالب بكلية الهندسة، وهو أصلًا من الإخوان، والطالب « ... برهام » والطالب « .... القاضى » وغيرهم، وكنت قد التقيت بهم بعد ذلك فى السجن..

وكان السبب فى ضم المرحوم المهندس محمود عجوة إلى هذه المجموعة، أنه كان ممنوعًا من دخول كلية الهندسة أثناء الدراسة، وكان محمود جسورًا لا يعبأ بشىء، فأصر على الدخول، وعندما منعه الضابط، حمل الضابط على كتفه وجرى به داخل الكلية، وجاء شرطى لينقذ الضابط، فأمسك محمود بإبهام ذلك الشرطى وضغط عليه فسبب له خلعًا بسيطًا.. ولم يصب الضابط بسوء، وما إن عاد محمود إلى بيته حتى قبض عليه، ووجدوها فرصة لضمه إلى قضية الجبهة، بل وجعلوه المتهم الأول بدلًا من إحسان عبد القدوس، وسارت القضية فى مسارها المعروف، ولكنهم لم يجدوا أدلة على تكوين جبهة ولا مؤامرة ولا شىء.. فماذا يفعلون؟ اختاروا شخصية ضعيفة من المتهمين، ووعدوه بالإفراج عنه وجعله « شاهد ملك »، إذا نفذ ما يطلب منه فوافق، وكانت النتيجة أن ذلك المتهم أدلى باعترافات لا أساس لها، وقرر أن هناك جبهة، وأنهم كانوا ينوون كذا .. وكذا.. وبعد أن خرج ذلك المتهم أفشى السر، فاستغل أقارب المتهمين ذلك، ورتبوا تسجيل اعترافاته.. ثم سُلِّم الاعتراف للمحامى، فعرضه على رئيس المحكمة.. فأمر برفع الجلسة.. وفى الجلسة التالية قال رئيس المحكمة: « شريط التسجيل فقد ..».

فقال المحامى: « عندى نسخة أخرى.. وأريد أن نسمعها الآن فى جلسة سرية حتى لا تضيع هى الأخرى.. وأرجو إثبات ذلك فى محضر الجلسة ...».

قال القاضى المحترم: « ليس لدينا جهاز لتشغيل التسجيل ..»

- « رد المحامى معى جهاز التسجيل ..».

وهكذا ظلت المناورة حتى أعلن القاضى رفضه لذلك، وحكم على المتهم محمود عجوة بالسجن خمس سنوات قضاها كاملة، وهناك من حكم عليه ثلاث سنوات أو سنة واحدة، قضوها فى سجن مصر « قرة ميدان ».

أردت أن أروى تلك القصة البسيطة لكى أوضح كيف كانت تعد الاتهامات، وتلفق القضايا، ويزج بأصحاب الرأى المعارض فى السجون، وذلك سوف يتضح بصورة أكبر وأبشع فى « الحل الثانى » للإخوان فى عهد الثورة..

إذن تم « الصلح » الظاهرى بين الإخوان والثورة، وعادت صحف الإخوان للصدور من جديد، وانعقدت مؤتمراتهم الدورية، واجتماعاتهم وأنشطتهم المعروفة، لكن الصورة كانت متغيرة تمامًا، كان الإخوان يتوقعون ضربة ثانية، وتأكد ذلك من أخبار المتصلين بهم ممن هم على دراية بمجريات الأمور فى الحكومة، وتحير الإخوان كثيرًا فى الطريقة التى يواجهون بها الكارثة، هل يقابلون العنف بالعنف، والإرهاب بالإرهاب، أم يخلدون إلى الأسلوب الديموقراطى مهما كانت التضحيات؟ كان الهضيبى يميل للرأى الثانى ومعه أعضاء مكتب الإرشاد ومعظم أعضاء الهيئة التأسيسية، لكن جماهير الشباب كانوا يرون المواجهة الفورية مخافة فوات الفرصة، وكانوا لا يرون أن ا لثورة ستسير فى طريق الديموقراطية. وأن رجالها يأبون إلا الانفراد بالحكم، وأن التراخى يعنى مزيدًا من التمكن لهم، وقهر المعارضين، وخاصة بعد أن انتهت الأحزاب الأخرى بصورة فعلية.. لكن حسنى النية كانوا يستبعدون أن تشتط الحكومة فى غلوائها وعدائها، وتوقع البلاد فى مستنقع الانتقام والتنكيل والإرهاب.. فلا يمكن أن يفعل ذلك إنسان عاقل محب لوطنه..

ويبدوا أن الحكومة قد تضايقت من تصرف الضيف « نواب صفوى »، فتركت العنان للصحف كى تهاجمه، ثم اختفت أخباره فجأة، وسمعنا أنه طرد من مصر، وسمعنا أيضًا أن الحكومة قد سلمته لشاه إيران.. ولم تكد تمر بضعة شهور حتى سمعنا نبأ محاكمته فى إيران وإصدار حكم بالإعدام ضده.. ويومها كتب الصحفى المعروف « ناصر النشاشيبى » فى جريدة مصرية أظنها « الأخبار » مقالة فى إحدى يومياته يقول فيها: « عاش رخيصًا، ومات رخيصًا ..».

تألمت لهذه الكلمات.. لو كان « نواب صفوى » رخيصا، لما وضع روحه على كفه، ولما واجه الاستعمار وأذنابه فى أوج قوتهما، ولما قضى زهرة شبابه يواجه الموت هنا وهناك، كان فى إمكانه أن يعيش معززًا مكرمًا، ويتسنم أعلى المناصب لو سار فى ركب النفاق الرخيص.. لقد شعرت أن ناصر النشاشيبى يمسك بقلم رخيص، يكيل فيه السباب للأبطال والمجاهدين الذين لعبوا أعظم الأدوار على تراب وطنه، ووطننا فلسطين..

فى هذه الأيام أدركت أن السياسة بمفهومها المعاصر لا دين لها ولا ضمير.. أدركت أن كتاب « الأمير » للمجحوم « ميكافيلى » قد قنن الغدر والكذب والخداع وأطلق عليها مصطلح « سياسة »..

كانت السياسة بمفهومها ذاك، يختلف تمام الاختلاف عن السياسة التى جعلها الرسول ﷺ نسيجًا فى بنية الإسلام الشامل لكل نواحى الحياة..

وهذه هى القضية الرئيسية..

القضية بين قوم يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة كما يقول ميكافيلى وبين قوم نظفاء يؤمنون أن نبل الوسيلة من نبل الغاية.. وأنهما معًا يشكلان كائنًا عضويًا لا انفصام فيه ولا تناقض..

ويمكن أن نترجم ذلك إلى واقع فنقول إن عبد الناصر كان سياسيا بالمفهوم العصرى الميكافيلى.. وكان الهضيبى رحمه الله لا يمكن إلا أن يكون سياسيًا بالمفهوم الإسلامى الصريح الواضح..

من هنا عاب بعض المفكرين المعاصرين على الإخوان « سذاجتهم » وتباطؤهم حتى انقضت عليهم جحافل الغدر والخيانة دون رحمة..

وقال آخرون.. لماذا ندخل الدين فى السياسة؟ وما السياسة؟ أليست حكم الناس بالعدل، وتحديد حقوقهم وواجباتهم، وتوصيف العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، ومعرفة وضع الفرد بالنسبة للمجتمع، وتحقيق التنمية والرخاء والحرية للجميع دون تفرقة من لون أو طبقة أو عقيدة؟ أليست السياسة إذن دساتير وقوانين؟ وماذا يكون الإسلام إذا فُرِّغ من هذا المحتوي؟

وفئة ثالثة قالت إن الهضيبى دون مستوى حسن البنا بكثير.. ونسوا أن حسن البنا مرحلة والهضيبى مرحلة.. وإن لكل مرحلة ظروفها وملابساتها ورجالها..

إننى هنا لست فى موقف الدفاع عن هذا أو ذاك، أو فى موقف البحث عن مبررات لما حدث من انتكاسات وكوارث، ولكنى فى موقف العرض والتحليل من وجهة نظر الذى عايش الأحداث واكتوى بنارها، إن الحدث التاريخى أمر مضى ولا يمكن تغييره أو علاجه، لكن يمكن تقييمه، كى يستفاد منه مستقبلًا، لكن يا ويل المؤرخين الذين ينظرون إلى الحدث التاريخى مستعينين بوعيهم المعاصر، وما توفر لهم اليوم من إمكانات وأدوات.. إن مثلهم كمثل الذى يعقب على جيوش الخلافة العثمانية ويقول لماذا لم يستعمل الخليفة السلاح النووى أو طائرات الأواكس ضد أوروبا الحاقدة، التى احتشدت لترث تركة « الرجل المريض »..

إن الذين شاركوا فى صنع الأحداث التاريخية كثيرًا ما كانوا يقفون على أعتاب المجهول، ومن الصعب عليهم أن يلموا بكل العوامل التى تحرك الأحداث، أو يعرفوا كنه المستقبل، هم بشر يخطئون ويصيبون، تحكمهم مسئوليات وتقديرات ومبادئ، لا نستطيع إزاءها الحكم عليهم بالخطأ أو الضلال، والمنتصرون دائمًا يجدون ألف مادح، والمنهزمون يجدون ألف قادح، ولدى المنتصرين إمكانات هائلة، تجعلهم قادرين على تغطية أخطائهم، واختلاق أسرار عبقريتهم وعظمتهم.. ومن ثم يصنعون أصنام التاريخ حسب أمزجتهم وأهوائهم.. لكن إلى حين..

لقد ذهبت عروش.. وعهود.. وفلسفات.. وحكام.. وإلا فأين « فلسفة الثورة »؟ وأين « الميثاق »؟ وأين « بيان ٣٠ مارس » من برنامج الحكم فى مصر الآن؟ وأين « الكتاب الأحمر » لماوتسى تونج فى الصين، الذى كان يقرأه الطلبة فى المدارس، والعمال فى المصانع.. وسائقو الحافلات العامة.. وفرق كرة القدم والسلة والطاولة؟ وأين مقتطفات ستالين وخروشوف وأتاتورك وهتلر وموسوليني؟ أشياء كثيرة تأتى فى موجات مجنونة وتمضى.. وفلسفات تسيطر وتهيمن وتريق الدماء.. وتذهب.. لكن الشىء الذى يبقى ولا يزول هو « كتاب الله ».. نعم.. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ..﴾.

من يصدق أن المؤسسات الشرعية فى مصر الآن اعترضت على تكوين « حزب الناصرين »؟ من

يصدق أن قضاتها قد أصدروا أحكامًا بإدانة « عبد الناصر وحكمه »؟

وهل هذه الأحكام القضائية النزيهة الحرة أقل قيمة من كتب التاريخ التى ألفتها لجان رسمية بتكليف من الحكومة، فى وقت من الأوقات؟

لقد مرت بى أوقات ظننت فيها أن كل شىء قد انتهى.. لقد سيطر الظلم، واندثر العدل، وتغيرت القيم والأخلاق، واستبد بالناس اليأس، ثم استسلموا.. استسلموا للمصير التعس.. وأصبح همهم الأكبر، أن يعيشوا.. وأن يجدوا لقمة العيش..

لكنى كنت أعود لنفسى وأقول: « مستحيل.. مستحيل أن يستمر الوضع هكذا .».

والعمر مهما طال قصير... واللهفة فى قلوب الشباب عارمة..

ونحن نريد للآمال أن تتحقق الآن.. وليس غدا..

هكذا خلقنا الله ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ..﴾

نعم.. إن الإنسان كان – وما زال – عجولًا..

بعد أن تم الإفراج عن معظم الإخوان المسلمين، عقب إلغاء قرار الحل الأول، رأى البعض أن يهاجروا خارج مصر، وفعلوا، ورأى آخرون أن يتركوا العمل السياسى أو الدينى كلية، ويعتزلوا.. وفعلوا.. وانشقت قلة قليلة احتجاجًا على سياسة الجماعة التى تركت الحكومة تعبث بمصيرها.. وفعلوا.. وظلت الغالبية العظمى مصرة على السير فى طريق الإسلام رغم المخاطر التى تعترض الطريق، وبرغم النذر السوداء التى تتبدى فى الأفق..

❁❁❁

[٦] زيارة وداع إلى القدس



في بدايات صيف ١٩٥٤ أعلنت كلية الطب عن رحلة لفريق الجوالة إلى عدد من الدول العربية هى لبنان وسوريا والأردن وفلسطين «الضفة الغربية التى لم تكن قد احتلت بعد». وكانت لهفتى على الاشتراك فى هذه الرحلة عارمة، حيث لم يسبق لى عبور الحدود المصرية إلى أى بلد آخر، فكيف لا أخرج وأنا سأجد نفسى فجأة فى بيروت ودمشق وعمان والقدس وغيرهما من المدن العربية العريقة؟ كانت وسائل المعرفة والاتصال بالدول العربية فى تلك الفترة صعبة ومحدودة، ولا تتاح فرصة السفر إلا لبعض الأثرياء ورجال الأعمال والدبلوماسيين وغيرهم، ممن تمكنهم ظروف أعمالهم واستعداداتهم المادية، للقيام بمثل تلك الرحلات، وكانت معلوماتى عن الدول العربية لا تخرج عن كتب الجغرافيا الموجزة فى المرحلة الثانوية، وأخبار الصحف والمجلات، وبعض البرامج الإذاعية، ومؤلفات بعض الأدباء من شعراء وقصاصين وكتاب فى مختلف الفنون.

وكنا نعرف الكثير عن قصائد شوقى فى المناسبات التاريخية والقومية التى تخص البلدان العربية، ونعرف عددًا من زعماء التحرر الوطنى، والمعارك الشهيرة بين العرب والاستعمار، ومع ذلك فقد كانت روح الإخاء العربى - على الصعيد الشعبى - قوية للغاية، لم تكن ألاعيب السياسة وصراع التكتلات والمذاهب والتيارات قد أفسدت الإخاء العربى، وكان الوئام سائدًا بين مختلف الطوائف الدينية، والعقائد المختلفة، لم يكن الإخاء العربى مجال مناورات ومساومات وصراعات فردية للحكام..

عرضت الأمر على أبى، وكنت فى نهاية السنة الثانية لكلية الطب، وكنت أشك فى موافقته بسبب الصعوبات المالية التى يعانى بها، وكم كانت سعادتى عندما قال: «سأدبر لك المبلغ الذى يكفى.. وآمل أن تنجح فى هذه السنة الصعبة ..».

كان الامتحان يشمل مقررات عامين «الأولى والثانية»، ومعروف أن علوم التشريح والفسيولوجيا وهى ضمن المقررات تحتاج إلى جهد جهيد، يضاف إلى ذلك المعاناة السياسية التى حفل بها ذلك العام المتميز بتحولاته وأحداثه، ووفقنى الله ونجحت فى الامتحان، فلم يبخل الوالد عليّ بالاشتراك المطلوب للرحلة، ولا بالمصروفات الإضافية الأخرى.

كنا فى النصف الثانى من شهر يوليو سنة ١٩٥٤، ولبسنا الملابس الخاصة بالجوالة، وهى بسيطة للغاية، وحملنا بعض الملابس الداخلية والغيارات، ورحلنا بالحافلة إلى الإسكندرية، ثم صعدنا إلى إحدى البواخر اليونانية المتجهة إلى ميناء «ليماسول» فى قبرص، وكانت أماكننا على ظهر الباخرة، والبحر من حولنا، والسماء من فوقنا وكنت سعيدًا بهذا الجو الخلاب، ويبدو كل شىء أمامى وكأنه حلم جميل، كنت مبهورًا بما أرى وأسمع.. فالمسافرون من شتى الجنسيات.. والفتيان والفتيات يغنون

ويرقصون ويمرحون، والموسيقى تعزف، وأنا أرقب ذلك متحفظا فى دهشة ودقة، فإذا جاء وقت الصلاة أعتلى أحد افراد الفريق مكانًا عاليا بارزًا وأذن للصلاة، ثم نتراص فى صفوف لنصلى، والمسافرون ينظرون إلينا فى استغراب، ويبدو أن هذا المشهد لم يتيسر لهم من قبل.. وكان واضحًا أننا نحاول قدر الإمكان التقليل من النفقات، ولهذا كانت إقامتنا على ظهر السفينة، وكان طعامنا معنا، حتى لا نتورط فى شراء غذاء بأثمان غالية.. ومع ذلك فكل شىء كان يمضى رائعًا جذابا مثيرًا.. وأخذنا نختلط بالمسافرين ونتحدث معهم بالإنجليزية أحيانا، وبقليل من الفرنسية أحيانا أخرى، ونحفظ بعض الكلمات اليونانية، وفى المساء أقيم حفل راقص على ظهر السفينة، وجاء زعيم الجوالة ونبه علينا بعدم الاشتراك فيه، لأن فيه خروجًا على القيم الدينية التى نؤمن بها، واستجبنا بنفس راضية ما عدا ثلاثة معنا. لم يكونوا من نوعيتنا، هؤلاء رقصوا وغنوا حتى الفجر..

وبدت لنا من بعيد شواطئ قبرص، كانت تتجلى فى غبش الفجر غامضة جميلة منعشة، ورقصت قلوبنا من البحر.. هذه أول بقعة غير مصرية تقع عليها أعيننا، ونزلنا إلى شاطىء مدينة « ليماسول » فى التاسعة صباحًا.. وسمح لنا بجولة فى أنحائها، وللأسف فقد كان اليوم يوم أحد، والمحلات التجارية مغلقة، ومع ذلك سرنا فى شوارع المدينة التى لا يسير فى شوارعها إلا أعداد قليلة جدا من الناس، وبينما كنا نسير معا ونتحدث بالعربية، فوجئنا بصوت ينبعث من باب مفتوح ويتكلم بلهجة عربية صحيحة: « تفضلوا يا أهلًا بضيوفنا من مصر ..».

كنا خمسة من الزملاء، ووقفنا مسمرين ننظر إلى داخل البيت، وسرعان ما خرجت امرأة قبرصية « يونانية » ومعها رجل هو زوجها كما علمنا فيما بعد، وتبعهم بعض الأولاد، وصافحونا بحرارة.. وتحدثوا معنا فى مودة بالغة، وعلمنا من المرأة أنها عاشت وزوجها فى الاسكندرية حوالى عشرين عامًا، وأنه كان لديهم مطعم فى أحد الأحياء، وأنهم سعدوا أيما سعادة أثناء تلك الفترة، ولم يشعروا قط أنهم غرباء فى يوم من الأيام، وجلسنا فى الصالة نحتسى الشاى ونتحدث، لفترة ليست بطويلة، وأرشدونا إلى بعض الأماكن السياحية والحدائق، وأماكن تغيير العملة، حيث إن الجنيه المصرى حتى ذلك الوقت كان لا يزال قويا، ويعامل معاملة العملة الصعبة، وودعناهم شاكرين، ثم اشترينا بعض البطاقات المصورة وأسقطناها فى صندوق البريد فى الطريق إلى الأهل والأصدقاء فى مصر، ثم زرنا قلعة رومانية قديمة، وهى – كما قال مرشدنا السياحى – كانت سجنا يدفع فيه بالمجرمين والمعارضين السياسيين من فتحة فى مكان عالٍ، حيث يهوى السجين فى مكان سحيق، فتدق عنقه، أو تتحطم عظامه، وإذا كتب الله له النجاة، فيظل فى هذا الجب يأكل أقل الطعام والشراب، حتى تنتهى حياته، أو يسوق الله إليه من يخرجه من هذا العذاب.. كان الإنجليز يعسكرون فى مناطق مختلفة من قبرص، قلت لشاب قبرصى: « ولماذا لا تثورون عليهم وتطردونهم من بلادكم »!!

قال فى يأس: « إنهم يمتلكون الدبابات والطائرات.. ونحن كما ترى ....».

لم تكن لدينا فكرة – أية فكرة عن وضع قبرص فى تلك الفترة، اللهم إلا ما يسمى « بمنظمة أيوكا » التى يقودها ضابط يونانى متعصب ليونانيته ودينه ولعل اسمه « جريفاس » وكان يمارس العمل السرى هو وجماعته ضد المسلمين الأتراك الذين يمتلكون حيزًا كبيرًا من الجزيرة، ويريدون الانفصال فى

جمهورية مستقلة أو ينضمون إلى تركيا، إذن القسم اليونانى يريد حكم الجزيرة كلها أو الانتساب لليونان، والقسم التركى يريد أن يستقل أو يلحق بتركيا، وكل جزء يتلقى المساعدات من الجانب الذى يؤيده، وعلى الرغم من خروج الإنجليز فيما بعد، واستقلال الجزيرة تحت قيادة رجل الدين « الأسقف مكاريوس »، ثم قيام انقلاب عسكرى ضده، ثم عودته مرة أخرى، ووفاته.. وانتخاب « كبريانو » رئيسًا للجمهورية، والصدام المسلح بين اليونان وتركيا، وتهدئته، على الرغم من ذلك كله فما زالت مشكلة قبرص قائمة..

فى الساعة الأخيرة من نهار ذلك اليوم، عدنا إلى الباخرة من جديد لنواصل رحلتنا إلى بيروت، كان رفاق لنا ينتظرون فى الميناء، وكانت مهمتنا ميسرة، وما هى إلا ساعات قلائل حتى كنا فى الحافلات تنقلنا إلى معسكر للشباب المسلم على قمم أحد الجبال فى لبنان فى منطقة « عالية »، وهناك التقينا ببعض الإخوة اللبنانيين الذين يلتزمون بنفس النهج الفكرى أو العقائدى الذى نؤمن به، وكان على رأسهم المهندس الشيخ محمد عمر الداعوق رئيس جماعة عباد الرحمن، وكان رجلًا مرحًا ذا لحية قصيرة تبدو عليه سيما الشباب والحماسة، ولم يزل هذا الرجل يعيش فى دولة الإمارات العربية المتحدة حتى كتابة هذه السطور، بعد أن غادر لبنان من زمن بعيد، وهو وجه مألوف على شاشة التليفزيون، وصوت مشهور فى إذاعات الإمارات، حيث يؤدى رسالته فى الوعظ والإرشاد ونشر الدعوة، وهو الآن فى حوالى السبعين من عمره، وما زالت ابتسامته تضىء وجهه الباش، ولم تغادره روح الشباب والحماسة..

كانت « المعسكرات الكشفية » التى نقيم بها فى لبنان زهيدة التكاليف، مما وفر علينا الكثير، فاستطعنا أن نزور معظم الأماكن السياحية هناك كالمغارات والمتاحف وجبل الأرز والأحياء التجارية، ونشترى بعض الهدايا التذكارية البسيطة وكان الجنيه المصرى فى ذلك الوقت يوازى ١١,٥ ليرة لبنانية، كما يساوى ١٢,٥ ليرة سورية وكان مسموحًا بتداوله علانية بعكس ما نحن فيه الآن.

كانت لبنان مفتوحة تمامًا على مصراعيها لكل وافد، وحركة التجارة والسياحة على أشدها، والتقيت ببعض الأسر المصرية التى تقضى الصيف فى مدن الجبل هناك مثل بحمدون وسوق الغرب وغيرها، إنهم بقايا الأثرياء المصريين بعد قيام الثورة، كما التقينا ببعض اللاجئين السياسيين الذين هربوا بجلدهم من عنف الممارسات الثورية فى القاهرة..

ولقد قمت بتأليف نشيد شعبى يردد الإخوة مقطعًا منه، كلما غنيت مقطعًا جديدًا، وكانت معانى هذا النشيد أو الأغنية متأثرة بما حدث لنا فى مصر مع رجال الثورة، إذ شرحت فى هذا النشيد مواقفنا الجهادية فى فلسطين والقنال، وانحيت باللائحة على خداع الثورة وتلفيقها الأكاذيب ضدنا، وإنى لأذكر أن آخر مقطع فى تلك الأغنية الشعبية كان:

يــا نــاقــتــى ســيــري   وان أمــكــنــك طــيــري
عــلــى حــد تــعــبــيــري   احــنــا جــنــود الــلــه

وكان زملاء الرحلة يستعيدونها مرات ومرات كل يوم، وتردد فى كل حفل ترفيهى نقيمه فى كل مكان..

وفى معسكراتنا بالجبل، كنا نعد طعامنا بأنفسنا، ونتناوب الحراسة أثناء الليل حول الخيام، وأذكر أننى كنت متعبًا ذات يوم، وأيقظونى فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل لأقوم بنوبة الحراسة الخاصة بى، وكان النوم يغالبنى بشدة، ومع ذلك فقد حملت عصاى الكشفية، وطفت حول المعسكر مرتين أو ثلاث، ثم جلست على صخرة وسط الليل الدامس لأستريح قليلًا، ونظرت على مقربة منى فوجدت ما يشبه البحر.. وعجبت ما الذى أتى بالبحر هنا قرب قمة الجبل؟ لقد أتينا المعسكر ليلًا ولم أتبين موقعه جيدًا.. وقلت فى نفسى ربما نكون فعلًا فى مكان منخفض قريب من البحر.. وأخذت أدقق البصر فى امتداد البحر الشاسع حتى غلبنى النوم وأنا فى مكانى، وعند صلاة الفجر وجدونى نائمًا.. حملونى برفق ووضعونى فى بطانية كبيرة، ورموا بى وسط المخيم، وجمعوا الفريق كله، ليتفرجوا على إهمالى « وخيبتى »، وقرروا بعض العقوبات ضدى، ومنها أن أواصل المناوبة فترة أخرى، وألا أجلس مطلقا، بل أظل دائرًا حول المعسكر، وألا أتناول طعام الإفطار.. وقد كان.. وظللت أطوف حول المعسكر حتى بعد أن أشرقت الشمس.. وذهبت لأرى البحر.. لم أجد سوى كتلة من الضباب تغمر الوادى..

وبعد أيام ذهبنا لزيارة الجامعة الأمريكية، وكان من الضرورى أن نقصد كلية الطب بالذات باعتبار أن ذلك أنه يهمنا بالدرجة الأولى، حتى نعرف الفرق بين كليتنا فى القاهرة والكلية الأمريكية للطب فى لبنان.. ولاحظت الآن:

* عدد الطلبة قليل إذا ما قورن بعدد الطلبة فى القاهرة.

* الأجهزة العلمية التى تجرى بها تجارب علم وظائف الأعضاء وغيره متوفرة، بحيث يخص كل خمسة طلبة تقريبا جهاز خاص بهم، بينما نحن فى القصر العينى لدينا جهاز واحد يحتشد حوله الطلبة على دفعات، ويقوم الأستاذ بإجراء التجارب بنفسه، هذا بالنسبة للأجهزة الكبيرة الباهظة الثمن.

* العلاقات بين الطلبة والأساتذة أفضل.

* سيادة الجو العلمى أكثر من غيره، فلم نلحظ آنذاك صراعات سياسية عنيفة، وإن كانت توجد تيارات فكرية ومذهبية تتماوج فى غير قليل من الهدوء.

والحقيقة أننا كنا ننتهز أية فرصة لنعرب فيها عن هويتنا الدينية والسياسية، حتى يعرف عنا الآخرون الصورة الصحيحة بعد أن تسابقت أجهزة الإعلام المصرية والعربية تبعا لها فى إلصاق التهم والنقائص بنا، وكم كانت دهشتى عندما قال لى أحدالطلبة المسلمين الفلسطينيين بكلية الطب: « إننا هنا لا نهتم بالدين.. بل لدينا فكرة أن نقوم « بصلاة قومية » ».

قلت فى استغراب: « وماذا تعنى بالصلاة القومية؟ »

- « هى صلاة مشتركة يؤديها المسلم والمسيحى واليهودى معًا ..»

- « لا أفهمك ..»

- « القصد منها إسقاط الفوارق الدينية، وأن نعيش كإخوة فى الإنسانية ..»

- « وهل المعتقد الدينى يمنع الإخاء الإنساني؟ أرأيت شيئًا لهذا فى تاريخك كمسلم؟ وهل رأيت اليهود فى بلدك يدينون بذلك الإخاء مع إخواننا الفلسطينيين؟ ثم ماذا تقولون فى هذه الصلاة القومية ..»

هز كتفيه فى حيرة وقال: « دعوات لله.. ليس فيها صفة دينية معينة.. وشكر.. ومحبة ..»
قلت له وأنا أرمقه فى غيظ: « إننى أرى فى ثنايا حديثك سموم الماسونية ..»
- « وما عيب الماسونية ..»
- « يكفى أنها بضاعة يهودية ..»

دارت رأسى لما أسمع، إن عوامل الهدم تلعب دورها فى عقول أجيالنا الجديدة، يريد الأعداء بفلسفاتهم وأفكارهم أن يقطعوا الصلة بين القلوب التى جمعها الله فى ظل دينه، وأن يجتثوا جذورنا من تراثنا، وأن يلهونا بالشعارات البراقة، بعد أن قهرونا - جيوشًا وشعوبًا - بالسلاح الحديث.. إن ما يحدث اليوم فى مصر والدول العربية الأخرى ينذر بحقبة زمنية فاسدة، قد تقضى علينا قضاء مبرما إذا لم يتداركنا الله برحمته، لم أكن أعرف فى تلك الأيام شيئًا ذا قيمة عن البعث وعن فيلسوفه « ميشيل عفلق »، الذى ساهم بعد ذلك فى تدبير انقلابات، وإقامة حكومات، وإشعال حروب وفتن، ولم أكن أعلم أن فلسفة هذا الرجل الخطير، إن صح أن تسمى فلسفة - سوف تجرى الدماء أنهارًا، وتعيث فى الأرض العربية فسادًا، وما تصورت قط أن يتمكن هذا الرجل من أن يحرك عقولًا وجيوشًا وأحزابًا وأقلامًا وصحفًا.. ولم أكن أتصور أن مخططه السياسى وحزبه، سوف يتفجران إلى أجنحة ويمين ويسار ووسط، بل الذى لم أتخيله أن يظل حيا حتى الآن، ينتقل من بلد إلى بلد، ويعيش عيشة الملوك، ويحظى بتكريم عظام المفكرين والفلاسفة، وإذا لم يكن وجوده وليد مؤامرة عالمية كبرى لما أصبح سوى زعيم عصابة، أو مهرب مخدرات، أو نصابًا عالميًا فى سوق المال والتجارة، لكن لله فى خلقه شئون..

وخرجت فى ذلك اليوم من الجامعة الأمريكية ضيق النفس، حزين الفؤاد، تراودنى هواجس مؤلمة لا تبشر بخير..

عندما جلسنا فى المساء فى مخيمنا بالجبل، وبعد حفلة السمر، شرحت للإخوان قصة طالب الطب والصلاة القومية، كانوا فى دهشة مما أقول، قال أحدهم: « فى لبنان تروج أية سلعة ..»

وقال آخر: « اليهود فى كل مكان ...»

ورد ثالث: « بيروت لا تعرف الله.. إنهم لا يؤمنون بغير الليرة ..»

أما الأخ الرابع فقد علق: « ومع ذلك فإن لبنان هى الملجأ الوحيد فى الدول العربية للهاربين واللاجئين السياسيين.. هى البلد الحر الوحيد.. الذى لا يسألك من أنت؟ ولا ما عقيدتك ..».

وقف أحد الإخوة اللبنانيين وأشار بيده كى نصمت : « لم تعرفوا لبنان كما يجب.. إنها كيان هش.. التعصب على أشده.. الكتائبيون والحكومة تهتم بالشمال المسيحى، وتهمل الجنوب الإسلامى.. أما رأيتم بأنفسكم الفرق بين الاثنين.. المناصب فى الحكومة والجيش موزعة توزيعًا طائفيًا معقدًا.. ولابد أن نرضى وإلا اشتعلت النيران.. إن الأمر أخطر مما يتصورون.. نحن نعيش الخطر كل لحظة.. ورجال السياسة فى بلادنا كالحواة ..»

وأخذ يشرح لنا طبيعة الوضع فى لبنان، وعجز الجميع عن إيجاد حل حاسم، ومن ثم كان الاتفاق أن تبقى الأمور على ما هى عليه، ومن يحاول الإصلاح أو التغيير فسوف يعانى الأمرين، وقد يقتل،

أو تقع البلاد فى أتون من الفتن الدامية.. والدول العربية مرتاحة لذلك تماما: إن الأموال تصب هنا: والصفقات تعقد هنا، وسماسرة السياسة أكثر من سماسرة التجارة، وكل شيء هنا يباع ويشترى، ولبنان الآن ترث الكثير من تركات الثورات والفساد فى العالم العربى، إن وجودها هكذا أمر مطلوب ومرغوب فيه.. قل ما شئت وادفع.. لكن لا تفكر فى تغيير النظام.. تستطيع أن تشترى الضياع والقصور والنساء، لا قيود على شيء، إلا العمل على تغيير النظام.. استمعوا إلى الإذاعة.. واقرءوا الصحف.. وجوسوا خلال أندية الليل.. وأسواق التجارة.. والمحافل السياسية.. والشرطة.. و.. و.. الخ، هذه هى لبنان..

كان من الملاحظات الطريفة أننا لم ندع إلى أية مأدبة فى لبنان، كنا نشترى كل شيء، لكنَّ الضيافة الحقيقية الصادقة فى الضفة الغربية بالدرجة الأولى، ثم فى الأردن، ثم فى سوريا.. كان لهذا الموضوع الشكلى انعكاسًا للصورة الاجتماعية والسلوكية فى كل بلد من هذه البلدان الصديقة.. ولا أريد أن أزيد فى التعليق على هذه الظاهرة وأبعادها المختلفة.. فهى لقطة صغيرة لكنها معبرة.. فى أحد الأيام ركبنا الحافلة متجهين إلى دمشق..

ودمشق لها فى النفوس مكانة تاريخية عميقة، ورحم الله شاعرنا الذى قال:

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببنى العباس بغدادُ

ولقد كان لهذه المدينة العريقة صفة عجيبة، فعلى الرغم من وجود الطوائف المختلفة مسلمين ومسيحيين، إلا أن حركة التحرير والاستقلال فيها، قد وحدت الجميع تحت لواء واحد، فكانت دمشق مضرب الأمثال فى الوحدة الوطنية، وبعد أن ظهرت الأحزاب فى العصر الحديث بادئ ذى بدء لم تستطع أن توجد الشحناء والبغض بين مختلف الطوائف، وما إن ظهرت التيارات اليسارية، وزرعت إسرائيل فى قلب الأمة العربية، حتى دبت الخلافات الطائفية، وتوالت الانقلابات العسكرية، واشتدت الصراعات الحزبية.

ذهبنا إلى دمشق واستقبلنا عدد كبير من شباب الإخوان المسلمين السوريين، حتى أن عددًا من المرشحين نجح فى المجلس النيابى لأول مرة، ولم تكن الأغلبية لهم، لأن أغلب المنضمين إلى الجماعة فى تلك الفترة كانوا من شباب العلماء والجامعات والمدارس ومن المثقفين، وكانت العشائرية والطائفية تتحكم حتى تلك الفترة فى اختيار النواب، مثلما كان يحدث فى مصر وغيرها..

واستطاع شباب الإخوان فى سوريا أن يساعدونا كثيرًا فى زيارة المدن والأقاليم المختلفة، وكذلك المناطق الأثرية، والمؤسسات العلمية والاجتماعية، وأوجه النهضة فى مختلف الجوانب، وكانوا يمدوننا بما نحتاج إليه من صحف وكتب ومعلومات وبيانات، فما قيمة الرحلات إذا لم يستفد منها الإنسان علمًا وثقافة وتعارفًا؟ الحق أننا شعرنا بأننا بين أهلينا وذوينا، فكانت فترة مفيدة وممتعة معًا..

لقد تخطت دعوة الإخوان الحدود المصرية، وأصبح لها تجمعات فى سوريا ولبنان والعراق والأردن وفى الجزء الباقى من فلسطين «الضفة الغربية وقطاع غزة». وكنا نرى نفس الشعارات، وأساليب الدعوة، واتجاهات الرأى، وتحليل المواقف، كانت المقاييس الإسلامية التى آمن بها الجميع تؤدى بالضرورة إلى رأى عام شبه موحد، بالنسبة للقضايا الرئيسية والكبيرة، وكان يرأس الإخوان المسلمين فى

تلك الفترة المرحوم الأستاذ الدكتور مصطفى السباعى، وهو أستاذ جامعى وعميد كلية الشريعة والقانون، وكان رجلًا سمح الوجه، عميق الوفاق، واسع الصدر، بادى الأناة والصبر، وقد عقد فى بيته - ونحن فى سوريا - مؤتمر لرؤساء الإخوان فى الدول العربية برئاسة المرشد العام للإخوان الأستاذ حسن الهضيبى، حضره الأستاذ الصواف رئيس جماعة الأخوة الإسلامية فى العراق، والأستاذ محمد عمر الداعوق عن عباد الرحمن بلبنان، والأستاذ الدكتور مصطفى السباعى عن سوريا، ورئيس الإخوان فى الأردن الأستاذ، محمد خليفة، ورئيس الإخوان فى فلسطين، ولا أذكر هل حضره الأستاذ الدكتور حسن الترابى من السودان أم لا، بالإضافة إلى عدد من الإخوة الآخرين فى هذه البلدان، ومنهم بعض أعضاء مكتب الإرشاد فى القاهرة، والأستاذ سعيد رمضان وغيره، وبعد هذا المؤتمر، عقد مؤتمر مفتوح فى بيت السباعى وكنت ممن شهدوا هذا المؤتمر، قدم المرشد العام تقريرًا شاملًا عن الأوضاع العامة، وتحرك الجماعة المقبل، والتيارات العاصفة التى تواجهها، وأكد على الالتزام بالسلوك الإسلامى الصحيح فى مواجهة التحديات الصعبة..

وأثناء وجودنا فى سوريا، قرأنا فى الصحف عن توقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا، وكان لها رد فعل كبير فى الأوساط السياسية العربية، ولقد كتبت فى تلك الفترة مقالة حول الاتفاقية الجديدة التى وقعت بالأحرف الأولى، وكانت أهم نقاط الاعتراض التى وردت فى مقالى هى:

١- عدم عرض الاتفاقية على استفتاء شعبى.

٢- عودة القوات البريطانية إلى قاعدة قناة السويس عند أى تهديد خارجى تتعرض له المنطقة.

٣- بقاء الخبراء والفنيين وفق نظام وعدد معين فى القاعدة.

٤- دفع تعويض للمنشآت الإنجليزية، وهو مبلغ كبير بالمقارنة إلى تفاهة المنشآت الموجودة فى القاعدة.

٥- تضمين الاتفاقية - بطريق غير مباشر ومباشر - الارتباط أو التحالف مع بريطانيا من الناحية السياسية والعسكرية والاقتصادية.

ونشرت هذه المقالة بتوقيع « نجيب المصرى » فى إحدى الصحف الصباحية السورية، وكانت هذه المقالة مجرد رأى شخصى لا يلزم أحدًا، لكن من الصدف الطيبة أن الأستاذ المرشد أصدر بيانات حول الاتفاقية، واعتراض الإخوان على بعض بنودها، ونشر البيان فى الصفحة الأولى لإحدى الصحف، وأرسل إلى القاهرة، حيث منعت الحكومة نشرهُ، فتم طبعه فى منشورات، ثم وزع سرًا بين جماهير الشعب المصرى، وصدر بعد ذلك منشور مفصل يتناول بنود الاتفاقية بالتفصيل من ناحية المضمون والشكل.. كانت زيارة الأستاذ الهضيبى لسوريا فى تلك الأيام من صيف ١٩٥٤ زيارة تاريخية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، لقد استقبل استقبالًا رسميًا حافلًا يليق بمكانته، كما استقبله كبار الساسة وقادة الجيش ورجال الفكر والصحافة، ورتبوا له زيارة رسمية للقوات المسلحة السورية، وفى خط المواجهة بالذات، لم يكن من نصيبى أن أحضر هذه اللقاءات والاحتفالات والزيارات، لكن الأستاذ الداعوق رئيس جماعة عباد الرحمن بلبنان كان قد صور لقطات معبرة سينمائيًا من هذه الزيارة، وعرضها علينا فى دمشق..

وكانت هناك بعض الآراء ترى أن عودة المرشد العام لمصر محفوفة بالمخاطر، وأنه من الأفضل البقاء بالخارج حتى تنجلى الأمور، لكن المرشد رفض ذلك بشدة، وأصر على السفر ومواجهة المصير المحتوم، آملًا أن وجوده فى مصر، قد يقود إلى نوع من التفاهم مع الحكومة، والتهدئة للمتحفزين المتوجسين من الإخوان، لكن بعض الإخوة قرر البقاء فى سوريا تحسبا للأخطار التى بدت نذرها فى الأفق، وكان منهم الأخ الدكتور عصام الشربينى وسعيد رمضان وكامل الشريف وغيرهم.. ولم يسافر المرشد إلا بعد أن سافرنا نحن فى شهر أغسطس من هذا العام..

كان شعورنا ونحن فى دمشق أننا لم نخرج من القاهرة، وتجولنا فى أنحاء سوريا، وفى مختلف مدنها ومحافظاتها اللاذقية.. حلب.. حماة.. حمص.. دير الزور.. ومشينا على شواطىء بردى ونهر العاصى، وفى كثير من القرى الصغيرة، وركبنا القطار والحافلات، وقلت لهم ونحن فى جولاتنا: «أين تقع «معرة النعمان»؟»

قال أحد الإخوة السوريين المرافقين لنا: «ليس أكثر من ثمانين كيلو مترا ..»

قلت: «أريد أن أزورها»

رد زعيم الرهط وهو الأخ الدكتور محمود الشاوى: «ليس لدينا وقت كاف لذلك.. وماذا تريد منها؟»

– «أريد أن أرى قبر أبى العلاء المعرى ..»

رد فى غضب: «دعك من هذه الأوهام الشعرية.. إنه قبر ككل القبور ..»

– «لكن من فيه ليس ككل الناس ..»

– «كفى فلسفة.. لن نذهب ..»

فى مثل هذه الرحلات لابد من الضبط والربط كما يقولون، ونظام الجوالة يقوم على النظام والطاعة، وزعيم الرهط يعرف الوقت المتاح، والإمكانات المتوفرة، ولهذا السبب لم ألح فى الطلب رغم رغبتى الشديدة فى زيارة «معرة النعمان»..

عندما ذهبنا إلى الحافلة كى نعود إلى مقرنا، وجدت الزميل الأخ محمود الشاوى يضحك فى مرح ويقول للسائق: «اتجه بنا إلى معرة النعمان.. الأمر لله ..»

كنا نشق طريقنا صوب الشمال، والقرى والمراعى والمزروعات من حولنا، لم نكن نشعر بالتعب أو الضيق، كانت الرغبة فى المعرفة، وحماسة الشباب، وزيارة أكبر ما يمكن من الأماكن والمعالم، تملؤنا بالعزم والشوق..

وقفت أمام قبر أبى العلاء العتيق، وأخذت ألف وأدور باحثا عن البيت الشعرى المشهور الذى طلب فيلسوف المعرة أن ينقش على قبره وهو:

«هـذا جـنـاه أبـى عـلـىّ   ومـا جـنـيـت عـلـى أحـد»

لم أجد لهذا الشعر أثرا، ولما تساءلت قال لى أحد الإخوة: «إنه موجود فى أحد متاحف أوربا ..»، هكذا قال..

ولم أجد بالضريح سوى مكتبة صغيرة، بها عدد من المجلدات، ولما تفحصتها، وجدتها مطبوعات مصرية لبعض كتب التراث..

لم يكن أبو العلاء المعرى شخصية عادية، أو مجرد شاعر مجيد، كان الأول من شعراء العربية الذين مزجوا الشعر بالفلسفة، دون أن يجنى على جمال الشعر وروعته، وكان سيء الظن بالناس والحياة، ينظر إلى الوجود نظرة تشاؤمية حادة، كما كانت تؤرقه مأساة الموت، واضطراب الفلسفات، وانحراف العلماء، وشطط الحكام، ومع ذلك فقد كان يسخر من ماديات الحياة ومغرياتها، لذا نراه يقول لحبيبته التى يحلم بها:

لغيرى زكاة من جمالٍ فإن تكن زكاة جمالٍ فاذكرى ابن سبيل

فإذا كان غيره يطمع فى الإبل « الجمال »، فإنه يطلب جائزة الحسن والجمال، وشتان بين من يرغب فى ذاك ويتعشق هذا..

وكثيرًا ما كان أبو العلاء يحمل على العلماء المنافقين، الذين يقولون ما لا يفعلون، فهم يحرمون الخمر فى الصباح، ويذمونها، ويدللون على تحريمها، فإذا جاء المساء، أووا إلى أوكارهم يعبون الخمر عبا، ويدفعون فيها كل ما يملكون..

يُحرم فيكم الصهباء صبحًا ويشربها على عمدٍ مساءً
يقول لكم غدوت بلا كساء وفى لذاتها رهن الكساءَ
إذا فعل الفتى ما عنه ينهي فمن جهتين لا جهة أساءَ

وعلى الرغم من كل ما قيل عن أبى العلاء المعرى فى يأسه وتشاؤمه وآرائه الفلسفية الجانحة، فإنه ابن حقيقى للثقافة الإسلامية التى انتقت وتلاقت مع الثقافات العالمية المتزامنة معها، فهو حين يتحدث عن الحب يذكر كلمة « الزكاة »، وحين ينتقد العلماء المنحرفين، لا يخرج عن إطار الآية الكريمة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾، حتى حديثه عن الموت لا يخرج عن دائرة ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ﴾.

صاح، هذى قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عادِ؟!
خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجسادِ
وقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجدادِ
سر إن اسطعت فى الهواء رويدًا لا اختيالًا على رفات العبادَ
رب لحدٍ قد صار لحدًا مرارًا ضاحكٍ من تزاحم الأضدادِ
ودفينٍ على بقايا دفين فى طويل الأزمان والآبادِ

هل تخرج معانى تلك الأبيات عن التصور الإسلامى لنهاية الوجود؟

إن تراث أبى العلاء المعرى فى عمومه لا يخرج عن دائرة الفهم الإسلامى وتراثه العظيم، حتى رحلته الخيالية فى رسالة الغفران، متأثرة إلى أبعد مدى بحصيلته الثقافية الإسلامية، أما ما جاء فى شعره من هفوات فهى أمر يرتبط ببعض التوترات والاضطرابات النفسية التى تعصف به فى لحظة من لحظات الضعف أو التمرد أو التشكك، ولا يستطيع ناقد أو مؤرخ أن يتجاهل « الحالة النفسية » التى يعانى منها هذا الشاعر العملاق..

قال زعيم الرهط: « ألهذا قطعنا تلك المسافة الطويلة؟ سامحك الله ..»

قلت له: « لكنك لا تعلم مدى الإشباع الوجدانى الذى يبهجنى ..»

قال وهو يضحك فى صفاء: « كلام فارغ.. يبدو لى أن الصورة الخيالية الضخمة التى كانت تملأ رأسك قد أصيبت بخيبة أمل.. وتبخرت تمامًا ..»

وعدنا ثانية إلى الحافلة..

لكنى لم أنس أبا العلاء، لقد عزمت أن أقرأ ما أستطيع من تراثه، وما كتبه المؤرخون والنقاد عنه، وبالذات ما كتبه طه حسين، وأمكننى بالطبع أن أنجز الكثير - فيما بعد - مما عقدت العزم عليه، وسجلت نبذة عن رأيى فيه فى كتابى « إقبال الشاعر الثائر »، وقمت بالمقارنة بين العملاقين الكبيرين، فى مجال المضمون الفلسفى لشعر كل منهما، والأثر الذى تركاه، وكنت بالطبع معجبًا أيما إعجاب بإيمان الفيلسوف الشاعر محمد إقبال، وصفائه وإيجابيته وروعة أفكاره..

كانت الصحافة فى سوريا دون مستوى الصحافة فى مصر بكثير، فهى قليلة الصفحات، فقيرة المادة، ضعيفة الإمكانات، وكذلك كانت الحركة الأدبية اللهم إلا ميدان الشعر حيث كانت سوريا - وما زالت - تزخر بعدد من الشعراء الكبار، وكانت شهرتهم قد تخطت الحدود إلى آفاق العالم العربى الواسع، أما القصة القصيرة والرواية والمسرحية والفنون التشكيلية فلم تكن على مستوى الشعر هناك، وكانت الأبحاث الفكرية تحتل مكانة طيبة، وفى مقدمتها المؤلفات الإسلامية، لكن الشعارات السياسية بدأت تعلو وتحتل منصة عالية، وخاصة بعد انقلاب حسنى الزعيم - أول انقلاب عسكرى فى الخمسينيات من القرن العشرين، فى الدول العربية - ثم انقلاب الحناوى والشيشكلى..

وقد كان للجامعة السورية قصب السبق فى تدريس الطب والعلوم باللغة العربية، وهو أمر يتفق مع طبيعة الحماسة السورية لكل ما هو عربى آنذاك..

وبدا واضحًا أن سوريا تعانى من صعوبات اقتصادية، وقد انعكس ذلك على خطط الإنشاءات والتنمية، وبطء مسيرتهما، وبدأ الوعى يتنامى بهذه المشكلة التى يتعلق بها مستقبل البلاد، كما إن وقوفها فى خط مواجهة مع العدو الإسرائيلى جعلها فى وضع المترقب المتوتر دائمًا، ولا شك أن ذلك كله لا يمكن أن يمر بسهولة، فمن البديهى أن يكون له صداه على التحركات السياسية، والعلاقات الاجتماعية، والأوضاع الاقتصادية، إذن فقد كان الشعب السورى يتطلع إلى تحسين أوضاعه الاقتصادية، ويأمل فى حرية حقيقية بعيدة عن الانقلابات والإرهاب والتوترات الدائمة، كما يعتقد أن ارتباطه بأشقائه العرب، قد يخفف مما يعانيه من قلق وتوتر، وسوف يساعد كثيرًا فى مداواة جراحه الاقتصادية والعسكرية والسياسية، ولهذا جاءت شعارات البعث « حرية - وحدة - اشتراكية » كحل مطروح لمشاكل سوريا.. ووجد بعض الاستجابة لدى عدد من المثقفين، ومع ذلك فقد ظل عدد البعثيين قليلًا، حتى أن عبد الناصر أعلن فى أحد خطبه وهو يهاجم « أمين الحافظ » الرئيس السورى فيما بعد، أن البعثيين لا يمثلون سوريا، وأن عددهم قليل، فرد عليه أمين الحافظ ببيت من الشعر العربى القديم يقول:

تعيّرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليلُ

لكن الانقلابات العسكرية، تغير الموازين، فهى لا تعتمد على النسبة العددية للمؤيدين أو المعارضين، ولكنها ترتبط أولًا وأخيرًا « بالضربة الناجحة » التى تحقق النصر السريع، ومن ينجح فى الانقلاب يصبح بين عشية وضحاها مالكا لكل الإمكانات التى توجد فى وطنه..

كانت الفترة التى قضيناها فى سوريا فترة جميلة بحق، ونعمنا فيها بالكرم السورى، وبالإخوة الأعزاء، والمشاهد المؤثرة، وكانت ثقتنا كبيرة جدًا آنذاك فى مستقبل الحركة الإسلامية فى سوريا، لم نكن وحدنا نؤمن بذلك، فقد كان كثيرون من المراقبين السياسيين يرون نفس الرأى..

ومن الشخصيات التى التقينا بها فى سوريا الدكتور مصطفى السباعى والشيخ على طنطاوى والشاعر الداعية عمر بهاء الأميرى، والشيخ محمد المجذوب، والشيخ محمد المبارك، والدكتور الزرقا، وعصام العطار، ومعروف الدواليبى.. وغيرهم من المفكرين ومن الشباب الواعد الناهض.

وأحسست أن فى سوريا والعراق والأردن رصيدًا طيبا للحركة الإسلامية، ومن ثم فإن محاولة ضربها فى مصر، أو محاولة القضاء عليها، لن يكتب السطور الأخيرة فى قصة هذه الجماعة، وقد صدق ظنى لحد ما، فما إن وقع الصدام الكبير بين عبد الناصر والإخوان فى أواخر أكتوبر من نفس العام، وكيلت التهم جزافًا للأبرياء، وسيقوا إلى سجون العذاب والدماء والموت، حتى اندلعت المظاهرات خارج مصر، وتوالت الاحتجاجات، مما أثار حفيظة الحاكمين فى مصر، فأرسلوا خطابات الاحتجاج هنا وهناك، وبعثوا الرسل كى تشرح للحكومات العربية، مدى خطورة هذه الجماعة على النظم الحاكمة، وأمن بلدانهم، ونصحوهم باتخاذ إجراءات مشابهة لما حدث فى مصر، تجنبًا لمخاطر وفتن لا يعلم إلا الله مداها، وقدموا لهم بعض الاعترافات الملفقة، والأدلة المبتدعة، حتى يبذروا بذور الشك فى نفوسهم، وساعد على ذلك ما كان ينشره الإعلام العالمى المنحاز ضد الإسلام من أخبار وقصص ومؤامرات وهمية، وما تبثه إسرائيل فى كل مكان عن خطورة المد الإسلامى ومضاعفاته القاتلة، وما تروجه روسيا من سموم الدعاية الآثمة، وكذلك أقلام الشيوعيين المحليين فى العالم العربى، هؤلاء الذين استطاعوا بأساليبهم الملتوية أن يحتلوا أماكن فى الصحافة والنشر والحركة الفنية بصفة عامة، بل وفى التنظيمات السياسية الجديدة، التى كانت تولد بين يوم وليلة..

كان أعداء الإخوان ينشرون المقالات والكتب ومختلف الأدبيات علانية وفى كل مكان، حتى على منابر المساجد، والاحتفالات العامة، وخطب الرئيس عبد الناصر التى تستمر لساعات، وفى نفس الوقت لم يكن لدى المتهمين أدنى فرصة للرد أو الدفاع، كانت معركة شرسة من جانب واحد قوى.. يملك كل الإمكانات، ويستخدم كل الأساليب التى لديه، دون وازع من ضمير.

ومع ذلك فإن الحلفاء الإسلاميين خارج مصر، أو المهاجرين المصريين، استطاعوا أن يعلنوا حقيقة الموقف، ويعقدوا مؤتمرات وندوات، داخل العالم الإسلامى، وفى أوروبا وأمريكا، وكان هذا هو جهد المقل، والأمر لله..

نعود مرة أخرى إلى رحلتنا فى سوريا... كان علينا أن نأخذ طريقنا إلى « عمان ».. ثم الضفة الغربية وبخاصة القدس.. أو كما يطلقون عليها « القدس العربية ».. فقد كانت هناك « قدس أخرى » تحت الحكم الإسرائيلى يسمونها « أورشليم ».

كانت عمان فى تلك الفترة عاصمة صغيرة هادئة، ذات طابع خاص، يختلط فيها لابسو الزى الإفرنجى بالذين يرتدون الزى العربى المميز. ويحيط بها بعض الجبال الشهيرة، وفيها عدد من المعالم الرئيسية، كما كان بها عدد كبير من الإخوة الفلسطينيين.. وأول ما يلفت النظر فى الأردن ذلك الكرم

العربى الأصيل الذى لم نر له مثيلًا - كما قلت - فى جولاتنا السابقة، كنا نستقبل بحفاوة بالغة، بل وفى إطار احتفالات رسمية يخطب فيها الخطباء، ويترنم الشعراء، كانت روح الأخوة العربية الإسلامية تتجلى فى قوة ووضوح كبيرين، وكنا حريصين أشد الحرص على أن نلتزم بالجدية والوقار، نعم فنحن كشباب كثيرًا ما نمرح، أو نتبادل بعض التعليقات الضاحكة والملح والطرائف، لكننا وجدنا أن الأمر يختلف فى عمان والضفة الغربية، كانت النظرة إلينا - كشباب مسلم ملتزم - نظرة تقدير واحترام، وكان واجبًا علينا أن نراعى العرف والتقاليد المرعية، وخاصة أن مخيمات بعض اللاجئين كانت على مقربة منا، وهى صورة محزنة للضعف العربى، وعتاب مر لمن يقولون إننا مسلمون..

وقضينا ليلتنا الأولى فى « مدرسة الرشيد » كما أذكر، وكانت خالية من الطلبة أثناء عطلة الصيف، فاتخذناها مكانًا للنوم والراحة، إذ كنا نفترش الأرض، وننعم بالسعادة والاطمئنان، وكان إخوتنا فى الأردن يفدون إلينا مرحبين ومعتذرين عن تواضع المكان الذى نزلنا فيه، لكننا كنا نؤكد لهم أن هذه طبيعة حياة « الجوالة » التى تخرج فى رحلة، وأن العيش المرفه، والسرر الوثيرة، والحياة الناعمة، لا تناسب « الجوال » ولا المسلم الحق الذى يضع نصب عينيه العمل من أجل خلاص المظلومين والمقهورين والمستضعفين من بنى عقيدته، فالأمر بالنسبة لنا يعتبر أمرًا عاديًا لا حرج فيه، وقمنا بزيارة العديد من المدن والقرى الأردنية شمالًا وجنوبًا وشرقًا، وكذلك بعض المناطق الأثرية الشهيرة، والجبال والأودية، وخاصة وادى الأردن المعروف، وبعض مخيمات اللاجئين.

وبعد أيام قليلة سارعنا بالذهاب إلى « القدس » الشريف..

المدينة المقدسة تبدو هادئة حزينة، والبيوت تعروها سمة العراقة والقدم، تمامًا كالفقير المعتز بنفسه، والسور الضخم الذى يفصل بين القدس القديمة « العربية » والقدس الجديدة « اليهودية »، يعتليه عدد قليل من الجنود العرب، يروحون ويجيئون فى تكاسل وملل، وقد اغبرت ملابسهم، وندى العرق جباههم، وحركة المارة بطيئة، وهم قليلو العدد، والسوق المركزى القديم المغطى، يتسم بشىء من الحركة والضوضاء القليلة حيث تباع المفارش والمنسوجات المطرزة والمصنوعات الصدفية والمعدنية وغيرها، وتصادف أن وجدنا اشتباكًا محدودًا بين عدد من الشباب، لم تتبادل فيه سوى التهديدات الكلامية، وكنا كعادتنا، رغم ذلك نضحك أو نتبادل طُرْفة من الطرائف، وكان مرافقنا الفلسطينى طالبا فى كلية هندسة القاهرة، قدم لقضاء أجازة الصيف فى مدينته، كان يسير أمامنا رصينا صامتا، على وجهه سمات الجد والرزانة، واضعًا إحدى يديه فى جيب سرواله، ثم التفت إلينا فى جد وهو يسير، وقال فى اقتضاب: « من المنتقد جدا أن تضحكوا على هذه الصورة فى الشارع، إن مدينتنا لم تتعود على ذلك، وتراه عيبا.. ألا ترون؟ الناس كأنهم فى مأتم طويل ..».

أدركت على التو ما يعنيه، إن المأساة التى يعيشها الشعب هنا، قلما تدفع الابتسامة لتظهر على الشفاه، ونحن لسنا أقل ألمًا ممن يعانون تحت سماء المدينة، لكن عاداتنا فى التعبير قد تختلف بعض الشىء، لكننا على الفور التزمنا بنصيحته، ورأينا أنه على حق، فإن المدينة تقع تحت نيران العدو مباشرة، واليهود لا يخفون أنهم سوف يجتاحونها فى يوم من الأيام، بل ويعتبرونها عاصمة إسرائيل المقدسة رغم أنف العالم كله.

وذهبنا لزيارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، أية مشاعر تجتاح الإنسان المؤمن وهو يخطو داخل فناء المسجد العريق، حيث يفوح عطر التاريخ، وأيام المجد العظيمة، إنه القبلة الأولى للرسول الأعظم محمد بن عبد الله « ﷺ » وللمسلمين، وإليه كان مسراه، وما أكثر ما شهد هذا المسجد من أحداث تاريخية كبرى، إبان الحروب الصليبية وحروب الاستعمار الحديث! الضجة التاريخية الكبرى تخفت الآن، لكن شيخ المسجد العجوز ذا اللحية البيضاء، ما زال يبتسم ويأمل، ويحدثنا عن الذكريات وأيام الجهاد المرير، والدم المراق، والزمان الذى يتغير، والموازين التى تميل، والمستقبل الغامض، وانفراط عقد العرب، وضعفهم وهوانهم.. وأرانا آثار الطلقات النارية فى قبة الصخرة.. ولم تفارقه الابتسامة الوقورة..

ثم ذهبنا إلى « كنيسة القيامة » ذات الكنوز الأثرية الضخمة، وأخذ القساوسة يحدثونا عن الماضى الزاهر، والحاضر المؤلم، والمستقبل المجهول، وأشاروا إلى الثقوب التى أحدثتها طلقات الرصاص فى النوافذ المغلقة دائمًا، والتى لا يسمح اليهود لهم بفتحها أبدًا، ونظرنا من خلال الثقوب.. ورأينا جزءً من شوارع القدس الجديدة « اليهودية »، كانت شوارع نظيفة مرصوفة والفتيان والفتيات يسيرون متشابكى الأذرع والأيدى يمرحون، ويعبثون، والجنود متربصون هناك بأحدث الأسلحة، وعيونهم على القدس العربية..

وفى « بيت لحم » كانت زيارتنا لكنيسة « المهد » حيث ولد عيسى عليه السلام، الراهبة تجلس فى صمت وخشوع، ولا تكلم أحدًا، وهذا باب خشبى قديم يقولون إنه الباب الخاص ببيت يوسف النجار، وتماثيل عدة لمن كتبوا الإنجيل، ولعيسى وحوارييه وللعذراء، وقبل أن نأخذ الصور التذكارية أخذ أحد القساوسة يحدثنا عن الخطر اليهودى المحدق، وعن الذكريات الكئيبة التى تبعث الألم فى النفوس. وكيف أن اليهود لا يؤمن جانبهم، وأنهم لا يحترمون الأديان، ولا مقدسات الشعوب الأخرى. وتيسرت لنا زيارة مدينة « الخليل »، وصلينا فى مسجدها الشهير، وشاهدنا المقابر التاريخية، كما استقبلنا رئيس بلديتها « الشيخ محمد الجعبرى » آنذاك، وتناولنا على مائدته العامرة طعام الغذاء، ووقف بيننا خطيبًا، وإلى جواره عدد من رجال الحرس يطلقون الرصاص، كأنما يؤكدون وجودهم واستعدادهم لليوم المرتقب، وأذكر أن الشيخ قال فى خطبته: « لن نغادر هذه المدينة إلا جثثًا هامدة إذا ما تعرضت لغزو إسرائيلى آخر »، لكن الحظ لم يحقق أمله، فقد غادروها فى عام ١٩٦٧ فيما بعد بسلام إلى المملكة الأردنية، وتسلم إحدى الحقائب الوزارية فيها.. لكن الرجل- والحق يقال - كان كريمًا فى حفاوته بنا، بليغًا فى خطابه الوطنى، جهورى الصوت، واثق النبرات، لدرجة أنه أسال منا الدموع.. وكنت لأول مرة أتناول الطعام على الطريقة العربية التقليدية، ولم أدر كيف أبدأ، لكن أحد الضباط كان معنا، ثم رأيناه يشمر عن ساعده، ويدس يده فى الأرز واللحم، ويقول: « هكذا تفعلون .... »

وانطلقنا إلى منطقة « باتير » و« سور باهر »، ووقفنا خلف الأسلاك الشائكة، التى تفصل بين العرب واليهود، وأخذنا نرقب جموع العساكر اليهود على الجانب الآخر فى كامل العدة والسلاح، وفى الجانب العربى لم نر إلا بضعة أنفار يرتدون الملابس العسكرية المتواضعة ويحملون السلاح القديم، وكان واضحًا أن أى هجوم صهيونى غادر مفاجىء لن تواجهه مقاومة تذكر، قلت هامسًا لأحد الإخوة فى مداعبة: « استطيع أن أسبب مشكلة بين اليهود والعالم العربى ..»

قال وهو يرمقنى فى دهشة: « كيف؟ »

- « أطلق رصاصة واحدة صوب اليهود.. فتقوم المعركة ..»

نظر إلى ساخرًا وقال: « يعملونها الصغار.. ويقع فيها الكبار ..» وأخذ يضحك فى مرارة..

وقيل لنا إن مؤتمر الشعوب الإسلامية - ومقره القدس - سيقيم لنا حفلة عشاء، فذهبنا إلى هناك فى المساء، كان المقر بيتا عتيقًا يبدو أنه بنى منذ مئات السنين، وكان ضيق الحجرات والأبواب والنوافذ، وأرض مكونة من قطع حجرية ملساء تشبه الرخام، وليست برخام، كانت المائدة متواضعة، بها كثير من الفواكه، وقليل من الطعام، ويجلس فى الصدارة الأستاذ سعيد رمضان عضو الإخوان المسلمين البارز، وكذلك الأستاذ كامل الشريف المجاهد المعروف فى فلسطين والقنال، ووزير الأوقاف الأردنى بعد سنوات، و« نجيب جويفل » وهو من شباب الإخوان المعروفين، وقد دار حوله كثير من الجدل، وكان هؤلاء وغيرهم قد غادروا مصر بعد أن أيقنوا من سوء نوايا الحكام، وتوقعوا أن الضربة سوف توجه إلى الجماعة إن عاجلًا أو آجلًا، فتركوا مصر لكى تكون لديهم حرية الحركة، ولعلهم يستطيعون أن يؤدوا واجبًا ولو إعلاميًا إذا ما حاقت المحنة بالإخوان.

وقد رافقونا فى كثير من الجولات فى أنحاء الضفة الغربية بالذات، وشرحوا لنا الكثير عن الأوضاع الفلسطينية والعربية بوجه عام، وكانوا مجمعين على أن مطامع اليهود لن تقف عند حد، وأنهم لابد وأن يستأنفوا سياستهم العدوانية فى التوسع والتهام الأرض العربية قطعة قطعة، ولم تكن منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة عرفات قد ظهرت بعد، كما كانت الأوضاع شديدة التوتر فى مصر، وهى القاعدة العربية الكبرى، ودولة المواجهة الأولى.

وعلى شاطىء « البحر الميت » انتحى بى نجيب جويفل جانبا، ولم يكن بيننا صلة مباشرة سابقة، كنت أسمع عنه، وأراه أحيانا فى المركز العام، لكنه لم يكن يعرفنى، لكن الأيام التى قضيناها فى الضفة الغربية والأردن، أتاحت فرصة للتعارف السريع.

وعندما أصبحنا وحيدين، أخذ يسألنى عن الأوضاع فى مصر، وأخذت أفيض فى الشرح، وهو يناقش ويستفسر، ولعله ظن - وبعض الظن إثم - أننى قد أكون واحدًا من أعضاء النظام الخاص، والدليل على ذلك، أنه أخذ يلمح بأنه لا أمل فى التفاهم مع عبد الناصر، وأنه أصبح عقبة فى طريقة الدعوة، وأنه يتخذ أبشع الأساليب وأظلمها فى التصدى للجماعة، دون وازع من ضمير، أو قانون، ويريد أن ينفرد بحكم استبدادى مطلق، ويرى فى الإخوان القوة الوحيدة التى تحاول تحجيمه، أو تعديل مسار طموحاته الخطرة، وقال نجيب جويفل بصوت خفيض هادئ: « يجب التخلص منه بأى شكل ..»

وصمت.. لم أعلق بكلمة واحدة.. كنت أظنه ممن يملكون صنع القرار فى الجماعة، وإن ثبت العكس بعد ذلك، وخاصة بعد أن أشيع عنه أنه يتعاون مع السلطة فى مصر، ويلعب على الحبلين.. والله وحده يعلم الحقيقة.

استطعنا خلال تلك الأيام القليلة، أن نلم بالكثير عن الأوضاع العربية الفلسطينية، وأن نجمع الكثير من المعلومات، وكثير من تلك المعلومات قد زرع فى قلوبنا الألم ولا أقول اليأس، إن الصراعات الدامية تنتشر هنا وهناك، والانقلابات ومحاولات الانقلابات نسمع أو نقرأ عنها، والصراعات الفكرية أيضًا بين الأحزاب والجماعات تشتعل فى كل مكان، وقوات الاحتلال ما زالت رابضة فى كثير من البلدان

العربية، وإسرائيل تنمو وتقوى، ونحن ننكمش، ويكاد الغموض يلف كل شيء..

الصدام فى الداخل.. والصدام فى الخارج وعلامات السياسية تختلف من كاتب لآخر، ومن مكان لمكان، وعلاقات النهضة الحديثة تهتم بالقشور دون اللباب، والشعارات تزحم الآفاق، كلام كثير وفعل قليل..

وعدنا مرة أخرى إلى بيروت، كى نتخذ طريقنا بحرًا إلى مصر، واستغرقت رحلة العودة من ميناء بيروت إلى القناة أقل من يوم.. ولم أحمل معى سوى الذكريات وهدايا قليلة للأهل والأصدقاء.

كنت مضطربًا بعض الشيء، فإن ما تكتبه الصحف خارج مصر، غير ما تنشره الصحف المصرية، إن أمورًا هامة لابد وأن تحدث على الساحة السياسية فى مصر، وخاصة بعد أن وقع الثوار والإنجليز على اتفاقية الجلاء.. نعم الجلاء « الناقص » حسب نصوص الاتفاقية، والذى كانت نتيجة غير كاملة لدماء الشهداء والأبرار فى منطقة القنال، والذين كانت غالبيتهم العظمى من الإخوان.. وبات واضحًا أن جمال سوف يتفرغ للقضاء على مناوئيه - فى السلطة - حسب تصوره.. وهم الإخوان، وكانت كل الأحداث والشواهد تؤكد ذلك.

❁❁❁

[٧] الحادث



حينما تضطرب الأمور، وتحدث التجاوزات من قبل السلطة التنفيذية، ويسود الخوف والانتقام، تنبثق تصرفات وممارسات خطيرة، تعصف بأمن الشعب واستقراره، ويسود الارتباك كل شىء.. السياسة.. الاقتصاد.. الأخلاق، وإذا داس الحاكم على كرامة الدستور، وبالتالى كرامة الشعب، فقد يدفع ذلك المحكومين أن ينفثوا عن اعتراضهم ورفضهم فى سلوكيات عنيفة..

أذكر أننى كنت فى قريتنا فى أواخر شهر أكتوبر عام ١٩٥٤، كان الوقت مساءً، وكنت مضطجعا على سريرى ذى العمدان العالية، وأستمع إلى صوت الراديو، حيث كان جمال عبد الناصر يلقى خطابًا فى ميدان المنشية بالإسكندرية، وبينما كان يتحدث سمعت طلقات رصاص خافتة لكنها كانت واضحة، وتوقف جمال عن الخطابة.. وساد هرج ومرج، وسمعت أصواتًا متداخلة، فأيقنت أن شيئًا مفاجئًا خطيرًا قد حدث، وبعد فترة وجيزة سمعت جمال عبد الناصر يصرخ منفعلًا: «مكانكم أيها الرجال.. إن يقتلوا جمال عبد الناصر، فكلكم جمال عبد الناصر.. لقد خلقت فيكم الحرية.. وخلقت فيكم الكرامة» إلى آخر تلك العبارات العاصفة الملتهبة المليئة بالانفعال والغضب، وانتهى الخطاب بأسرع ما يمكن، وعادت الإذاعة لتعلن على الملأ أخبارًا مؤداها أن الإخوان المسلمين قد دبروا مؤامرة لاغتيال جمال عبد الناصر، وأنه قد تم القبض على المعتدى واسمه محمود عبد اللطيف، وأنه عامل من إمبابه، وأن الحكومة اتخذت التدابير العاجلة والحاسمة لدرء الفتنة، وأخذ المعتدين بالشدة والعقاب. لقد صدمنى ما سمعت.. وشعرت بالقلق البالغ والحيرة.. هذه بداية صعبة لمرحلة تاريخية عصيبة.. كل الأحداث والأخبار تدل على ذلك..

وصدق ما توقعته، فقد جاءت صحف اليوم التالى حافلة بالهجوم الشديد على جماعة الإخوان المسلمين ومرشدها العام وكوادرها، وأسلوبها الإرهابى، وتسابق الكتاب والشعراء والصحفيون فى الذم والطعن وتلفيق الأخبار، ونسخت الحسنات، بل تحولت إلى سيئات، وأخذ المحللون يفسرون تلك الحسنات تفسيرًا جديدًا، يتفق وموجة الحقد والغضب التى تكتسح الجماعة وتاريخها، فهم عملاء لإسرائيل وأمريكا والاستعمار، وحربهم فى القناة - كما يزعم الزاعمون - إما ستار لإخفاء مطامعهم، أو قام به شباب شرفاء وادعت الجماعة أنهم من أبنائها، ونفس الشىء قيل عن معاركهم الشريفة فى حرب فلسطين، وعن الأنشطة الاجتماعية والثقافية والنقابية التى ساهموا فيها، وتناولوا شرف القيادات الإخوانية باتهامات بذيئة لا يتصورها عقل، بل اندفعوا فى افتراءاتهم واتهاماتهم حتى نالوا من الشيخ حسن البنا نفسه، ورموه بكل رذيلة ونقيصة، ونسوا أو تناسوا ما قاله عبد الناصر على قبره، من تمجيد وتشريف، ونسوا محاكمة قاتلى البنا، وحكم القضاء العادل، واستطاعوا أن يجندوا عددًا من المنشقين كى يكتبوا فى الصحف استقالاتهم من الجماعة، ويتهموها بالانحراف والإرهاب..

وسادت موجة من الرعب لا مثيل لها فى تاريخ مصر، حيث سيق الألوف إلى المعتقلات، وبدأت ممارسات القتل والتعذيب فى السجن الحربى وغيره، وأخذت الصحف تنشر صور المتهمين حليقى الرءوس، وبطريقة يحاول فيها صانعوا «الرتوش» إبرازهم فى أشكال مخيفة قبيحة، وتشكلت على الفور «محكمة الشعب» برئاسة جمال سالم قائد الجناح. وأعلن عن مكافآت كبيرة لمن يرشد عن الهاربين، وفيهم الأستاذ الهضيبى المرشد العام، ورئيس الجهاز الخاص يوسف طلعت، وكان الهضيبى مختفيًا منذ فترة، أى بعد عودته من رحلته فى سوريا والدول العربية، وتحدثت الصحف بأسلوب مثير عن مؤامرات مزعومة مثل نسف دور السينما والمسرح والكبارى والإذاعة ومحطات الكهرباء والماء، وعقدت الأحاديث والندوات فى وسائل الإعلام، وكلها تنال من رجالات الدعوة الإسلامية فى مصر، كما ساد الخوف الناس، وأصبحوا يترددون فى الذهاب للصلاة فى المساجد، ويخافون من إطلاق اللحى، وينكرون قرابتهم لمن يتهمون بالانتماء للإخوان، واستعدوا عليهم الدول العربية والإسلامية، وأصبحت الدولة وأجهزتها الإعلامية والأمنية السياسية والعسكرية مسخرة تمامًا لهذه المهمة، وهى القضاء التام على الإخوان المسلمين وتاريخهم وفكرهم بأى أسلوب أو طريقة، وكان لابد من انتزاع الاعترافات العاجلة، إن صدقا وإن كذبًا، بالعنف والتعذيب دون سواهما، وصاحب ذلك حركات تطهير وعزل فى مختلف مؤسسات الدولة ودواوينها دون رحمة، وأصبح البيت الذى يعتقل فيه أحد الإخوان كالمكان الموبوء، يخاف الناس أن يقتربوا منه، ولا يفكر أحد فى القيام بواجب المواساة والعزاء، وأحرق الناس ما لديهم من كتب تمت من قريب أو بعيد بالفكر الإسلامى قديمة وحديثة، كما قامت أجهزة الأمن بتمشيط المكتبات ودور النشر والصحف، للتخلص من كل المطبوعات التى لها أدنى صلة بالفكر الإخوانى الإسلامى، وقام «علوى حافظ» الضابط المدلل آنذاك، بإحراق المركز العام للإخوان المسلمين بالحلمية، وانطلقت الأقلام الحاقدة والداعرة والمأجورة لتبث السموم والإشاعات الكاذبة بين الناس.. كانت محنة.. ليس مثلها محنة.. واستطاع رجال الأمن مداهمة الهضيبى فى مسكن له بالإسكندرية، وسبق ذلك اعتقال وكيل الجماعة الأستاذ عبد القادر عودة صاحب المسيرة السلمية الشهيرة يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٤، ويوسف طلعت، وعدد من المتهمين الأوائل هنداوى دوير وإبراهيم الطيب ومحمد فرغلى وغيرهم.. وكان الأمر الواضح المثير، هو عدم معرفة قيادات الإخوان المسئولة بهذا الحادث وظروفه.. وشاع بين الناس، أن الحادث مجرد تمثيلية رخيصة، بل قبضت سلطات الأمن فيما بعد على مجموعة من الناس كانوا يتحدثون عن الحادث كتمثيلية محبوكة وقد تم تقديمهم للمحاكمة، وهذا القول لا يخرج عما ذكره الأستاذ حسن التهامى - صديق عبد الناصر - فيما بعد، حينما قرر أن الحادث كان مدبرًا من عبد الناصر، بالتعاون مع بعض الأجانب، ويرى حسن التهامى أن الهدف من تدبير ذلك الحادث، كان مقصودًا به عدة أشياء أهمها:

١- إيجاد شعبية لعبد الناصر بعد أن تدنت شعبيته لحد خطير بين الشعب والجيش بعد أحداث محمد نجيب.

٢- إجهاض أية تحركات معارضة يقوم بها الإخوان فيما بعد، والقضاء عليهم قضاء تامًا.

٣- الانفراد بالسلطة بعد التخلص من الخصم الوحيد القادر على المنافسة.

٤- بث الرعب بين الشعب، والقضاء على جيوب المعارضة الأخرى داخل الجيش وخارجه.

٥- إسكات أصوات الداعين إلى الحرية والديموقراطية والإسلامية.

٦- إخلاء الساحة من كل معارضى النظام الشمولى «الحكم المطلق»، وإتاحة الفرصة لقيام الحزب

الواحد، ومنظمات شبابية تابعة وخاضعة للنظام الشمولى الموجه.

٧- إطفاء المصابيح المنيرة فى تاريخنا المعاصر، ورميهم بالسلبيات والقصور، حتى ينفرد عبد الناصر بالزعامة وقيادة حركة التنمية والاستقلال والتحديث.

٨- وقف النمو الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الرصين، واللجوء إلى أسلوب القفزات والقرارات الارتجالية، والمظاهر البطولية، وأحلام المجد، والسيطرة.

وكان لابد - لكى يتم ذلك - أن يبدأ النظام فى مغازلة الطبقات الكادحة من عمال وفلاحين، والتشنيع على العهود السابقة والملاك ورجال الصناعة والمال السابقين، إن عدلًا أو ظلمًا.

كان حادث المنشية مختلفًا تمام الاختلاف عما سبقه من حوادث..

اغتيال النقراشى، كان قضية واضحة لا غموض فيها.. واستشهاد حسن البنا، كل الناس عرفوا أن السلطة هى المسئولة عنه.

أما حادث « المنشية » فقد كان على النقيض من ذلك، ولا يمكن أن يحدث أمر خطير كهذا دون معرفة المرشد العام، ونستطيع أن نقرأ ملفات التحقيق مع المرشد العام، فسوف نجد أنه لا يدرى عن هذا الموضوع شيئًا، وقد أكدت أقوال الشهود تلك الحقيقة الناصعة. ترى هل كان الموضوع، كما يقول حسن التهامى أحد ضباط الثورة - من تدبير الحكومة ومن أشاروا عليها؟

هل هو تمثيلية كما أشيع بين الناس، أم كان تصرفا فرديا بحتًا؟

وعدنا إلى الجامعة بعد هذه الأحداث العاصفة.. لقد قبض على معظم القيادات الشبابية الإخوانية.. وانفرط العقد.. وأخذنا نتابع ما يكتب فى الصحف.. كان كثيرون من الناس يصدقون ما يقال، وكان أعداء الجماعة فى سعادة غامرة، وكان الوفديون يقولون لنا: « لقد حذرناكم من التعاون مع الثورة، وها أنتم تجنون ثمار الخطأ الأكبر الذى وقعتم فيه »، وكان الشيوعيون - رغم اعتقال بعضهم ومطاردتهم - يعتقدون أن ما جرى سيكون فى صالحهم، وسيعطيهم فرصة أكبر للانطلاق والنشاط.. وقيل فى الأوساط الشعبية « إن العاقل فى هذا الزمان، من يلزم بيته، ويهتم بأكل عيشه، وتربية أولاده، ويبعد عن السياسة ..».. وحاصرنا أهلونا بالرقابة والنصائح، وألحوا علينا فى أن ننأى بأنفسنا عن هذه الفتن الدامية التى لا يعلم مداها إلا الله..

لكننا فوجئنا بمشكلة إنسانية محيرة... إن الذين اعتقلوا وسجنوا قد قطعت موارد رزقهم، وأصبحت عائلاتهم عرضة للتشرد وأخذنا فى الجامعة نفكر فى الأمر، وكان الرأى أن نجمع بعض التبرعات لهذه الأسر، ونرسلها إليهم سرًا، وبدأنا فعلًا بذلك العمل الإنسانى، واستمر الأمر لعدة شهور.. حدثنى الأستاذ المحقق الكبير « محمود شاكر » - الحائز على جائزة الملك فيصل، ومحقق تفسير الطبرى - حدثنى قائلًا: « لقد جاءنى ذو الفقار صبرى ذات يوم، وأنت تعلم أن بينى وبينه صلة نسب، فوجدنى ثائرًا حانقًا، وسألنى: ماذا جري؟ »

قلت له: « إن أخاك على صبرى يمسك « بالكرباج » ويضرب المتهمين.. قد يكون هذا أمر محتملًا بعض الشىء.. لكن ما ذنب آلاف الأسر التى حرم أربابها المعتقلون من مرتباتهم الشهرية؟ هل أجرم الأطفال والنساء؟ ».

وأخذت أشرح له وجهة نظرى فى هذه القضية الإنسانية.. وانصرف ذو الفقار صبرى صامتًا، لكنه عاد إليّ فى صبيحة اليوم التالى وقال لى: « أبشر.. لقد وافق جمال عبد الناصر على صرف مرتبات المعتقلين ».

وتم ذلك فعلًا، لكن الذين حكم عليهم بالسجن أو فصلوا، قطعت مرتباتهم، كذلك كان هناك عدد كبير من المعتقلين والمسجونين لم يكونوا موظفين أصلًا، بل كانوا يكتسبون أرزاقهم من التجارة أو الزراعة أو الحرف الصغيرة، وهؤلاء أصبحت أسرهم بدون مورد رزق..

وهكذا تم إنشاء ما يسمى « بالتنظيم المالى » لمساعدة أسر الإخوان واستمر الأمر بضعة شهور، وفى الثلث الثانى من عام ١٩٥٥ تم اكتشاف هذا التنظيم، وتم اعتقال أفراده، وسيقوا إلى المحاكمة أمام دائرة محكمة الشعب التى يترأسها اللواء صلاح حتاتة، وكانت المحاكمات سرية، ومعظم المتهمين فى هذه القضية كانوا يدفعون اشتراكًا قدره خمسة قروش أو عشرة أو خمسة وعشرون، وصدرت أحكام ضد الغالبية منهم فيما عرف بقضية « الجهاز السرى التمويلى »، وخاصة دفعة شهر مارس ودفعة شهر يوليو فى عام ١٩٥٥، ومن الطريف أن ضمن من اعتقلوا فى هذا الجهاز المتهم « عبد الغفار النقراشى »، وهو قريب النقراشى باشا حيث كان يوصل بعض المبالغ من حلوان إلى أسرة فى السويس على ما أذكر.. وقد حاول المحققون مناقشة هذه القضية مع المتهمين فى السجن الحربى، فقد قال أحمد صالح أحد كبار رجال الأمن المهمين فى تلك الفترة: « إن تصرفاتكم هذه خاطئة.. من يدري؟ قد تستغلون الأموال التى تجمعونها فى شراء السلاح ..»

فرد عليه أحد قيادات الجهاز التمويلى وهو سليمان حجر « الدكتور سليمان حجر الأستاذ بكلية التربية الرياضية حاليا » وقال: « أنا لم أفعل سوى ما يمليه عليّ ضميرى.. وهذه - كما قلت - مسألة إنسانية.. وقد ثبت فى التحقيق الذى أجرى معى.. أنا وإخوانى.. أن المصرف الوحيد لهذه الأموال كان بيوت المحتاجين من أسر المعتقلين والمسجونين.. ونحن إذا لم نفعل ذلك نكون آثمين.. فهل يدخل الجنة من بات شبعان وجاره جائع؟ ثم إنه سيأتى يوم يقوم عامة الشعب من غير الإخوان بهذا العمل الإنسانى.. وقد ثبت لكم أن هناك مسيحيين قد شاركوا فيه.. وفعل نفس الشىء أفراد لا تربطهم بالإخوان المسلمين كتنظيم أية صلة.. فإما إن تسد الحكومة هذه الثغرة.. وإما إن نسدها نحن ..»

ومع ذلك فقد حكم على سليمان حجر بالأشغال الشاقة.. والواقع أن قضية مساعدة الأسر المحتاجة لم تتوقف فى أى يوم من الأيام، وأذكر أننا ونحن فى سجن أسيوط عام ١٩٥٧، إننا علمنا من أحد الزوار أن هناك أسرة، قد سجن عائلها وتعانى من شظف العيش والمشقة، فما كان منا - نحن المسجونين - إلا أن فتحنا باب التبرع، رغم ضعف إمكاناتنا الشديد - وجمعنا لهذه الأسرة ما تيسر من أموال، وأرسلنا المبلغ بطريق سرى إلى تلك الأسرة..

ولقد حاولت جهات الأمن « المباحث العامة بالذات » فرض رقابة شديدة على الأسر المحتاجة، لعلهم يمسكون بمن يأتى إليهم بالمعونة، ونجحوا فى رقابتهم إلى حد بعيد، إذ أمسكوا بالعديد من القضايا التى تتعلق بهذا الموضوع، وأصبح شائعًا بين الناس أن من يقدم المعونة لأسرة من الإخوان، سوف يقذف به وراء الشمس كما يقولون.. ولهذا السبب حدثت مآسى تقشعر لهولها الأبدان من جراء ذلك الحصار الرهيب.. لقد كانت الجهات الأمنية تعتقد أن ذلك الحصار كفيل بأن يلقن الأسر الإخوانية درسًا لن ينسوه أبدًا.. وستواجه هذه الأسر فى المستقبل عائليها بالرفض التام لأى نشاط دينى أو سياسى..

لكن هل نجح المخطط الجهنمى الذى أشرف عبد الناصر عليه بنفسه.. والذى وضعته نخبة من الخبراء العالميين والمصريين؟

❁❁❁

[٨] القضية



مضى عام دراسى، ونقلت فى آخر العام إلى السنة الرابعة بكلية الطب، وسافرت إلى قريتنا. بعيدًا عن عواصف الأحداث فى القاهرة، لم يكن أمامى شيء أفعله سوى القراءة الحرة، والسهر مع الأصدقاء، والحديث عن مأساة الإخوان، ونجاح الحكومة فى ضربتها القوية الغاشمة ضددهم، ومطاردتها لفلولهم هنا وهناك، ولم تكن الأصوات المحتجة فى العالم الخارجى بقادرة على أن تغير من مسار الأحداث، أو تخفف من غلواء الحكومة وبطشها.

ولم تنته مهمة دوائر «محكمة الشعب»، فقد ظلت تؤدى مهمتها سرًا، وخاصة فيما سمى «بجهاز مارس ١٩٥٥»، وفى أواخر يوليو ١٩٥٥ جاءنى صديق من أهل القرية، يعمل فى التجارة، وشكا لى من مرض «الصدفية»، وهو مرض جلدى، مجهول السبب، لا يستجيب للعلاج، وبعد دراسة الأمر رأيت أن آخذه إلى قسم الأمراض الجلدية والتناسلية بالقصر العينى بالقاهرة، وسافرت معه، وبعد أيام قليلة استطعت أن أحصل له على موافقة بتلقى علاجه داخل هذا المستشفى الجامعى العريق، وانتهزت الفرصة - بعد إدخاله - وتوجهت إلى المدينة الجامعية، لأتقدم بالطلب السنوى للالتحاق بها العام الدراسى القادم، كما هى العادة فى كل سنة.. ووجدت السكرتير ينظر إلى بنظرات قلقلة مريبة.. ثم سألنى عن أخى وزميلى فى الدراسة إبراهيم الصياد، فأخبرته أننى لم أره منذ نهاية العام، لكنه تلفت يمنة ويسرة، وقال بصوت هامس: «لقد اعتقلوه ...»

صحت فى دهشة: «لماذا؟»

هز كتفيه، وصمت..

كان يبدو على السكرتير الخوف، بل الذعر، وعجبت! هل ما زالت الاعتقالات مستمرة حتى الآن؟ ومتى تهدأ الأحوال، وتنكشف الغمة؟ إنه لأمر يدعو إلى القلق فعلًا، وانصرفت خارجًا من المدينة الجامعية، انتابنى إحساس عميق بعدم الاطمئنان، وذهبت لزيارة بعض الأصدقاء، وفى كل مكان ذهبت إليه، كنت أسمع أخبار الاعتقالات المستمرة، وأخبار تعذيب المعتقلين، ووفاة بعضهم، والتعليق على أحكام الإعدام التى صدرت وتم تنفيذها على ستة أفراد، ولم ينج من الإعدام سوى المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبى، وهو الوحيد الذى خفف عنه الحكم فى البداية إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، ثم خفف الحكم أيضًا على المتهم سيد الريس، وبعض ضباط البحرية، وعدد آخر من قيادات الإخوان..

ورأيت أن أعود إلى القرية كى أخلد إلى الراحة، وأحاول التخفيف عن نفسى مما ألم بى من توجس وقلق، كنت أحمل معى بعض المطبوعات التى صدرت عن الثورة وفيها كلمات للمشير عامر، وخطب

للرئيس، واتهامات للإخوان، كما كان معى بعض الرسائل التى كتبها حسن البنا قديمًا، واتجهت صوب طنطا فى القطار، ثم ركبت سيارة أجرة إلى زفتى، وهناك وجدت بعض الأصدقاء والجيران، وركبنا معا سيارة « أبو الدهب » أحد أبناء قريتنا.. ووصلنا إلى القرية بسلامة الله.. وسارت السيارة فى أحد شوارعها الرئيسية، وما كدنا نتوغل ما يقرب من مائة متر، حتى وجدت فى مواجهتنا سيارة شرطة.. ونزل منها ضابط الشرطة، الذى كنا نطلق عليه « قنديل بك »، وهو ضابط نعرفه من قديم أيام أن كان ملازمًا بنقطة شرطة سنباط، وكان له ابن اسمه « على » آنذاك، ووجدت قنديل بك يشير بيده إلى « أبو الدهب » فأوقف سيارته انصياعًا للأمر، ودق قلبى.. شعرت أن الأمر يخصنى.. ورميت بما معى من كتب داخل السيارة، وقلت لهم: « اخفوا هذه الكتب ... »

وأطل قنديل بك برأسه من نافذة السيارة وقال:

- « أين نجيب الكيلاني؟ »

صحت دون وعى: « أنا .. »

قال: « تعال معنا .. »

قلت: « خير.. هل فيه شيء؟ »

قال بألم: « بسيطة .. »

ونزلت مهرولًا، وأخذنى إلى سيارة الشرطة، وجلست إلى جواره، بينه وبين السائق، كان إحساسى المبدئى، إننى فى مصيدة.. حاولت أن أتكلم، فلم تطاوعنى الكلمات، لم أجد شيئًا أقوله.. وأمسك الرجل كشكولًا لى، يبدو أنه قد أخذه من بيتنا وهو يقوم بالتفتيش.. كان بالكشكول بضعة فصول من قصة كنت أحاول كتابتها عن القرية والفلاحين والعمدة الظالم وما إلى ذلك، ووجدت قنديل بك يتصفح الكشكول، ويتنهد قائلًا: « هؤلاء الفلاحون أهلونا.. نحن منهم يا ابنى.. لكنهم يعانون الكثير.. أدركت أنه يواسينى، وذلك بالتعرض للموضوع الذى كتبت فيه ولم يتم، ثم قال فجأة: »

- « هل تعرف عبد المنعم سليم؟ »

ودق قلبى مرة أخرى، قلت: « نعم أعرفه.. كان زميلى فى المدينة الجامعية، وهو طالب بكلية الآداب.. وأظنه تخرج هذا العام .. »

ثم أخذ يسألنى مرة أخرى: « هل تعرف إبراهيم الصياد ؟؟ »

- « نعم .. زميلى فى الكلية والمدينة .. »

- « وهل تعرف . . . .؟؟ »

وأخذ يذكر لى بعض الأسماء التى لا أعرفها ، ولما أجبت هذه المرة بالنفى ، نظر إليّ فى شك ، توهمًا منه أننى أهرب من المواجهة ، فأقسمت إننى لا أقول سوى الحقيقة ، لم أكن أعرف أين سيأخذوننى ، بل إن قنديل بك أوهمنى - وله العذر - أننا ذاهبون إلى مركز زفتى ، لكنى وجدت السيارة تتجه صوب مدينة طنطا ، وفعلًا وجدت نفسى فى مقر المباحث العامة بطنطا ، وأجرى قنديل بك معى تحقيقًا سريعًا ، وكان حوله مجموعة من المخبرين الذين وقفوا على أهبة للعدوان ، ولكنه والحق

يقال لم يعطهم الفرصة لذلك ، وقال فى مرارة : « فى القاهرة سوف تقول كل شىء يا بنى . .»

ولم يغب عنى معنى كلماته ، كنت أعلم أن وسائل العنف والإرهاب التى يتفننون فى إستخدامها لإرغام المعتقلين على الإعتراف بأى شىء يريدونه ، كفيلة بإفقاد الإنسان صبره وطاقة تحمله ، إذن سوف يرحلوننى إلى القاهرة .. الوداع يا شرشابه .. ويا طنطا .. بل وداعًا أيتها الحرية !! وحاولت أن أعزى نفسى قائلًا : « وأين هى الحرية ؟! إننا نعيش فى سجن كبير .. والأعمار بيد الله .. وليس من المكتوب هروب .. كلمات حفظتها عن جدتى التى لا شك أنها تبكى الآن مع أمى .. واستسلمت ..

ونقلونى إلى قسم أول طنطا .. ووضعونى فى « التخشيبة » كما يسمونها ، مع المحجوزين من اللصوص ومعتادى الإجرام وغيرهم ، والتخشيبة عبارة عن حجرة رديئة قذرة ، وفى ركن من أركانها « بالوعة » للتبول ، والمحتجزين متكومون هنا وهناك ، بعضهم نائم وبعضهم جالس ..

ونظرت حولى لأول مرة بإمعان ، رأيت اثنين من المحتجزين ينظرون إلى فى تعاطف ومحبة ، كأن أعينهما تقول كلامًا كثيرًا ، وأشار أحدهما إلىّ بأن آتى وأجلس إلى جواره ، وفرش لى على الاسفلت جلبابه الإضافى وقال بعد هنيهة : « لماذا قبضوا عليك ؟؟ »

- « بتهمة الإخوان المسلمين . .»

ابتسم وقال : « ونحن كذلك .. أنا أحمد سلام .. وهذا أخى محمود جبريل . .»

- « انتما أيضا من الإخوان ؟! »

- « نعم . .»

يجب أن أكون حريصًا ، ولا أتكلم بشىء يؤخذ علىّ ، فمن أدرانى أنهما من الإخوان المسلمين ؟ قد يكون فى الأمر خديعة ، فرجال الأمن يفعلون ذلك عادة ، ووجدت رجلًا قريبًا منا يحاول استراق السمع باهتمام بالغ ، وهمس أحمد سلام فى أذنى قائلًا ؟ « إنه شرطى .. ويزعم أنه معاقب بالحبس لمدة ليلة .. لكننى اعتقد أنه عين علينا .. خذ حذرك منه . .»

وقطع حديثنا أحد المحتجزين وهو يصرخ محتجا ويقول : « يا ظلمة .. يا كفرة .. افرجوا عنا . .»

وربت أحمد بيده على كتفى وقال : « لا تهتم .. دعه وشأنه . .»

كان المكان يبدو مقبضا كئيبًا ، وكنت أرزح تحت ألم نفسى خانق ، على الرغم من إحساسى بقدر من الراحة بعد أن اكتشفت أن معى اثنين من الإخوان ، وعلى الرغم من أننى لم أكن أعرفهما من قبل ، إلا اننى شعرت كأننا أصدقاء مخلصين منذ سنوات طويلة ..

قلت فى قلق بالغ : « هل سنبقى هنا طويلًا ؟ »

قال أحمد : « نحن هنا منذ يومين . .»

- « يا إلهى .. إن هذا لا يطاق .»

وعاد أحمد يقول : « هنا أفضل من السجن الحربى بكثير . .»

التفت إليه وقلت : « هل سننقل إلى السجن الحربى ؟ لماذا ؟ »

لم يجب أحمد ، حتى هذه اللحظة كنت آمل فى الخلاص ، لكن التفكير الرصين ، والتحقيق الذى أجرى معى ، وما فيه من أسئلة وأسماء ووقائع ، كلها تؤكد أن الأمر معقد وأن التفكير فى الإفراج

العاجل سذاجة ، لأن ذلك لا يتفق مع سابق التجارب مع الآخرين ، ولا مع المنطق السائد ..

ودق باب الحجز ، وسمعت صوتًا ينادى باسمى ، فهرولت مندفعًا صوب الباب المغلق ، كان الصوت صوت خالى « مالك » ، الطالب بكلية تجارة الاسكندرية وهو يكبرنى بأربع سنوات ، وفهمت أنهم علموا بنبأ اعتقالى ، وأن جدى أرسله للاطمئنان عليّ ، وليؤكد لى أنهم لن يتركونى ، وفهمت أيضًا أننى سوف أنقل غدًا إلى القاهرة للتحقيق .. وانصرف دون أن أراه .. لم أسمع سوى صوته .. إنها تجربة مؤلمة ، أتعرض لها لأول مرة ، وكادت الدموع تطفر من عينى ، لكنى تماسكت .. ثم عدت إلى موضعى الأول جوار أحمد ..

قال أحمد : « يجب أن تنام قليلًا ، حتى تقوى على السفر وعلى التحقيق . . »

قلت فى قرف : « وكيف أنام ؟ الفكر مشغول ، ولا يوجد مكان مناسب . . »

قال وهو يميل بجسده النحيل جوار محمود جبريل : « نم يا رجل ، واترك الأمر لله . . »

واضطجعت على الجلباب الذى قدمه لى من قبل، ووضعت حذائى تحت رأسى، وحاولت النوم.. وسمعت أحد اللصوص يقول لزميله بصوت مرتفع: « يعنى لو حكموا بالشريعة.. يكون فيه عدل.. ولا أحد يسرق.. ولا يسجن ..»

لم يكن لدى أدنى رغبة فى التعليق.. كان إحساسى هو أننى سقطت من سماء الأحلام الجميلة إلى الأرض القاسية الملطخة بالأوحال والأقذار.. ما أقسى الفرق بين الحلم والواقع، إن عالم الأحلام الواسع الملىء بالآمال والحرية والجمال والحب، قد تحول إلى حجرة متسخة ضيقة مظلمة، تفوح منها الروائح الكريهة.. أنحن بشر أم حيوانات؟

هل أمامنا شىء سوى الصبر؟

وانبعث غطيط أحمد سلام رتيبا.. ومثله محمود جبريل.. وعلمت أن محمود جبريل يعيش برئة واحدة، فقد أجريت له منذ فترة جراحة لاستئصال إحدى رئتيه لأنها كانت مصابة إصابة بليغة بالتدرن.. فكيف يقوى المسكين على تحمل متاعب الاعتقال؟ ومن رأى بلوى الناس هانت عليه بلواه..

رحت فى إغفاءة قصيرة، رغم كل شىء، وفتح الباب فى الفجر، وأخذونى وحدى، بعد أن وضعوا الأغلال الحديدية « الكلبشات » فى يدى، وسمعت أحمد ومحمود يهتفان فى صوت واحد معا: « ربنا معك.. شد حيلك ..»

وما إن غادرت القسم، حتى وضعوا حلقة فى يدى، وأخرى فى يد شرطى كبير السن، وأصبحنا مقيدين معًا، ومشى إلى جوارنا شرطى آخر يحمل السلاح، وضابط شاب.. وقصدنا إلى محطة طنطا، حيث حجزوا لنا صالونًا خاصًا درجة أولى فى القطار.. لأول مرة أركب درجة أولى فى القطار..

رأيت وجهى فى المرآة المثبتة فى الصالون.. كنت أبدو شاحب الوجه غائر العينين، وأنا أرتدى قميصى الرخيص النصف كم، وكان معى سبعة وعشرون قرشًا..

جلست صامتًا.. وبعد أن تحرك القطار صوب القاهرة، أخذ الضابط يتصفح « جريدة الصباح ».. كانت صورة الرئيس وهو يبتسم تغطى حيزًا كبيرًا من الصفحة الأولى.. لم يكن لدى رغبة فى قراءة شىء.. ولا فى أكل شىء.. وما جدوى القراءة والطعام.. إن الحياة – كما تبدو لى الآن – لا تساوى

قلامة ظفر.. أمس يوم ٧ أغسطس.. واليوم ٨ أغسطس ١٩٥٥.. ولا يمكن أن أنسى هذا اليوم أبدًا..

ترك الضابط الصالون، ومال عليّ الشرطى العجوز الطيب المقيد معى فى حديد واحد وقال: « ما هى تهمتك؟ » « ألا تعرف؟ »

– « أنا لا أسأل عن شىء.. أؤدى « مأموريتى » دون سؤال ..»

قلت: « إخوان مسلمون »

قال: « لا إله إلا الله.. محمد رسول الله. ألم ينتهوا بعد من هذا الموضوع؟ »

حينما نزلنا من القطار، وجدنا فى مواجهتنا رجل متين البنيان يقول: « معكم نجيب الكيلانى »

قال الضابط: « نعم ..»

– « هيا.. السيارة بالخارج ..»

كانت محطة السكة الحديدية بالقاهرة تموج بأفواج من البشر، ونحن نجد السير خارجين، ووجدتنى وجهًا لوجه مع زميل الدراسة الدكتور « حمدى العيشى » أستاذ التشريح حاليًا بجامعة المنصورة، ولما حاول مصافحتى، مددت له يمناى ومعها يد الشرطى والحديد ظاهر، قال حمدى فى دهشة: « ماذا جري؟ »

قلت: « الإخوان ..»

– « كان الله فى عونك ..»

ودفعنى الضابط برفق دون أن يلحظ أحد، فودعت حمدى مسرعًا، ولدى الباب كان باب السيارة الخلفى مفتوحًا، فصعدت مع الشرطيين، وركب الضابط إلى جوار السائق وزميله، كانت السيارة مغطاة، وأخيرًا وصلنا إلى وزارة الداخلية، فوقفت فى إحدى الطرقات فى انتظار الأوامر.. ووجدت إلى جوارى فتى صعيديا اسمه محمود.. أخذ يتجاذب معى أطراف الأحاديث، ويحدثنى عن قصة اعتقاله، وخروج أهل القرية جميعا لوداعه، وعن الكلية التى يتعلم فيها، وعن أشياء كثيرة لا أذكر منها شيئًا، وبرز إلينا أحد رجال المباحث العامة، واقترب منى وقال: « أأنت نجيب؟ »

قلت فى هدوء: « نعم ..»

فمد يده مصافحًا وهو يقول: « أهلًا بوزير صحة الإخوان ..»

وضغط على يدى بشدة، نظرت إلى وجهه، كان الغضب والتوعد يتطايران من عينيه، قلت: « لا وزير ولا حاجة.. أنا مجرد طالب ..»

وقال مهددًا: « سوف نرى، عندما تصل إلى السجن الحربى ..»

وبعد إجراءات لا ندرى عنها شيئًا أخذونى إلى السيارة من جديد، كانت مؤخرة السيارة مفتوحة هذه المرة، والشوارع مكتظة بالبشر والسيارات والباعة الجائلين، وأنا ألقى على الجميع نظرة وداع.. أحسست بحرمان من كل شىء.. حتى المبانى والأشجار.. والحيوانات.. وبدا لى أن الدنيا كانت جميلة، وأننى لم أفكر بعمق من قبل فى جمالها وسر ما فيها من كائنات..

ثم بلغنا منطقة العباسية.. والمعسكرات.. والبوابة رقم ٦ الشهيرة، كان الشرطى المقيد معى ينظر حوله فى انبهار، وسمعته يقول: « الظاهر أن مصيبتك ثقيلة.. كان الله فى عونك.. سوف أقرأ لك

الفاتحة وأدعو الله أن ينجيك من هذا الكرب ..»

ووجدتنى أقول وقد اغرورقت عيناى: « لا تنسنى أبدا بدعواتك ..»

قال وهو يجفف عينيه: « بأمر الله ..»

لم أعرف حتى الآن اسم ذلك الشرطى، لكن وجهه الأسمر، وشاربه الأبيض، وملامحه الريفية الدقيقة، ونظراته الطيبة الرطبة القلقة، ونبراته المرتعشة، لم تزل كلها منطبعة فى ذهنى حتى اليوم..

وأخيرًا، وقفت السيارة أمام «البوابة السوداء»، وكان مكتوبًا أعلى البوابة كلمات واضحة: « المنطقة المركزية.. السجون الحربية ..»

وما إن فتح الباب، حتى جاء صوت جندى قريب، فى يده كرباج: « أدخل يا روح امك ...»

لكأنى فى حلم.. هل ما أراه الآن حقيقة أم خيال؟ إننى أحاول أن أهرب من الواقع المحزن، لكنى أرى بعينى وأسمع بأذنى، والسياط تهوى علينا وتؤلمنا، فكيف يكون هذا حلمًا؟

لا مناص من الاستسلام والصبر..

ورأيت ضابطا شابا، يقف عارى الرأس، واضعًا يديه فى جيبى سرواله، وقال فى عنجهية ظاهرة، وكأنه قد أفاق من النوم لتوه: « خذوهم إلى سجن ٤»

وصاح الجندى على الفور: « انتباه.. قفوا فى الطابور ..»

لم نكن سوى اثنين.. أنا وأخى الصعيدى محمود.. وقف محمود أمامى، ووقفت خلفه، ثم نادى الجندى: « للأمام.. معتادًا.. مارش ..»

ومشينا.. لليمين مل.. لليسار مل.. سريعًا مارش.. لليمين در.. كان رأسى يدور.. والأشياء التى أراها كأنى رأيتها من قبل.. هذا المبنى.. هذه الساحة الرملية.. أقسم كأنى رأيتها من قبل.. متى؟ متى؟ لا أدرى.. لكن.. آه.. تذكرت إنها تلك الرؤيا الغريبة.. ذات ليلة.. رأيت نفسى فى مكان شبيه بهذا المكان، وكان هناك من يطاردنى فى عنف وقسوة.. وأنا أجرى وألهث.. وأصعد الدرج.. وأهبط الدرج.. ثم أعود للجرى، ومن خلفى قوم لا يرحمون.. وأفقت من نومى ليلتها وأنا فى غاية الإرهاق والضيق.. وتلفت حولى فى غرفتى، وكم كنت سعيدًا عندما تبين لى أننى كنت أحلم.. وحمدت الله.. لكنى اليوم أرى السجن الحربى شبيها إلى حد كبير بالمكان الذى عانيت فيه من المطاردة فى تلك الرؤيا المزعجة.. أيمكن أن يتطابق الأمر لهذا الحد بين الحلم والواقع.. أنه لأمر محير، لكنه حدث.. ووصلنا إلى باب سجن ٤، وبكلمة السر انفتح الباب.. وأطل علينا وجه الجاويش عبد المقصود الذى عرفنا اسمه فيما بعد..

كانت الزنازين متراصة على هيئة أضلاع مربع.. وفى أحد الأضلاع الباب الرئيسى، وإلى جواره مكتب الجاويش، ثم مكتب الكاتب، وفى وسط الساحة بعض صنابير المياه، وحوض وعدد من « الكابينيهات » لقضاء الحاجة.. وكان السجن من دورين، وهناك درج لصعود الدور الثانى، حيث توجد بقية الزنازين بطبيعة الحال.

وأخذونا إلى حجرة الكاتب، وجاء الجاويش عبد المقصود ومعه العسكرى شعبان.

قال عبد المقصود: « الأمانات ..»

لم نفهم شيئًا، لكن الله أنجدنا برجل طيب، يلبس جلبابا أبيض، وعلى وجهه ابتسامة حلوة، ونظراته توحى بالثقة والإيمان وقال: «إذا كان معكم أموال.. أو مجوهرات.. أو ساعات فقدموها لحضرة الجاويش عبد المقصود ..»

قلت فى نفسى ترى من يكون هذا الملاك الطاهر الذى هبط علينا؟ لكن الشكوك تراودنى. إن ابتسامة هذا «الملاك» قد تخفى وراءها سما زعافا، نحن الآن فى سجن، ولا يصح التسرع فى إعطاء الثقة لأحد..

لم يكن معى سوى الساعة، وسبعة وعشرون قرشًا، قذف بها عبد المقصود فى صندوق الأمانات وهو يقول فى تأفف «مفلس.. فقير ..»، ثم التفت إلى زميلى الصعيدى وسأله عما معه فقال: «خمسة وعشرون جنيها ..»

ودهشت إذ رأيت عبد المقصود يعد النقود بسرعة، ثم يسحب الكرباج، ويهوى على جسد محمود قائلًا: «عشرة فقط يا ثور ..»

- «لكنها خمسة وعشرون ..»

وعاد عبد المقصود إلى ضربه بعنف، وأنا أقف ذاهلًا مأخوذًا.. وتدخل الرجل الطيب، ونظر إلى زميلى نظرة ذات معنى، وقال: «الجاويش عبد المقصود لا يكذب.. اسكت ..»

لقد كان واضحًا أن محمود هو الصادق فيما يقول، لكن الأمر لا يحتاج إلى توضيح. إنهم يسرقون المعتقلين، وهذا «الملاك» الطيب، لا مانع لديه من ذلك، أهو شريكهم، أم أنه يهدف إلى شىء آخر؟ وعاد الجاويش يشوى جسد محمود بالسوط.. ومحمود يتأوه، وسمعت الجاويش يقول: «أنت من الإخوان أم بتاع نسوان؟»

لم ينطق محمود فى البداية، إنه صعيدى، ومن الصعب أن يقبل على نفسه أن يقول أنه زير نساء، أليس مسلمًا؟ ثم، أيعترف بأنه من الإخوان، حتى يكون ذلك بداية لعذاب لا يعرف إلا الله مداه؟ وتشبث محمود بالصمت، واستمر الجاويش فى ضربه بعنف حتى رشحت الدماء من ملابسه، ولما اشتد به الألم صرخ: «ما تراه ..»

- «لن أكف عن ضربك إلا إذا اعترفت بأنك ..»

هتف محمود فى ارتجاف: «بتاع نسوان ..»

ثم طلب منا أن نخلع ملابسنا للتفتيش.. أنقف عرايا؟ لقد جمدنا فى أماكننا لا ندرى ماذا نفعل، فلم يمهلنا عبد المقصود، لقد أخذ يضرب بالسوط على رءوسنا ووجوهنا، ونحن كالمخدرين.. وقال الرجل الطيب: «سوف يخلعون.. هذه هى الأوامر يا إخوان ..»

كان مشهدنا بشعًا يا للعار!! أنقف هكذا كما ولدتنا أمهاتنا؟ ولماذا؟ أدركنا أن المعتقل هنا فى السجن الحربى ليس له الحق أن يسأل، بل عليه أن يطيع إذا صدر له أمر، ويجيب إذا سئل، بل ولا يصح أن يجيب بالصدق، بل أن يكون جوابه طبقا لما يريدون.. وإلا فالضرب حتى الموت، وليس هناك احتمال آخر..

لقد ذابت الأحلام، وأشرقت شمس الواقع المر الأليم، كنا نظن أن السجن بطولة وشرف ورجولة،

وأن صاحب الرأى له مكانة يجلها الناس، حتى الأعداء، لكننا الآن نرى الاحتقار والإساءة، دون وازع من خلق أو ضمير، وكأن اختلاف الرأى جريمة بشعة، بل خيانة أو جنون أو شذوذ، إن كل ما قرأته من مذكرات ومؤلفات عن الحرية والأحرار والبطولة يبدو أنها كانت هراء، إن ما يمارسونه معنا يدفع الإنسان دفعًا للتفكير فى كل شيء من جديد، هل الحرية هراء؟ هل المبادىء مجرد شعارات وحبر على ورق وخطب طنانة؟ وهل يستطيع الإنسان فى هذا الجو البشع أن يحب وطنًا، أو يقدس مبدأ، أو يضحى من أجل قيمة، أو يتغنى بالحرية؟ كانت لحظات رهيبة، تهز النفس هزا عنيفا، وتربك الفكر أيما إرباك..

وأشار الجاويش عبد المقصود، بيده، وقد جلس فوق كرسى خشبى خلف مكتب رث، وقال: « خذهم يا دكتور لغرفة الحلاقة ..»

وسار الرجل الطيب « الدكتور » أمامنا، ونحن خلفه، وصاح الجاويش مرة أخرى: « خطوة تنظيم.. معتادًا مارش ..»

وقال الدكتور بصوت هامس: « افعلوا ما يأمركم به ..»

كانت الأوامر أن تحلق الرءوس تمامًا، بماكينة « زيرو ».. تمامًا مثلما كنا نشاهد المتهمين فى التليفزيون، وعلى صفحات الجرائد..

قال الدكتور وهو يحلق لنا: « أنا أخوكم الدكتور مصطفى أبو العينين ..»

هتفت فى دهشة: « معتقل؟ »

- « نعم.. معتقل مثلكم.. أنا هنا منذ عشرة شهور.. وعلاقتى بالجاويش طيبة.. وأنا حريص على ذلك، لعلى أستطيع أن أروّضه.. إنهم هنا كالوحوش.. ولا مفر من أن نعايشهم ونحاول مصادقتهم، لعلنا نجعلهم يخففون بعض الشيء من قسوتهم.. ثم ترنم ببيت من الشعر يقول:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يري

عدوا له، ما من صداقته بُد

ثم استطرد الدكتور مصطفى أبو العينين قائلًا: « إنى أعرف جميع القضايا التى يحققون فيها الآن.. ويسعدنى أن أساعدكم، وأوضح لكم الأمور.. وبصفة عامة الإنكار هنا لا يجدى.. فإذا كان هناك من اعترف بشيء عن واحد منكم، فلابد من الاعتراف به.. الإنكار معناه الضرب حتى الموت.. أنصحكم أن تختصرون الطريق، وتوفروا على أنفسكم المتاعب.. السجن الحربى لا يعرف الرحمة، والعساكر هنا ليست إلا آلات تنفذ ما يطلب منها ..»

عادت تراودنى الشكوك مرة أخرى حول شخصية الدكتور، إننى لم أعرفه من قبل، وازدادت شكوكى حينما قال: « هنا قضية التبرعات، وفيها سليمان حجر، ومحيى الدين عطية، وغيرهما وهنا قضية الهاربين وفيها الأستاذ أحمد البس، ومحمد يوسف هواش، وعبد الكريم عطية وغيرهم، وهنا قضية جهاز « عبد المنعيم سليم ....» .. و ...»

ودق قلبى، لم أعد أسمع شيئًا، تذكرت علاقتى ولقائى مع عبد المنعم.. وبدا الارتباك على وجهى وفى حركاتى، وقال الدكتور فى ذكاء: « هل تعرف عبد المنعم سليم؟ »

قلت بانفعال: « لا.. لا.. كيف أعرفه ..»

- « إذا كان هو يعرفك، فلا مفر ..»

- « ماذا تعنى ..»

- « الإنكار لن يجدى ..»

- « لكنى لم أفعل شيئًا أحاسب عليه ..»

- « هذا من وجهة نظرك أنت ..»

قلت فى نفسى ما دام الدكتور ملما بهذه المعلومات كلها، فيجب الحذر، وأخيرًا أخذونى إلى غرفة خالية، جلست وحدى أفكر فى هذه المصيبة التى بدت نذرها، وبعد نصف ساعة تقريبًا، سمعت من يهتف باسمى بصوت خفيض، وينقر نقرات خفيفة على باب الزنزانة، ونهضت من مكانى مسرعًا، ونظرت من خلال العين الزجاجية المثبتة فى الباب الخشبى السميك، وكم كانت دهشتى عندما رأيت أخى وصديقى « محمود بسيونى عميرة » الذى يسكن معنا فى المدينة الجامعية.. لم أكن أعرف أنه قد قبض عليه هو الآخر، وهتفت مستنجدًا: « ما الحكاية يا محمود؟ »

كان يتكلم معى دون أن يلتفت إلى الباب المغلق، وكان يمسح الأرض بقطعة خيش قديمة مبللة بالماء، وسمعته يقول: « لماذا لم تخبر الدكتور مصطفى بموضوعك؟ كان فى إمكانه أن يساعدك ..»

- « إنه يدعونا لكى نعترف ..»

- « هل لك علاقة بعبد المنعم سليم ..»

ووجدتنى أقول فجأة دون تفكير: « نعم ..»

بدا الألم على وجهه وقال: « إذن لا مفر من الموافقة على ما قاله فى حقك ..»

- « ماذا قال؟ »

- « لا أدرى.. لكن الذى أعرفه أنه تعرض لضغوط شديدة.. وأنه أوضح كل شىء.. وحضورك هنا يعنى أنه ذكر العلاقة التى تربطكما.. وليس من الحكمة أن تنكر شيئًا.. ومع ذلك فسوف أحاول الاتصال به لأعرف ما يخصك فى اعترافاته ..»

ازدادت همومى وشجونى، وشعرت كأن رأسى يوشك على الانفجار، وتلفت حولى باحثًا عن مخرج، الغرفة ضيقة والنافذة ذات القضبان الحديدية المتقاطعة تقترب من السقف، والباب مغلق، والمستقبل يبدو كئيبا غامضًا، هأنذا فى مصيدة جديدة أكاد أختنق فيها.. آه.. متى يعود محمود بسيونى عميرة بالخبر اليقين، من عبد المنعم سليم؟ وجاءنى صوت أم كلثوم من الإذاعة الداخلية للسجن يقول:

أنـا وحـبـيـبـى يـا لـيـل غـايـبـيـن عـن الـوجـدان
يـطـلـع عـلـيـنـا الـقـمـر ويـغـيـب.. كـأنـه مـا كـان

وأنا غارق فى هواجسى وأحزانى وجزعى، قلت لنفسى:

« أين الإيمان؟ أين الصبر؟ » أكنت تظن أن الأمر مجرد رحلة ممتعة سلسلة؟ ألا تؤمن بأنه لابد من التضحيات، وأن الخير والشر فى صراع دائمًا؟ ألم تقرأ: ﴿.. أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ إن الأزمة لا شك عنيفة ومباغتة، لكن لابد من الصمود والتحمل مهما كان الأمر،

والموت لا بد أن يأتى اليوم أو غدًا، ففيم الخوف والأسى والحسرة؟ وتذكرت أن الظهر قد وجب.. وفكرت كيف أصلي؟ ولأول مرة أتذكر التيمم.. ولم أضيع وقتا.. تيممت ثم رجحت مكان القبلة.. وأخذت أصلى والدموع تنسكب من عينى.. وجلست أسبح الله بعد الصلاة.. لكن حركة مباغتة عنيفة، وعبث بالباب أيقظانى من شرودى، وفتح الباب..

وقذف العسكرى باثنين من الرجال إلى الداخل، ثم أغلق الباب مرة أخرى على الفور.. نظرت إليهما وكأنى عثرت على كنز.. وقمت أحتضنهما وأبكى.. أحدهما كان الأخ «أحمد حامد» من الشرقية.. والثانى أكبر سنا.. يبدو عليه الهزال والكبر، ولا أتذكر اسمه الآن.. شعرت بالأنس بعد الوحشة.. كان أحمد حامد متين البنيان، قصير القامة، تبدو عليه سمات الشجاعة والثقة وعدم الاكتراث بشىء، رأى الدموع فى عينى فقال: «المؤمن الحق قوى بربه ..»

قلت – «أجل ..»

قال – «وقضاء الله نافذ، ولن تغيره الدموع ..»

قلت – «صدقت ..»

– «والله أقوى منهم ..»

– «انهم لا يعرفون الله»

– «لكننا نعرفه، ونستعين به ..»

واقترح علينا أحمد أن نقرأ ما نحفظه من القرآن، وأن نقرأ المأثورات – وهو يحفظها جيدًا – وأن نقضى وقت الفراغ فى الذكر والتسبيح، لأن هذا أجدى من التحسر والبكاء والاستماع لوسوسة الشيطان..

عندما دخلت سجن ٤ لأول مرة، كان السجن موحش الصمت كالقبر، حتى حسبت أنه لا يوجد به أحد سوى العسكر والدكتور مصطفى، لكننى منذ لحظات سمعت صفارة عالية، وصوتا يقول: «افتحوا الزنازين ..»

كان صوت الجاويش عبد المقصود بالطبع..

وفى دقيقة كانت الأبواب مفتوحة، والسجن مكتظ بمئات المعتقلين، وأخذت أجول بنظراتى هنا وهناك، لقد وقعت عينى على عدد غير قليل من الإخوان الذين أعرفهم، ورأيت رجلًا يقف عاريًا وسط الساحة، وجسده كله كدمات.. حتى لا يستطيع أن يميز أى إنسان ملامحه.. وقال عبد المقصود فى عنجهية: «انظروا إلى «الصباغ».. حضرة الناظر المحترم.. لقد رفض أن يتكلم.. والنتيجة كما ترون.. والمصيبة أنه اعترف بكل شىء فى النهاية.. وبماذا اعترف؟ كان يجمع تبرعات.. شىء مضحك.. هل هذا يستحق الإنكار؟ لو كان يدبر مؤامرة لاغتيال الرئيس.. لكان الإنكار معقولًا ..»

اسمعونى جيدًا... «ثم لوح بسوطه».. ليس فيكم من يستعصى عليّ.. أنا عبد المقصود.. الكل يعرفنى..

والآن قفوا طابورًا لتتسلموا «التعيين»

وفهمت فيما بعد أن التعيين يعنى «وجبة الغداء»، وحمل كل واحد طبقًا، وذهبنا لأخذ

« العدس » والخبز.. لم يكن لدى أدنى شهية للطعام، أما الأخ أحمد حامد فقد سمى باسم الله، وأخذ يلتهم الخبز والعدس فى شهية ويقول: « كل يا رجل.. إن لم تأكل اليوم فستأكل غدًا ..»

وأردف زميلنا الثالث قائلًا وهو يبتسم ابتسامة خفيفة: « اللى ياكل على ضرسه.. ينفع نفسه ..»

وأكلت بضع لقيمات، وكأنى أمضغ قشا لا طعم له، لقد بقيت مكتئبا أشد الاكتئاب، ويبدو أن انتظارى لأخبار عبد المنعم جعلتنى أبدو قلقا حائرًا، وقبيل العصر سمعت صوت أخى محمود بسيونى عميرة.. ونقراته الخفيفة على الباب.. هرولت إلى خلف الباب المغلق، وهتفت فى تلهف وعجلة: « ماذا قال عبد المنعم؟ »

- « قال إنك قد بايعته ..»

- « ماذا؟ »

- « قلت البيعة.. هل حدثت؟ »

لم أجب..

وعاد محمود يقول: « وسوف يسألونك عن السلاح.. مجرد سؤال تقليدى.. فهم متأكدون أنه ليس لديك أى سلاح ..»

وانزلق محمود فوق بلاط السجن مسرعًا قبل أن يره أحد.. ووقفت صامتا شاحبًا، ويبدو أن الأخوين قد سمعا كل شىء.. فقد قال أحمد حامد: « أنت لست إذن من الجهاز التمويلي؟ »

- « نعم ....»

تنهد ولم يعلق، ولم يكن خافيا أن مشكلتى عويصة، لأن هذا النوع من القضايا تلصق به عادة شكوك واتهامات خطيرة. ولا يمكن مقارنته بالجهاز التمويلى أو جمع التبرعات، وشعرت بثقل المسئولية الملقاة على عاتقى، انتهى الأمر ولا يمكن استدراك ما فات، إننى أبدو كالمحاصر من كل جانب، لكن هل الأمر على هذا النحو من السوء واليأس؟ لم يزل أمامى ثغرة صغيرة جدًا.. إننى لم أرتكب فعلًا يمكن أن أحاسب عليه، ووجدتنى أشد ضيقا من ذى قبل، وأنا أقلب الأمور بينى وبين نفسى، فعزمت على أن استنير برأى الأخوين معى، فأوضحت لهم موقفى وطريقة دفاعى عن نفسى، قال أحمد حامد بهدوء: « فى مثل هذه المحاكم ينظر إلى الشروع فى العمل، أو حتى مجرد التفكير فيه جريمة كاملة، والأدهى من ذلك أن المسألة عندهم ليست مسألة قانون ولوائح، بل يقال إن الأحكام تكون عادة موضوعة وجاهزة حتى قبل المحاكمة.. وأرى أن تترك الأمر كلية لله.. فليس لنا فى الأمر حيلة ..»

قلت لأحمد: « ألا تعتقد أن وجود محامٍ للدفاع عنى قد يفيد؟ »

رد بحسم: « إنهم لا يسمحون بذلك ..»

- « هذا حقى ..»

- « ليس لك أية حقوق هنا.. وهل من حقهم تلك السياط التى بأيديهم.. نحن فى قبضة قوة غاشمة قاهرة لا ترحم.. تعرفون أن للمجرمين فى أية دولة حقوق فى الدفاع عن أنفسهم.. أين هذه الحقوق هنا بالنسبة للمتهمين.. بل ما جريمة المعتقلين الذين لم توجه إليهم أية اتهامات منذ ما يقرب من عام؟ يجب أن تفيقوا وتفهموا من هم ومن نحن ومن شعبنا المقهور ..»

لم يعد أمامى سوى الاستسلام لقضاء الله وقدره، إنه ابتلاء ولا أمل سوى أن أصبر حتى يتغمدنى الله برحمته..

أم كلثوم تغنى بصوت عالٍ مسموع، والشمس تميل نحو المغيب. وأنا أنتظر الاستدعاء للتحقيق، كم من الوقت سأنتظر الاستدعاء للتحقيق، كم من الوقت سأنتظر؟ الله أعلم، وكلما سمعت العسكر ينادون الأسماء، أرهف السمع جيدًا، حتى لا يفوتنى سماع اسمى إذا ما رددوه، لأن من لا يرد على الفور يلق العذاب ألوانا..

عند المغرب فتحوا الأبواب للذهاب إلى دورة المياه، كان علينا أن نندفع مسرعين إلى المراحيض، فالسياط تلهب ظهورنا ورءوسنا ووجوهنا، والمدة المسموح بها فى المرحاض لا تزيد عن دقيقتين، كيف يتم الغوط فى هذه الفترة الوجيزة؟ إن من يتخلف عن الخروج بعد الدقيقتين عليه أن يتلقى عددًا لا بأس به من الكرابيج حتى يجرى، ولا يهم إن كان قد أدى مهمته أم لا، ومن الضرورى أن نتعود على ذلك كما يقول المعتقلون القدماء، وجاء وقت العشاء، فذهبنا وكل واحد معه طبقه، والعسكر يوزعون ضربات السياط هنا وهناك، كان العشاء فاصوليا مطبوخة.. يجب أن يمسك المعتقل بالطبق جيدًا، لأنه لو سقط منه فستكون كارثة.. حدث أن الأخ محمد خليل الطويل – طالب بكلية طب عين شمس – كان يجرى ذات مرة وبيده طبق العدس، فسقط الطبق وانقلب ما فيه على الأرض، فوقف حائرًا لا يدرى ماذا يفعل، وأتى العسكرى مسرعًا، وهوى بالسوط على رأسه قائلًا: « اجلس.. والحس العدس بلسانك.. كالكلب ..»

تباطأ محمد قليلًا، لكن توالى السياط جعله يقعى على ركبتيه ورجليه، ثم ينكس رأسه ويلعق العدس ممزوجًا بالتراب.. حتى أصبحت الأرض نظيفة تمامًا.. ثم وقفت، وقال العسكرى وهو يضحك: « شبعت؟ »

قال محمد وهو يؤدى التحية العسكرية – حسب الأوامر – ويضرب قدميه الحافيتين أحدهما بالآخر: « الحمد لله يا افندم ..»

كان مشهدًا مؤلمًا، إنهم يتفننون فى الإيذاء والإيلام، أيمكن أن يحدث هذا فى القرن العشرين.. وفى بلد مسلم؟! ومحمد الطويل نال للعلم حكمًا بالبراءة مع الإفراج فورًا.. لكن « فورًا » هذه لم تتحقق إلا بعد زمن طويل حينما أفرج عنه مع باقى المعتقلين فى عام ١٩٥٦، بعد إغلاق محكمة الشعب.

وبقيت أنتظر سماع اسمى ثلاثة أيام أخرى..

وقبل أن أخرج للتحقيق، فتح الباب ذات مساء، ودفع باثنين آخرين من المعتقلين الجدد، ونظرت إلى وجهيهما.. وكم كانت دهشتى إنهما أحمد سلام ومحمود جبريل، اللذان كانا معى فى التخشيبة « الحجز » الليلة الأولى بمدينة طنطا.. والغريب أننى هتفت فى فرح: « أحمد .. محمود؟ »

فهتفا معًا: « نجيب؟ »

– « شرفتم الديار ..»

وابتسمنا لأول مرة.. أصبحنا خمسة.. إن أفواج المعتقلين الجدد لا تنقطع، وعلمت من الإخوة أن

هناك معتقلين في سجن القاهرة، وفي القلعة، بالإضافة إلى المساجين في سجون طرة وأبو زعبل والقاهرة وبني سويف والمنيا وأسيوط وقنا والواحات الخارجة..

لم أكن أستطيع النوم مخافة أن ينادوا اسمي فلا أسمع، لكن النوم غلاب، فأحيانًا كنت أغفو وأنا جالس، على الرغم مني، وحاولنا أن نقسم النوم بيننا، بحيث ينام الجميع، ويبقى أحدنا مستيقظًا، لكن الخطة لم تنجح النجاح المرتقب، فكان المعتقل المستيقظ يغلبه النوم في بعض الأحيان، وأذكر أن الباب فتح علينا ذات ليلة والعسكري يصيح في غضب سائلًا عن بعض المعتقلين.. لقد سألني عن اسمي.. أقسم أنني لم أستطع النطق به.. لكأنما نسيت من أنا.. كنت كالتائه، بين اليقظة والمنام، لكني واقف أؤدي التحية العسكرية.. وافقنا تمامًا على لذع السياط.. واستطعت أخيرًا أن أنطق باسمي.. وخرج العسكري غاضبًا ثم أغلق باب الزنزانة مرة أخرى..

كانت فترة انتظار التحقيق قاسية على نفسي، بل علينا جميعًا.. لقد أصبحت أتمنى أن ينتهي الأمر مهما كانت النتيجة.. لم أعد أبالي بأي شيء.. حتى الموت أصبح في نظري أمرًا لا يخيف.. كانت فترة الانتظار أيامًا قليلة..

لكن عذابها بدا طويلًا مرهقًا فوق الطاقة والاحتمال.. وهل أمامنا من وسيلة سوى أن نضرع إلى الله؟

نحن نذهب إلى دورة المياه مرتين يوميا.. مرة في الثالثة صباحًا، حيث نتلقى الوجبة الأولى من السياط، والشتائم المقذعة التي تتناول المعتقل وأباه وأمه ودينه، ونذهب خمسة خمسة إلى المراحيض.. ولا يستغرق الأمر دقيقتين، ثم نعود إلى الغرف لكي نتيمم ونصلي.. وقبيل السابعة نخرج لنأخذ طعام الفطور.. ونعود بسرعة البرق.. وفوق رءوسنا السياط.. ويا ويل من يُضبط وهو يتكلم مع أخ له في الطابور.. أذكر أنني رأيت بالقرب مني صديقًا قديمًا فابتسمت له، وحييته بهزة من رأسي من بعيد.. ومن سوء الحظ أن رآني العسكري « محمد عبد الحليم ».. لا أريد أن أشرح ما جرى.. يكفي أن أقول أن الصفعات المتلاحقة قد أفقدتني السمع في أذني اليسرى لمدة عشرة أيام تقريبًا.. بسبب انثقاب في طبلة الأذن..

ومر علينا في هذا الأثناء « طبيب السجن الحربي ».. لقد فتحوا علينا الزنزانة.. فانتصبنا واقفين انتباه.. وأدينا التحية العسكرية، ونحن نهتف بأعلى صوت « تمام يا افندم » كان الطبيب أنيقًا.. بض الوجه.. متناسق السمات، واضعًا يده في جيب سرواله العسكري، وألقى علينا نظرة عابرة وهو يقول « اجلس يا بني انت وهو ..».. كان محرمًا علينا أن نطلب من الطبيب شيئًا.. أو نشكو من أي مرض.. العسكر وحدهم في بعض الظروف، ولضرورات لا تعرفها قد يبلغون عن معتقل يوشك على الموت.. ومن ثم ينقلونه إلى « الشفاخانة ».. وهي كلمة تعني المستشفى جوازًا.. ونحن في الفلاحين نطلقها على المستشفى البيطري الذي يعالج الحمير..

والواقع أنني كثيرًا ما فكرت في موقف هؤلاء الأطباء الذين يرون بأعينهم التعذيب المبرح والقتل ولا يفعلون شيئًا.. لقد حدث هذا في معظم السجون سواء أثناء التحقيق، أو بعد صدور الأحكام، يستوي في ذلك الأطباء المدنيون والعسكريون، وأطباء الشرطة، وقد أجد الفرصة لسرد بعض الوقائع في

حينها، وأذكر أن واقعة مشابهة حدثت فى جنوب أفريقيا، وكانت النتيجة أن نقابة الأطباء التى ينتمى إليها الأطباء المتواطئون قد شطبت أسماءهم وقدمتهم للمحاكمة.. أما فى مصر فلم أسمع عن توجيه الاتهام لأى طبيب من هذا النوع.. ومن عجيب الصدف أننى التقيت ببعض أطبائنا العاملين سابقًا فى السجن الحربى والسجون المدنية إبان فترة عملى فى دولة الإمارات.. وعشنا أصدقاء.. ولسنوات طويلة.. وكنا نتسلى بالذكريات المحزنة..

لكن ما قصتى مع أخى عبد المنعم سليم؟ أو بمعنى أصح ماذا كانت القضية؟ بعد الضربة العنيفة التى وجهها عبد الناصر لجماعة الإخوان، والتصرفات البشعة التى قاسى منها المعتقلون والسجناء وأسلوب المحاكمة بعدة شهور.. قابلنى عبد المنعم سليم وقال: « طبعا تعرف ما يجرى ..»

- « أجل ..»

- « ونحن لا نحرك ساكنًا ..»

- « على الأقل نواصل المسيرة.. ومن المستحيل أن نتخلى عن مبادئنا.. ويجب أن نستمر فى دراستنا، وتوثيق العلاقة بيننا، فليس هذا نهاية المطاف ..»

كان يتكلم بجدية وإصرار، والصرامة والأسى يبدوان على وجهه، وتحدثنا عن الرقابة الشديدة، والمطاردة المستمرة، وعيون الشرطة التى فى كل مكان، والواقع إننى كنت فى هذه الفترة منهمكًا فى الدراسة، إلى حد كبير، ولم يكن لى نشاط يذكر اللهم إلا دفع الاشتراكات الشهرية التى ترسل لأسر المعتقلين والمسجونين، وتبادل الأخبار، وصلات الصداقة العادية بيننا..

وبدا واضحًا أن عبدالمنعم يريد العودة للنشاط السياسى القديم.. لقد ترددت فى بداية الأمر.. لكنى شعرت أن التقاعس يأس، والتردد جبن، ووجدتنى أوافقه على فكرته.. كان ذلك أثناء النصف الأول من عام ١٩٥٥.. وذات مساء أخذنى عبد المنعم إلى غرفته، وبعد أن جلسنا قليلًا.. وتحدثنا حول بعض الأمور العارضة، وجدته يخرج مصحفًا. ثم يضعه أمامنا.. ويقول « أقسم ..»

دهشت فى البداية.. كان الأمر مفاجأة تامة بالنسبة لى..

ووضعت يدى على المصحف قائلًا: « أقسم بالله العظيم أن ألتزم بكتاب الله، وأن أضحى فى سبيل الإسلام بكل ما أملك، فى المنشط والمكره.. والله على ما أقول شهيد ..»

ووجدت تحت المصحف مسدسًا..

كان جسدى يرتجف.. لم أكن مهيئًا لهذا الأمر.. جاء دون توقع منى.. وانصرفت ليلتها، والأفكار تعصف برأسى.. لم أستطع النوم حقيقة.. وخفت حدة انفعالى بعد ذلك يومًا بعد يوم..

كانت نهاية العام الدراسى قد اقتربت.. وانشغلنا فى الامتحانات، ونال عبد المنعم ليسانس كلية الآداب « قسم الجغرافيا » بتفوق.. وانصرف كل منا لحال سبيله.. هو إلى محافظة الشرقية.. وأنا إلى محافظة الغربية.. ولم يكن لنا نشاط يذكر قبل الافتراق اللهم إلا تبادل بعض الكتب والمنشورات والأخبار.. وحمدت الله على أن انتهى الموضوع عند هذا الحد، وانحل التنظيم الذى حاول عبد المنعم إنشاءه من تلقاء نفسه، وتخففت من عبء التوتر الذى ظل يلاحقنى حتى انصرف كل منا إلى حال سبيله.. كانت قناعتى الوحيدة فى تلك الفترة وما بعدها أن أظل محافظا على انتمائى الإسلامى سلوكًا

وثقافة ودعوة، لكنى كنت مؤمنا أن مقابلة عنف الحكومة بعنف منا مآله الفشل والدمار، وسوف يؤدى إلى مزيد من الكوارث.. ولم يكن لدى أدنى تردد أو شك فيما انتويته.. ونسيت الموضوع..

حتى كان يوم ١٩٥٥/٨/٧ حينما فوجئت بمصطفى بك قنديل يلقى القبض عليّ.. كان الأمر حقيقة مدعاة للدهشة بالنسبة لى.. فمن سوف يصدقنى عندما أقول أن الرباط التنظيمى قد انتهى مع عبد المنعم منذ شهور.. منذ أن افترقنا؟ وتساءلت بينى وبين نفسى. من الذى حرك هذا الحدث الذى انتهى بالنسبة لى على الأقل؟ ولم أعرف الإجابة على هذا السؤال إلا بعد التحقيق، إذ وشى أحد المندسين بعبد المنعم، فجاء سيل الاعترافات، وتضخيم الموضوع، واعتبار هذا التجمع الذى انتهى تنظيما سريا، يهدف إلى قلب نظام الحكم بالقوة والعنف..

وحانت ليلة التحقيق.. سمعت اسمى يجلجل ليلًا فى ساحة السجن.. فصحت بأعلى صوت وأنا أدق باب الزنزانة بقبضتى المتشنجة «أفندم».. واقتادنى العسكرى إلى الفناء الواسع.. كان الصمت يرين على المكان.. وعيناى زائغتان لا تريان شيئًا على وجه التحقيق.. كل ما أمامى يبدو كأشباح الرؤى.. «سريعًا مارش»، قالها العسكرى، فجريت.. بين السجون الحربية الأربعة..

لم أكن أشعر بأدنى ألم للسياط التى تهوى على جسدى من الخلف.. وبينما كنت أجرى ذاهلًا، انطلقت صرخة فى العتمة مع ضربة شديدة على السلاح: «قف.. من أنت».. كلمة السر..»

توقفت.. وسمعت العسكرى من خلفى يقول ساخرًا: «أمين.. يا روح أمك..»، وتضاحكا.. ثم أمرنى العسكرى بالجرى سريعًا مرة أخرى..

وأخيرًا وصلت إلى الساحة الرهيبة..

لا أريد أن أطيل فى وصف المكان والناس والإجراءات، حسبى أن أشير إلى الأجساد العارية التى مزقتها السياط، والتى تنزف دمًا، وإلى أصوات الاستغاثة والبكاء والدموع والضراعات والاسترحام.. وإلى المربوطين فى «العرائس الخشبية»، وإلى المغشى عليهم فوق الرمال الصفراء المخضبة، وإلى الأسئلة التى يلقيها المحققون والأجوبة التى يخرجها المتهمون..

كان مشهدًا رهيبًا.. اهتز له جسدى وقلبى.. أين المخرج من هذه الكارثة؟ وهل كل الناس هنا مثلي؟ ومن الأمور المضحكة أن يفكر الإنسان فى أمر يبدو غير ذى قيمة فى هذه اللحظات.. مثلًا.. قلت لنفسى لو كتبت لى الحياة، فإنى أعاهد الله أن أنقل هذه الصورة بقلمى للأجيال التى تعاصرنى، والتى سوف تأتى من بعدى.. كان مجرد التفكير فى هذه اللحظات بالذات، وفى مثل تلك الموضوعات يبدو عبثًا.. لماذا؟ لأن المأساة التى أوجد فى قلبها أكبر من أى وصف، ولأن الجلادين هم الآن أقوى وأرسخ بصورة تدعو إلى اليأس من التخلص منهم، بل التغلب عليهم، ثم من أدرانى أننى سوف أفلت من هذا الجحيم؟ لو نجوت.. فسيكون ميلادًا جديدًا، بل عمرًا زائدًا كتبه الله لى.. واتجهت بتفكيرى إلى من ليس لى غيره فى هذه اللحظات الرهيبة.. إلى الله، علمتنى زوجة جدى من قديم أن أقرأ آية «الكرسى» فى الأزمات والخطوب الداهمة، وأخذت أردد الكلمات الطاهرة.. فينداح صداها إلى قلبى وروحى.. ربما تساءلت: لماذا يترك الله سبحانه وتعالى هؤلاء القوم يفعلون ما يفعلون؟ لكنى استغفرت الله، واستعذت به من الشيطان الرجيم.. وتساءلت مرة أخري: لماذا لم أعش كما يعيش الناس

بعيدًا عن هموم العمل السياسى والعقائدي؟ إن عشرات.. بل مئات الأسئلة تداهم الإنسان فى هذه الأوقات العصيبة الحرجة، ويحاول الإنسان جاهدًا أن يهرب من إلحاح السؤال، حتى لا يقع فى مظنة الندم، وشبهة اليأس، وضعف الإيمان، ولا أدرى أطال الوقت أم قصر فى تلك الساحة الدامية الرهيبة، كنت أقف ووجهى للحائط وذراعى إلى أعلى، ولا أدرى متى يهوى السوط على جسدى..

وساقنى العسكرى إلى مكتب جانبى، وأمام المكتب أخذ يكيل لى الضربات، ليدلل أمام المحقق على اجتهاده وقيامه بالواجب نحوى.. لست أدرى شيئًا عن الساعة فى هذا الوقت.. أكانت الحادية عشرة مساءً.. أو الواحدة بعد منتصف الليل.. أو أقل أو أكثر.. لا أدرى.. لا قيمة للزمان والمكان.. كان الموقف الرهيب وانعكاساته النفسية هو كل شيء..

لم أستطع أن أتفرس فى وجه المحقق.. كانت هناك إضاءة قوية جدًا موجهة إلىّ بحيث يصعب أن أفتح عينى جيدا، وكان المحقق خلف اللمبة الكهربائية المضاءة بقوة..

قال المحقق بهدوء للعسكرى: « كفى.. اتركه ..»

ثم استدار نحوى متسائلًا وهو يكتب: اسمك.. عمرك.. عملك.. بلدك.. هل دخلت الحرس الوطنى وتدربت على الطوابير وحمل السلاح؟ هل اشتركت فى معسكرات الفدائيين فى القنال أو فلسطين؟ هل انضممت لفريق الجوالة بكلية الطب؟ هل كان فى بلدكم شعبة للإخوان المسلمين؟ وهل نشاطك كان فى الشعبة أو فى جامعة القاهرة أم فى المدينة الجامعية؟

قال لى المحقق: « متى دخلت الإخوان المسلمين؟ »

قلت دون وعى: « بعد محنة ١٩٤٨»

وكم كانت دهشتى عندما رأيت يد المحقق التى كانت تجرى على الورق بالقلم تتوقف عن الحركة، ثم يدق على المكتب بيده فى غضب ويقول: « محنة؟ ماذا تقصد بكلمة محنة؟ أتقتلون النقراشى باشا ثم تأتى الحكومة لتؤاخذكم بما أجرمتم، فتسمون ذلك محنة؟ أتحاولون اغتيال الرئيس عبد الناصر، ثم تأتى الحكومة لتؤدبكم فتقولون عن ذلك محنة؟ أتنسفون وتقتلون وتدمرون.. ثم تقدمون للمحاكمة فتعتبرون ذلك محنة؟ »

قلت فى ألم: « آسف.. لم أقصد ذلك بالضبط ..»

– « ماذا تقصد يا حضرة الأخ؟ »

– «أقصد أننى دخلت تنظيمات الإخوان فى عام ١٩٥٠...»

قال فى غضب: «إن فلتة اللسان هى التى تبين عما فى نفوسكم.. أنت تستحق خمسين كرباجا ..» ولم يكد يكمل عبارته، حتى انهالت السياط على رأسى العارى الحليق، لكنه أشار بيده على الفور إلى العسكرى كى يكف عن الضرب.. يبدو أن هناك « منعكسًا عصبيا » بين الرأس والعينين.. فقد شعرت أن قطرات تنسكب من عينى، على الرغم من أننى لم أكن أبكى..

وعاد المحقق إلى القلم: وقال: « هيه؟ ولماذا دخلت الإخوان؟ »

– « كنا نبحث عن طريق نخدم به الوطن.. وكانت الأحزاب كما تعلم.. قاطعنى قائلًا: « أنتم ألعن من الأحزاب ..»

ولست أدرى لماذا توقف عن الأسئلة ذات الصلة بالقضية، ثم وجه إلىّ سؤالًا لا أتوقعه إذ قال: « هل الجلباب الذى تلبسه جلبابك »

دهشت، لأن الجلباب فعلًا ليس جلبابى، فقد اتسخ السروال والقميص النصف كم، وتبرع لى أحمد سلام زميلى فى الزنزانة بواحدة من جلابيبه، وكان أحمد أطول منى قامة، ولهذا كان الجلباب طويل الأكمام، ويلامس الأرض عند الأقدام..

قلت: « لا ..»

- « من أين أتيت به؟ »

- « أعطاه لى أحد المعتقلين ..»

قال فى غضب: « يا أولاد الـ.. ألا تكفوا عن الأخوة فى الله؟ ...»

قالها بأسلوب عامى غاضب فيه الكثير من التهكم..

ثم انتقل بعد ذلك إلى صلب الموضوع.. ما هى صلتك بعبد المنعم سليم؟ وهل أخذ عليك البيعة أم لا؟ كان معنى إقرارى بالبيعة الإدانة التامة، ثم الحكم بالسجن.. لهذا رأيت من الأفضل أن أنكر الواقعة.. خرج من خلف مكتبه وواجهنى لأول مرة، حيث رأيت وجهه جيدًا، وقال لى وهو يجذبنى من كمى الطويل المدلى: « لن يفيدك الإنكار.. وسوف نواجهك بعبد المنعم.. بل لن نحتاج إلى ذلك.. أنا واثق أنك ستعترف.. انظر خلفك.. إخوانك هناك اعترفوا بكل شىء.. منهم من ظل معاندًا يومًا.. أو يومين أو ثلاثة.. أو أسبوعين.. لكنهم يعترفون فى النهاية ..»

وبرز إلىّ رجل أشعث الشعر كالشيطان، وأخرج من حقيبة جلدية فى يده مسدسًا.. لم أعرف الرجل.. وجه المسدس صوب بطنى.. وقال: « أستطيع أن أقضى عليك فى لحة.. أنتم لا قيمة لكم بالمرة ..»

لست أدرى لماذا وقفت جامدًا دون أن يبدو على الخوف من المسدس، ربما كان السبب هو أننى لم ألحظ ملامح الجد على وجهه أو فى نبراته، لكنى استدركت على الفور، معنى عدم خوفى معنى خطير.. يجب أن أتظاهر على الأقل بالخوف، وسرعان ما تراجعت للخلف.. وأظهرت قدرًا من الانزعاج المفتعل.. ثم رأيته يعيد المسدس إلى الحقيبة.. بعد أن قال المحقق: « أعتقد أنه سوف يتكلم يا حمزه بك ..»

وعرفت أنه حمزة البسيونى، قائد السجن الحربى، الذى طبقت شهرته الآفاق فى العنف والتعذيب.. قال المحقق: « حسنا.. ماذا قلت فى القسم.. قسم البيعة ..»

- « اقسم بالله العظيم أن أئتمر بما أمر الإسلام، وأن أنتهى عما نهى عنه، والله على ما أقول شهيد ..»

أردف المحقق قائلًا: « وأن تحمى الدعوة بالدم.. فى المنشط.. وفى المكره.. قل.. أكمل ..»

- « لن أزيد عما قلته حرفًا ..»

- « هل كان لك قسم خاص بك ..»

- « هذا ما أقسمت عليه ..»

لم يكترث بما قلته، ولكنه أخذ يضيف كلامًا كثيرًا من عنده، وأنا واقف صامت لا أدرى ماذا يكتب.. ثم عاد يقول: « والمسدس؟ »

- « لم يكن هناك مسدس .. »

- « عبد المنعم يؤكد .. »

- « ربما نسى .. »

وأخذ المحقق يكتب كلامًا كثيرًا، لم أستطع أن ألتقط منه حرفًا لشدة الضوء الموجه إليّ..

وأخيرًا قال المحقق بصوت جلى واضح: « أنت متهم بالاشتراك فى تنظيم سرى مسلح بهدف قلب نظام الحكم بالقوة والعنف، فما قولك؟ »

قلت: « أبدًا.. لم يحدث تفكير فى شىء من هذا »

لم يلتفت إلى قولى، وسمعته يتكلم بصوت واضح وهو يكتب ما يقول: « أنا آسف.. أنا كنت مضللًا.. وأنا أعترف بأنى أخطأت، و .. » وكلام آخر لا أذكره، وما إن انتهى من الكتابة، حتى هب واقفًا وفى يده الأوراق، واقترب منى، ووضع الأوراق أمامى، ثم أعطانى القلم، وأخذ يشير إلى الأماكن التى يجب أن أوقع فيها باسمى.. كانت يدى ترتجف، ولم أستطع إمساك القلم جيدًا، وبدت الحروف مهزوزة.. ولم أقرأ كلمة واحدة مما وقعت باسمى عليه.. كان كل همى أن أنصرف.. لقد بدت لى الزنزانة بالقياس إلى ما أراه فى هذه المجزرة جنة..

عدت إلى الزنزانة عند الفجر.. وشعرت ببرودة الجو وأنا أسير صوب سجن ٤ على الرغم من أننا فى شهر أغسطس.. رأيت إخوانى يقظين فى انتظارى.. وألقيت بجسدى المنهك على أرض الزنزانة فى الظلام.. أحسست بأيديهم تلامس جسدى ورأسى وأقدامى وذراعى..

قال أحدهم: « هل انتهى التحقيق؟ »

- « الحمد لله .. »

- « هل ضربوك كثيرًا .. »

- « ليس كثيرًا.. ولم أكن أشعر بأى ألم .. »

قال محمود جبريل: « الماء بالملح يشفى الجروح .. »

قلت فى مرارة: « وجراح النفس.. كيف تشفي؟ »

ثم انفجرت باكيا.. كنت أحاول أن أكتم شهقاتي

وأيديهم تربت على جسدى برقة.. وعلى الضوء المتسرب من النافذة « والشراعة » رأيت الدموع تنسكب فى صمت من عيونهم « إلا أحمد حامد » فقد بقى صارمًا صامدًا، وقال دون أن يبدو أى أثر للانفعال على صوته: « هيا.. تيمموا لكى نؤدى صلاة الفجر .. »

بعد أيام نقلونى إلى مكان جديد، إذ صعدت إلى الدور الأعلى، فى زنزانة رقم ٤٧، حيث التقيت بالإخوة الدكتور إبراهيم الصياد والدكتور محمد عامر « وكانا طالبين فى كلية الطب »، والحاج فتحى عبدالبديع الصادى، وقد اعتقل عند عودته على الباخرة من الحج، والأستاذ عز العرب فؤاد حافظ،

والأخ حسن على جاد، وأخ آخر لا أذكره..

وقيل لنا أنه سوف يسمح لنا بالخروج صباح كل يوم للطابور.. فسعدنا أيما سعادة.. سوف نجرى وننشط، ونخرج من هذا المكان الضيق ولو لساعة نشم فيها الهواء، ونمارس رياضة الجرى.

قال إبراهيم الصياد فى شك:

« أخاف أن تتحول هذه المنحة إلى نقمة ..»

قال واحد من الإخوة: « لقد انتهت التحقيقات، ولم تبق إلا المحاكمة، فماذا يريدون منا بعد ذلك؟ » قال حسن جاد: « قالوا: يا قرد حيسخطوك.. قال يعنى هيعملونى غزال؟ »

وضحكنا رغم الألم والمرارة.

لقد أجدنا الطوابير أكثر من العسكر، كنا نمشى صفين، « معتادًا مارش » فى البداية، ثم « سريعًا مارش » بعد ذلك.. وكنا سعداء بذلك أيما سعادة.. لكن للأسف لا وجود للاستقرار فى هذه البقعة المحاصرة الحبيسة من أرض مصر.. لقد بدأ طابور الرياضة - كما توقع إبراهيم الصياد - يتحول إلى طابور للتعذيب.. لقد تناثر العسكر بقيادة الجاويش « أمين » المعروف بقسوته ودهائه وحقده، حاملين السياط.. وأخذوا يهوون بسياطهم على أجساد المعتقلين الذين يجرون حسبما اتفق، ويا ويل من يتخلف فى الطابور.. كان الطابور يضم المعتقلين جميعا، المرضى والأصحاء، والشباب وكبار السن، فكنت ترى الأعمى والأعرج والمصاب بالشلل النصفى، وكنت ترى الشباب فى ميعة الصبى. ووجوههم تشرق بالإيمان والرضى، وكثيرًا ما يسقط المرضى وكبار السن، فلا ترحمهم السياط.. على الرغم من عجزهم البين، ولهاثهم، إنهم يرقدون مستسلمين على جانبى الطريق.. وحاولنا أثناء الجرى أن نحمى العجزة والمرضى، فكان كل شاب يجرى خلف واحد منهم ليتحمل عنه الضرب، واستطاع الدكتور مصطفى أبو العينين، أن يقنع الجاويش عبد المقصود بأن يقسم المعتقلين إلى طابورين، طابور للشباب، وآخر للمتعبين والمسنين وذوى العاهات، وأطلق على هذا الطابور الأخير طابور « الشفاخانة »، حيث سمح لهم بأن يمشوا فى الطابور الهوينى دون جرى، أما الطابور الأول « طابور القادرين » فقد ظل تحت رحمة السياط والقسوة.. ولم يدم الحال طويلًا، فقد ازداد عددالمنضمين لطابور « الشفاخانة » بصورة ملفتة للنظر، وجاء قائد السجن الحربى - البكباشى حمزة البسيونى - ذات يوم كى يفتش على المعتقلين.. ثم نظر بعنجهية إلى طابور الشفاخانة، وقال: « من هؤلاء يا أمين؟ »

فجرى أمين بالخطوة السريعة نحو حمزة بك، ودق الأرض بقدمه، وأدى التحية العسكرية وقال: « طابور الشفاخانة يا افندم ..»

رد حمزة على الفور: « مفيش حاجة اسمها شفاخانة.. كلهم طابور واحد ..»

وسرعان ما نفذ أمين الأوامر، إذ ضم الطابورين معًا، وكم كان مؤلمًا للنفس أن ترى من جديد المرضى والمسنين، وهم يلبسون المعاطف أو الجلابيب، ويجرون بصعوبة حتى يسقطوا إعياء وعجزًا والسياط من فوقهم..

كان حسن على جاد مراقب الصحة بمدينة بنها، والذى يقيم معنا فى الزنزانة، يعانى من أزمات

الربو، وأمكننا بعد جهد جهيد أن نلحقه بطابور الشفاخانة بمساعدة المعتقل الدكتور مصطفى أبو العينين، وكان حسن رجلًا مرحًا خفيف الظل، فإذا ما وجهنا إليه نقدا أو عتابا لأمر من الأمور، نظر إلينا من علٍ وقال فى كبرياء: « كيف تعاملوننى هذه المعاملة؟ أنسيتم أننى من طابور الشفاخانة؟ »

وكأن الشفاخانة فئة متميزة، وطبقة من طبقات المجتمع العليا، وكنا نضحك من قلوبنا، ونحن نسمع حسن يشمخ بأنفه، ويردد بافتخار أنه من الشفاخانة، ويوم أن أمر حمزة البسيونى بإزالة الفوارق بين الطبقات، وأصبحت الشفاخانة مثل عامة المعتقلين، عاد حسن إلى الزنزانة يلهث، والعرق يتصبب من جبينه الأسمر، كان يتألم ويتأوه، لأنه تلقى عددًا من السياط بسبب بطئه فى الجرى، وأخذنا ننظر إليه ونحن نكتم الضحك، احترامًا لمشاعره ومعاناته، لكنه نظر إلينا، وأدرك ما يعتمل فى نفوسنا، فانفجر ضاحكًا وهو يقول: « لقد مرغوا شرف الشفاخانة فى التراب.. ارحموا عزيز قوم ذل يا إخوان ..»

وأخذنا نضحك فى براءة.. وقال إبراهيم الصياد فى جد: « ألم أقل لكم؟ إن هؤلاء الجلادين إذا أرادوا أن يتكرموا علينا بشىء مفيد، فلابد وأنهم يهدفون فى النهاية إلى اتخاذه أداة للنكد والإساءة ..»

قال الزميل الطيب الطاهر الأخ الدكتور محمد عامر: « مهما كان الأمر.. فإن الجرى مفيد لمرضى السكر والجهاز الهضمى.. والسمنة.. بل ومفيد أيضًا لمرضى الشلل النصفى ..»

رد عليه الصياد فى غضب: « اعمل معروفًا واسكت يا محمد ..»

جلسنا نستريح، ورائحة العرق تملأ الزنزانة، وفجأة سمعت حسن على جاد يقول دون مقدمات: « هل تتصورون أن السجين الحربى أفضل ألف مرة من مستشفى الأمراض العقلية؟ »

صرخ الدكتور الصياد فى غضب: « كف عن هذا الكلام الفارغ يا شيخ حسن ..»

ورأيت العيون تحاصر حسن على جاد، وكعادته قال فى مرح: « لماذا تنظرون إلىّ هكذا؟ إن أخانا نجيب الكيلانى هو الوحيد الذى لا يعرف.. أنتم تعرفون، ومن حقه هو الآخر أن يلم بالحقيقة ..»

ثم طوقنى بذراعه الأيمن وقال: « يا أخ نجيب أنا من خريجى مستشفى الأمراض العقلية ..»

وهاج الحاضرون وماجوا، لقد نصحوه بعدم الحديث فى هذا الموضوع كلية، فهو أمر لا يشرف، لكن حسن لم يقتنع بهذا الأمر، وخاصة أنه لم يكن مجنونًا فى يوم من الأيام، فالأمر حدث لظروف خاصة، فقد كان رئيسه فى العمل يضطهده اضطهادًا شديدًا، وخاصة عندما علم أنه من الإخوان المسلمين، كان حسن يرفض النفاق والإهمال والكذب، ويبرأ من الرشوة والخديعة والاستغلال، لكنه يرى بنفسه كيف أن القسم الذى يعمل فيه، يضرب عرض الحائط بالقوانين الصحية، نظير رشاوى تافهة من المال، يدفعها أصحاب المحلات التجارية، وموزعو التغذية، كأصحاب المطاعم والجزارين وغيرهم، وكان يرفع الشكاوى تلو الشكاوى للجهات المسئولة، وفى كل مرة يتواطئون ضده، ويجعلون من شكواه بلاغًا كاذبًا وإزعاجًا للسلطات.. ولم يكتفوا بذلك بل لفقوا له التهم، وتسببوا له فى العقوبات والجزاءات المختلفة، والخصم من مرتبه الضئيل.

وعندما حضر مفتش من الوزارة بالقاهرة لينظر فى أمر حسن.. جن جنونه.. إن البرىء متهم.. والمتهم برىء.. لقد انقلبت الموازين.. أى فساد فى هذه الدنيا الغريبة.. وحسن رجل صعيدى لا يعرف اللف ولا الدوران، حاول أن يقنع المفتش بالحقيقة، فلم يصدقه، لأنه مصر على عدم التصديق.. أو قل

متواطىء.. فما كان من حسن على جاد إلا أن خلع حذاءه القديم، وانهال به على رأس المفتش.. ورأس مدير القسم.. وكل المتواطئين فى مكتب الصحة.. وظل حسن يضرب ويضرب دون وعى حتى أحاطت به الشرطة، ووضعت الأغلال فى يديه.. لكنه استمر يضرب بقدميه ويديه المقيدتين.. فلم يجدوا مناصًا من أن يحقنوه بمادة مخدرة.. ثم أخذوه إلى مستشفى الأمراض العقلية «تحت الاختبار».. حيث بقى فيها فترة قصيرة، كان كل علاجه المهدئات وتحصيل قسط وافر من النوم والغذاء.. وخرج حسن بعد براءته من الجنون.. ولم يكد ينقضى عليه بضعة أيام فى العمل، حتى ساقوه إلى المعتقل.. يقول حسن: «فى مستشفى الأمراض العقلية يضربوننا ضربًا مبرحًا.. الممرضون هناك لا يقلون قسوة عن عساكر السجن الحربى وجلاديه.. بعض النزلاء بالمستشفى يموتون من الضرب.. وليس هناك من يصدق أنك عاقل.. أبدًا.. لا يقتنعون.. شىء رهيب أن يعتبرك الناس مجنونًا.. ولذا فهنا أفضل لى من هناك.. صدقونى ..»

وعلى مدار الأيام كان حسن يأنس لى ويروى الكثير عن حياته، وبخصوص قضيته قال: «لا أعرف لى قضية.. لقد أخذوا يضربوننى فى مكاتب التحقيق ويسألوننى عن منشورات سوريا.. وما شأنى أنا بسوريا؟ أنا لا أفهم شيئًا ..»

كان المسكين لا يتصور ما يريده المحقق منه، فالمحقق يسأله عن منشورات هربت من سوريا إلى مصر تهاجم الحكومة، وحسن يظن أن أى شىء يتعلق بسوريا لابد وأن يكون فى سوريا، ويقول حسن: «أخذت أجرى وأدور.. والسياط تلهب جسدى العارى.. انظر إلى ظهرى.. هكذا.. كانت الدماء تسيل منى.. وأنا أجرى وأقول «أنا مريض بالصدر يا هوه.. ارحمونى» ولا فائدة.. وأخيرًا قلت لهم سأعترف.. نعم رأيت منشورات سوريا. قالوا لى وماذا فيها؟ لم أكن أعرف بالطبع.. ضربونى مرة أخرى.. اتهمونى بتصنع البلاهة والغباء.. وأوحى لى الله بفكرة.. قلت لهم لقد تذكرت.. كانت المنشورات تشتم فى الحكومة.. قالوا: وفى الرئيس؟ قلت: نعم وفى الرئيس..

ولم أكن أعلم أن هذا سوف يفتح للعذاب أبوابًا يصعب إغلاقها سألونى: من الذى أتى لك بالمنشورات؟ وفى أى مكان تسلمتها منه؟ وأين ذهبت بها؟ وأين هي؟ يا إلهي!! ووجدتنى غارقًا فى بحر لا قرار له تحيط به الوحوش من كل جانب.. هذه هى اللحظات الرهيبة التى يجب أن يصاب فيها الإنسان بالجنون.. ولكنى لا أستطيع أن أجن.. ويبدو أنهم اقتنعوا أخيرًا ببراءتى حينما قلت لهم: «عندى اقتراح.. اكتبوا ما تشاءون وسوف أوقع لكم بكامل إرادتى على المحضر.. ولتعدمونى بعدها.. فإن حياتى لا تساوى شيئًا ..».

واستدوا إخوانى فى بنها، فأقروا جميعًا أننى لم أر المنشورات. ولا أعرف عنها شيئًا.. تلك قصتى.. أعنى قضيتى.. ومع ذلك فإن الاتهام الموجه لى ما زال الاشتراك فى مؤامرة لقلب نظام الحكم.. بكم سنة سجنًا تظن أنهم سوف يكمون علىَّ؟»

قلت له: «إعدام.. أو على الأقل الأشغال الشاقة المؤبدة ..»

ومن الطريف أن حسن قدم للمحاكمة فعلًا، ونال البراءة، لكن بقى فى المعتقل حوالى عامين.. أى خرج فى عام ١٩٥٦ بعد صدور الدستور الأول، لكنى التقيت به مرة أخرى فى عام ١٩٦٥ فى المعتقل

أثناء قضية الشهيد قطب الشهيرة.. ولم يحاكم هذه المرة، وإن بقى فى المعتقل أكثر من عامين.. كان قد تقدم به العمر، واشتد بياض شعره، وأصبح مرض الربو أشد من ذى قبل.. لشد ما أحببت هذا الرجل، وأحببت أحاديثه الجميلة، وتعليقاته الساخرة الذكية، وبراءة الطفولة فى عينيه الصافيتين..

والأخ عز العرب فؤاد حافظ، خريج كلية الحقوق، هو الآخر من المقيمين فى مدينة بنها، وكان طاقة من النشاط والحركة، لا يكف عن الحوار والنقاش، سألته عما قاله حسن على جاد، فأيد كل ما قال، وعز العرب الداكن السواد، له شخصية خاصة جذابة، ولقد علمت أن الإخوان كلفوه بالاندماج مع الشيوعيين حتى يعرف تحركاتهم وأخبارهم، وخاصة ما يتعلق منها بالعداء للحركة الإسلامية، وكان لزامًا على عز العرب أن يدرس الماركسية جيدًا، حتى يمكنه أن يتعايش مع الشيوعيين، وينال مكانة مرموقة بينهم، ولعل ذلك هو السبب فى شغفه بالحوار والجدل وكثرة الكلام، ومع ذلك فلم أكن أمل حديثه مهما طال، ونال عز العرب مكانة بارزة فى مجتمع بنها بعد خروجه عام ١٩٥٦ مع المعتقلين، فكان يخطب الجمعة فى أشهر مساجدها، وكان المحافظ هناك حريصًا على الصلاة معه، كما صدرت لعز العرب بعض المؤلفات فى الاقتصاد والقانون والدراسات الإسلامية، لكنى لم ألتق به إلا فى الاعتقال الثانى عام ١٩٦٥..

كان عز العرب يريد أن يعرف أى شىء.. أو كل شيء يحدث، فلا يكاد يسمع صراخًا فى الدور الأرضى حتى يهرع إلى الباب، ويحاول أن يتنصت أو يتسمع الأنباء، وكان فى ذلك مخاطرة كبيرة، قد تجر علينا الوبال، فكنا نشده شدًا لكى نجلسه بالقوة، وخاصة إبراهيم الصياد الذى يقول: « سوف تتسبب لنا فى كارثة يا عز ..» لكن عز كان يؤكد لإبراهيم إنه حريص أشد الحرص، ويتحوط لكل شى..

وحدث ذات مرة أن كنا جالسين فى أمان الله « وباب الزنزانة مفتوح للتهوية » فسمعنا صوت استغاثة.. إنه أمر مألوف أن يعذبوا أحد المعتقلين لسبب من الأسباب.. فليس فى الأمر جديد.. لكن عز العرب هب واقفا. واندفع صوب الباب.. ومد رأسه إلى الخارج فى محاولة ليرى ويسمع ما يحدث.. وصاح الصياد: « تعال يا عز واجلس ..»

- « لا تخف يا إبراهيم.. قلت لك ألف مرة أنا حريص.. لا توص حريصا ..»

ولم يكد يتم عبارته، حتى سمعنا صوت العسكرى محمد عبد الحليم ينادى: « الولد اللى هناك.. تعالى هنا ..»

كان العسكرى مختبئًا خلف ملابس مغسولة فوق السور، ولم يره عز العرب، وسرعان ما جرى عز للداخل، وجلس لكن العسكرى عاد يصيح: « الواد أبو وش أسود اللى فى زنزانة ٤٧.. تعالى يا ابن الـ ..» ونظرنا إلى عز العرب فى ألم.. لابد مما ليس منه بد.. قال عز فى استسلام: « يجب أن أذهب إليه حتى لا يأتى ويضربنا جميعا ..»

ومشى مسرعًا، ونحن نشعر بألم عميق.. وسمعنا الصفعات تنهال على وجه عز.. ثم السياط وهى تهوى عليه.. وبعد فترة وجيزة جاء.. وجلس بيننا صامتا ونحن صامتون.. لكنه قال بعد لحظات وهو يتحسس أذنيه: « ياه.. أذناى ساختنان ..»

ضرب الصياد على فخذيه وهو جالس بيدين متشنجتين وقال: «ألم نحذرك يا عز؟»
وكم كانت دهشتنا عندما قال عز: «لم أكن حريصًا هذه المرة.. سوف أتلافى ذلك مستقبلًا ..»
وضحكنا، بينما قال الصياد فى غضب: «أتنوى أن تفعلها مرة أخري؟»
- «نعم.. وسأكون حذرًا ..»
وتسلم الحاج فتحى عبد البديع الصادى طرد ملابس أرسله إليه أخوه حكمدار الشرطة، وكان فتحى سكرتيرًا لمعهد «أبوكبير» الدينى بالشرقية، وبينما هو يفك الملابس وجد اسم وحيدته الصغيرة «سلوى» مكتوبًا بالحبر، وبخط يدها الذى يعرفه، على قطعة من الملابس الداخلية، ودقق فتحى النظر إلى الكلمة المكتوبة، ثم انهمرت دموعه، وأخذ يبكى فى مرارة، واضعًا اسم وحيدته على عينيه..
قال عز العرب: «اذكر الله يا حاج فتحى ..»
ورأيت الدموع تترقرق فى عين حسن على جاد.. أما أنا فقد سارعت بمسح دموعى قبل أن يرانى أحد»
لكن إبراهيم الصياد كان ينظر فى سقف الزنزانة» إلى بعيد.. أين؟ لا أعرف..

***

[٩] المحاكمة

أردت أن أستعرض إجراءات المحاكمة، بعد أن تناولت بشيء من الإيجاز طريقة التحقيقات المبدئية، وأسلوب انتزاع الاعترافات، وكان أملنا أن نجد فى المحاكمة ما يعوضنا عن الأسلوب غير الإنسانى فى التحقيق، ومن الضرورى أن نعطى صورة لتلك المحاكمات للحقيقة والتاريخ، ومن واجبنا أن نفعل ذلك، حتى تعرف الأجيال الجديدة الأرض التى تتحرك عليها فى مسيرتها، والمؤتمرات المختلفة فى الأحداث الكبار، وقوى الدفع والجذب التى يتعرض لها الناس فى كل موقع، إن التجربة تلد الخطأ والصواب، ومن البديهى أن العقلاء المخلصين يستطيعون استخلاص العبرة مما يمرون به من تجارب، فالماضى والحاضر والمستقبل لا تطابق بينهم، ونحن نحرص دائمًا على أن يكون حاضرنا أفضل من ماضينا، ومستقبلنا أحسن من حاضرنا، وإلا كان الجمود والتخلف والهزيمة، ولا يمكن أن يتم ذلك على وجه صحيح إلا بالوعى والصدق والعمل الدائب من أجل التغيير، وتلك هى معادلة التاريخ التى يمكننا أن نمضى حسب منطقها، سنة الله فى الأرض ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

واستعدادًا لمبدأ المحاكمات «ونحن الدفعة الثالثة بعد دفعة أكتوبر ١٩٥٤ ومارس ١٩٥٥» جمعونا فى طوابير، وتسلم كل واحد منا «الادعاء» المقام ضده، وقرأت الادعاء، فكان مفاده أننى اشتركت فى نظام سرى مسلح يعمل على قلب نظام الحكم بالقوة والعنف، مخالفًا بذلك قوانين البلاد، وقرار حل جماعة الإخوان المسلمين.

ثم أعادوا توزيعنا فى زنزانات أخرى، طبقا لنظام لا نعرفه، ووجدت نفسى فى غرفة فى الدور الثانى فيها الفلاح عبد العزيز نوفل من قرية «ميت أول الليث هاشم» قرب مدينة المحلة الكبرى المدينة الصناعية الشهيرة، وفيها حسن عبد الهادى وهو مشرف فى مصنع للزجاج يملكه عمه، وهو فى نفس الوقت صهره، ورجلان متقدمان فى السن من قرية من قرى بنى سويف أحدهما الحاج محمد كحيل وهما فلاحان، والأخ ناجى سلامه «دبلوم صناعى» وآخرون لا أتذكرهم حاليا..

كان الفلاح عبد العزيز نوفل يعمل خفيرًا فى إحدى العزب، وكان يجمع بعض القروش القليلة من صغار الطلبة، ويرسلها لأسرة أحد المسجونين الفقراء من الإخوان المسلمين، واتضح أن المبلغ الذى يجمعه فى حدود ثلاثة جنيهات تقريبًا، وكان عبد العزيز نبيلًا صادق الفطرة، إذ قرر أن يتحمل العبء وحده، فقال فى التحقيق: «أنا الذى أدفع الجنيهات الثلاثة ..»

- «لكن هذا مبلغ كبير.. ولا شك أنك تتزعم شبكة لجمع الاشتراكات ..»

- «أنا رجل جاهل مسكين، ولا أعرف ما تتحدثون عنه. كان الأمر مجرد صدقة أدفعها عن طيب

خاطر لجار لنا ..»

- «ألم تكن من الإخوان المسلمين ..»

- «كلنا مسلمون يا بك ..»

- «من كان رئيسك فى التنظيم؟»

- «لا رئيس ولا يحزنون ..»

وتعرض عبد العزيز لضرب شديد لعله يضيف شيئًا إلى اعترافاته، لكنه أصر على موقفه، وطلبوا منه أن ينتزع شعر شاربه الكث بيده، تحت ضرب السياط، ولم يجد مناصًا من أن يفعل، يقول عبد العزيز: «لقد ساعدنى الله.. لم أشعر بألم يذكر.. وأخذت أنتزع الشعر بهدوء حتى أديت المهمة.. لكنى لم أغير كلامى ..»

وكان عبد العزيز قوى الجسم، فارع الطول، متين البنيان، يوحى لمن يراه بالنموذج الكامل للبطل الشعبى فى أعماق الريف، ويحفظ بعض الأوراد، وقليلًا من القرآن الكريم، وبعض أشعار السير الشعبية، كان كثيرًا ما يردد موالا شهيرًا يقول فيه:

«انهض يا على... انهض عمر... عمر انحظر... فى أرض واسمها صالحجر»

وعلى الرغم من أننى لا أعرف سندا تاريخيا لمجىء الإمام على بن أبى طالب، أو عمر بن الخطاب إلى صالحجر تلك البلدة الموجودة فى دلتا مصر، إلا أننى كنت أطرب لصوته القوى الجياش بالعاطفة، وخاصة عندما ينفعل وتجتاحه الحماسة، وتبتلُّ عيناه بالدموع.. وبعد أيام نما شاربه من جديد.. وابيض وجهه الأسمر لطول إقامته بالزنزانة.. وكان أنموذجا فذا فى الصبر والإيمان والاطمئنان لقضاء الله.. مرة واحدة وجدته شاردًا يفكر.. وطال شروده، ثم انفجر باكيا.. وجاء صوت الحاج محمد كحيل: «اذكر الله يا عبد العزيز ..»

وسرعان ما جفف دموعه بطرف كمه الواسع، وعاد يبتسم وهو يقول: «الشيطان شاطر.. لقد تذكرت الأطفال وأمهم.. لكن.. استغفر الله.. لهم رب يرعاهم ويرعانا ..»

أما مشرف مصنع الزجاج بشبرا الأخ حسن عبد الهادى، فقد كان خفيف الظل، لديه رصيد هائل من القصص والحكايات والأخبار، وهى موهبة يحسد عليها، لأنه كان يستطيع بحسن أسلوبه، وطرافة قصصه، أن يحلق بك فى عالم مثير أخاذ، فتكاد تنسى كل ما حولك، وإذا انصرفنا عنه، يضع «رأسه فى عبّه» كما يقولون، ويستغرق فى الصمت..

لقد اعتقل حسن عبد الهادى لأنه كان يحمل قصيدة من الشعر كتبها أحد الشعراء الإسلاميين، يرسم فيها صورة محزنة لما يجرى فى مصر، ولما يتعرض له الإخوان المسلمون من عذاب واضطهاد، كان حسن يحفظ القصيدة عن ظهر قلب، وفيها الكثير من الأوصاف الجارحة لعبد الناصر وسلوكه، وفى التحقيق طلبوا منه أن يقف فوق كرسى وأن يترنم بالقصيدة فى صوت جهورى.. بشرط.. كل حرف بكرباج.. يا إلهي!! لكن لا حيلة.. ولم يكن حسن يلقى أبياتا ثلاثة فقط، حتى سقط من فوق الكرسى فى شبه إغماءة لكثرة ما ناله من سياط العسكر، والضباط يضحكون.. ويصفقون ويقولون «برافو.. أعد يا بو على أعد.. إيه الجمال ده.. يا رجل يا فصيح ..» أما الرجل الثانى من محافظة بنى سويف فكان يبدو عليه الوقار.. وقار عمدة القرية صاحب الحول والطول، وكثيرًا ما عانى فى طوابير الجرى السريع بسبب البدانة التى يتسم بها، ويعانى منها، وخاصة أن المتخلفين فى طوابير الجرى، كانوا

يتعرضون لهجوم الكلاب الشرسة.. كان بالسجن الحربى عدد من الكلاب المدربة أذكر أشهرها « توسكا » الكلبة المدللة، و« لكى » الكلب المحظوظ، وكانت هذه الكلاب تهاجم المعتقل عندما ترى العسكرى يهوى عليه بالسوط، بل وتستجيب لدعوة الجاويش إذا أشار إلى أحد المعتقلين.. وأخونا من بنى سويف - كما قلت - تعرض مرارًا لشراسة الكلاب، وقد نهشته فى مؤخرته، فمزقت ثيابه، وأحدثت جروحًا غائرة فى جسده، احتاجت لفترة طويلة للعلاج..

ما إن تحددت أيام المحاكمة، حتى ساقونا أفواجًا مرة أخرى إلى مكاتب التحقيق، وذلك فى إجراء شكلى لقراءة المحاضر التى وقعنا عليها عند التحقيق، والإقرار بأن كل ما جاء فيها صحيح، عندما ذهبت، وجدت ممثل الادعاء البكباشى سعد الدين خليل، وقائد السجن الحربى حمزه البسيونى، وعدد كبير من ضباط « المباحث العامة » والمخبرين.. وقد حاول بعض الإخوان إنكار ما جاء فى المحضر، فكان أن جروهم أمامنا، وظلوا يوقعون بهم العقاب المرير، حتى تراجعوا، ووافقوا على ما جاء فى المحضر، ووقعوا بذلك.. وكان واضحًا أنه لا مجال للإنكار أو التغيير، أو الاحتجاج بالتعذيب فيما ورد من اعترافعات تؤدى لا محالة إلى السجن..

وقبيل الذهاب إلى المحكمة، أعادوا على مسامعنا التحذير تلو التحذير، من ذكر أى شىء عن التعذيب، وأدخلوا فى روعنا أن الأحكام معدّة سلفًا، وأن الإنكار لن يجدى، وخير لنا أن نقر بما جاء فى محاضر التحقيق حتى تنتهى المحاكمة بسرعة. لأن الحكومة مشغولة بما هو أهم..

كانت قضية « العنف » - كما سموها - لعبد المنعم سليم وإخوانه من أوائل القضايا التى نظرت..

فى الليلة السابقة للمحاكمة، نزلنا إلى ساحة سجن ٤، وجلسنا على الركبتين فوق الحصا والظلط.. رافعين الأيدى إلى أعلى.. وبقينا هكذا لبضع ساعات.. والعسكر يتسلون بضربنا بالسياط على دفعات قليلة.. مجرد تذكير حتى لا يصدر منا غدا أى تصرف لا يرضون عنه فى محاكمة الغد..

وفى الصباح وقفت مجموعتنا أمام السجن الحربى « الكبير » المجاور لسجن ٤، ووجوهنا إلى الحائط، وأخذ الأومباشى يقرأ الأسماء، ليتمم علينا، وعندما جاء اسم الزميل محمد الفاتح عمر، نطقها الأومباشى « الفانخ » أى أبدل التاء بالنون، والحاء بالخاء، فصحح له محمد الاسم، وكرر الأومباشى نطق الاسم خطأ، فعاد محمد وصححه للمرة الثانية.. فما كان من الأومباشى إلا أن أمسك بالسوط وهوى به ثلاث مرات على رأس محمد الفاتح، ثم عاد يساله مرة أخيرة: « محمد الفانخ يا ولد؟ »

- « نعم « الفانخ » يا افندم ..»

- « أعرفكم.. إنكم تغيرون أسماءكم ..»

وكتمنا الضحك على الرغم من قسوة الموقف، وبقينا طوال فترة السجن، ننادى محمد الفاتح باسمه الجديد، وهو يضحك.

أخذتنا السيارات المغلقة إلى مكان قريب، قيل أنه الكلية الحربية، وسط معسكرات العباسية، وجلسنا فرادى على مقاعد أسمنتية باردة، وأمام كل واحد منا جندى مصوب مدفعه بصفة دائمة نحو رءوسنا.. وطال الانتظار، وكان كل من يحاكم يخرج، ويجلس فى نفس مكانه السابق..

شعرت برغبة شديدة فى الذهاب إلى المرحاض، استأذنت من الجندى، فقام بدوره وهو فى مكانه بالاستئذان من رئيسه الذى يمر من وقت لآخر، وذهب رئيسه إلى من هو أعلى رتبة منه، وهكذا حتى صدرت الموافقة.. وسرت أمام الجندى والمدفع الرشاش فى ظهرى.. عندما وصلت إلى المرحاض قيل لى لابد أن تبقى الباب مفتوحًا، هكذا الأوامر، وتلفت الجندى يمنة ويسرة، ثم قال لى هامسًا: « من أنتم؟ »

قلت - « ألا تعرف؟ »

- « جئت فى مهمة للحراسة ولا أعرف شيئًا ..»

- « نحن إخوان مسلمون.. أتوا بنا من السجن الحربى للمحكمة ..»

- « أوه.. هكذا.. أما يزال هناك إخوان؟ »

ثم عاد إلى وضعه الرسمى من جديد.. وعدت إلى مكانى الأول..

ورغب عدد آخر من الإخوة فى الذهاب إلى دورة المياه، بعد أن طال وقت الانتظار، ولم تحدث ممانعة فى البداية، لكن بعد أن كثر العدد صاح أحد الضباط فى غضب: « لن يذهب أحد بعد ذلك إلى دورة الماء.. من أراد أن يفعل شيئًا فليفعل وهو جالس ..»

وضحك الضباط والعسكر، أما نحن فقد بقينا صامتين دون حركة.. ولم يصبنا الدور فى المحاكمة أول يوم، لكن أمرا غير عادى قد حدث، لقد رأينا أحد المحامين، وهو اللواء عباس زغلول، يدخل المحكمة، للدفاع عن بعض المتهمين، وهم من أسرة عمارة، وخاصة فتحى وفؤاد، لقد فكرنا أن نوكل محامين للدفاع عنا، لكن رئيس دائرة محكمة الشعب التى تحاكمنا وهو اللواء صلاح الدين حتاتة، رفض ذلك بشدة، وقال قولته المشهورة: « نحن هنا فى المحكمة مثل مجالس العرب.. لا محامين ولا دياولو.. الشعب قال لنا خلصونا من هؤلاء الناس المجرمين ونحن نقوم بهذا الواجب ..»

لكن الإخوة من أبناء عمارة، وهم إخوة أعزاء، وعلى خلق طيب كان لهم إخوة وأقارب من كبار ضباط الجيش، وعلمنا أنهم توسطوا لهم كى توافق المحكمة على أن يقوم اللواء زغلول المحامى بالدفاع عنهم، وكان من ضمن ما جاء فى دفاع اللواء زغلول عن الأخ المتهم « فؤاد عمارة » الآتى:

« حضرات القضاة.. إن المتهم فؤاد عمارة صغير السن.. طالب فى إعدادى كلية الهندسة.. وقد خدعه وضلله المتهم عبد المنعم سليم.. انظروا يا سيدى الرئيس إلى وجه عبد المنعم سليم.. ألا ترون أنه وجه إرهابى ضليع مخيف.. أقسم يا سيادة الرئيس لو أن عبد المنعم سليم دخل على بسحنته تلك. لبايعته على الفور ..»

ولم يحكم على فؤاد إلا بخمس سنوات سجن مع إيقاف التنفيذ، فيما بعد، وخرج مع المعتقلين، وكذلك فتحى عمارة الذى نال البراءة، وخرج معه..

لنعد إلى ما كنا فيه.. ذهبنا للمحكمة مرة أخرى، وجلسنا فى مكان المتهمين، عبد المنعم سليم، وإبراهيم الصياد، والمرحوم محمد يحيى شتية طالب الحقوق، وفؤاد عمارة، وأنا.. من غريب الصدف أن إبراهيم الصياد من قرية تجاور قرية رئيس المحكمة اللواء صلاح الدين حتاتة، وكان واضحًا أن الرئيس حتاتة يعرف إبراهيم، وابتدأت محاكمة إبراهيم، وكان الحوار يدور أساسًا حول نقطة أثارها رئيس المحكمة، مؤداها أن الطب تخصص، وأن على المتهم أن يهتم بذلك، أما العمل بالسياسة والدعوة الدينية فليس من اختصاصه، ورفض إبراهيم هذا المنطق، وقال إن الدعوة الإسلامية أمانة فى عنق كل مسلم، سواء أكان طبيبًا أم عالمًا دينيًا، وطلب منه القاضى الأدلة، فقام إبراهيم بشرح وجهة نظره والتدليل عليها، لكن السيد اللواء ظل مصرًا على موقفه، وأكد أن الدعوة من واجب رجال الأزهر وحدهم كجهة اختصاص.. وعلى الرغم من أن هذه كانت نقطة هامشية بالنسبة لقضية التنظيم المطروحة، إلا أنها أخذت وقتًا طويلًا..

وبعد أن انتهت محاكمة إبراهيم نادوا اسمى فوقفت..

كان ثلاثتهم يجلسون على المنصة اللواء حتاتة فى الوسط رئيسًا، وضابط كبير من البحرية، وآخر من المشاة على ما أذكر، كعضوية يسار ويمين، وقال حتاتة دون اكتراث: « مذنب أم غير مذنب؟ »

قلت: « غير مذنب .»

التفت إلى البكباشى سعد الدين خليل المدعى أو ممثل الاتهام وقال له: « المدعى عاوز يقول حاجة؟ »

وقف المدعى، ووضع يديه على طاولة أمامه، وقال: « المتهم اعترف بكل شىء.. ولا داعى للتفصيل.. ولهذا أطالب بالعقوبة المناسبة ..»

التفت حتاتة صوبى وقال: « هل لديك شىء تقوله ..»

قلت: « ما دام لم يسمح لنا بمحام، فأرجو من هيئة المحكمة الموقرة أن تفسح لى صدرها ..»

- « قل وخلصنا ..»

قلت وأنا أرتجف وأكتم انفعالى: « سيدى الرئيس.. إن الادعاء المقام ضدى يرمينى بتهمة خطيرة، وهى الاشتراك فى جهاز سرى مسلح لقلب نظام الحكم بالقوة.. وتعلمون سيادتكم أن مثل هذا القول لكى تثبت صحته لابد من توافر أشياء أساسية ثلاثة:

أولها: وجود السلاح، **ثانيها:** وجود خطة ولو مبدئية للتنفيذ، **ثالثها:** صفة السرية »

فهل وجدتم عندى سلاحًا؟ هل فى التحقيق معى ما يفيد - ولو من بعيد - بإعداد خطة لعمل انقلاب؟ وهل كان هناك أحد يجهل أننا ننتمى لجماعة الإخوان المسلمين؟ إن نشاطنا نشاط ثقافى بحت، أو هذا ما كنا نقصده أو مارسناه فترة قصيرة من الزمن، ولا يعتبر النشاط الثقافى سرًا من الأسرار.. نعمله فى الجامعة.. وفى الشارع.. وفى البيت.. فى أى مكان..

علق الرئيس قائلًا: « يا سلام.. تعمله علنا؟ »

- « نعم.. لأنه لا خطر منه، ولم يصدر قانون بمنعه ..»

- « يبدو أنك « عنتيل » ..»

وعدت لاستطرد فى شرح وجهة نظرى. لكنى لاحظت أن اللواء حتاتة قد انصرف عنى، وأخذ يتكلم مع عضو اليمين، فتوقفت عن الحديث.. ولما أدرك ذلك قال فى شىء من الغضب: « هيه.. واصل حديثك ..»

وتكرر الموقف مرة أخرى، فقال بحدة: « قلت لك تكلم.. ولا شأن لك بى ..»

وحاولت أن أثبت أن اتفاقى مع عبد المنعم قد انتهى بعد أن افترقنا، وأصبح ماضيًا، إلى جانب كونه مجرد علاقة أخوية ثقافية:

وعاد اللواء حتاتة للمدعى العام يسأله: « أتضيف شيئًا ..»

ابتسم المدعى وقال: « لا شىء.. الاعتراف موجود، وموقع عليه من المتهم.. ولا أطالب إلا بالعقوبة المناسبة ..»

وعدنا فى المساء إلى سجن ٤، شعرت أن جزءً كبيرًا من العبء النفسى الذى أرزح تحت آلامه قد انزاح، ولم يبق سوى إصدار الأحكام.. لكن ذلك لن يتم إلا بعد الانتهاء من محاكمة ما لا يقل عن ثلثمائة شخص..

وكانت المحاكمات تجرى بصورة هادئة، ولم تكن تستغرق بالنسبة لكل متهم سوى دقائق فى

أغلب الأحيان، وأنكر بعض الإخوان ما نُسب إليهم في محاضر التحقيق، لكن المحكمة كانت ترد إنكارهم عليهم نظرًا لأنهم قد وقعوا بمحض « إرادتهم » على أقوالهم، ولم يكن في استطاعة أحد أن يشير صراحة إلى التعذيب، طبقًا للأوامر الصارمة، ولجأ المنكرون إلى حيلة يعرفها القضاة العسكريون في هذه المحكمة، كأن يقول المتهم: « لقد كنت متعبا جدًا.. ولهذا قمت بالتوقيع دون أن أعي تمامًا وكان حتاتة ومن معه يبتسمون في استخفاف، ثم يعلق القاضي « المحترم » ساخرًا: « ولماذا التعب؟ » إنكم تأكلون وتشربون بالمجان.. وليس وراءكم أي عمل.. وكما يقول المثل، أكل ومرعى، وقلة صنعة، ...»

وفي الواقع لم يكن هناك أدنى فائدة من الإنكار أو الدفاع عن النفس بالمنطق والبرهان، فكل شيء يتم من جانب واحد، والقضاة هم الخصم والحكم، فضلًا عن أن وجودهم وجود شكلي، فالأحكام كما أكدوا لنا أكثر من مرة جاهزة، ومهمة المحكمة أن تقوم بالدور المنوط بها، طبقا للسيناريو والإخراج الذي أعدهما رجال المباحث العامة..

وفي يوم من الأيام - أثناء المحاكمات - سمعنا ضجة كبرى في معتقل ٤، سبابًا وصراخًا وحركة غير عادية، وغلقت الأبواب، فأخذنا نصيخُ السمع لما يجري، كنا في الدور الأعلى، وبدأت حركة تعذيب هائلة مثيرة، والإخوة المعتدى عليهم يصرخون ويتألمون ويستغيثون.. ولا مغيث.. وتساءلنا في حيرة.. ماذا جد من أمور؟ هل قبضوا على تنظيم جديد؟ هل أصيب الرئيس - لا سمح الله - بمكروه؟! إن الأمر يبدو خطيرًا، واستمر التعذيب من الساعة الرابعة عصرًا « مساءً » حتى العاشرة مساءً. وأخذنا نلتقط كلمة من هنا وهناك.. كنا نسمع كلمات قصارًا.. نحاول تحليلها.. وربطها.. محاولين في صعوبة أن نشكل تصورًا مبدئيًا لما يجري.. واتخذ الموضوع أبعادًا خطيرة، حينما حاولوا الإساءة إلى المتهمين بأسلوب رخيص تشمئز منه النفس، وذلك بمحاولة الاعتداء عليهم جنسيًا، وكنا نسمع - في تقزز - الكلمات البذيئة، والرفض الدامي من المعتدى عليهم.. وسمعنا أيضًا عبارات مثل:

« كيف تتبجحون أمام المحكمة؟ »

« أتظنون أنفسكم رجالًا؟ »

« إننا نعرف كيف نؤدبكم، ونقطع ألسنتكم للأبد يا أولاد الـ ..»

وعلق أحد الإخوة المعتقلين قائلًا: « واضح أن صدامًا حدث بين المتهمين وهيئة المحكمة ..»

واستطعنا أن نميز أسماء بعض الإخوة الذين علقوا من أيديهم وأرجلهم في ساحة السجن، عراة تمامًا.. أحمد حامد قرقر « رحمه الله »، محمد أنور رياض، ومحمد الطويل، ومحمد شفيق.. وغيرهم.. كانوا تسعة عشر..

وحوالي الساعة العاشرة مساءً سمعنا الصفارات المجنونة، ودعونا جميعًا للنزول إلى الساحة الكبيرة خارج سجن ٤، ووجدنا عددًا هائلًا من العسكر بعضهم يحمل الرشاشات، والبعض الآخر يحمل السياط، وشاهدنا فئة ثالثة تحمل السكاكين أو العصي.. كنا نهبط الدرج ونجري والضرب يعتورنا من كل جانب، وجو الرعب البشع يسود المكان، فكرنا بسرعة، ظننا أنها النهاية بالنسبة لنا جميعا.. يبدو أنهم قد قرروا التخلص منا.. علق أحد الإخوان « يا إلهي.. هل هذا يوم الحشر؟ » ووقفنا أخيرا على هيئة مربع.. وكل ضلع من أضلاع هذا المربع يتكون من عدد من الصفوف المتلاصقة المتزاحمة.. وران علينا صمت كالموت.. وسمعنا صوت نعرفه جيدًا: « الولد اللي هناك ده.. أنت تعال.. لماذا تتحرك.. خمسون كرباجًا ..» كان صاحب الصوت البكباشي حمزة البسيوني، وفي لحظة، كانت السياط تهوى على الأخ المسكين، حتى تكوم على الأرض، ثم دار حمزة بنظراته الشرسة مرة أخرى، وأشار إلى معتقل

ثانٍ.. وثالث.. ورابع.. وتكرر نفس الشيء.. ثم ساد الصمت من جديد..

كان حمزة البسيونى يقف منتفش الشعر كالديك، ووجهه الأبيض المشرب بالحمرة يبدو فى بحر الأضواء الكهربائية كتمثال شمعى رخيص، ليس فيه أدنى شعور بالإنسانية.. وقال بصوت أجش كريه: « اسمعونى جيدًا ..»

« أنا هنا أفعل ما أشاء، لا يحاسبنى أحد ..»

« اسألوا إخوانكم القدامى.. لقد دفنت عددًا منهم فى رمال صحراء العباسية هنا.. أنا أحكم وأنفذ ..»

ثم أشار بيده إلى وسط المربع فى الساحة وقال: « انظروا إلى هذه الحيوانات ..»

ونظرنا.. يا ربى.. كان الرجال التسع عشرة عرايا تمامًا.. والقيود الحديدية فى أيديهم من الخلف.. والدماء تنزف من أجسادهم ورءوسهم ووجوههم.. كأنهم قد كفّنوا أحياء بشيلان حمراء.. ستة منهم كانوا ملقين على الأرض لا يستطيعون الحركة.. والباقون ظلوا وقوفا كالتماثيل المرمرية الحمراء.. لأول مرة أراهم على الرغم من أننى أقف فى الطابور منذ ما يقرب من عشر دقائق.. وعاد حمزة البسيونى يقول: « نعم هم حيوانات.. فالإنسان لا يقف هكذا.. أنا قلت ألف مرة دافعوا عن أنفسكم فى المحكمة.. لكن بأدب.. هؤلاء البهائم أساءوا الأدب فى المحكمة اليوم.. ولهذا كان لابد من تلقينهم الدرس الذى يستحقون حتى يتأدبوا.. أنا هنا القانون.. أنا أفعل ما أشاء.. ولن يستطيع أحد أن يفلت من يدى ..»

تذكرت فى هذه اللحظات مئات الألوف التى تشق حناجرها من الهتاف للزعيم القائد وهو يتحدث عن الحرية والكرامة، وعن شعاره العظيم « ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد ».. تمنيت فى هذه الساعة أن أهتف « يحيا العدل » لكن كلمة واحدة الآن معناها الموت.. وما أسهل أن يكتبوا أمام اسمى « فرار أو هروب »..

ومضى حمزة خارجًا من وسط الساحة شامخ الرأس متألها، وسمعته يقول للضابط النوبتجى بصوت عالٍ: « فليبقوا هكذا حتى الفجر.. ومن يتحرك منهم أدنى حركة يضرب خمسين كرباجًا فورًا ..»

لم نبق حتى الفجر كما قال، فقد أعادونا إلى الزنازين حوالى الواحدة بعد منتصف الليل، كانت أرجلنا شبه متصلبة لطول الوقوف، وأغمى على عدد من المعتقلين لكنهم كانوا يفيقون بالسياط..

حينما عدنا إلى الزنازين فى هذه الليلة الليلاء تنهدت فى حزن، والدموع تتساقط من عينى وقلت: « الحمد لله.. لقد نجونا من الموت بأعجوبة ..»

لكننا حتى هذه اللحظة لم نكن نعرف تفصيل ما جرى فى المحكمة، وفى الأيام القليلة التالية تجمع لدينا كل ما حدث فى المحكمة فى ذلك اليوم المشهور.

لقد دأب اللواء صلاح الدين حتاتة على السخرية والاستهزاء من المتهمين بصورة منفرة لا تطاق، واستشاط بعض الإخوان غضبًا وقرروا الرد على بذاءته بأسلوب مناسب، مهما كلفهم الأمر من تضحيات..

سألت أحمد حامد قرقر عما جرى، فقال: « سألنى القاضى عن سبب ممارستى لنشاطى الدينى،

مع أن الحكومة قد أصدرت قرارًا بحل الإخوان المسلمين، فكان جوابى أننا لا نعترف بقرار الحل، إننا لم نأت بقرار لنلغى بقرار.. هاج القاضى وماج.. وسب ولعن.. فأفهمته أن هذا لا يليق برجل مثله فى مكانة القضاء المقدس.. ولم يكن ليقبل أن أوجه إليه النصح والإرشاد.. فصحت فى وجهه: لو بقيت قطرة دم منا لظلّت تهتف «الله أكبر ولله الحمد» ..»

وسألت محمد أنور رياض فقال: «لقد فوجئت باللواء حتاتة يقول لى فى بجاحة شكلك مثل شكل الخولات.. اشتعل جسدى من الغضب.. قلت له فى تحد: احترم الكرسى الذى تقعد عليه يا سيادة القاضى ..»

بإيجاز كان الحوار فى المحكمة يدور حول بطلان قرار الحل، وحق الشعب فى التعبير عن رأيه، والالتزام بالإسلام شرعة ومنهاجًا، وبطلان السلطات الاستثنائية، والمحاكم العسكرية، وضرورة التقيد بالقوانين الصحيحة، والإجراءات الجنائية السليمة، وكفالة كل الحقوق الإنسانية التى يجب أن يتمتع بها المتهم، كما قام بعض المتهمين بخلع ملابسهم أمام القاضى وإظهار آثار التعذيب كالسياط والحرق بالنار وخلع الأظافر وغيرها.. وذهل المتهمون إذ رأوا القاضى يعلق بعبارات سمجة ساخرة..

إن هناك لحظات نادرة قد يرى الإنسان فيها أن الموت أفضل من الحياة.. لقد يئس الذين آمنوا من عدالة المحكمة تمامًا، ورأوا أن يقذفوا فى وجهها بالحقيقة دون خوف.. ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا.﴾.

لقد كان السكوت والاستسلام سمة عامة فى هذا المكان الموحش الرهيب، لكن فئة من الرجال المؤمنين أبوا إلا أن يصفعوا وجه الطغاة بالحقيقة والصدق، وذرفنا الدموع من أجلهم.. والغريب أن هؤلاء الإخوة حظوا باحترام الجلادين أنفسهم، فقد وقع أمامى حادث صغير لا أنساه.. كنا نجلس على الأرض طابورًا فى انتظار التوزيع الجديد، وجاء الجاويش أمين رائد التعذيب الأول فى السجن الحربى، ولما رأى «المرحوم أحمد حامد قرقر» جالسًا معنا، اقترب منه، وصافحه بحرارة وقال: «أنت رجل يا قرقر.. لا يوجد فى مصر كلها عشرة مثلك.. أنت بطل ..» ثم نادى بأعلى صوته قائلًا: «يا عسكرى.. هات شاى لقرقر ..»

واحمر وجه أحمد حامد قرقر خجلًا لما سمعه من إطراء، وأخذ يردد: «العفو.. العفو.. لا بطل ولا حاجة.. المسألة بسيطة ..»

كانت جراح «قرقر» قد التأمت، وعادت الحيوية والنشاط إليه، وأصبح الدرس الذى لقنه لسيادة القاضى المشهور على كل لسان فى المعتقل، سواء العسكر أو الضباط أو قدامى المعتقلين والمحدثين منهم، وكان أحمد حامد قرقر موظفًا، وفى نفس الوقت طالبًا فى كلية التجارة، كما كان متزوجًا، وله طفل واحد ولد قبل دخوله المعتقل بشهور اسمه «مورو»، ولعله سماه بهذا الاسم تقديرًا لما بذله الدكتور عبد الوهاب مورو باشا مدير جامعة القاهرة من جهود رائدة، فى مساعدة الفدائيين الجامعيين إبان معركة القنال، وتأصيله لمعانى الحرية والتضحية أثناء ولايته بالجامعة..

وحكم على «أحمد حامد قرقر» فيما بعد بالأشغال الشاقة عشر سنوات، ثم نقل إلى «ليمان طره» مع عدد من إخوانه، حيث قتل بعد ذلك بحوالى عامين داخل السجن فى حادث طره الشهير الذى دبرته حكومة الرئيس ضد المسجونين من الإخوان وراح ضحيته واحد وعشرون سجينًا، وقد

صدرت بعض المؤلفات عن هذا الحادث البشع.. وأخذنا ننتظر صدور الأحكام..

وفى أحد الأيام ساقونا جميعًا إلى المحكمة.. كانوا يطلقون علينا « جهاز يوليو سنة ١٩٥٥» وكان الأمر بسيطًا وسريعًا رغم خطورته..

كنا ندخل واحدًا واحدًا.. وينادى على الاسم.. ثم ينطق اللواء حتاتة بالحكم فى لحظات.. ونودى عليّ، وقلت: « أفندم ..»

وأديت التحية، وأنا أقف « انتباه » حليق الرأس.

وقال رئيس المحكمة: « حكمت المحكمة حضوريًا على المتهم نجيب الكيلانى عبد اللطيف بالسجن عشر سنوات مع التنفيذ ».

أديت التحية، وقلت: « متشكر »، ودرت لليمين طبقا للنظم العسكرية، ثم خطوت إلى الخارج..

قلت لأخى إبراهيم الصياد، وكان قد حكم عليه هو الآخر بالسجن عشر سنوات: « الحمد لله.. سوف نخرج من جحيم السجن الحربى، ونذهب إلى السجون المدنية.. إننى أعتبر الخروج من هنا شبه إفراج ..»

كز إبراهيم على أسنانه فى أسى وحزن وقال: « سوف نبدأ رحلة عناء جديدة.. ستظل الحكومة تلاحقنا حتى الموت.. هذا قضاء الله، ولابد من الرضى به ..»

أما عبد المنعم سليم فقد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة..

وعند عودتى من المحكمة، وبينما كنا نقف طوابير أمام مكاتب التحقيق، جاء أحد ضباط السجن الحربى وهتف باسمى، وردد العسكر اسمى وراءه، فصحت فى دهشة: « افندم ..»، فأخذونا إليه، نظر إلى ثم سألنى عن الحكم الذى صدر ضدى فقلت « عشر سنوات سجن »، فقال: « مع إيقاف التنفيذ؟ » قلت: « لا.. بل تنفيذ ..» فلوى شفتيه، وهز رأسه وقال: « مع السلامة »، ولم يكن لذلك من معنى سوى أن أحد الأقارب كان قد كلفه بالسؤال عنى..

بعد الأحكام انتقلنا إلى السجن الحربى الكبير فى جناح خاص، وتم تجميع المحكوم عليهم فى الزنازين المتجاورة استعدادا لترحيلهم إلى السجون المدنية، وقضينا بضعة أيام ننتظر الترحيل، وخلال تلك الفترة التقيت بالإخوة الاساتذة يوسف القرضاوى وعبد الودود شلبى ومحمد الوكيل والأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل وقورى اليهودى.. والبشير الإبراهيمى الجزائرى المبتور اليد..

ومما يجدر الإشارة إليه أن الأستاذ المرشد حسن الهضيبى كان فى بداية هذه الفترة رهين محبسه فى السجن الحربى رقم ٢، وكان يحلو للجلادين أن يمارسوا طقوس التعذيب إلى جوار نافذة زنزانته إمعانًا فى إقلاقه وإيذائه.. لكنهم نقلوه بعدها إلى سجن مصر..

إن المدة التى قضيتها فى السجون الحربية كانت أقل من ثلاثة شهور، لقد دخلت هذا المكان فى الثامن من شهر أغسطس عام ١٩٥٥، وتم ترحيلى منه فى أواخر شهر أكتوبر من نفس العام حسبما أعتقد، وإن كنت لا أتذكر تاريخ الترحيل بالضبط.. هذه الفترة العصيبة كانت حدثًا ضخمًا فى حياتى.. لقد أفقت على عالم جديد.. ورأيت الناس بصورة أخرى.. وكان لابد أن أعيد النظر فى كل شىء.. لم أكن أتخيل أن هناك نوعيات من البشر أشد حماقة وقسوة وشراسة من وحوش الغاب.. إن أشياء كثيرة عن البراءة وحسن النية تنزوى أو تضمر فى داخلى.. وأخذت أتساءل: لماذا هذا العناء؟ وهل للعدالة صور متعددة؟ لمن الملك؟ ومع من الحق؟ ولماذا يطغى الطغاة، ويقسو الجلادون؟ لماذا لا نتحاور بدلًا من أن نتحارب؟ ولماذا لا نتفاهم بدلًا من أن نقتل أو نسيل الدماء؟ ولماذا ينجرف الناس لتيار

الهوى، ويميلون مع القوة، ويرهبون السلطان ويلغون إرادتهم وذواتهم؟ ولماذا الغرور والجشع وسوء الظن؟ ولماذا التمادى فى الانتقام، والقسوة فى العقاب؟ علامات استفهام كثيرة كانت تموج فى رأسى.. ولم أجد لها جوابا شافيًا.. كان لابد من التفكير الطويل، والدراسة، والتأنى، وإعادة النظر فى كل شىء مرة أخرى.. وليس هناك داع للعجلة.. فأمامى عشر سنوات سأقضيها - إذا أراد الله - فى غياهب السجون.. عندئذ ستكون أمامى فرصة كافية جدًا للتفكير العميق، والدراسة المستفيضة..

وصدرت أحكام محكمة الشعب.. وأعيد تنظيم إسكاننا فى السجن الحربى، المحكوم عليهم فى أماكن خاصة، والبراءة فى مكان آخر، أما من أخذوا أحكامًا مع وقف التنفيذ، فقد كانوا فى جهة ثالثة.

وذات يوم نادوا أسماء المحكوم عليهم، وتراصت صفوفهم، وفهمنا أننا على وشك الرحيل.. إلى أين؟ لا ندرى.. وجاءوا بسيارات كبيرة مغلقة.. وتم وضعنا فيها.. وكل سجين مربوط مع شرطى فى قيد واحد.. ودارت بنا السيارات من طرق خارج مدينة القاهرة، كنا نعبر القبور أو المدافن الواسعة.. ومدينة الموتى تبدو كمستعمرة شاحبة متربة، يكتنفها الحزن والأسى.. وانتابنا صمت عميق.. النظرات الشاردة، والضوء الخافت يتسلل داخل السيارات بصعوبة، والجد والصرامة تبدوان على وجوه العسكر، وكأنما قد عافت النفوس الكلام.. وشق الصمت صوت أحد الإخوة فجأة:

« الله أكبر ولله الحمد ..»

الله غايتنا.. والرسول زعيمنا.. والقرآن دستورنا.. والجهاد سبيلنا..

والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا..

واشتعلت السيارات المتتابعة بالهتاف الصاخب، وتوترت أعصاب الحراس، وأخذ كبار الضباط يحثون السائقين على الإسراع فى سيرهم، بعد أن فشل تهديهم لنا بالسلاح..

كانت الهتافات مجرد تنفيث عن القهر والكبت والعذاب الطويل.

إن الأيدى مقيدة، والنفوس ثائرة، والظلم تمادى دون رادع، وكان الهتاف « أضعف الإيمان ».

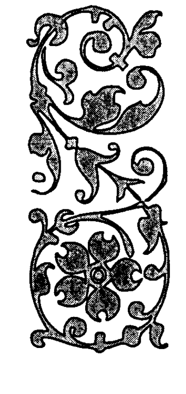
وأمام بوابة سجن القاهرة « قرة ميدان » توقفت السيارات..

كانت الساحة أمام السجن ممتلئة برجال الأمن والشرطة.. ولم يسمح لأحد من عامة الناس أن يتواجد أمام البوابة رغم أن الوقت ضحى، وظلت الهتافات تدوى حتى ابتلعنا جوف السجن الكبير..

وهكذا بدأنا مرحلة جديدة..

❁❁❁

الجزء الثالث



[١] فى «قرة ميدان»

كان سجن مصر – أو قرة ميدان – كما كانوا يسمونه، أول سجن مدنى، أصل إليه مع الدفعة الجديدة من الإخوان، وكان بالباب الضخم الأسود منفذ يدلف منه الداخلون، فالباب الكبير لا يفتح فى العادة، ولكن يفتح هذا المنفذ فقط، ويضطر الداخل أن ينحنى حتى يمر منه، لأنه دون قامة الإنسان، ولا يتسع لدخول أكثر من واحد، كنا نمضى فى طابور طويل واحدًا واحدًا، ثم تجمعنا فى الساحة الصغيرة، وبعدها أغلقوا الباب..

قال أحد الإخوة ساخرًا وسط الجو المتوتر الكئيب: «أيها الداخلون ودعوا آمالكم ..»

ترقرقت الدموع فى عيون البعض، ولم تنطفىء تلك الابتسامة التى ترتسم على الوجوه الشاحبة رغم ما يجثم على الصدور من آلام، وصاح الملازم رجائى فى شىء من الحزم والضيق: «لا أريد أن أسمع صوتًا.. فيه هنا نظام ..»

وأخذوا يسجلون أسماء «الوارد» وهو المصطلح الذى يطلقونه على الوافدين الجدد إلى السجن، ثم سحبوا منا جميع الملابس الخاصة، والنقود والأوراق والحقائب والكتب وغيرها، ووضعوها – كما قالوا – فى «الأمانات».. وسلموا كل واحد بدلة زرقاء من الدمور، وقميصًا كالحًا يميل إلى اللون الأبيض، وكانت رائحة هذه الملابس تدعو إلى الاشمئزاز، فضلًا عن أنها ممزقة، ولا تتفق مع طول وحجم المسجون، فقد تكون واسعة متهدلة، وقد تكون ضيقة يصعب إدخال الجسم فيها، وليس هناك مجال للاعتراض أو الاستبدال، ثم سيق الجميع إلى عنبر «ج» بالدور الأرضى، كان العنبر من أربعة طوابق، وكانت أبواب الزنازين التى وضعنا فيها عبارة عن قضبان حديدية متقاطعة، بحيث نُرى فى داخلها مكشوفين، كما أننا نرى الذين يتحركون فى الصالة من سجّانة ومذنبين يتولون غسل الأرض وتنظيفها، وتسلم كل مسجون منا «بطانية» وبرشًا مجدولًا من سعف النخيل، ثم حشرنا بطريقة عجيبة فى هذه الزنازين الضيقة، كل ثمانية فى واحدة، وعند النوم لم نستطع أن نجد أمكنة كافية، كان على كل فرد أن ينام على جنبه، فلا يُسمح بالاستلقاء على الظهر، وبات من الضرورى أن نرقد «خِلْف خِلاف».. بمعنى أن يكون قدماك إلى جوار رأس من يليك، وبرغم هذا التنظيم، فقد بقى واحد منا دون مكان، ولم يكن هناك مفر من أن يجلس القرفصاء فى ركن من أركان الزنزانة، وينام على هذا الوضع، ولكى نتشارك فى حل هذه المشكلة قررنا أن ينام كل واحد منا وهو فى وضع القرفصاء لمدة ساعة ونصف، ولدى الباب وضع دلو «جردل» للشرب وآخر للتبول، ولم نجد مكانًا

للأحذية فاضطررنا إلى وضعها فى فتحات الباب بين القضبان ، وكانت بقية زنازين الدور الأرضى مشغولة بإخوة مسجونين سبقونا إلى هذا المكان منذ بضعة شهور فيما سمى بقضية «مارس سنة ١٩٥٥» ، أما الأدوار الثلاثة الأخرى فكان بها معتقلون مضى عليهم أكثر من عام ، لكنهم كانوا يلبسون ملابسهم العادية ، ولهم غذاء أفضل من غذائنا ، وكثيرًا ما كانوا يتنازلون عن جزء من غذائهم لنا نحن المسجونين ، لأن غذاءنا كان رديئًا للغاية ، ففى الصباح نأخذ رغيفًا واحدًا صغيرًا وقطعة من الجبن «القريش» لا تكفى ربع الرغيف ، وفى الظهر ثلاث ملاعق من الفول المدمس أوالعدس مع رغيف ، وفى المساء رغيفًا أيضًا ونوعًا من الخضار المطبوخ المجهول الهوية لا يزيد عن ثلاث ملاعق فى داخله قطعة من اللحم لا تؤكل ، لأنها تشبه إلى حد كبير فى قوامها نعل الحذاء!! وكان علينا أن نصبر على هذا الوضع ، كما كان الجوع يجعلنا نأكل أى شىء وبسرعة ، لكننا كنا نفكر فى حل جذرى لهذه المشكلة المحزنة.

مضت الليلة الأولى قاسية رهيبة ، ترى هل يمكننا تحمل هذه الحياة لسنوات؟ كيف؟ وبأية طريقة سوف نقضى أربعًا وعشرين ساعة كل يوم ، وليس معنا كتاب أو صحيفة وبدون عمل أيضًا ، ونحن نجلس متلاصقين فى هذا الجحر الكئيب؟ وتمر ذكريات الماضى كالأطياف.. كنا فى نعمة لم نكن ندرك عظمتها وروعتها ، مجرد المشى فى الشارع كان شيئًا رائعًا ، تصفح جريدة – رغم ما فيها من زيف – متعة ، قراءة كتاب حياة.. اختيار الطعام الذى يروق لك. شىء هام تكمل به حريتك فى الرفض والقبول.. هناك أشياء صغيرة ، قد تبدو فى الحياة تافهة لا معنى لها ، لكنها تبدو الآن ذات دلالات ورموز كبيرة..

قال أحد الاخوة: «نحن اليوم فى مقام الصبر».

رد عليه آخر فى ثقة: «وفى مقام الشكر أيضًا ..»

قلت معلقًا وأنا أبتسم: «الحمد لله الذى لا يُحمد على مكروه سواه ..».

وبعد أن أدينا صلاة العشاء جماعة فى الليلة الأولى ، ألقينا بأجسادنا المنهكة على الأبراش الجافية ، ودون وسائد ، كان الجو باردًا فى المساء ، وكانت الملابس والأغطية قليلة ، لكن أنفاسنا وازدحامنا ، أعطيانا بعض الدفء ، ونمت ولم أفق إلا على صوتٍ نَدِيّ أخّاذ لأحد المسجونين وهو يقدم بعض التسبيحات والأدعية تمهيدًا لأذان الفجر.. كان يقول:

لا تظلمنّ إذا ما كنت مقتدرًا ... فالظلم شيمته تُفضى إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك ، وعين الله لم تنم

وشعرت بدموعى تنسكب تحت جنح الظلام والصمت ، كنت أشعر بحرقة الظلم القاهر ، وأشعر أن الانتقام الذى حاق بنا فوق ما يتصوره عقل ، لم يكن هناك مبرر لما اتخذوه ضدنا من إجراءات عنيفة ، ولا لما نعامل به من إهمال غريب ، ولم نستطع الوضوء ، لأن كمية الماء المتوفرة لدينا تكفى بالكاد للشرب ، ولهذا أشار علينا أحد الإخوة بالاستعاضة بالتيمم عن الوضوء ، وكانت أصوات الأئمة المصلين تنبعث فى عرض العنبر داخل جميع الزنازين فى خضوع وخشوع ، وكانت كلمة «آمين» أثناء قنوت الصلاة تتردد عالية قوية في إلحاح ، وما إن انتهنا من الصلاة حتى بدأنا الختم وقراءة المأثورات بصوت جماعي ، حتي يشترك الذين لا يحفظون الأوراد مع الذين يحفظون ، والمأثورات مجموعة من الأدعية والتسبيحات والآيات أو ذكر الله ، جمعها – المرحوم الشهيد – الإمام حسن البنا فى كتاب

صغير مختارًا أصح الروايات فيما ورد عن رسول الله ، وقد انتشرت هذه المأثورات بين الإخوان منذ سنوات طويلة ، والواقع أن المأثورات من خير ما ورد فى هذا الباب ، إذ إنها ملتزمة بشروط العقيدة الصحيحة ، وبعد الانتهاء من المأثورات تناولنا طعام الإفطار وهو عبارة عن رغيف وقطعة صغيرة من الجبن « القريش » كما أسلفنا ، ولجأ بعضنا إلى النوم مرة أخرى ، بينما أخذ البعض الآخر يتلو القرآن بصوت خفيض ، ولم يكن قد سمح لنا بالمصاحف بعد ، ولهذا كنا نستمع إلى حفظة القرآن منا ، وفى السابعة حضر سجانة النهار ، وخرج خفر الليل ، وساد العنبر قدر من الضجيج مبعثه أولئك المساجين الذين أحضروا لتنظيف صالة العنبر ودورات المياه فيه ، وهم من المحكوم عليهم فى قضايا أخرى غير سياسية ، كان جاويش العنبر « إبراهيم » رجلًا هادئًا رزينًا طيبًا ، ويختلف أشد الاختلاف عن شياطين السجن الحربى من العسكر المجندين قساة القلوب ، وأصبح من الواضح أن المعاملة فى « قرة ميدان » - أو سجن مصر - معاملة معقولة ، وتختلف تمام الاختلاف عن المعاملة الشاذة فى السجن الحربى ، والجاويش إبراهيم رجل قليل الكلام ، لا يجيب على الكثير من أسئلتنا حرصًا منه ، ولكى لا يقيم علاقات مع أحد ، وبذلك يدرأ عن نفسه الشبهات ، وإذا تكلم فإنه يدعو لنا بالنجاة ، وينصحنا بالطاعة ، وعدم مخالفة الأوامر ، لأن وضعنا شائك ودقيق ، ويختلف عن وضع باقى فئات المسجونين ، ويذكرنا دائمًا بأن الحياة فى السجن لها طابعها الخاص ، وأن التمرد أو عصيان الأوامر يعنى كارثة كبرى ، وهو حريص على مصلحتنا ، لأننا كما يقول « ناس طيبون.. وبتوع ربنا » ، وكان لكلماته صدى حسن فى نفوسنا ، وقد سمح لبعض إخواننا من السجناء القدامى الذين سبقونا إلى هذا السجن ، بالاتصال بنا من خلال باب الزنزانة المغلق ، فشرحوا لنا الوضع فى السجن ، والنظام المعمول به ، وأرشدونا إلى ما يجب عمله ، كما قدموا لنا بعض المعونات الطبية البسيطة كأقراص الاسبرين ، وأدوية المغص أو الإسهال ، وقطرات العيون والأنف والأذن وغيرها.

وبعد نصف ساعة سمح لنا بالذهاب إلى دورة المياه ، كان عددنا كبيرًا لا يتناسب مع عدد المراحيض - وأظنها ثلاثة أو أربعة - ولهذا تكدسنا فى داخل الدورة ننتظر الدور ، وكانت مهمتنا التخلص مما تحويه جرادل البول وغسلها بالماء ، ثم ملء جرادل الشرب ، ودخول المرحاض لدقائق ، ثم الاغتسال والوضوء ، والعودة بعد ذلك إلى الزنزانة ، ثم عاد السجان إبراهيم لإغلاق الأبواب علينا من جديد بعد حوالى الساعة ، وبعد فترة قصيرة رأينا المعتقلين - سكان الأدوار الثلاثة العليا فى عنبر « ج » - يهبطون الدرج فى صفوف منتظمة ، لقد كانوا خارجين لطابور الصباح اليومى ، حيث يتمشّون فى ساحة السجن بين العنابر ، أو يجلسون فى الشمس ، وأثناء مرور المعتقلين علينا وهم يخرجون إلى الساحة تعرفنا على الكثيرين من إخواننا القدامى ، وتبادلنا التحيات بحرارة وصدق ، لم نستطع أن نتعانق أو نتصافح فقد كان السجانة يضربون نطاقًا حولهم ، ويمنعونهم من الاقتراب من أبواب زنازيننا حتى لا يعلو الضجيج ، أو تعم الفوضى ، وخاصة أن بعض الضباط يرقبون الموقف عن كثب ، لقد شعرت بالارتياح وأنا أرى أخوة لنا يحيوننا ويبتسمون لنا فى ود ، وهم فى حالة نفسية وصحية لا بأس بها ، إننا لم نزل معًا ، ولم تزل قلوبنا تنبض بالحب وبالمعنى الكبير العظيم الذى اجتمعنا من أجله ، إن هذا التجمع الضخم يبعث فينا الدفء والحيوية والأمل ، وكانت الكلمة الشائعة التى نسمعها من الإخوة المعتقلين المارين:

« شدوا حيلكم.. ربنا معكم ..»

والمعتقل لم يصدر ضده حكم ، ولهذا فسوف يخرج من السجن إن عاجلًا أو آجلًا ، أما نحن

المسجونين ، فقد صدرت ضدنا أحكام بالسجن ، والمفروض ألا نخرج إلا بعد انقضاء مدة الحكم ، ولهذا كان المعتقلون يعطفون علينا ، ويسبغون علينا كلمات العزاء والتشجيع ، ومع ذلك فإن نظرة إدارة السجن إلى المعتقلين أو المسجونين سواء ، فكلهم إخوان ، ولا فرق بينهم إلا فى الأحكام الصادرة ضد المدانين فى دوائر محكمة الشعب ، وفى الملابس وبعض الميزات الغذائية لهم.

ولفت نظرى بين المعتقلين رجل طيب يصفق بيديه كما يفعل الرجل الشعبى الأصيل ويرحب بنا فى حرارة ، ويلقى بكلمات تعبر عن الحب والتقدير بالنسبة لنا ، ولم يحاول السجانة أو حتى الضابط أن يمنعه من ذلك ، وحاولت أن أتذكر من هذا الرجل ، لكن حيرتى لم تطل فقد قال أحد الإخوان: « هذا هو الحاج إبراهيم كروم ».

- « ومن يكون الحاج إبراهيم كروم؟ ».

تساءلت ، وعلمت أن للرجل قصة طريفة يعرفها معظم إخوان القاهرة ، فالحاج إبراهيم كروم كان من الرجال القساة الأشقياء ، وكان « فتوة » شهيرًا لحى من أحياء القاهرة العريقة ، استطاع أن يفرض سطوته على قطاع عريض من الناس ، بل وتخطى سلطانه حدود الحى الذى يحكمه إن صح التعبير ، وعلى الرغم من أنه كان يفرض الإتاوات ، ويطيح بالأقوياء ، ويؤدب المناوئين له ، ويريق الدماء ، ويحرق ويدمر ، إلا أن الشرطة كانت تعمل له ألف حساب وتتجنب الاصطدام به وبرجاله ، ويعتبرون العلاقة الطيبة به من وسائل الاستقرار واستتباب الأمن ، كما إن رجالات الأحزاب فى الحى كانوا يجاملونه ويتقربون إليه ، من أجل الانتخابات فى عهد ما قبل الثورة ، ويتسابقون لإنقاذه إذا وقع فى ورطة مع الحكومة ، حتى يكتسبوا رضاه أو تأييده.

وعندما اتسع المد الإخوانى ، وأصبح لحسن البنا تأثير كبير فى الشارع المصرى ، استدعاه أحد رجال الأحزاب ، وعقد معه صفقة ، مؤداها أن يُدفع له مبلغ كبير من المال ، وأن يحموه من بطش السلطة ، وذلك إذا استطاع أن يذهب إلى المركز العام للإخوان المسلمين فى أحد أيام « الثلاثاء » ، أثناء إلقاء المرشد العام درسه الأسبوعى - درس الثلاثاء الشهير - على جموع الإخوان فى ميدان الحلمية ، وأن يعتدى على البنا ، ويفسد الاجتماع ، وكان هذا أمرًا عاديًا بالنسبة لإبراهيم كروم ، فوافق على الصفقة فورًا ، وفى اليوم المعهود أخذ رجاله وسلاحه وقصد إلى « ميدان الحلمية » ، كانت الحشود تجلس على الأرض فى هدوء عجيب ، وكأن على رءوسهم الطير ، وكان الإمام الشهيد يتحدث عن مبادئ الإسلام وأمجاده ، بأسلوبه المؤثر الساحر « إن من البيان لسحرا » ، ولم يكن يقطع هذا المشهد الرائع إلا الهتافات والشعارات المعروفة لدى الإخوان « الله أكبر ولله الحمد.. الله غايتنا.. والرسول زعيمنا.. والقرآن دستورنا.. والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا ..».

وتعلقت عينا إبراهيم كروم بالرجل الطيب الذى يتحدث ، وانجذبت أذناه وقلبه وروحه إلى كلماته ، ونسى تمامًا ما جاء من أجله ، ولم يعد يهتم بلكزات عصابته وهم يذكرونه بالمهمة التى قدموا من أجلها ، وفى لحظة من اللحظات لا يدرى كنهها ، وجد إبراهيم كروم نفسه يهتف مع الهاتفين ، ويردد الشعارات كما يرددها الآلاف ، وما إن انتهى المرشد من حديثه ، حتى اندفع إليه إبراهيم فى حماسة وحب ، ثم احتضنه وأخذ يقبل رأسه ولحيته ، ويحاول تقبيل يديه ، وانفرط دون تحفظ يشرح خطوط المؤامرة التى جاء لتنفيذها ، وكان هذا بداية علاقة وثيقة بقيت حتى استشهد الإمام ، وتاب إبراهيم وودع حياة الدماء والعدوان والخمر والمخدرات والنساء ، وبدأ عهدًا جديدًا من الطاعة والصفاء ، فكان يبدأ يومه فى المسجد بصلاة الفجر ، وينهيه فى المركز العام مستمعًا إلى الأحاديث الطيبة ، بعد أن

أصبح أثيرًا لدى الإمام رحمه الله ، وانصرف أيضًا الحاج إبراهيم - بعد أن حج بيت الله الحرام - إلى التجارة الحلال ، فكثرت أمواله ، واستقام سلوكه ، وأصبح من المشهود لهم بحسن العبادة ، وكرم الأخلاق ، والعطف على الفقراء.. واشتقت للتعرف عليه ، كان - رحمه الله - يعانى من انزلاق غضروفى على ما يبدو ، ولم يجد العلاج المناسب فى المعتقل ، ولهذا كان يعرج فى مشيته البطيئة ، على الرغم من فتوته وبناء جسده القوى.

وتمنينا أن نخرج إلى طابور الصباح مثل باقى الإخوان ، لكننا فهمنا أننا فى فترة « العزل » وسوف يسمح لنا بذلك بعد فترة ، ولهذا كانت الفترة التى نقضيها فى الزنزانة يوميًا - وهى ما يقرب من ثلاث وعشرين ساعة - ثقيلة مملة على نفوسنا ، لكننا كنا نلجأ إلى مناقشة بعض الأمور الدينية أو الأدبية أو السياسية ، كما كنا نستمع إلى بعض الدروس المتخصصة من الإخوة ذوى التخصصات ، فالطبيب يحدثنا عن الأمراض والوقاية منها وعلاجها ، وميكانيكى السيارات يشرح لنا تركيب ماكينة السيارة والخلل الذى تتعرض له ، والمحامى يحدثنا عن القانون ، ويعقد مقارنات بين القوانين الوضعية والسماوية ، والمفسر للقرآن يتناول بضع آيات بالشرح ، والمحدث يساعدنا على حفظ بعض الأحاديث النبوية الصحيحة ، والذى جاهد ضد الانجليز فى معركة القنال الشعبية ، أو حارب اليهود فى فلسطين يحكى لنا الكثير عن ذكرياته ومعاركه ، وهكذا كان الوقت يمر علينا بسرعة..

وفى المساء يحلو السمر والذكريات الشجية ، وكان الذى يتحدثون عن أطفالهم يثيرون فى نفوسنا الكثير من التعاطف والألم ، وأصحاب الأعمال الخاصة والحرف يذكرون ما أصابهم من خسائر وتعطيل وغرامات تخرب البيوت ، وطلبة الجامعة والمدارس الثانوية وما فى مستواها يذكرون بالحسرة السنوات التى تمر من عمرهم دون استفادة دراسية ، وخاصة أن القوانين الثورية الجديدة لا تسمح للمعتقلين والمسجونين السياسيين بدخول الامتحانات على النقيض تمامًا مما كان يحدث إبان العهد الملكى ، ومعظم الطلبة المحجوزين من الأسر الفقيرة المكافحة التى بذلت الكثير فى سبيل تلقى العلم ، غير أنه من الجدير بالملاحظة أن أصحاب الأعمال الخاصة قد عانوا الكثير من المتاعب الأسرية والنفسية.

وجاء اليوم الذى سمح لنا فيه بالخروج فى طابور الصباح ، كنا نفتح أعيننا بصعوبة فى ضوء الشمس ، ومع ذلك كنا سعداء كالأطفال بالشمس والهواء والمشاهد الجديدة فى ساحة السجن ، وتبادلنا التحيات والمصافحة بحرارة مع الإخوة القدامى ، كان فيهم مجموعة كبيرة من الشخصيات المعروفة ، أساتذة جامعة وأطباء وعلماء فى مختلف الفروع ، كما شاهدت مجموعة صغيرة من الشيوعيين بينهم الأديب القصصى الدكتور يوسف إدريس ، ورأيت المتهم الأول فى قضية « الجبهة الوطنية » لأول مرة وهو المرحوم المهندس محمود عجوة ، وكان هو المسئول عن مكتبة السجن ، ومحمود شاب طيب القلب يتمتع بقوة بدنية خارقة ، وبشجاعة يحسد عليها ، وقضية « الجبهة الوطنية » قضية مضحكة ، فقد قبض على مجموعة متنافرة من الطلبة - أغلبهم من جامعة عين شمس - لاشتراكهم كما قيل فى بعض المظاهرات أو التحريض عليها ، ولم يستطع المحققون أن يكتشفوا أدنى رباط بين أفراد هذه المجموعة ، إذ وجدوا فيهم الإخوانى والوفدى والشيوعى واللامنتمى ، كما بدا واضحًا أنه لا يوجد ما يمكن أن يطلق عليه تهمة ، فما كان من أحد كبار رجال الأمن إلا أن استدرج أحد المتهمين ، وبذل له الوعد والوعيد ، كى يدلى بأقوال تجعل منها مؤامرة يقوم بها هؤلاء الشباب ، والغريب أن إحسان عبد القدوس الصحفى الشهير كان قد قبض عليه قبل ذلك ، وحاول المحققون أن يجعلوا منه المتهم الأول لهذه الجبهة بسبب مقالاته الجريئة فى صحف « روز اليوسف » لكن تم العدول

عن ذلك ، وأفرج عن إحسان عبد القدوس ، واختير المهندس محمود عجوة « طالب هندسة آنذاك » لكى يكون المتهم الأول ، وكان السبب فى وضع هذه التهمة فى رقبته ، أنه أثناء دخوله كلية الهندسة التى تحاصرها الشرطة تعرض له أحد الضباط ومنعه من الدخول ، وكان محمود شابًا انفعاليًا صريحًا ، فاختطف الضابط وحمله على كتفه ، وجرى إلى داخل كلية هندسة عين شمس ، ولما امسك به أحد جنود الشرطة ضغط محمود على أصبع الجندى فكسره.. وأخيرًا وصل إلى الداخل ، وبعدها ترك الضابط حرًا ثم ذهب إلى المدرج لحضور المحاضرات ، وفى المساء قبض عليه فى بيته بشارع الشيخ قمر.. وهكذا سيق إلى المحاكمة ، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات.. وكما سبق وشرحنا ، فقد تطوع الزميل « الشاهد مَلِك » بالاستجابة لأوامر رجل الأمن الكبير ، وأدلى بتفاصيل مؤامرة من نسج الخيال ،ونتج عن ذلك الحكم على محمود عجوة ، وعدد من زملائه ، وتراوحت الأحكام بين ١ - ٥ سنوات ، وبالطبع برئت ساحة « الشاهد مَلِك » ، الذى أفشى السر أثناء المحاكمة ، واستطاع بعض أقارب المتهمين تسجيل ذلك الاعتراف الذى أدلى به الشاهد المأجور على شريط ، ثم أخذوه إلى محكمة « الدجوى » عن طريق المحامى الموكل بالدفاع عن عجوة وزملائه ، ثم زعم أنه فقد ، فعاد المحامى فى الجلسة التالية ومعه نسخة أخرى من الشريط ، فحاول رئيس المحكمة التأجيل مرة أخرى لإحضار جهاز لسماع التسجيل ، لكن المحامى كان حريصًا هذه المرة فأخرج من حقيبته مسجلًا حتى يسمع الشريط ، ومع ذلك لم تنفع هذه المحاولة فى تبرئة ساحة المتهمين من المؤامرة الملفقة..

وقضى المرحوم محمود عجوة خمس سنوات كاملة فى سجن مصر أمينا للمكتبة ، وبعد أن أفرج عنه أكمل دراسته فى هندسة عين شمس ، ولما أخذوه إلى التجنيد ، كتب ضد نفسه شكوى قائلًا إنه من الإخوان المسلمين أساسًا وأن فى وجوده بالجيش خطرًا على الدولة ، فسرحوه فورًا ، حيث تم تعيينه مهندسًا للكهرباء فى الإسكندرية ، وقد استطاع أثناء وجوده فى الإسكندرية الهرب إلى ليبيا ، لكنه عاد مرة أخرى إلى الإسكندرية والتحق بنفس عمله بعد أن احتسب مدة الهرب أجازة مرضية ، ولما سألته عن سبب عودته من ليبيا ، وهو الذى كان يحلم بالهروب من مصر ، وكان ذلك عندما التقينا مرة أخرى فى الاعتقال الثانى عام ١٩٦٥ بعد قضية الشهيد الأستاذ سيد قطب الشهيرة قال لى محمود عجوة رحمه الله: « أنت السبب فى ذلك ».

صحت فى دهشة: « أنا؟ كيف؟ »

- « هل نسيت أننى عندما عرضت عليك فكرة الهرب لأول مرة وكنت تزورنى فى الإسكندرية.. هل نسيت أنك رفضت الفكرة ، وأخذت تحدثنى عن حب الوطن ، وضرورة البقاء فيه ، والعمل من أجل رفعته وتحريره من قبضة الظلم ، حتى تتحقق الحرية والتقدم وتسود مبادئ الإسلام ، وذلك لأن مصر تعتبر أهم وأخطر بقعة فى العالم الإسلامى.. وأن... وأن ...»

قلت شاردًا: « نعم أتذكر ....».

قال محمود فى سخرية: « وعندما وصلت إلى ليبيا ، شعرت بالعزلة والضيق والضياع.. وأخذت أفكر فى كلامك.. وبعد أيام من التفكير المضطرب المقلق ، عدت مرة أخرى عبر الحدود إلى الاسكندرية.. وليتنى ما عدت.. إذ لم تكد تمر بضعة شهور حتى حدثت الأزمة من جديد ، وساقونى إلى المعتقل من جديد.. والكارثة أنهم وضعوا عصابة على عينى وأوسعونى ضربًا دون سبب حتى كدت أموت.. والغريب أننى استطعت أن أميز - أثناء الضرب - صوت أحد الضباط وهو من أصدقائى القدامى اسمه « س.ح » ، والأغرب من ذلك أنه كان منتسبًا للإخوان أثناء مرحلة دراسته الثانوية.. ليتنى

ما تذكرت كلماتك وأنا فى ليبيا.. إذن لكنت حرًا الآن ».

قلت له: « هذه أقدار ...».

قال: « أعلم.. ولسوف أهرب مرة أخرى إذ كتب لى الخروج من المعتقل، ولن أعود أبدًا أبدًا مهما كان الأمر، حتى ولو حملت قصعة على رأسى.. إن أى شىء أهون من ضياع الحرية ...».

وقد نفذ محمود عجوة وعده بعد ذلك، فما إن خرج من المعتقل، حتى اخترق الحدود - لا أدرى كيف - إلى الأردن، ثم قضى فترة فى الكويت بجواز سفر غير مصرى، ثم استقر به المقام فى المملكة العربية السعودية، حيث تزوج فتاة سورية من أسرة طيبة كانت تراسله من قديم، وكانت هذه الفتاة على علاقة بزوجتى من خلال معسكرات الطالبات المشتركة بين طالبات مصر وسوريا أثناء الوحدة، ولما قدمت هذه الفتاة - واسمها فاطمة غريب - إلى مصر فى إحدى زياراتها التالية للعلاج زارت زوجتى - قبل زواجنا - وأثناء الزيارة ذكرت عنوان شاب تراسله من قديم، وكم كانت دهشتى عندما وجدت أنه نفس عنوان « محمود عجوة »، وان الاسم اسمه، وذهبنا معًا لزيارته.. أقول إن محمود تزوج هذه الفتاة فى السعودية، وعلى الرغم من استقرار حياة محمود وسعادته هناك إلا أن الله اختار زوجه فاطمة إلى جواره أثناء عملية جراحية، بعد أن تركت له بنتًا، ثم أصيب محمود بمرض فى الكبد، تدهورت صحته على أثره، وسافر إلى لندن للعلاج، لكنه عاد دون نتيجة ولقى ربه.. ولا أدرى شيئًا حتى الآن عن طفلته..

رحم الله محمودًا، فقد كان رجلًا صادق النية، قوى العزيمة، مؤمنًا بمبادئه أعمق الإيمان، وقد قضينا معًا سنوات طيبة من أزهى سنوات العمر جهادًا وصدقًا وعطاءً.

ومن الشخصيات البارزة فى وسط المعتقلين الدكتور توفيق الشاوى أستاذ القانون الجنائى بكلية الحقوق، وهو رجل ذو ماض مشرف، وجهاد متصل، وقد كان له مع جمال عبد الناصر صداقات عديدة، من أبرزها ما حدث فى ذلك الاجتماع الشهير بين الرئيس وأساتذة الجامعة، حيث دافع الدكتور توفيق الشاوى دفاعًا مستميتًا عن الحريات العامة والالتزام بالدستور والقوانين، وناصره فى ذلك الاجتماع عدد من الأساتذة الفضلاء، وفى الأيام التالية صدر القرار الخاص بفصل حوالى أربعين أستاذًا وأستاذًا مساعدًا من الجامعة على ما أذكر، وكان الدكتور الشاوى على رأسهم، كما كان الدكتور الشاوى من أوائل المعتقلين فى حل الإخوان المسلمين الأول فى عهد الثورة « يناير سنة ١٩٥٤»، وبعد أن خرج من المعتقل، كتب فى جريدة المصرى سلسلة من المقالات بعنوان « حقوقك إذا اعتُقِلْت » كان لها صدى واسع بين المثقفين ورجال السياسة بصفة خاصة، مما أحنق عليه عبد الناصر أشد الحنق، ثم أعيد اعتقاله - وكذلك إخوته الدكتور محمود والمهندس عمر وإبراهيم - بعد حادث المنشية، وقدم الدكتور توفيق للمحاكمة، فصدر ضده حكم مع إيقاف التنفيذ، لكنه لم يفرج عنه بعد الحكم، بل وضع مع المعتقلين، ولما أفرج عنه فى عام ١٩٥٦ سافر إلى الجزائر، والسبب فى ذلك أنه كان على صلة وثيقة بكبار أعضاء جبهة التحرير الجزائرية، فعمل مستشارًا لهم، وظل على رأس عمله حتى دب الخلاف بين القادة وكان الدكتور توفيق حريصًا على لم الشمل بينهم، وخاصة أنه يحمل إعزازًا وتقديرًا خاصًا لبعضهم مثل خيضر وآية أحمد اللذين أبعدا، فترك الجزائر وعمل مستشارًا لفترة مع الملك الحسن، ثم استقر به المقام أخيرًا فى المملكة العربية السعودية مستشارًا للمرحوم الملك فيصل حتى وفاته، وقد تجنس بالجنسية السعودية، وطوال تلك الفترة أصدر عددًا من الدراسات السياسية والاقتصادية والعلمية، وكانت دراساته الاقتصادية هى اللبنات الأولى فى إقامة البنوك الإسلامية

المعاصرة وعلى رأسها بنك فيصل الإسلامى، كما اهتم بالتعليم الحديث وأسلحته، فأنشأ مدارس «المنارات» الشهيرة فى شتى أنحاء المملكة العربية السعودية وهى مدارس خاصة، ولها مناهج إسلامية متميزة متطورة، أنتجت نخبة من التلامذة الممتازين، كما انتشرت هذه المدارس بمناهجها فى بعض الدول الافريقية والأسيوية. وساهم كذلك فى إنشاء مدارس بأوروبا وأمريكا على نفس النمط، حتى مدارس اللغات الأجنبية الخاصة فى السعودية وغيرها التزمت نفس المنهج، ولهذا اختير أمينًا عامًا للاتحاد العالمى للمدارس الإسلامية، كما أصدر كتابًا هامًا عن الميكافيلية فى السياسة العربية تحت اسم مستعار وهو «محمد صادق».. وغير ذلك من الدراسات الحيوية المعاصرة، وما زال يعمل بجد ونشاط على الرغم من أنه فى العقد السابع من عمره المديد إن شاء الله، ويجب أن نشير هنا إلى أن الدكتور الشاوى كان على علاقة وطيدة بالكثيرين من فقهاء القانون كالسنهورى رحمه الله، ومن رجالات الفكر والسياسة لا على مستوى مصر وحدها، ولكن على مستوى العالم العربى والإسلامى..

ولكم عانى الدكتور توفيق إبان الفترة التى قضاها فى السجن الحربى بعد حادث المنشية، فقد كان يضرب ويهان ويمسح بلاط السجن «بالخيشة»، أما أخوه محمود الطبيب فقد حكم عليه بالسجن عشر سنوات أشغال شاقة قضى فترة طويلة منها فى ليمان طرة، وكان يقطع الصخر بالجبل، كما حضر حادث إطلاق الرصاص على المسجونين من الإخوان فى نفس السجن، والذى راح ضحيته واحد وعشرون أخًا بالإضافة إلى العشرات الذين أصيبوا بجراح، ولم يحكم على الأخوين الآخرين إلا بالاعتقال. كذلك كان من المعتقلين فى سجن مصر الدكتور محمود أبو السعود وهو من علماء الاقتصاد الإسلامى البارزين، والشيخ مصطفى العالم، وقد استوطن الأول بعد ذلك أمريكا وأوروبا، أما الثانى فقد عاش بقية حياته فى السعودية، وهناك غيرهما كثيرون لا ترد أسماؤهم إلى ذهنى الآن.

لم تحدث منغصات تذكر خلال الفترة القصيرة التى قضيناها فى «قرة ميدان» اللهم إلا تلك الليلة التى أصر فيها إخواننا القدامى من المسجونين بالاحتفال بنا على طريقتهم، فقد أخذوا يرددون وهم فى زنازينهم بعض الأناشيد الإخوانية التى تتناول موضوع الجهاد فى سبيل الله، والتضحية فى سبيل المبدأ، والتنديد بالظلم والدكتاتورية، وكان لهذه الأناشيد وقع طيب فى نفوسنا، لكننا فوجئنا بباب العنبر يُفتح ويدخل منه الضابط «النوبتجى»، وحوله كوكبة من حرس الليل «خفر الليل»، ثم يخرجون بعض الإخوان من زنازينهم، ويعتدون عليهم بالضرب وبالعبارات النابية..

كما كنا نفاجأ من وقت لآخر بحملات تفتيشية يقودها أحد الضباط، ومن الطريف أنه كانت هناك «كلمة سر» يعرفها المسجونين جميعًا، فعندما تهجم فرقة التفتيش يصيح أحد المسجونين بصوت عالٍ «خَشَب»، فيسرع الجميع بإخفاء ما معهم من ممنوعات، وهى أشياء تبدو تافهة مثل القلم – الورق – شفرة الحلاقة – عملة مالية.. الخ لأن حيازة مثل هذه الأشياء تعنى العقوبة المقررة فى لائحة السجون المدنية وهى تتراوح بين عزل المسجون فى التأديب، والجلد على «العروسة»، وعزل المسجون فى التأديب تعنى أنه لن يصرف له غير وجبتين أى رغيفين فى اليوم وقليل من العدس أو الفول وبطانية وبرش، ولا يسمح له بلبس الحذاء، والجَلد يكون بحكم يصدره مدير السجن، ثم يرفع إلى مدير مصلحة السجون لاعتماده، ويظل المسجون حبيس السجن الانفرادى حتى يأتى الرد مهما طالت المدة.. ولقد حدث التفتيش الأول، وكانت مشكلتى الكبرى هى أننى كتبت قصيدة شعرية عن قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع النمرود الذى كان يحكم «بابل»، ثم تعرضت لرمى نبى الله فى النار، وكان واضحًا أن القصيدة ذات مرامٍ وأهداف سياسية ودينية ترتبط بالواقع الذى نعايشه.. فماذا أفعل؟

لو عثروا على هذه القصيدة بين طيات ملابسى لكان ذلك بمثابة كارثة ، فسوف يرسلونها إلى المباحث العامة ، وسيقومون بدراستها وتحليلها ، ولا أعرف بالضبط ما سوف ينزل بعد ذلك عليّ من مآس.. وتلفت حولى ، هل أقذف بها من النافذة الصغيرة ذات القضبان المتقاطعة؟ إنه ليعز عليّ أن أفقدها للأبد ، وأخيرًا اكتشفت أن مقبض دلو البول به تجويف صغير ، فأسرعت بحشر الوقات فيه ، وعندما دخل السجانة زنزانتنا للتفتيش كان أول شيء فعلوه هو حمل « الجرادل » إلى الخارج حيث وضعوها فى دورة المياه ، والحمد لله مر التفتيش بسلام ولم يعثروا لدينا على شيء ممنوع.. وبعد أن انتهى التفتيش ، وانجابت الغمة ، وفتحوا لنا الأبواب كى نذهب إلى دورة المياه ، أسرعت لأفحص مقابض الجرادل الكثيرة المتراصة ، كانت « الدورة » مكتظة بالإخوان ، ولم أعثر على القصيدة ، وحزنت لذلك حزنًا شديدًا.. إنها أول ترجمة لمشاعرى بعد تلك الشهور القاسية من العناء ، وعدت إلى الزنزانة كسيف البال ، وأخذ الإخوة يواسوننى بكلمات فيها الكثير من المزاح ، وبعد ساعة جاء أحد الإخوة من المسجونين القدامى ووجه حديثه إلى: « هل هذه لك؟ ».

نظرت إلى يده المطبقة قليلًا ، كان حذرًا حتى لا يراه السجان ، وفهمت على الفور إنها قصيدتى ، وعلمت أنه وجدها ملقاة على أرض دورة المياه وسط البلل وتحت الأقدام ، ولما رآها شعرًا رجح أنها ربما تكون لى ، فأنا المعروف بينهم بكتابة الشعر ، وفرحت أيما فرح بهذه الأبيات التى كتبتها بحرارة لتعبر عن أحوالنا ووضعنا ، وعلى الرغم من أن القصيدة الطويلة كانت تتحدث عن ظلم النمروذ لخليل الله إبراهيم عليه السلام ، إلا أننى كنت أضع نصب عينى وأنا أكتبها قصة الإخوان والثورة ، والقسوة البالغة ، والظلم الفادح الذى وقع علينا بأمر جمال عبد الناصر ، ولم أكن فى هذه المرحلة الأولى من سجنى أرى من الحكمة أن أكتب صراحة عن ظلم الحاكم ، فكنت أتستر وراء الرموز التاريخية وغير التاريخية ، لأن التصريح آنذاك معناه الموت لى ، أو على الأقل مزيد من التعذيب وزيادة سنوات الحكم الصادر ضدى ، ووضع اسمى فى أشد القوائم سوادًا ، ومعناه أيضًا ألا أخرج من السجن أبدًا حتى ولو انتهت مدة السجن القانونية التى أصدروها ضدى ، ولم تنشر هذه القصيدة فى الدواوين التى صدرت لى بعد ذلك ، ولكنى أتذكر منها بضعة أبيات ، منها أبيات عن سيدنا إبراهيم وهو ملقى فى النار أقول فيها:

يا خليل الله بالحب انثني ... كل جَوْرٍ ، وانطوى كل عتيدْ
إن من ألقاك للناس هدي ... هو حاميك من البأس الشديد
فليدبر ظالم ما يشتهي ... وليكد بالشرّ فيهم من يكيد

كما قلت فى نهاية القصة القصيدة وأنا أتصور « بابل » عاصمة القهر آنذاك:

أبعثُ الطَرْفَ إلى « بابلهم » ... عاد لى الطرف برسم الطَلَلِ
عين فأبكى من بغى أو من طغي ... عَلَّلَ الظلم بشتى العِلَلِ
إنما الناس على أيامنا ... هم كما كانوا بعصر الجَمَلِ

أقول كان التعبير الأدبى بصراحة عن مظالم الحكم باهظ التكاليف ، قليل الجدوى ، فما نكتبه لن ينشر فى الصحف خارج السجن ، أو يصدر فى مطبوعات ، لأن حرية التعبير كانت مفتقدة تمامًا ، وأقصد بها حرية الأقلام المعارضة ، ولقد بقيت فترة طويلة حتى بعد خروجى من السجن أتخذ نفس الأسلوب فى التستر وراء الرموز التاريخية ، ولهذا فإن كتاباتى التاريخية لم تكن هروبًا إلى الماضى ،

أو عجزًا عن مواجهة قضايا العصر، ولكنها كانت تعبيرًا عن أزمة وواقع، وكانت إسقاطًا لانحرافات العهد الذى نعيشه، ولقد تقدمت خطوة أخرى حينما تناولت قضايا ومشاكل معاصرة فى قصص يستطيع القارىء المتعمق أن يعرف ما وراءها من رموز وقضايا خطيرة وإنى لأذكر أننى ذات مرة كتبت قصة قصيرة لمجلة الرسالة فى أوائل الستينيات من القرن العشرين، وكان عنوانها «البحث عن منى» وكان موضوع القصة رجلًا عجوزًا متسولًا ضعيف البصر، تقوده طفلته الصغيرة الجميلة «منى» وهو يتسول رزقه فى الشوارع، وذات مرة أرسل الشحاذ ابنته لتشترى له رغيفًا وطعمية، وفى فترة غيابها انتزعه الشرطى من مكانه، وساقه إلى قسم الشرطة بتهمة التسول، ولم يستجب الشرطى لضراعات العجوز كى يصبر قليلًا حتى تعود الطفلة.. وهكذا ذهب العجوز إلى السجن.. وضاعت منى.. وخرج العجوز بعد الشهر الذى حكم عليه به من السجن ليبحث عن طفلته.. كان يلح فى البحث دون جدوى.. ويذرف الدموع.. لكن كان واثقًا دائمًا أنه سوف يجد منى حبيبة قلبه، والمتسولون فى العادة يحكم عليهم بالقائمة.. كأن يصدر الحكم على عشرين أو ثلاثين منهم دفعة واحدة.. والسجن يكون لفترة قصيرة.. وإذا عاد للتسول تزداد العقوبة قليلًا كل مرة.. إن مشكلة المتسولين مشكلة غريبة فعلًا..

أقول عندما سلمت هذه القصة للأستاذ الشاعر الدكتور عبده بدوى لنشرها، قال لى بعد أن قرأها: «هذه قصة خطيرة.. ونشرها فى مجلة حكومية أخطر.. سوف أقنع الأستاذ أحمد حسن الزيات بنشرها.. وربما يسلّم ..»

كان واضحًا أن الصغيرة الجميلة المسكينة «منى» ما هى إلا رمز للعدالة الضائعة.. وهناك قصة قصيرة أخرى نشرتها فى جريدة «المساء» إسمها «القافلة» تنحو نفس المنحى، وعشرات القصص القصيرة الأخرى، وعدد من الروايات أذكر منها رواية «ليل وقضبان» والتى صدرت فى طبعتها الأولى تحت اسم ليل العبيد، وقد أخرجها أشرف فهمى للسينما ونالت جائزة مهرجان طشقند الدولى الأولى، وعلى الرغم من أن أحداث الرواية تصور مدير السجن وجبروته، إلا أنها ترمز بصورة واضحة إلى انطباق صفات المدير على أى حاكم جائر.. وقد استطاع أشرف فهمى أن يبرز ذلك بصورة واضحة مقنعة فى آخر الفيلم السينمائى «ليل وقضبان».

لكننى لم أستطع اللجوء دائمًا إلى هذه الحيل الفنية، فعندما كتبت دراستى الإسلامية عن «الطريق إلى اتحاد إسلامى» كان الأمر مشكلة مؤكدة، خاصة أن الوقت الذى كتبت فيه هذه الدراسة كان مشحونًا بالدعوة إلى القومية العربية، ولهذا صادرت الرقابة كتابى، ولم يكن بالقاهرة منه سوى عدد محدود من النسخ لأنه كان صادرًا عن «دار النور» بطرابلس ليبيا «١٩٦١».. كما صادرت الرقابة قبل ذلك كتابًا للمرحوم الشيخ محمد أبو زهرة عنوانه «الوحدة الإسلامية».

ومن حسن الحظ أن مساءلتى حول هذا الموضوع أمام المباحث العامة كانت مساءلة سريعة، ولم يجر علىّ مشاكل تذكر، وحدث نفس الشىء بالنسبة لكتابى «الإسلامية والمذاهب الأدبية»، لكن الأخطر من ذلك حينما تجرأت وكتبت نقدًا للميثاق من وجهة نظر إسلامية، فى مجلة الاعتصام التى تصدرها الجمعية الشرعية، كما كتب الدكتور محمود فايد دراسة شاملة حول الميثاق أيضًا فى نفس العدد، ونتج عن ذلك وقف صدور المجلة لفترة، على الرغم من أن النقد الذى كتبناه كان هادئًا ومتزنًا، ويستشهد بفقرات من الميثاق نفسه لتأييد وجهة نظرنا، وأذكر أيضًا أننى كتبت وأنا فى السجن قصيدة بعنوان «خواطر سجين فى عيد الأم»، ونشرتها مجلة الرسالة الجديدة التى كان يرأس تحريرها المرحوم الأستاذ يوسف السباعى، لكنهم غيروا العنوان وكتبوه «الأم».

ولقد بدأت هذه القصيدة بالمقطوعة التالية:

خَبَت في غمرة الآلام والبؤس ترانيمي
وجفّت نضرة الأحلام من عصف وتحطيم
فلا كأسي بمترعةٍ، ولا رنّت تقاسيمي
أساقي الليل أوهامي وأحزاني وتسليمي

وقلت موجهًا الخطاب لأمي رحمها الله:

تعالي عانقي شوقي، فقد طالت بنا الغُربة
وما زال الزمان الجَهْمُ يشعل بيننا حربَه
وهل سيضيع يا أماه عبدٌ قاصدٌ ربَّه؟

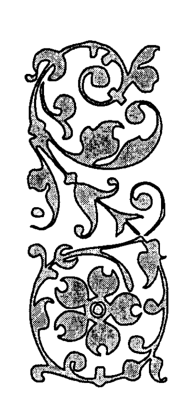
إلى أن قلت في آخر القصيدة:

ليالٍ كنت يا أماه أهواها وتهواني
وأمرح في مفاتنها بأفراحي وأشجاني
وعقلي الطفلُ يا أماه وشّاها بألوانِ
مضت.. لم يبق لي منها سوى الذكرى.. وسجاني

وكانوا يقرءون هذه القصيدة الطويلة لأمي فتبكي بكاء مرًا، وتجلس في الفجر فوق سطح منزلنا الريفي بالقرية، وتضرع إلى الله بدموعها كي يفرج عني. وكان واضحًا أن نشر مثل هذه القصص أو القصائد في المجلات أو الصحف حتى وأنا سجين كان بسبب النظر إليها نظرتهم إلى نص أدبي مجرد لا شأن له بالسياسة لكني مع ذلك كنت في سجني أكتب الكثير من الأدب المعارض الصارخ، ولا أنشره في الخارج، بل كنت أكتفي بقراءته بين زملائي المسجونين، وقد حدثت لي مشكلة عويصة بسبب ذلك، عندما وقع مخطوط شعري لي في يد أحد الضباط ولعلي أتعرض لهذه الحادثة في حينها.

***

[٢] على أسيوط



في الإمكان أن أسمى الفترة القصيرة التى قضيناها فى سجن مصر فترة استجمام لحد ما ، إذ لا يوجد فيه سياط وزبانية وتحقيق ودماء ، على الرغم من رداءة الطعام ، وعدم مغادرة الزنازين إلا فى الأيام الأخيرة ، ولقد فوجئت بالسجان يهتف باسمى ذات صباح فأصابنى القلق والتوجس ، إن استدعاء السجين أو المعتقل مرتبط فى الذهن دائمًا بما لا تحمد عقباه ، والسجين السياسى يتوقع الشر والأذى دائمًا ، إن سوء النية المزمن بين السلطة والمعارضة حقيقة أصلية فى مشاعر الطرفين ، وخاصة الطرف الأضعف المظلوم الذى لا يملك بيده قوة مادية أو قانونية لحماية نفسه أو حقوقه ، ففى هذا الزمن لا حقوق لصاحب الرأى المعارض ، فهو متهم دائمًا بالخيانة والغدر والعقوق والتمرد ، ولعل السبب فى ذلك أن السلطة كانت تلجأ دائمًا إلى أحط الوسائل وأشنعها وأقساها للانتقام من أصحاب الرأى المخالف ، وهذه أعراض عامة لكل أنماط الحكم الديكتاتورى أو الفردى ، لأنه قائم أساسًا على القهر والتوجس وعدم الثقة بالآخرين ، وقائم أيضًا على غرور السلطة بقوتها وتوجهاتها الجائرة.

أقول الحقيقة.. لقد دق قلبى من الخوف ، وبدا الشحوب على وجهى ، وأدرك أخى السودانى « الدكتور أبو بكر عثمان » ذلك ، فقال: « سلّم الأمر لله.. خير إن شاء الله ».

قلت فى أسى: « ماذا أفعل لو أعادونى إلى السجن الحربى مرة أخرى لاستكمال تحقيق من التحقيقات؟ ..»

قال بهدوء وهو يبتسم ، وكانت ابتسامته النقية دائمة: « لا أعتقد.. ومع ذلك ، فالأمر لله ما شاء يفعل ..»

لم يكن فى إمكانى أن أنفى عن نفسى القلق الذى يساورنى ، ومضيت مع الجاويش إبراهيم مستسلمًا ، فتح باب العنبر « ج » بمفتاحه الضخم ، وقطعنا الفناء الواسع ، ووقفت حافى القدمين أمام الضابط الذى بدا مجاملًا رقيقًا.. سمعته يقول: « آسف يا ابنى.. البقية فى حياتك ..»

فهتفت وقد ازدادت ضربات قلبى عنفًا حتى كدت أسقط: « من؟ ».

قال: « جدك الحاج عبد القادر الشافعى.. توفى أول أمس.. وأرسلوا إليك برقية فى السجن ..».

خفضت رأسى قائلًا: « حياتك الباقية ..»

وانسكبت دموعى بهدوء.. لم يزل لدى بقية من الدموع.. رحمك الله يا جدى الحبيب.. كان عطوفًا وكريمًا.. علمنى كيف أن العطف والكرم من قيم الحياة الرفيعة.. وكان محترمًا.. وعلمنى كيف أن التزين بالاحترام ثقة ورجولة.. وكان كثير القراءة للقرآن ، ويشجعنى كلما حفظت سورة أو ختمت ختمة.. علمنى حب القرآن.. وكان حكمًا عدلًا يلجأ إليه المتخاصمون والمتنازعون ، وكان حكمه

العادل يشيع الحب ويمحو الكراهية ، ويقارب بين النفوس المتباعدة..

أفقت على يد الجاويش إبراهيم وهو يربت على كتفى: « تعال إلى العنبر ..».

وعدت وأنا لا أكاد أرى ما أمامى ، وقال الجاويش: « لقد ارتاح.. كلنا سنموت.. نحن كالمسافرين فى قطار.. ولكل واحد محطة ينزل فيها.. وفى آخر الخط يفرغ القطار ..».

عندما وصلت إلى الزنزانة سمعت إخوانى يقدمون لى كلمات العزاء الرقيقة ، حتى الزنازين المجاورة تناهت إلى منها كلمات المواساة ، لا شك أن أحد السجانة قد أخبرهم.. وجلست فى ركن الزنزانة محتقن العينين.. كان الحيز الضيق الذى نحشر فيها ملفعًا بالصمت ، واستعاذ أحد الإخوة بالله من الشيطان الرجيم وبسمل ثم أخذ يتلو سورة ياسين بصوت مؤثر..

وحان الوقت الذى يسمح فيه لأهلنا بزيارتنا حسب اللائحة ، وتقاطر الأهالى من أحياء القاهرة لزيارة ذويهم المسجونين ، فكلفت أحدهم بأن يطلب من أخيه أن يرسل خطابًا لأبى يشرح له فيه إجراءات الزيارة الخاصة.. والزيارة الخاصة تحدث مرتين فى العام تقريبًا ، وفيها يجلس السجين مع اثنين من أهله لمدة ربع ساعة فى الزيارة الواحدة ، أما الزيارة العامة فتحدث كل شهر ، ويكون بين السجين وأهله حاجز سلكى لا يسمح بالتلامس ، وهى فى حدود عشر دقائق.. وقد تسلم أبى الخطاب بالفعل ، وسرعان ما اتخذ العدة لزيارتى فى سجن القاهرة ، ولم أكن أتصور أن يحدث الأمر فى غضون أيام قليلة ، وعندما سمعت اسمى فى كشف الزيارة فى أحد الأيام أصابنى الارتباك ، كانت لحيتى طويلة كثة ، وكنت مشفقًا أن يرانى أبى لأول مرة على هذه الصورة ، فأسرعت إلى أحد الإخوة كى يحاول تهذيبها أو حلقها ، لكن الأدوات المطلوبة لذلك لم تكن متوفرة.. وابتسم الدكتور أبو بكر عثمان قائلًا: « اللحية سنة فلماذا تريد التخلص منها؟ ».

وذهبت إلى غرفة الزيارة.. فترة طويلة مضت دون أن أرى أبى!! ترى ماذا ستكون مشاعره فى هذا اللقاء الأول؟ ماذا سيفعل عندما يرانى فى بدلة السجن الزرقاء ، وتلك اللحية الكثة الطويلة السوداء؟ وهل سيعقد مقارنة بين هذا الرداء الأزرق ورداء الأطباء الأبيض؟ دعوت فى نفسى الله قائلًا: « يا رب هوّن عليه مصيبته »

كنت أفكر فى أبى أكثر مما أفكر فى نفسى ، إن لدى من اليقين والرضى بقضاء الله وقدره ما يكفينى ، ولقد قطعت شوطًا فى التجربة المرة الأليمة حتى اعتدتها ، وأصبحت أمرًا مسلمًا به ، والأمور تسير بصورة شبه طبيعية ، أما أبى فإن الأمر قد يختلف عندما يرى ولده الأكبر الذى كان يعول عليه كثيرًا ، وقد فقد مكانه فى كلية طب القصر العينى ، وأصبح فى عداد المسجونين..

دخلت غرفة الضابط الذى سيحضر للإشراف على الزيارة ولمراقبتنا أساسًا ، كان أبى يجلس مرتديًا جلبابه الصوفى الأزرق وعمامته ، وكان إلى جواره خالى الحاج محمد عبد القادر الشافعى فى زى مشابه ، لم يلفت نظرهما دخولى ، فهما لم يتعودا على هيئتى الجديدة: ملابس السجن الزرقاء المصنوعة من قماش الدمور الرخيص المصبوغ الكالح ، وطاقية السجن المميزة ، ثم اللحية الكثة الطويلة ، وألقيت السلام واقتربت منهما مصافحًا ، أسرعت بتقبيل يد أبى ومعانقته فى حرارة ، وهو ذاهل لا يكاد يصدق عينيه ، كان ينظر إلى فى دهشة وحيرة ، وصافحت خالى وتعانقنا أيضا ، ثم جلست بينهما بعد أن حييت الضابط المسئول وشكرته ، وجلسنا صامتين لفترة قصيرة ، كان انفعالى عنيفًا والدموع

تخنقني لكنى كنت أتكلف الابتسام..

قال أبى مستغربًا: « لماذا تلبس هذا الزي؟ »

- « ذلك نظام السجن يا أبى.. فلابد أن يلبسه كل محكوم عليه ..»

قال وقد اتسعت عيناه وفغر فاه: « وهل حكموا عليك؟ »

- « أجل.. عشر سنوات سجن مع الشغل.. ألا تعرف؟ »

لم يتمالك أبى أعصابه ، وتدفقت الدموع من عينيه رغمًا عنه ، وتأرجحت مقلتاه فى حيرة بالغة ، وتمتم: « عشر سنوات؟ كيف؟ ولماذا؟ هذا غير معقول؟ هل قتلت أحدًا؟ »

قلت بصوت خافت: « حوكمنا محاكمة سرية.. لم تستغرق المحاكمة أكثر من عشر دقائق.. والتهمة كما تعلم الانضمام للإخوان المسلمين ..»

قال وقد بدا الاحتقان على وجهه القمحى: « ولماذا لم تخبرنى كى أوكّل لك محاميًا؟ »

قلت بإيجاز: « رفضوا ..»

رد وهو يضغط على أسنانه فى غضب: « حكم قراقوش؟ »

قلت هامسًا: « ألعن من حكم قراقوش.. لقد عذبونا بدون رحمة.. الحمد لله أن نجونا ..»

وهنا تدخل الضابط قائلًا: « بم تهمسون؟ ارفعوا أصواتكم حتى أسمع.. هكذا الأوامر »

وكان الضابط يبتسم - مع ذلك - فى رقة ووداعة.

وسمعت أبى يردد فى دهشة « عشر سنين.. يا للمصيبة!! لماذا؟ عشر سنين؟ هل أنا فى حلم أم فى علم.. عشر سنين؟ الله يجازى الظَلَمَة!! »

قال خالى الذى ظل صامتًا يرقب الموقف بحسرة: « كنت أعرف ذلك.. لقد أخبرنى صهرى شقيق زوجتى محمود بك.. لكنى لم أشأ أن أزعجك يا شيخ كيلانى ..»

ومحمود بك هو اللواء محمود الشافعى الذى ترك الخدمة فى عام ١٩٦٥ وهو فى وظيفة مدير مصلحة الأمن العام بالقاهرة ،وذلك بسبب اعتقال شقيقه الأكبر الحاج محمد فى قضية سيد قطب ، وكان رئيسًا سابقًا لشعبة الإخوان المسلمين بقريتنا « شرشابة » ، ثم أفرج عنه بعد حوالى شهرين من الاعتقال ، وكان هذا الاعتقال سببًا كافيًا لإحالة شقيقه اللواء محمود إلى التقاعد على الرغم من صداقته الوطيدة مع الليثى عبد الناصر شقيق الرئيس ، وكانت هذه الإحالة سببًا فى إصابته بنوبة قلبية ظل يعانى منها حتى اختاره الله إلى جواره ، فقد كان ضابطًا مشهودًا له بالكفاءة والنزاهة والخبرة الواسعة ، ولم يكن يتصور قط أن يرمى خارج الخدمة بسبب اعتقال شقيق له لمجرد التحفظ ، ودون أن توجه إليه أى تهمة.

أدركت أن أبى يبذل جهودًا خارقة حتى لا ينهار ، كانت معرفته المفاجئة للحكم على بمثابة صدمة شديدة زلزلت كيانه ، وندمت على تسرعى فى إبلاغه بذلك ، ولهذا أردت أن أخفف وقع الصدمة فقلت بثقة: « تأكد يا أبى أن هذا الحكم ليس له معنى أو قيمة.. الأحكام السياسية دائمًا قد تلغى فى أى وقت ، إنها مرهونة بالوضع العام ، وبالحالات السياسية المتقلبة التى لا تستقر على حال ، إنها أشبه ما تكون بالاعتقال.. فلا تهتم بهذا الأمر ، إننا وديعة بين يدى الله ، والحكم حكمه ، والأمر أمره ..»

قال أبى: « عشر سنوات؟ لم أكن أتصور أن يصل الأمر إلى هذا الحد!! أليس فى قلوبهم رحمة؟ »

وأخذت أسأل عن أمى وإخوتى وأقربائى وأصدقائى ، فرد بإيجاز: « كلهم بخير.. كن فى نفسك أنت ..»

وأردت أن أخفف عنه قليلا فقلت: « سوف يسمحون لنا بالمذاكرة وأداء الامتحان ..»

- « أى امتحان يا ولدي؟.. هل هناك امتحان أشد مما أنت فيه؟ »

- « إنى راض وصابر ومحتسب.. ولم أرتكب وزرًا أعاقب عليه ..»

وقف الضابط فجأة وقال بحزم: « وقت الزيارة انتهى.. مع السلامة ..»

وخرج أبى وخالى ، كانا يتطوحان فى مشيتهما وَهَنًا وحزنًا ، أخذت أرقبهما بعين دامعة ، وقلبى يتفطر أسى ، لقد اقترب أبى من سن الخمسين ، وكان ينتظر مرور عامين آخرين حتى يسعد بتخرجى طبيبًا ، ثم يذهب ليؤدى فريضة الحج ، ويحمد الله على نجاحه فى إتمام تعليمى ، لكنى لاحظت أن هذه الشهور القليلة التى مضت منذ اعتقالى قد أورثته شيبًا مبكرًا ، بل وأحنت ظهره ، وعمقت من تجاعيد وجهه وجبهته ، وكلما تذكرت دموع أبى الصامتة المتدفقة أشعر كأن سكينًا تنفذ إلى قلبى ، إننى حتى اليوم لا أستطيع أن أنسى هذا المشهد ، وعندما أكتب شعرًا أو قصصًا تعود إلى عقلى وقلبى صورة تلك الأيام المؤلمة ، ومن أوائل القصائد التى كتبتها بعد هذه الزيارة قصيدة « فى الوادى الرهيب » التى نشرت بعد ذلك فى مجلة « الأدب » ، ثم نشرت فى ديوان « أغانى الغرباء » وفيها قلت على لسان أختى:

أبـى مـا بـالـنـا نـمـضـى ، وروحُ الـحـق مـقـهـورة
وأحـلامـى وآمـالـى بـسـجـن الـلـيـل مـأسـورة
يـقـال الـنـاس أحـرارٌ ، ودنـيـا الـنـاس مـهـدورة
أريـد الـفـجـر بـسّـامًـا ، وأعـشـق يـا أبـى نُـورة
قـطـيـعٌ نـحـنُ يـا أبـتـى ، ولا فـرقٌ سـوى الـصـورة
سـيـاط الـدهـر تـدفـعـنـا لـوادى الـعـسـف والـنـقـم

وفى آخر القصيدة الطويلة تقول الابنة:

أجـل سـيـعـود يـا أبـتـى ، ويـحـمـى ركـبـه الـقَـدَرُ
أجـل ورفـاقـه مـعـه ، فـجـيـش الـحـق مـنـتـصـرُ
فـهـم زحـفـوا ، وهـم وثـبـوا ، وذاك الـلـيـل مـعـتـكـرُ
وكـم لاقـوا بـعـتـمـتـه مـن الـبـلـوى وكـم صـبـروا
لـقـد عـاشـوا لـغـايـتـهـم ، فـلـلـرحـمـن مـا بـذروا
أجـل سـيـعـود يـا لـيـلـى وتـخـمـد جـمـرة الألـم

وفى قصتى القصيرة « القافلة » التى نشرت فى جريدة « المساء » فيما بعد ، كما صدرت فى مجموعة « عند الرحيل » وضعت صورة صادقة مؤثرة لأب ذهب لزيارة ولده السجين فى « الليمان » ، وقد ألح عليه الحب والشوق العارم ، وأخذ يتكلم.. ثم يهذى طوال رحلة العودة فى القطار حتى اختل عقله أو كاد ، وهى صورة مأساوية دامية ، أثنى عليها الناقد الكبير المرحوم الأستاذ أنور المعداوى حينما قرأها.

إن صورة الأب والأم فى شعرى ورواياتى ذات طبيعة خاصة ، والعجيب أن أحد النقاد لفت نظرى إلى ذلك ، وأشار إلى أننى أضفى على صورتها قداسة من نوع مميز ، مع أن هناك أمهاتٍ وآباء يتسمون بصفات مغايرة..

عدت إلى زنزانتى بعد الزيارة مرهقًا مكدورًا ، وكأنى كنت أسابق الريح فى رحلة شاقة طويلة ، كان العرق يندى جسدى رغم برودة الجو ، ولم أجد شيئًا أقوله لإخوانى ، فقد كنت عازفًا تمامًا عن الكلام ، وتجسدت مأساتى الأسرية بعد هذه الزيارة بصورة مؤلمة ، إذ يبدو أن أبى كان ينظر إلى كأمل للأسرة ، وقد انطفأ الأمل فجأة ، وخلف وراءه الآلام والأحزان ، لم أكن أدرك ذلك من قبل على نحو واقعى ، فشبابنا قد أمدنا بطاقة قادرة على الصمود فى وجه المحنة ، وتجمعنا فى صعيد واحد ، قد بعث فينا الثقة والقوة ، وانهماكنا فى العمل الإسلامى قد كشف لنا عن عدم ثبات الأوضاع والمواقع السياسية ، وخاصة أننا فى زمن كثرت فيه الانقلابات فى أنحاء العالم العربى والإسلامى والعالم الثالث بصفة عامة ، كما كثرت فيه تدخلات القوى العظمى فى مصائر الدول الصغيرة أو الضعيفة أو الفقيرة ، ولهذا كنا ننتظر فرج الله فى أى وقت من الأوقات ، ومن يدري؟ فقد تشعر الحكومة بخطئها الفادح ذات يوم ، فتفتح لنا أبواب السجون ونعود إلى عالم الحرية من جديد ، ومن العجيب إنه فى هذا الوقت بالذات كانت تتناثر الشائعات عن تفكير رسمى للإفراج عن المعتقلين والمسجونين ، وخاصة بعد أن تم الإفراج عن المرشد العام المرحوم الأستاذ حسن الهضيبى بعفو صحى كما سمعنا.. لكن الأهل ليس لديهم ذلك التصور الذى نعيش فى رحابه ، والمسجون دائمًا لا يفقد الأمل ، بل يظل يحلم بيوم الحرية كلما أشرقت الشمس أو غربت ، وفى الصباح نسمع عن كل رؤيا جديدة شاهدها أحد الإخوة فى منامه ، ويكون التفسير فى جميع الحالات هو أن الفرج قريب ، وأن ساعة النصر لا شك آتية ، وأن المحنة تعقبها منحة ، وأن مع العسر يسرا ، وهكذا فإن أى مسجون - سياسى أم غير سياسى - ينتظر دائمًا يوم الفرج القريب..

كان السجن فى بدايته رومانسيًا إن صح التعبير ، ولم نكن نشعر بثقله وكوارثه النفسية ، فهو بمثابة تجربة جديدة مثيرة ، وهو مدرسة للصبر والصمود والتكوين العقلى والنفسى ، وهو خلوة للعبادة حيث انهمكنا فى قراءة القرآن والصوم والصلاة وتلاوة الأوراد ، بالإضافة إلى أنه منحة تفرغ للتعمق فى الفكر والفقه والتفسير ومختلف العلوم ، وكانت طاقاتنا الحبيسة - لا شك - تتمرد من آن لآخر ، لكن حلقات الحوار والفكر الدينى كانت كفيلة بإطفاء جذوة التمرد.

إن القضية التى نؤمن بها تمدنا بقوة هائلة لا تتزعزع ، وتفجر فينا آمالا تتأبى على الفناء ، وتفتح أمامنا آفاقًا رحبة تمتد إلى آخر المدى ، عندئذ يهون العذاب ، وترخص الدنيا بكل زخارفها ومباهجها ومغرياتها ، وتتوارى الشهوات المادية خلف ستار كثيف من الزهد والقناعة والرضى بقضاء الله ، فالعقيدة القوية هى العصمة من الندم والضعف واليأس ، والثقة بالله تزيل هواجس التردد ، وبواعث الملل ، وعندما يوسوس الشيطان ، أو تهجم الذكريات المثيرة للشجن ، يقف الإنسان بين يدى الله ليصلى ، ويستغرق فى صلاته وخشوعه ، ليس فى السجن عجلة أو ارتباط بمواعيد أو تكاليف معيشية ، ومن ثم فإن مناجاة الله تتم على الوجه الأفضل ، وقراءة القرآن تبدو وكأن لها مذاقًا خاصًا رائعًا ، وفى الحياة الجماعية دفء صادق ، وعاطفة مغذية ، وتبادل الخبرات والمعارف يفيض بالثراء ، وينمى الفكر ، ويضيف إلى الشخصية الكثير من الصفات ، والأمر الهام هو المنهج السلوكى الصحيح ، فالقدوة موجودة ، والسجين صاحب العقيدة يتحرج من إتيان فعل شائن ، أو تصرف خارج ، ولهذا فإن فترات السجن المتعاقبة قد نفت الكثير من الممارسات الجانحة ، وعمقت فى النفس معنى الترابط والالتزام والصدق ، ويا ويل السجين السياسى إن اهتزت عقيدته ، أو ندم على ماضيه ، أو داخله الشك فى صحة ما التزم به فى سابق الأيام ، عندئذ تنقلب حاله ، وتتبدل سلوكياته ، ويصبح أسيرًا للغضب واليأس

والتمرد ، فيكثر شجاره ، وتتبدى أنانيته ، وتتنابه العلل النفسية الماحقة التى لا حصر لها ، وهناك فرق شاسع بين السجين العادى الذى أدين فى جريمة سرقة أو مخدرات أو قتل أو نصب أو هتك عرض ، وبين السجين السياسى الذى يحمل رسالة نحو دينه أو مجتمعه ، بل إن السجناء السياسيين « كما يسمونهم » يختلفون من فئة لأخرى ، فالشيوعيون يختلفون عن الإخوان ، والجواسيس يختلفون أيضًا فى نوعياتهم ، والمتآمرون أو الانقلابيون أشكال وألوان ، لكن الذى لا شك فيه هو أن العقيدة الدينية الراسخة هى التى تتميز عما عداها بقوة التأثير ، وبالطبع فإن هذا لا ينفى وجود قلة من الشيوعيين أو أصحاب المذاهب السياسية الأخرى استطاعت أن تثبت وتقاوم لفترات طويلة.

أقول كانت الفترة المبكرة فى السجن ذات صورة رومانسية شائقة جذابة ، ولماذا لا يسعد السجين وهو يرى نفسه مجاهدًا فى سبيل الله ، وضحية من ضحايا الغدر والظلم ، وداعية من دعاة العدل والحرية وتطبيق شريعة الله فى الأرض؟! إن كل ما يعانى منه ذلك السجين إنما هو جهاد فى سبيل الله ، ومن ثم فهو يستعذب الحرمان والتعذيب ، ويرضى بالقليل من القوت ، ويلبس التافه من الثياب ، ويغض الطرف عن زنزانته الضيقة المزدحمة ، وعن قعوده الساعات الطويلة رهين محبسه ، وماذا يضيره إذا كان يعبد ربه؟ أما أهله فهم وديعة عند الله ، وهو الرزاق ذو القوة المتين. فالسجين صاحب التوجه الإسلامى يجد التفسير المريح دائمًا لكل ما يحل به من مضايقات وكوارث ، ويعتبره حسبة عند الله تعالى ، وعند الله لا تضيع الحقوق ، ولا يهدر الجزاء الأوفى ، وإذا أحب الله عبدًا ابتلاه ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

ولنا أن نتساءل: إلى متى تدوم هذه الفترة الرومانسية الجميلة؟ لا اريد أن استعجل الأحداث ، فإن قصة السجن طويلة ، امتدت بالبعض منا إلى أكثر من عشرينا عامًا ، ومن الطبيعى أن تحدث مداخلات ، وتجدّ مؤثرات ، وتبرز عوامل ، فيبدأ الحوار ، ثم يحتد ، وقد يتحول إلى شجار وخلاف ، وقد ينتهى إلى شقاق ، عندئذ تحل الكوارث ، والواقع أن هذا أمر طبيعى لا غرابة فيه ، ما دامت قوة التحمل أو الصبر تختلف من شخص إلى آخر ، وما دامت وجهات النظر تتأبى على التماثل ، وما دامت ردود الأفعال تصطبغ بصبغة الأهواء والثقافات والتجارب والأطماع ، وما دامت هناك أيد خفية تعمل فى الظلام لبث الفرقة ، وتمزيق الوحدة ، والتشكيك فى سلامة المقصد ، بما تدسه من وثائق مزيفة ، وأخبار كاذبة ، وبما تقدمه من وعود براقة ، وجوائز ثمينة ، إنها فتنة قاسية لا ينجو منها إلا من عصم ربك.

انتهت أخيرًا فترة الحجر علينا ، وسمح لنا بأن نخرج فى طابور الصباح لننعم بالشمس والهواء فى فناء السجن ، وقد كنا سعداء بذلك غاية السعادة ، إن أى ترفيه ولو بسيط يجعل السجين فرحًا نشطًا ، وقد يتخيل أن وراءه فرجًا قريبًا ، ترى هل تعود للسجين روح الطفولة والبراءة مرة أخرى ، فيطرب قلبه للأشياء الصغيرة ، ويصدق الهواجس والأوهام ، وينفى عن نفسه الخواطر السوداء المزعجة؟

كنت أنظر إلى وجوه الإخوة المتناثرين فى فناء السجن ساعة الصباح والشمس مشرقة بسخاء ، فأرى على الوجوه رضى وتسليمًا وسعادة لا زيف فيها ، وكنت أسمع ضحكاتهم التى تنبعث من القلب دون تكلف ، وكان بيننا بضعة أفراد أوتوا موهبة سرد القصص والحكايات ، أو ذكر الطرائف والنكت ، وكان لديهم قدرة فائقة على جذب انتباهنا ، والاندماج الكامل فيما يقولون ، وكان طبيعيًا أن نتحلق حولهم ، ونستمع إليهم فى شغف بالغ ، لكن الشىء الملفت للنظر أن إخواننا الذين كان لهم شرف الجهاد على أرض فلسطين ، أو فى منطقة قنال السويس ، كانوا عازفين عن الحديث عن ذكرياتهم وتجربتهم الخصبة ، فإذا ما سئلوا صمتوا أو أجابوا باقتضاب.

وعلى الرغم من التشدد فى معاملتنا إلا أنه كان بسجن مصر عدد من المتهمين فى قضية التجسس لحساب إسرائيل ويسمح لهم بطعام من خارج السجن على نفقتهم الخاصة، وتقدم لهم كافة التسهيلات الممكنة الخاصة بالملابس والكتب والمراسلات والأدوية وغيرها، وكم كان غريبًا أن يظل المعتقلون من الإخوان «الذين لم يقدموا للمحاكمة» دون السماح لهم بالزيارات أو كتابة رسائل لذويهم، مع أنهم قد مضى عليهم فى المعتقل أكثر من عام.

والحقيقة أن مشكلة الزيارة بالنسبة للمعتقلين، وبالنسبة للمسجونين قبل صدور الأحكام عليهم، كانت تحتل أهمية كبيرة، فالانقطاع التام عن الأهل يبعث دائمًا على القلق، ويعطل الكثير من المصالح، فمثلًا قد يكون لأحد المعتقلين ديون عند بعض الناس، ويريد تحصيلها حتى تستطيع الأسرة أن تنفق على نفسها، أو يكون المعتقل صاحب أعمال أو تجارات أو مقاولات، ويريد أن يعطى أوامره فيما يختص بهذا أو ذاك، لكن منع الزيارة، وتحريم إرسال الخطابات، يكون سببًا فى تعطيل ذلك كله، بل وفى حدوث خسائر مالية كبيرة، ولم يكن المعتقل يقف عاجزًا إزاء هذا الوضع الظالم، فكان يُهَرِّبُ الخطابات، عن طريق العسكر، ويدفع لمن يقوم بهذه المهمة خمسة أو عشرة جنيهات، ونظرًا لأن المعتقل - وكذلك السجين - لا يملك مالًا فى يده، فكان ينص فى رسالته لأهله أن يعطوا حامل الرسالة مبلغ «كذا» جنيهًا حسب الاتفاق، وبالطبع فإن الأهل يبادرون بدفع المبلغ المطلوب للعسكرى بعد قراءة الرسالة، فهم يعتقدون أن معتقلهم لا شك محتاج لذلك، ثم إن هناك بعض المسجونين العاديين الذين يخرجون للعلاج فى المستشفيات الخارجية، وهناك المسجونون الذين يرحلون من سجن لآخر، وهناك أيضًا بعض المحجوزين الذين يؤخذون للمحاكم لتكملة محاكمتهم فى جرائم مختلفة، كل هؤلاء يمكن أن يحملوا معهم رسائل من المعتقلين ويرسلوها إلى أهليهم بأسلوب أو بآخر، بقى أن نعلم أن تهريب الخطابات يعتبر - بنص لائحة السجون - جريمة يعاقب عليها القانون، وقد يصل الحكم فيها إلى ستة شهور سجنًا، بالإضافة إلى ما يجره تهريب الخطابات من تكدير وعقوبات داخلية، تشمل الضرب والإهانة، ومنع الخروج من الزنزانة لفترة، ومضاعفة «مقطوعية العمل» والجلد والتأديب، وسحب الأوراق والأقلام والكتب إذا عثر عليها أثناء التفتيش مع عقوبة أخرى صارمة، وعلى الرغم من ذلك كله، فإن المعتقل كان يجد نفسه مضطرًا لارتكاب هذا «الجرم» لكى يقضى مصالحه الهامة، ويرتب أمور أسرته اقتصاديًا واجتماعيًا، وليبدى رأيه فى مسائل الزواج والطلاق وغيرها، بل إن المسجونين الذين سمح لهم بالزيارة، كانوا ممنوعين من كتابة الرسائل لما يقرب من عامين، وقد حدثت لى مشكلة من هذا القبيل تتعلق بالرسائل فى فترة اعتقالى الثانية عام ١٩٦٥ لعلى أتعرض لها فى حينها.

ولكنى اكتشفت فى سجن القاهرة وسيلة مبسطة وبدائية للزيارة، فقد كانت النوافذ التى تطل على الشارع تهيء الفرصة لسكان الزنازين الغربية كى يطلوا من هذه النوافذ ذات القضبان الحديدية المتقاطعة، ويتكلموا مع أهليهم فى الشارع - خارج السور - بصوت عالٍ يسمعه الجميع، ولم تكن الفرصة تتاح لهؤلاء المحبوسين إلا فى المساء، بعد أن ينصرف مدير السجن والمأمور، لكن سكان زنازين الجهة الشرقية التى تطل نوافذهم على باحة السجن، لم تكن تتاح لهم هذه الفرصة الذهبية.

ومن الطريف أن أخانا المعتقل - تاجر الساعات «بالدقى» - عبد المنعم قنديل، كان يسكن فى إحدى الزنازين الغربية، وفى كل يوم كنا نسمع صوت إمرأة ملتاعة تنادى بصوت باك، وبلهجة غريبة، وتقول: «جنديل «قنديل» يا حزين.. يا واكلهم.. وين محمد ولدي؟».

فيرد عبد المنعم قائلا: «محمد بخير يا أم محمد ...»
- «عايزة أشوفه يا حزين ..»
- «مش ممكن يا ست أم محمد»
- «ليش؟»
- «لأنه فى الناحية الشرقية ...»
- «وكيف أشوفك أنت وما أشوفه هو.. يا حزين يا واكلهم ...»

وأصبح هذا الحوار مادة يومية ، وعلمت من عبد المنعم أنها إمرأة مسكينة وحيدة من «النوبة» ، وكانت تعيش فى القاهرة مع ولدها محمد ، الذى يعمل طول اليوم لينفق عليها وعلى نفسه ، وكان شابًا طيبًا مستقيمًا بريئًا ، واستطاع عبد المنعم أن يرفع من مستواه الاجتماعى لحد ما ، وأن يساعده فى تحصيل رزقه ، وبمرور الأيام انضم إلى الإخوان ، وعثر على اسمه فى كشف بإحدى الشعب الإخوانية ، فتم اعتقاله مع الآخرين.

الطريف أيضًا أن محمد هذا كان فى زنزانة تضم نخبة من الإخوان فيهم مدير عام مصلحة المساحة ، وبعد أن خرج محمد من المعتقل فى عام ١٩٥٦ ببضعة أيام ولى وجهه شطر مصلحة المساحة ، وطلب مقابلة المدير ، فلم يرق هذا للسكرتير ، لكن إصرار محمد جعله يدخل ليستأذن له من المدير ، كان المدير رجلًا صالحًا نظيفًا ، لكنه بعد خروجه من المعتقل كان يتحرز - حسب أوامر المباحث - من مقابلة الإخوان ، فأوعز إلى سكرتيره بأن يصرفه بلباقة تجنبًا لأى مشاكل ، وخاصة أن رقابة المباحث مشددة ، وعندما أدرك محمد أن المدير يتهرب منه صاح بأعلى صوته: «هو سعادة البك المدير نسى ولا إيه؟ داحنا واكلين عيش السجن سوا.. قل له وحياة العدس والفول يسمح لى بالمقابلة.. دانا كنت باغسل له هدومه ، وأنفض له فرشه من التراب ...»

وهرول السكرتير العام يخبره بما سمع ، فما كان من المدير إلا أن هب واقفًا وهتف: «أدخله ...»

ودخل محمد فى أدب وهو يبتسم ويقول: «أيوه كده.. دى الوقتى إحنا إخوان بصحيح ..»
- «خير يا محمد ...»
- «لا قهوة ولا شاي؟»
- «اعذرنى يا محمد أنا مشغول.. هذا ليس بيتى.. وكنت سأقابلك بوسيلة أخرى».

قال محمد بصلابة: «نفذ وعدك ..»
- «أى وعد؟»
- «قلت لى فى المعتقل إنك إذا خرجت فستوظفنى عندك ..»
- «لا تذكر كلمة الزفت «المعتقل» دى هنا ...»
- «خلاص.. الوظيفة.. عايز أستلمها حالا ..».

قال المدير العام لسكرتيره: «ابحث له عن وظيفة عامل.. بس تكون بعيدة عن الإدارة.. واكتب رسالة للداخلية لأخذ موافقة الأمن.. مع السلامة ..».

هتف محمد وقد أشرق وجهه بالفرحة: «عشت يا بك.. والله لو اعتقلونا تانى لأشيلك على رأسى ..».

وقال البك فى غضب:
- «أعوذ بالله.. فأل الله ولا فالك يا شيخ.. توكل على الله يا محمد ..».

ومن الصدفة الغريبة أنه فى عام ١٩٦٥ أعيد اعتقال الإخوان وكان من بينهم سيادة المدير العام، وقد بدا متقدمًا فى السن عليلا، ضعيف البصر بعد أن أجريت له فى عينيه عملية المياه البيضاء «الكاتاركت».. كما اعتقل محمد أيضًا.. وكان فى سجن آخر، لكنه كان يسأل كل يوم عن «سعادة البك» هل وصل أم لا، ولم يتم لقاؤهما إلا فى شهور الاعتقال الأخيرة.. وكان محمد يضحك فى براءة ويقول: «الأيام تفرقنا والمعتقل يجمعنا يا سعادة البك.. وراك وراك.. هتروح منى فين؟ حق الحكومة كانت تعتقل السكرتير كمان.. لكن ليه.. أنا هنا فى خدمتك.. وربنا يديم المعروف ..».

كانت الأيام تمر علينا فى سجن القاهرة بطيئة مملة، ونحن نتساءل: هل نظل على هذا الوضع عشر سنوات؟ لم نكن نعلم تمامًا ما يراد بنا، لقد اقترب عام ١٩٥٥ من نهايته، وما زالت المحاكمات جارية فى جلسات سرية، ولا يكتب عنها أى شىء فى صحف الدولة، وما زال المعتقلون الذين لم توجه إليهم أية تهمة فى نطاق الأسر المفروض، وما زال الأفق السياسى ملبدًا بالغيوم منذ عام ١٩٥٤.

لم نكن وحدنا فى السجن، كان هناك بعض الشيوعيين، وعدد من الإخوة المسيحيين الذين خطفوا البطريرك، ويقولون أنهم من تنظيم سرى إسمه «حزب الأمة القبطى»، وعلى رأسهم المسجون إبراهيم هلال، وكان هناك - كما قلنا - بعض الجواسيس وفئات سياسية أخرى، وبعض ضباط الجيش الذين أدينوا فى انقلابات سابقة فاشلة، لكنهم كانوا يرتدون ملابسهم المدنية، ويقيمون فى المستشفى أذكر منهم الدمنهورى والصاوى والمصرى وغيرهم.

وذات يوم فوجئنا بحركة غير عادية وإجراءات وحصر للمسجونين السياسيين وحدهم، وترددت فى أروقة العنبر «ج» كلمة «الترحيل».. وفهمنا معناها بالطبع، فهى تدل على أن عددًا من المحبوسين السياسيين سوف ينقل إلى سجن آخر، وأين هذا السجن؟ لا يدرى أحد، وقيل أيضًا أن الترحيل سيتم غدًا، فأسرعنا ببث رسالة عبر نوافذ السجن إلى الخارج، وما إن حط المساء حتى تزاحم الأهالى خارج السور متساءلين عن المكان الذى سنقصده.. لكننا لم نكن نعرف، وفى الصباح الباكر جمعونا فى فناء السجن بعد أن وضعوا أختام «الترحيل» السوداء على سواعدنا، ثم قسمونا إلى مجموعتين مجموعة يتم ترحيلها إلى سجن «بنى سويف» والثانية إلى سجن «أسيوط» وهما بالوجه القبلى من مصر، وكان نصيبى أن أكون فى الفئة الثانية «المصدّرة» إلى أسيوط عاصمة الصعيد..

خرجنا فى طابور طويل، وكل واحد يحمل «بقجة» قماشية بها أشياؤه التافهة التى كانت موضوعة فى أمانات السجن، وحشرونا فى سيارات «بيك أب» صغيرة وعلى الرغم من أن الشمس لم تكن قد أشرقت بعد، إلا أننا وجدنا حشدًا هائلا من أهالى السجناء الذين يعيشون فى القاهرة، أغلبهم من النسوة اللابسات السواد، وكان الضجيج يصم الآذان، والنسوة يصحن: «مع السلامة يا حبايب ..»

«مع السلامة يا مظاليم ...»

«ربنا يكتب لكم فى كل خطوة سلامة ..»

نظرت إلى النسوة الغارقات فى البؤس والسواد، وصك سمعى الصيحات المتحشرجة الباكية، كانت وجوههن الشاحبة الحزينة تضىء رغم الظلام، وأيديهن تلوح لنا بعصبية فى حركات رتيبة، كأنها تتابع لحنًا جنائزيًا ينتفض أسيً ولوعة.. لكن الشىء الذى يدعو إلى الدهشة، أن بعض الزغاريد انطلقت فجأة.. ثم تعالت من النسوة صيحات «الله أكبر».

وتدفقت دموعى ، حاولت أن أحبسها دون جدوى ، لم تكن أمى معهن ولا إحدى أخواتى ، لكنى شعرت أن كلهن أمى.. كلهن أخواتى.. ووجدتنى أردد أنا الآخر « الله أكبر ....» وكذلك الإخوة الذين معى.. وأسرع الحراس بالهجوم على النساء لتفريقهن.. ولكن دون جدوى.. لقد بقين فى أماكنهن المحيطة بقافلة السيارات دون أن يتزحزحن بوصة واحدة..

وتحرك الموكب ، والنفير يعلو صوته ويتردد صداه فى هذا الحى القاهرى النائم ، ومئذنة مسجد السيدة عائشة – رضى الله عنها – تمتد فى قلب الأفق مضيئة صامدة.. لم يأخذونا إلى محطة القاهرة الرئيسية للسكك الحديدية حسبما توقعنا ، بل ساقونا إلى محطة الجيزة.. كانت هناك عربات خاصة لشحن المسجونين ، وهى عربات مخصصة لنقل الحيوانات أساسًا ، وكانت هتافاتنا – ونحن ننتقل من السيارات إلى القطار ترج المكان رجًا ، كانت الشمس قد أشرقت وغمر ضوءها المكان ، وتوقف الناس على أرصفة القطارات ينظرون إلينا فى دهشة وذهول ، كان كل واحد منا مربوطًا بالأغلال الحديدية « الكلبشات » مع عسكرى شرطة ، بحيث تكون اليد اليمنى للسجين مقيدة مع اليد اليسرى للعسكرى ، ولهذا فإن السجين لا يمكن أن يتحرك إلا مع الشرطى.

وتحرك بنا القطار أخيرًا ، وما زال الواقفون على الأرصفة ينظرون إلينا فى ألم وإشفاق ، وما زالت هتافاتنا بالتكبير.. وبسقوط الطاغية.. وبسقوط الظلم ، تدوى بقوة..

كان قائد القوة التى تقوم بترحيلنا على ما أذكر هو البكباشى شوقى المنيسى ، وهو كما يبدو رجل طيب متحفظ ، ولعله قريب للشهيد أحمد المنيسى الذى استشهد فى معركة التل الكبير ضمن فدائيى الإخوان المسلمين فى يناير عام ١٩٥٢ ، ولعله أيضًا قريب ضابط الشرطة المعروف فى الإخوان المسلمين أيضًا شوقى المنيسى.. المهم أن البكباشى دخل إلى العربة التى كنت فيها ، واتجه إلى بالقول فى عصبية: « كفى هتافا ..»

قلت له: « لن نكف!! إننا نعبر عن رأينا ...»

قال فى ضيق: « إذا لم تكف فسأضربك باللانكستر « مدفع رشاش كان معه » ..»

– « لن نسكت ..»

حاول أن يخفف من لهجته الحادة ، فقال: « من أجل مصلحتكم يجب أن تهدءوا.. أنتم تعرفون أن الحكومة لا ترحم.. فلماذا تصرون على إحراجنا؟ ..»

رددت فى سخرية: « إن هتافات المأجورين تدوى فى أنحاء مصر وخاصة عندما يخطب الرئيس.. فلا أقل من أن نهتف فى قطار ..»

قال وقد احتقن وجهه: « يا ابنى.. عندما تكونون مثلهم فافعلوا كما يفعلون.. هذا فيه الكفاية »

وتركنا وانصرف ، فودعناه بنفس الهتافات السابقة ، لكنه لم يلتفت.. وصمتنا عندما أرهقنا الهتاف ، وبحّت أصواتنا ، وقررنا ألا نردد شعاراتنا إلا عند وقوف القطار فى المحطات ، وفى إحدى المحطات وجدنا باعة « القصب » والساندوتشات ، فانتهزنا الفرصة واشترينا بعضًا منها ، فالطريق طويل ويحتاج إلى ساعات طويلة ، لكن لم يكن معنا أموال سائلة ، فكيف نتصرف؟ كنا نستعمل « علب السجائر » كعملة متداولة ، وعندما بدأنا دفع ثمن الأشياء بهذه الطريقة رفض الباعة الجائلون ، وأصروا على أن يكون ما أخذناه منهم مجرد هدية ، أو ضيافة صعيدية عربية ، لكننا ظللنا نلح وهم يرفضون حتى تحرك القطار ، فلم يكن هناك بد من أن نلقى بالثمن – علب السجائر – على الأرض ومضى القطار مسرعًا ، ونحن نرقب المشهد ، والإخوة الصعايدة ينظرون إلينا فى تألم ، وتكاد الدموع تطفر من

أعينهم ، وعلب السجائر ملقاة على الرصيف لم تمتد إليها يد بعد ، وبقى الأمر على هذا الحال ، حتى غيبتنا سرعة القطار عنهم ، إنه مشهد نبيل لا يمكن أن أنساه ما حييت..

نزلت الفئة الأولى منا فى محطة بنى سويف ، وكان فيهم أخى الدكتور إبراهيم الصياد ، ومضى بنا القطار متجهًا جنوبًا صوب أسيوط ، وابتسم أحد الإخوة ولعله الأخ المرحوم رجب الخميس ، وأخذ يردد أغنية شعبية مطلعها:

« يا سايج الجطر ودينى على أسيوط... على أسيوط »

وأخذنا نشاركه الغناء..

وصلنا إلى أسيوط بعد العصر..

كان فى استقبالنا المحافظ ومدير الأمن والحكمدار و« نخبة » من رجال المباحث العامة ورهط من المخبرين..

لأول مرة فى حياتى أرى أسيوط..

أين شرشابة قريتى النائية الآن من أسيوط؟

وهل سيتكبد أبى المشاق فى قطع هذه المسافة الطويلة لزيارتي؟

قال أخونا أبو بكر عثمان « السودانى الجنسية »: « مشيناها خطى كتبت علينا ..»

فاكملت له البيتين وأنا ساهم أفكر..

مشينا فى صمت وهدوء ، وفتحت لنا « الكوة » الصغيرة فى باب السجن الكبير ، دخلنا واحدًا واحدًا.. وجلسنا القرفصاء فى ساحة السجن بنظام ، كانت الشمس تغرب ، والجو أخذ يبرد ، وملابسنا خفيفة متآكلة.. ونظرنا فإذا بعنبر للسجناء فى الناحية الشرقية ، وآخر فى الناحية الغربية ، بالإضافة إلى سجن النساء الذى يقبع إلى جوار مبنى الإدارة.

كبار الرتب العسكرية كانت تحيط بنا ، كنا نعرفهم من أزيائهم والرموز النحاسية المثبتة على أكتافهم.. ولا تكتمل وجاهة رجل الشرطة إلا إذا انتفخ وبدا متعجرفًا متكبرًا ، هذا ما لاحظته فى ذلك الوقت ، رجل واحد.. واحد فقط.. بدا عليه قدر من الحزن الظاهر لا يمكن إخفاؤه.. وقلت فى نفسى لعلها طبيعته.. فالناس ليسوا جميعًا على نمط واحد.. اتضح فيما بعد أنه رجل عظيم.. ومن منا يستطيع أن ينسى ضابط الشرطة.. الصعيدى.. المسلم الشجاع.. « مصطفى أبو دومة »؟.

قال أحد ضباط الشرطة من كبار الواقفين حولنا للبكباشى شوقى المنيسى قائد قوة الترحيل: « لسوف تبقى معنا فى أسيوط الليلة.. فيه فيلم عظيم جدًا فى السينما ..»

وبدا على المنيسى أنه غير مكترث لما يقول ، وقال فى شيء من التبرم: « خير لنا أن نعود الليلة.. لقد انتهت مهمتنا ..»

رد عبد العظيم بك سليم مدير السجن ، وكان يضع على عينيه نظارة سوداء أنيقة: « اطمئن يا بك.. ألا تراهم يجلسون كالفراخ فى القفص؟ »

وضحك ضحكة ساخرة آلمتنا ، لكننا لم نكن فى حالة تسمح لنا بالرد على التعليقات الجارحة التى تنطلق هنا وهناك ، بعد أن تم إغلاق باب السجن ، وأحاط بنا السجانة من كل جانب ، تنهدت فى ألم وتطلعت إلى نوافذ الزنازين ، ودققت النظر ، لقد رأيت وجوهًا سمراء تزدحم فى كل نافذة.. إن النزلاء جميعًا يرقبوننا ، أليس هذا غريبًا؟ فالسجن يستقبل « الإيراد » كل يوم ، وهو أمر طبيعى لا يثير أدنى دهشة ، لكننا علمنا فيما بعد أن ضابط السجن ، وخاصة اليوزباشى محمود أبو كريشة والملازم أول

زكى ، قد حذروا النزلاء منا ، وأفهموهم أننا ألعن من الشياطين ، وأننا سوف نسبب لهم العديد من الكوارث والمتاعب إذا قامت بيننا وبينهم أى علاقة ، المهم أنهم شحنوا النزلاء ضدنا بطريقة مثيرة ، حتى بدا أنهم يتوجسون منا خيفة.. هذا ما علمناه فيما بعد..

وما إن انتهى الحصر والتسجيل ، حتى أخذونا إلى العنبر الشرقى فى الدور الرابع أو الأخير ، ووزعوا كل مجموعة منا تتراوح بين ٨-١٠ سجناء فى غرفة من الغرف الكبيرة ، مع المسجونين العاديين ، وأعطوا كل نزيل « برشًا » وقطعة من البطانية ، أو بطانية رقيقة مهترئة.. ألقينا على النزلاء القدامى السلام ، ثم افترش كل واحد برشه ، وجلسنا متجاورين صامتين ، كانت عيون المسجونين من مواطنينا الصعايدة تنظر إلينا فى حذر ، ولم نجد لديهم الترحيب أو حسن الاستقبال المعهود ، ولم نعر الأمر أدنى اهتمام ، فإن قابل الأيام سوف يعقد بيننا الصلات الحميمة ، بعد أن نتعرف عليهم ، ويثقوا فينا.. كان يجلس على يمينى أخى السودانى الدكتور أبو بكر عثمان ، الذى لا تفارقه الابتسامة أيضًا كان يتميز بنحافة جسمه ، وقصر عوده ، وكان أبو بكر فى دهشة من أمره ، فقد صدر ضده حكم بالسجن خمس سنوات لأنه كان يجمع التبرعات لمساعدة أسر المسجونين من الإخوان المسلمين ، لكنه فوجئ فى الترحيل بأن السجن عشر سنوات.

كان ليل أسيوط شديد البرودة ، وكانت البطانية التى أغطى بها جسدى قصيرة بحيث لا تصل إلى قدمى ، وحاولت أن أنام دون جدوى وذلك بسبب البرد ، وقلة الطعام ، ورأيت أخى أبو بكر هو الآخر يرتجف ، قلت له: « ما نفعل؟ »

- « لا حل سوى أن ننام تحت البطانيتين معنا ..»

ونمنا القرفصاء ، ركبنا عند صدورنا ، ككرتين كبيرتين من المطاط ، وحاولنا أن ننام ، كنا نغفو فترة قصيرة ، ثم نصحو من جديد على لسعات البرد ، وظل الأمر على هذا النحو حتى أذن الفجر ، ونهضنا لنتوضأ؛ لم يستخدم أى منا سوى سطل واحد فى عملية الوضوء ، فقد كان « جردل » الماء لا يكفى هذه المجموعة الكبيرة ، وأدينا الصلاة جماعة لكننا لاحظنا أن إخواننا الصعايدة لم ينضموا إلينا فى الصلاة ، بل أدوا الفريضة فرادى.

واكتشفنا فى الصباح أن هناك مجموعة أخرى من قدامى الإخوان المسلمين الذين حوكموا فى بداية المحنة أواخر عام ١٩٥٤، موجودة فى السجن منذ شهور ، وتعرفنا عليهم فى الصباح ، كان فيهم الضابط نجيب عطية والمهندس إبراهيم الخضرى والمحاسب عثمان شميس ، وطالب الهندسة سيد القشاط الموهبة الفذة فى لعب الشطرنج ، والذى يعيش حاليًا فى ألمانيا الغربية ، ويقوم بدور طيب فى نشر الإسلام هناك وغيرهم كثيرون ، وكان من فريقنا أيضًا الأخ الفنان فؤاد شاكر الذى كان طالبًا فى الجامعة ، وأصبح فيما بعد مذيعًا تليفزيونيًا ناجحًا ، وقدم برامج دينية ناجحة ، وكان معنا أيضًا خريج الفلسفة الأخ الفاضل المرحوم محمد أنور حسنين ، ومحمود أبو بكر موسى الشهير بحاتم ، والأخ المهذب حسين عبد المعطى والمرحوم رجب الخميسى ، والأخ حسين عاشور رئيس تحرير مجلة المختار الإسلامى حاليًا ، والأخ المرحوم يحى أبو شيته زميلى فى القضية ، وعدد كبير من طلبة الجامعات والثانوى والأزهر وبعض الإخوة الفلسطينيين.

والحقيقة أننا عانينا كثيرًا أثناء وجودنا فى سكن مشترك مع إخوتنا المسجونين غير السياسيين من أهل الصعيد ، وذلك بسبب الشكوك التى بذرها بيننا وبينهم بعض ضباط السجن ، وبسبب اختلاف العادات والتقاليد والمستوى الثقافى وأساليب الوقاية الصحية ، ومع ذلك فإننا استطعنا بمرور الوقت أن

نخفف الكثير من الشكوك ، وبدأ النزيل الصعيدى محمد عبد العال يجلس فى المساء ، ويترنم ببعض المواويل أو الحكايات الشعرية الشعبية ، التى تتحدث عن أبطال محليين من وجهة نظرهم ، وخاصة أولئك الذين اعتصموا بالجبل ، وتصدوا للحكومة ، وأرهقوها فى الصراع لسنوات طويلة ، وكان الموال المحبب لمحمد بعد العال هو الذى يروى قصة « الخُط » المجرم الصعيدى الشهير ، والذى ألفت حوله الأفلام السينمائية والمسلسلات ، وكان محمد ينفعل وهو يعالج الفترات العصيبة فى حياة « الخُط » ، وكنا نحن نستمع إليه فى لهفة ، وذات مساء بعد أن انتهى محمد عبد العال من موال الخُط سمعنا سجينًا آخر هو « محمد الجمل » ينتفض واقفًا ويصيح قائلًا: « خُطّ إيه.. وزفت إيه!! دا كان حرامى وخطاف وابن « ...» كفاية وجع راس يا محمد يا عبد العال.. داهية لا ترجعه مطرح ما راح ..»

وثار جدل صاخب حول « الخُط » ، كاد يصل لحد التشابك بالأيدى ، لولا أن تدخلنا بالتهدئة ، والانتقال إلى أحاديث أخرى شتى.

وكان محمد عبد العال له بعض الأغانى الشعبية المبتكرة التى تؤدى بين اثنين ، وبنظام خاص متفق عليه ، فمثلا يبدأ محمد عبد العال قائلا بنغمة جميلة:

يا حاجّة يا حاجّة وأفوت ع « الهريدى »
وأفوت ع « الهريدى »

ويأتى المشارك الثانى ويأخذ الشطرة الوسطى فيرد قائلا:

ونزور الهادى نبينا يا حاجّة يا حاجّة
يا حاجّة يا حاجّة

ويرد محمد عبد العال بعد أن يلتقط الشطرة الوسطى ويقول:

أبو عيون كحيلة ونزور الهادى نبينا
ونزور الهادى نبينا

وموضوع الأغنية كما هو واضح يتعلق بمناسبة الحج المقدسة التى تحظى بعدد هائل من الأغانى الشعبية فى كل أنحاء العالم العربى والإسلامى ، وذات مساء قلت لمحمد عبد العال أننى سوف أشاركه الغناء هذه الليلة ، فابتسم الإخوة الصعايدة واعتدلوا فى جلستهم ذلك المساء ، وبدأنا المباراة بلغة عشاق كرة القدم ، وكان موضوع الغناء يدور حول الرسول « ﷺ » والمناسبات الدينية الغالبية ، وهكذا قضينا ليلة ظريفة مسلية ، وحظى محمد عبد العال بتصفيق وهتاف إخوانه الصعايدة ، إذ إنه من الصعب عليهم أن يقروا بتفوق أحد عليهم فى هذا الفن ، وإلا تحول الأمر إلى معركة حقيقية فالمسألة مسألة كرامة وشرف ، والصعيدى لا يتنازل عن ثأره.. والحقيقة أن كلمات محمد عبد العال كانت سلسة وشعبية أصيلة ، أما أنا فكنت أحيانًا أجدنى مضطرًا – أثناء الارتجال – إلى استعمال بعض الكلمات الفصيحة ، وذلك بالنسبة لهم يعتبر ضعفًا أو تكلفًا..

وكانت الأشعار التى تقال عن أبى زيد الهلالى والزير سالم وغيرهما من أبطال السير الشعبية تحتل مساحة شاسعة من الأغانى ، وأغلبها محفوظ عن ظهر قلب من تلك السير ، وكان بعض إخواننا فى الغرف الأخرى يعانون من ذلك أشد المعاناة ، للتكرار وطول ساعات الغناء فى تلك الليالى الباردة ، ولذلك فقد عبر أحد إخواننا عن ضيقه وسخريته بأغنية من الشعر الشعبى يقول فيها:

« أبو زيد » يقول « لدياب » يا للا نصالح مراتي

وهمه راجعين يا سادة يا كرام وقعوا فى البتاتي

و« البتية » هى الجردل الذى يتبول فيه السجين ليلا ، حيث لا توجد دورات مياه فى الزنازين أثناء إغلاقها فى الليل غير ذلك ، ويقول أخونا عبد الرءوف أيضًا مواصلًا أغانيه:

أبو زيد يقول لدياب يا للا نصيد غزال فى البراري

وهمه راجعين يا سادة يا كرام وقعوا فى المجاري

إلخ..

وهذه - كما هو ظاهر - من أغانى الربابة ، ونظرًا لعدم توفر الآلات الموسيقية ، فقد كان عبد الرؤوف يترنم بأغانيه ، والجوقة تضرب على الأوانى المشكلة من الصفيح والزنك ، وعن طريق الفم أيضًا..

وكنا نسمع من إخواننا الصعايدة الكثير من الحكايات وأنواع الجرائم التى أدينوا فيها ، وهى تشتمل على جوانب عدة من الطرافة والإثارة.

قضينا فى « التخزين » فترة شهر تقريبًا ، لم يكن يسمح لنا فيها بالعمل أو الخروج ، وهذه فترة إلزامية يوضع فيها السجين تحت الرقابة والملاحظة حتى يثبت خلوه من أى مرض من الأمراض المعدية ، وإن كنا لم نلتق بالطبيب خلالها ، وبعد هذه الفترة أخذنا إلى مدير السجن لإجراء ما يسمونه بعملية « التصنيع » ، ويقصد به العرض على المدير نفسه ، كى يوجه للسجين بعض الأسئلة ، ثم يختار له المهنة المناسبة التى يعمل بها فى السجن ، ومن شروط العرض على المدير أن نخلع الأحذية.. وكان سيادته يسأل كل واحد منا عن عمره وعمله فى الخارج ، ثم يقيسه بنظراته ، وبعد ذلك يكتب المهنة ، فى كشف أمامه أو العمل الذى سوف يقوم به السجين.

عندما جاء دورى سألنى عن إسمى وعمرى ، ثم قال: « ما هو عملك بالخارج؟ »

- « طالب بكلية الطب المرحلة النهائية ..»

قال فى شيء من السخرية: « نعملك إيه هنا؟ صبى صيدلى..؟ ولا مساعد دكتور؟ ..»

وقبل أن أرد عليه كتب وهو يقول: « ترزى ..»

وانصرفت وجاء بعدى من يلينى..

بعضنا تم تعيينه فى « ورشة النسيج » ، وأغلبنا أصبحوا « ترزية » ، ولم يسمحوا لأحد منا أن يعمل فى المخبز أو المطبخ أو المغسلة أو المكوجية وكذلك منعنا من ممارسة أعمال المكاتب ، خوفًا من أن نكتشف بعض المكاتبات أو الأسرار ، أو نجرى اتصالات بالخارج.

كان العمل فى ورشة النسيج بالغ القسوة ، إذ يمتد من الساعة السابعة صباحًا حتى الرابعة عصرًا ، وعلى كل مسجون فى الورشة أن ينجز كمية من العمل محددة يسمونها « المقطوعية » ، ولابد من إتمامها ، ومن يعجز عن ذلك يرسل إلى التأديب وتزاد عليه « المقطوعية » ، وقد يجلد ، وكان النسيج فى سجن أسيوط منصبًا على صناعة البطاطين التى تورد لمصلحة السجون ، وطريقة النسج تعتمد على استخدام « الأنوال » اليدوية ، والواقع أن تشغيل النول يحتاج إلى بذل جهد كبير ، إذ يستعمل السجين يديه ، ورجليه وعقله وعينيه بصورة دائمة ، ولهذا فإن العاملين فى هذا المجال يصابون بالنحول والضعف والأمراض بعد فترة من الزمن ، فضلًا عن أن الزغب الذى يلوث جو المنسج يتراكم على الوجوه والشعور وأهداب العيون ، كما يتسلل مع التنفس إلى الرئتين مما يسبب نزلات شعبية ، أو أزمات ربوية عند الكثيرين من السجناء ، وقد قاسى إخواننا العاملون فى النسيج آلامًا مرهقة ، ولم نجد حيلة لهم كى

يفلتوا من هذا العقاب اليومى الرهيب.

أما العمل فى الترزية فهو أمر ميسور لحد ما ، ونحن كترزية لا نؤدى عملنا على ماكينات خياطة كما يتوهم البعض ، ولكن العمل يدوى ، أى بالإبرة والخيط ، فتأتى إلينا سترات السجناء وسراويلهم مفصلة جاهزة للخياطة ، ويمكننا أن ننتهى من كل بدلة خلال ساعتين ، فإذا ما علمنا أن نصيب كل سجين ترزى بدلتان أو ثلاثة أمكننا تقدير ساعات العمل ، وكان هناك بعض الصعايدة الفقراء المودعين تحت التحقيق أو الذين فى التخزين على استعداد لأن يخيطوا البدلة بسيجارتين فقط ، ولهذا كنت أخيط بدلة واحدة ، وأستأجير من يخيط لى الباقى ، وأدفع له أجره بالسجائر ، كنت أراه عملًا مملًا لا قيمة له ، وأفضل أن أقرأ فى كتاب أو أكتب شيئًا ، على أن أقضى الوقت فى هذا العمل الميكانيكى الذى يخلو من أى إبداع أو فائدة.

وكان أخى وزميلى فى الزنزانة الدكتور أبو بكر عثمان ترزيًا هو الآخر ، وكان يضحك ويقول: « عندما تتخرج من كلية الطب إن شاء الله بعد عمر طويل ، يمكنك أن تكتب على لافتة العيادة الخاصة « طبيب.. وجراح.. ومولِّد.. وترزى.. وخِلافُه » ..»

ولم يكن أمامنا سوى أن نبتسم ونصبر ، ونتلقى هذه الأمور بالضحك والمرح. كان أغلبنا كما قلت « ترزية » طبقًا لتصنيف سيادة المدير ، ولم تكن ورشة الخياطة تتسع لعددنا الكبير ، ولهذا رأى المدير أن نقوم بعملنا فى الزنزانات التى نسكنها ، وكان هذا أفضل بالنسبة لنا.

الذى شغلنا فى تلك الفترة هو وضع نظام مناسب لحياتنا فى السجن تلك التى قد تمتد لسنوات لا يعلم إلا الله مداها ، ولهذا وضعنا أمام أعيننا بعض القضايا التى تحتاج إلى دراسة وأهمها:

أولا: انفصالنا فى دور خاص بنا من أدوار العنبر.

ثانيا: تحويل إحدى الزنازين إلى مكتبة نجمع فيها ما تيسر لنا من كتب ، والطلب من أهلينا تزويدنا ببعض الكتب المسموح بها ، فى شتى المجالات الثقافية ، واختيار واحد منا ليكون أمينًا للمكتبة ، كى يتول الإشراف والإعارة.

ثالثا – اختيار مسئوولين عنا – بطريق الانتخاب المباشر – من بيننا ، حتى يتولوا الاتصال بالإدارة ، وحل مشاكلنا معها ، وتنظيم باقى أمور حياتنا والفصل فيما ينشب من خلافات.

رابعًا – تنظيم الإخوان فى أسر دراسية تعنى بالدراسات الدينية كالفقه والتفسير والسيرة والحديث ، والدراسات الاجتماعية والنفسية والسياسية المعاصرة ، وحفظ القرآن ، وتنسيق المواقف ، وتعلم اللغات الأجنبية..

خامسًا – وضع نظام مالى أو اقتصادى ، يعتمد على حصر الميزانية التى لدينا والتى تتوفر مما يرسله ذوونا شهريًا من مصاريف لنا ، حيث إن البعض منا ليس لديه مصدر مالى ، والبعض الآخر لا تصله المصروفات بطريقة منتظمة ، ولهذا فإنه كان من الضرورى إقامة نظام يكفل لكل سجين إخوانى الحد الأدنى من الطعام الإضافى أو الدواء أو الملابس الداخلية وغيرها.

سادسًا – تطوير مقصف السجن بطريقة توفر لنا بعض الأطعمة التى يمكن شراؤها بأموالنا الخاصة ، نظرًا لفقر الوجبات الغذائية الرسمية من حيث النوع ومن حيث الكمية.

سابعًا – التفاهم مع الإدارة حول إدخال النور الكهربائى فى الزنازين ، حتى ولو كان على حسابنا الخاص.

ثامنًا – تنظيم الزيارات ، والسماح لنا بكتابة الرسائل للأهل.

تاسعًا – الطلب إلى الإدارة بالسماح لنا بممارسة بعض الهوايات النافعة كالعمل فى التجارة بطريقة حرة ، أو تعلم الموسيقى ، وتشجيع الألعاب الرياضية ، والفن المسرحى ، والرسم والنحت وغير ذلك من الفنون حسب الرغبات.

عاشرًا – العمل على تحسين الوضع الوقائى والعلاجى فى السجن ، مع السماح لنا بفترة فسحة صباحًا وعصرًا..

وكانت المعركة الأولى التى خضناها تتعلق بانفصالنا فى دور خاص بنا ، لأن ذلك يكتسب أولوية خاصة ، وعلى أساسه يمكن أن نسير فى تنفيذ المطالب الأخرى الحيوية ، واستخدمنا كل الوسائل الممكنة فى هذا المجال ، على الرغم من تعنت الإدارة ورفضها المتكرر ، ويبدو أنها كانت تنتظر الأوامر من المباحث العامة ، التى لها حق الإشراف علينا ، وإصدار الأوامر بخصوص التعامل معنا ، دون غيرنا من فئات المسجونين الأخرى ، وقد نما إلى علمنا أن المباحث وافقت على هذا الفصل أخيرًا ، حتى لا يكون اختلاطنا بالمسجونين العاديين وسيلة للتأثير عليهم ، وضمهم إلى صفوف الإخوان المسلمين ، قياسًا على ما سبق فى المحن السابقة أيام النقراشى باشا وإبراهيم عبد الهادى باشا ، وهكذا تم تسكيننا فى الدور الثانى « فوق الأرضى » من العنبر نفسه ، ولم يكن هذا الدور مكونًا من غرف كبيرة كالدور الرابع ، ولكنه عبارة عن زنازين صغيرة يسكن فيها ثلاثة أو خمسة ، لأن الأعداد الزوجية غير مسموح بها فى السكن لأسباب تتعلق بالحماية من الشذوذ الجنسى الذى يشيع بين المسجونين..

كان معى فى زنزانتى الأخ الدكتور أبو بكر عثمان والأخ الدكتور يحى عبد الرحمن ، وشعرنا بالارتياح الكبير ، وخاصة بعد أن أنشئت مكتبة فى إحدى الزنازين ، وأصبح أمينها الأخ المرحوم محمد أنور حسانين بموافقة مدير السجن ، وأصبح فحص أى كتاب يرد إلى السجن من الأمور الأساسية المتفق عليها.

كانت زنزانتى تجاور الزنزانتين الوحيدتين المخصصتين للمحكوم عليهم بالإعدام ، وزنزانة الإعدام لها تصميم خاص ، بالنسبة للحيطان والمقتنيات الداخلية والأثاث والباب؛ وذلك حتى لا يحاول السجين الانتحار ، وأمام الزنزانة يجلس السجان بصفة دائمة ليلًا ونهارًا ، وهذا السجان ليس وراءه عمل سوى مراقبة المحكوم عليه بالإعدام ، وهو غير السجانة المشرفين على الدور ، وكان هناك محكوم واحد فى إحدى الزنزانتين إسمه « مليكة » ، وهو شاب مسيحى قتل أباه ، ويرتدى البدلة الحمراء المخصصة لمن يصدر ضده حكم بالإعدام ، وهو فى انتظار التنفيذ أو قبول طلب النقض وإعادة المحاكمة ، كان مليكة شابًا صغيرًا فى أوائل العشرينيات من عمره نحيلًا وسيمًا ، يجلس معظم الوقت لدى الباب مع السجانة ، ويشاركهم الطعام ، وفى المساء كنت أسمعه يردد بعض الأغانى الحزينة ، ويظل على هذا المنوال حتى بعد منتصف الليل ، ولم يفقد مليكة الأمل أبدًا فى تخفيف الحكم ، وخاصة بعد أن تم قبول النقض من الناحية الشكلية ، وسرعان ما خلع الملابس الحمراء ، وارتدى الزى الأبيض الكالح الخاص بمن هم رهن المحاكمة ، ولم تطل فرحته ، فقد تم تأييد الحكم السابق ، وعاد إلى الرداء الأحمر ، وزنزانة الإعدام مرة أخرى ، لكنه رغم انتهاء الأمر على هذا النحو المؤلم ، إلا أنه – وهذا أمر غريب – لم يفقد الأمل.

إن الإنسان نادرًا ما ييأس يأسًا تامًا ، وهذا من رحمة الله ، وعادة تحاول الأفلام السينمائية أن تنقذ المحكوم عليه فى آخر لحظة ، وقبل أن يحرك « الجلاد » – أو كما يسمونه عشماوى – يده للتنفيذ ، وظل « مليكة » يأكل مع العسكر ، ويغنى فى المساء أغنياته الحزينة ، حتى كان يوم تهامس فيه المسجونون

بخبر عن مليكة وهو أن التنفيذ سيتم صباح الغد «فبراير ١٩٥٦»، وبعد فسحة العصر كان السجناء يعودون إلى زنازينهم، وكنت أرقبهم وهم يصعدون الدرج، فإذا ما مروا «بمليكة» الذى لا يعرف شيئًا عن الموضوع نظروا إليه فى حسرة وألم، لم يكونوا يفكرون فى هذا الوقت فى الجريمة التى اقترفها، ولكنهم يشعرون شعورًا معينًا نحو إنسان سيموت غدًا.. فى الصباح لم يفتحوا أبواب الزنازين فى المواعيد المقررة، ونظرنا من النافذة، وجدنا عددًا من كبار الضباط يعبرون الفناء، ومعهم المدير العام ومدير السجن وقسيس وعرف البعض «عشماوى» الذى قدم خصيصًا لهذا الموضوع.. وبعد دقائق سمعناهم يصعدون الدرج للطابق الثانى لأخذ مليكة الذى لم يكن يدرى شيئًا.. قال السجانون فيما بعد أن مليكة عندما رآهم بعد أن فتحوا باب زنزانته ساد وجهه شحوب شديد كشحوب الموتى، لم يستطع الحركة.. عاونوه على السير.. كان يهبط الدرج متهافتًا متهالكًا.. رأيناه من النافذة يسير مذهولًا.. أخذ يصيح واختفى صياحه بعد فترة.. بقينا متشبثين بقضبان النافذة.. وبعد فترة رأينا اثنين من العسكر يحملون «نقالة»، وعليها جثة مغطاة تمامًا ببطانية تشبه جلد الفئران.. انتهى مليكة.. بعد دقائق كان صوت المفاتيح وهى تدور فى «كالونات» الزنازين يصل إلى أسماعنا بوضوح.. وعادت الحركة الدائبة فى السجن إلى طبيعتها مرة أخرى.. مثل أى يوم.. قال السجان الذى كان يحرس مليكة أمام زنزانته: «قدّس الله روحه».

فى هذا اليوم لم يكن لدى أدنى رغبة للطعام: وكتبت بضعة أبيات من الشعر عن الإنسان والموت والحياة، ولا أدرى أين ذهبت، لعلها ضاعت أثناء حملات التفتيش المتتالية التى كنا نفاجأ بها من يوم لآخر..

وظلت زنزانة مليكة خالية لعدد قليل من الشهور، ثم فوجئنا برجل جديد حكم عليه بالإعدام، الشىء الغريب أننا لم نكن نتعاطف مع هذا الرجل بالذات، كانت تهمته أنه تربص لأخته وقتلها، من أجل أن يرث ربع فدان منها.. ستة قراريط من الأرض.. كان رجلًا يبدو بليدًا فى تصرفاته وكلماته وحركاته، وكان مجرد النظر إلى وجهه يضايقنا، ربما لارتباطه بجريمة تشمئز منها النفوس، وكان جاهلًا متخلفًا فى كل شىء، ولم يكن يكترث لهندامه الأحمر، ولذا كثيرًا ما يسقط السروال الأحمر قليلا، وكشف عن جزء من مقعدته، وهو لا يبالى، فإذا ما لفت أحد نظره إلى ذلك كى يعدل من هندامه لا يلتفت أو يكترث.. عندما ساقوه إلى تنفيذ حكم الإعدام، وأخذ واعظ السجون يلقنه الشهادتين قال: «بتعدمونى علشان مرة «أى إمرأة»؟»

- «إنها روح يا مسلم ...»

- «أنا قتلت عشرين واحدًا وما أصابنى شىء.. تقوموا فى النهاية تقتلونى علشان مرة؟»

قال له المدير فى ضيق: «خلاص.. هنعدمك عشان واحد من العشرين اللى قتلتهم ..»

كانت مشاكلنا مع الإدارة لا تنتهى فهم يريدون تطبيق لائحة السجون بحذافيرها، ونحن نجد فى بنود اللائحة الكثير من الظلم والفساد، وكثيرًا ما حاولوا إفهامنا أن للسجون نظامها الراسخ منذ عشرات السنين، وأنه من المستحيل أن يتغير شىء، ومن المعارك الطريفة التى خضناها مع الإدارة معركة «الحمّام».. فالمفروض أن كل مجموعة من السجناء يخلعون كافة ملابسهم فى باحة أمام الحمام، ثم يدخلون عراة كما ولدتهم أمهاتهم، ويحشرون هكذا بالعشرات فى مكان واحد، تحت المياه الساخنة

التى تنصب من صنابير فى سقف الحمام، وكان هذا المنظر يبدو قبيحًا مقززًا، ولهذا ارتدينا « مايوهات » صغيرة صنعناها بأنفسنا من أقمشة ملابس سجن قديمة، كى نستر عوراتنا أثناء الاستحمام، ورفضت إدارة السجن لبس « المايوهات » بحجة أن الطبيب يقف ليتأكد من خلو السجين من بعض الأمراض المعدية، وخاصة التناسلية، وأصر النزلاء الإخوان على ارتدائها، وقالوا أن الطبيب يمكن أن يقوم بفحصه فى أى وقت، لكل فرد على حدة، وبعد مداولات بين الإدارة قرروا إرغامنا على تنفيذ اللائحة وأوامر السجن.

قال أحد العلماء السجناء للمدير: « إن تصرفكم هذا يخالف الشرع والآداب الإسلامية »

قال المدير فى سخرية: « ما سمعنا بهذا من قبل.. أنتم رجال »

وأردف الضابط زكى أمين: « كنا نستحم عراة فى كلية الشرطة، فلماذا تعترضون على ذلك؟ أنتم رجال ..»

رد العالم قائلًا: « يقول رسول الله ﷺ ما معناه « لعن الله الناظر والمنظور » ..»

واستمر يدلى بعدد من النصوص والأدلة.

وأخيرًا قال المدير: « أوامر السجن لابد أن تُنفّذ ..»

وانصرف بعد أن غمز بإحدى عينيه..

كنا نقف بدون ملابس اللهم إلا « المايوه » الصغير.. وانقض علينا السجانون بالعصى والأخشاب، وقامت بيننا وبينهم معركة على باب الحمام الكبير، ثم انطلقت الصفارات وساقونا إلى الزنازين.. وحرمنا من الاستحمام ذلك الأسبوع، وفى الأسبوع التالى، أنزلونا مرة أخرى للاستحمام.. قلنا لهم سوف نلبس المايوهات.. ولم نجد هذه المرة اعتراضًا.. وسعدنا بهذا الانتصار الصغير الذى بدا لنا كبيرًا جدًا.. ومن المؤسف أنه بعد أسبوعين حاول السجناء العاديون من مواطنينا الصعايدة أن يقلدونا فيما فعلنا، لكن إدارة السجن رفضت بشدة، ولقنتهم درسًا قاسيًا، إذ انهالوا عليهم ضربًا، وفرضوا عليهم طابورًا شاقًا من الجرى السريع لأكثر من ساعتين، حتى أرهقوهم فاستسلموا لأوامر السجن، وظلوا يستحمون عراة.. ولم يكن فى الإمكان أن نتدخل صراحة فى هذا الأمر، وإلا اعتبره السجن تمردًا شاملًا، وفى هذه الحالة يستطيعون إطلاق الرصاص علينا جميعًا، واكتفينا بتقديم النصيحة – فى إطار الآداب الإسلامية – كى يسمحوا للسجناء بما سمحوا به لنا، ولكن دون جدوى، وقال أحد الضباط: « بالله عليكم لا تفسدوا علينا الآخرين.. ثم إن ظروفهم، وطبيعة حياتهم، تختلف تمامًا عنكم ..»

كانت ليالى الشتاء باردة طويلة، وكانت أطول مما فى جعبتنا من أحاديث، وفكرنا أن نستغل هذه الساعات فى القراءة، لكن كيف؟ إن الزنزانة غارقة فى ظلام دامس، ويمنع منعًا باتًا إضاءة أى نوع من النار أو النور داخلها، واهتدينا إلى حيلة بدائية قررنا تنفيذها رغم المخاطر، إن كمية قليلة من زيت الطعام بها فتيل من القطن أو الخيوط السميكة تستطيع أن توفر لنا شعلة صغيرة تشبه الشمعة ونستطيع أن نقرأ فى ضوئها، وقمنا بتنفيذ المشروع، وهو لا يحتاج إلا إلى غطاء علبة ورنيش « طلاء الأحذية » صغيرة، نملؤها ببضع سنتيمترات مكعبة من الزيت.. ثم نشعل الفتيل.. ولكى لا يرانا خفر الليل فى الفناء الخارجى، كان لابد أن نسد النافذة تمامًا بعدد من ستراتنا الزرقاء حتى لا يظهر النور، ومع ذلك فقد سمعنا حارس الليل يصرخ فى الفناء: « اطفى النور يا دور ٢».

آه.. إذن لا فائدة، إذا تجاهلنا الأوامر، فإن ذلك سوف يجر علينا « التأديب » والجلد، لهذا أطفأنا النور واستجبنا للأمر، وكان رأيى أن يقوم الإخوة المسئولون عنا بالتفاهم مع العسكر حول هذا

الموضوع ، ولا بأس من أن ندفع لهم مبلغًا شهريًا من المال ، حتى يغمضوا أعينهم عن هذه المخالفة ، وقد نجحت الخطة ، واستطعنا بذلك أن نستفيد من الساعات الطويلة المهدورة التى تشكل جزءا من أعمارنا ، وقد اندمجت فى هذه الفترة فى قراءة تفسير ابن كثير ، وهو من أكثر التفاسير رواجًا بين الإخوان المسلمين فى تلك الفترة ، لقد حفظت الكثير من القرآن الكريم ، وكنت أعيد قراءته من وقت لآخر ، هذا حسن ، لكنه لابد أن أركز بعد ذلك فى فهم الآيات ومعانيها وأحكامها ، فالقرآن لا شك هو المدرسة الحقيقية للمسلم ، وهو النصوص التى نريد أن نطبقها فى واقع الحياة ، ولا يمكن أن يكتسب المؤمن صفة الداعية الحقيقى إلا إذا عرف تفسير القرآن ، فهو المؤهل الأساسى له.. كنت أقرأ التفسير ليلا ونهارًا بنهم وشغف ، وكنت أقلق لمجرد التفكير فى أنه ربما تواجهنى عقبة ، أو أصاب بمرض ، أو أودع الحياة قبل أن أنتهى من التفسير ، لقد بدا ذلك فى هذه الفترة أمرًا بالغ الأهمية أكثر من أى شيء آخر فى الحياة.. والحمد لله فقد استطعت أن أنجز ذلك فى حوالى ستة شهور.. وكنت فى غاية السعادة.

وخلال انهماكى فى قراءة التفسير ، كنت أناقش بعض إخوانى من العلماء فى بعض الأمور التى تحتاج إلى إيضاح ، فكانوا يبدون رأيهم ، أو يوجهوننى إلى تفاسير أخرى تفيض فى هذا الجانب أو ذاك..

ثم ظهرت تصريحات للمسئولين فى وزارة الداخلية نشرتها الصحف ، وهى تؤكد حق السجين فى أداء الامتحان بالجامعات أو المدارس ، ولقد فرحنا لهذا الأمر فرحًا شديدًا ، لأن ذلك كان سائدًا فى السجون قبل الثورة ، ثم توقف بعد قيامها ، وبادرت بتسطير رسالة إلى مدير عام مصلحة السجون أطلب فيها السماح لى بأداء الجزء الأول من امتحان بكالوريوس الطب فى نهاية العام ، وانتظرنا وأخيرًا جاء الرد إلى المدير ، وكان فيه:

« نرجو تفهيم المسجون « ......» أن القرار الخاص بالامتحانات لا ينطبق عليه ..»

لقد ذابت فرحتنا وتبخرت ، وواضح أن السجين السياسى لن يسمح له بالامتحان.. وعلق أحد الضباط قائلا: « هل يعقل أن يأخذوا هذه الأعداد الكبيرة من الإخوان إلى لجان الامتحان؟ أنتم تحتاجون إلى فرقة كاملة من الجيش كى تحرسكم »

لقد كان السجين فى عصر ما قبل الثورة يعامل معاملة « أ » أما السجين العادى فيعامل معاملة « ب » ، ومعاملة « أ » فيها الكثير من الميزات التى تتعلق بالغذاء الجيد ، والمكان المريح ، والزى المناسب ، وغير ذلك ، وعندما جاءت الثورة قالوا أنهم سيجعلون من جميع السجناء فئة واحدة هى فئة « أ » ، والحقيقة أننا فوجئنا بأن الجميع فئة « ب » ، لقد ضاعت كل الميزات الخاصة بالسجناء السياسيين بما فيها السماح بأداء الامتحانات ، وهكذا فرضوا علينا التخلف والتوقف تمامًا فى مجال المراحل الدراسية المتتابعة.. ألا يحق لنا أن نهتف من أعماقنا عاشت الثورة.. ثورة الشعب.. ثورة العلم والحرية..؟

❁❁❁

[٣] ليالى السجن القاتمة



الرعاية الصحية فى السجون رديئة، ولست أعرف سببًا وجيهًا لذلك، فإذا كان الهدف من وراء الإهمال الصحى هو مزيد من تعذيب السجين أو تأديبه، فهو أمر فى غاية الغرابة، لأن عقوبة الحجز والطعام الردئ، والحرمان الجنسى الشرعى، والعمل المرهق، والإذلال اليومى وغير ذلك يكفى، ولقد حدث ذات ليلة أن سمعنا فى الدور الأرضى «حيث يسكن من هم رهن التحقيق والمحاكمة، ولم تصدر ضدهم أحكام بعد» دقًا عنيفًا على باب الزنزانة رقم « ..»، وجاء السجان خفر الليل بخطى بطيئة مسموعة جيدًا، لأن وقع حذائه الثقيل على البلاط يسرى أثناء الليل بوضوح، وقال بصوت جاف:

- « إيه الحكاية يا ولد؟ »

- « مريض يا شاويش.. واحد مريض جدًا ..»

- « طيب.. ناموا للصبح ..»

- « الرجل تعبان وممكن يموت ..»

- « فى ستين داهية ..»

وانصرف السجان، لكن لغط المسجونين لم يتوقف، وكأنما سد السجان أذنًا بطين وأخرى بعجين كما يقولون، وبعد دقائق عاد المسجونون للدق على الباب مرة أخرى بمزيد من العنف، وأخذوا يتوسلون للسجان كى يبلغ الإدارة أو الطبيب بالأمر، لأن المريض على وشك الموت، وحتى يكفوا عن الدق، قال السجان: « خلاص.. بلّغنا الإدارة »

المعروف أن السجان لا يستطيع فتح باب الزنازين أثناء الليل، لسبب بسيط وهو أنه لا يحمل مفتاحًا، بل إن السجان نفسه داخل العنبر لا يستطيع الخروج، لأن العنبر مغلق أيضًا، وفى الحالات الطارئة الشديدة يقوم السجان خفير الليل بإخطار زميله فى فناء السجن؛ فيذهب الأخير إلى الضابط الخفر « النوبتجى » ويبلغه بالواقعة، ويقوم الضابط بعد ذلك بإعلام المأمور أو المدير فى بيته.. المهم أن باب أى زنزانة لا يفتح فى الليل إلا بأمر قائد السجن وبحضوره فى الحالات الخطيرة..

وبعد ما يقرب من نصف ساعة سمعنا صراخًا وعويلًا، وجاء صوت من أسفل يعلن فى مرارة: « المسجون مات يا كفرة يا مجرمين ..»

وحدثت ضجة هائلة فى الأدوار الأربعة عقب إعلان هذا النبأ المحزن، وأخذت كل الأيدى تدق الأبواب الصلدة فى غضب وسخط هائل، وظل الأمر على هذا النحو حتى سمعنا الصفارات والنداءات المميزة التى تعنى أن مدير السجن قد أتى أخيرًا.. وانقطع الدق على الأبواب وساد الصمت، وأخذنا نتسمع لما يجرى، فهمنا أن الطبيب حضر وكذلك المدير وعدد من الضباط، سمعنا أحد المسجونين الصعايدة ينوح قائلًا: « الرجل مات يا بيه.. دا لو كان بهيمة كان يصعب علينا ..»

رد اللواء و« الشاعر » عطوة حنفى مدير السجن قائلًا فى رقة مبالغ فيها: « يا بنى دا عمره لغاية كده.. قسمة ونصيب يا حبيبى.. لا الدكتور ولا ألف دكتور يقدر يمد فى عمره دقيقة.. لازم تكونوا مؤمنين بقضاء الله وقدره.. ياللا يا بنى انت وهو شيلوه لبرة عشان ننقله إلى المستشفى.. الله يرحمه ويرحمنا جميعًا ..»

صاح أحد الإخوان المسلمين فى الدور الثانى قائلًا: « لكن هذا ظلم وإهمال ...»

قال المدير فى غضب ممزوج بالسخرية: « خليك فى حالك إنت وهوه.. مالكوش دعوة بغيركم ولا عايزين تشعللوها نار؟ أنا عارفكم كويس.. الصعايدة رجال ومؤمنون بالله ..»

انتهى الأمر بسرعة ، وعاد الهدوء إلى العنبر بعد نقل المتوفى ، وإغلاق باب الزنزانة وخروج الطبيب وبقية الحاشية ، وفى الصباح علمنا من رفاق المتوفى أنه كان مريضًا منذ أيام ، وكان يشكو من حمى وهذيان وآلام بالبطن وصداع ، وأنه ذهب إلى الطبيب أكثر من مرة ، ولم يكن يقوم بفحصه بل يكتفى بالنظر إليه ، ثم يصرف له قرصين من الأسبرين وجرعة واحدة من مزيج معين يضعها له الممرض السجان فى فمه.

ولقد جرت العادة أن يجرى تشريح مبسط لأى سجين يموت فى السجن ، وقد علمنا فى اليوم التالى أنه تم تشريح جثة السجين ، وأن الجثة ما زالت فى المشرحة ، ولم تسلم بعد لأهل السجين ، واقترح علينا الأخ الدكتور أبو بكر عثمان « السودانى الجنسية » ، أن نحاول فحص الجثة بأية طريقة ، وكان لنا صديق سجان طيب القلب ، أخبرناه أننا طلبة فى كلية الطب ، وأن التشريح مادة أساسية عندنا ، وطلبنا منه فقط أن نلقى نظرة على الجثة ونطلع على طريقة تشريحها حتى نتعلم درسًا عمليًا ، وتردد السجان فى البداية ، لكن علبتين من السجائر كانتا كفيلتين بإنهاء تردده ، واشترط علينا أن نذهب تحت إشرافه إلى حجرة المشرحة فى وقت الظهيرة ، حيث يكون المدير قد ذهب إلى مسكنه للغذاء ، والضباط ذهبوا للاستراحة الخاصة بهم ، وكذلك باقى السجانة ، وذهبت أنا وأبو بكر وزميلنا الثالث الدكتور يحى عبد الرحمن ، ودلفنا إلى الغرفة وأغلقنا الباب ، ومعنا السجان الذى لم يطق النظر إلى الجثة ، فانصرف مؤكدًا علينا أن ننتهى بسرعة من هذه المعاينة « المقرفة » على حد قوله..

كان هناك شق طولى مخيط فى البطن يمتد من أسفل الصدر إلى قرب منطقة العانة ، ومد أبو بكر يده وأمسك بطرف الخيط ثم شده برفق فانفتح الشق وتبدت أمامنا الأحشاء الداخلية ، وأخذنا نفحص المعدة والأمعاء الدقيقة والغليظة والكبد وغير ذلك ، وأخيرًا اكتشف الدكتور أبو بكر ثقبًا فى الأمعاء ومظاهر التهابات فى الغشاء البريتونى وربما بعض الأنزفة ، وكان الاحتمال الأكبر أن المتوفى أصيب بالتيفوئيد ، ولم يتيسر له الغذاء أو الدواء النوعى ، وكان الإهمال سببًا فى حدوث هذه المضاعفات المميتة.. وأخيرًا جاء العسكرى وقال: « أسرعوا حتى لا يأتى أحد الضباط ونقع فى مصيبة ..»

وخلع أبو بكر طاقيته الزرقاء ، واستخرج منها إبرة الخياطة « فقد كان يعمل فى السجن ترزيًا مثلى » ، وأعاد خياطة الشق مرة أخرى كما كان ، ثم أسرعنا بالعودة إلى الزنزانة. وكان لابد أن نغسل أيدينا جيدًا ، ونعقمها بالمطهرات مخافة العدوى ، وخاصة أننا كنا نعمل دونما قفازات.. ومع اتخاذ الاحتياطات إلا أننى بقيت يومين أشعر بالغثيان وفقدان الشهية ، وكان مجرد النظر إلى الطعام يثير المزيد من التقزز فى نفسى ، وأذكر أننى كتبت خلال تلك الفترة قصيدة وأذكر أيضًا أن مطلعها كان:

أيها النائم هل نلت السلاما   بعد أن ذقت الأسى عاما فعاما

ويبدو أن مجهولا قد أبلغ النيابة العامة فى أسيوط بأن المتوفى فلان قد عانى من الإهمال فى السجن ، ولم يخف أحد لنجدته أو علاجه أثناء مرضه. وفى يوم من الأيام وجدنا حركة غير عادية فى الدور الأرضى ، بل إن المدير قد أتى بنفسه والتقى على انفراد بسكان زنزانة الفقيد ، كما قام الضباط والسجانة بالمرور على بقية الزنازين الأرضية والتفاهم مع أصحابها ، وكان واضحًا أن هناك شكوى ، وأن النيابة العامة قادمة للتحقيق أو التحرى عن الحالة ، ونجحت التمثيلية..

خاف المسجونون أن يدلوا بالحقيقة ، وأجابوا على الأسئلة التى وجهت إليهم طبقًا لتعليمات المدير والسادة الضباط ، وكان التركيز فى التحقيق مع من كانوا مع المتوفى فى الزنزانة ، ولم يكن صعبًا على الطبيب أن يستكمل ملف المريض وعلاجه بالطريقة المثلى.. و.. حفظت الشكوى..

والمعروف أن النيابة تقوم بالمرور دوريًا على السجون حتى بدون شكوى ، لكن الشىء الملفت للنظر أن النيابة لم تفكر مرة واحدة فى المرور على الدور الذى يسكن فيه الإخوان المسلمون المسجونون.

لكن هل هذا الإهمال الصحى موجود دائمًا؟

هناك أولًا بعض أهالى المسجونين المرضى الذين يذهبون إلى طبيب السجن فى عيادته الخاصة ، ويتم التفاهم معه حول دفع تكاليف العلاج والدواء الذى يشترى من الخارج للسجين ، عندئذ ينقل السجين المريض إلى مستشفى السجن ، ويتم علاجه على النحو الكامل ، وقد تجرى له إحدى العمليات الجراحية المسموح بها إذا لزم الأمر ، وهناك ثانيًا التوصية من شخصية ذات حيثية ، عندئذ تقدم الرعاية التامة للسجين المريض ، وهناك ثالثًا الشكوى التى يبعث بها أهل السجين إلى وزارة الداخلية أو مدير مصلحة السجون ، فتقوم الإدارة العامة فى القاهرة بطلب تقرير صحى عن السجين المريض الذى أرسلت من أجله الشكوى ، ولابد أن يكون التقرير الرسمى مطمئنًا ، وقد تشير الإدارة بإحالة المسجون للعلاج فى إحدى مستشفيات المدينة تحت الحراسة إذا لزم الأمر ، وبهذه المناسبة أشير إلى قصة أخينا محمد البكرى السجين فى بنى سويف ، إذ قاسى كثيرًا من آلام وانسكاب وتورم فى إحدى ركبتيه ، ولما عجز عن الحصول على دواء ناجع ، أرسل شكوى لجمعية « الرفق بالحيوان ».. طالبًا منهم أن يعتبروه حيوانًا ، وأن يساعدوه فى العلاج كما يعالجون الحيوانات ، وأثارت هذه الشكوى ضجة عندما أحيلت من جمعية الرفق بالحيوان إلى الداخلية؛ ثم إلى مصلحة السجون ، وصدر الأمر بترحيله من سجن بنى سويف إلى سجن القاهرة كى يعالج فى القصر العينى. ولا أنكر أن هناك بعض أطباء السجون الذين كانوا على جانب كبير من النزاهة والعدالة والإنسانية ، وأخص بالذكر منهم الجراح الدكتور إبراهيم زكى الذى كان يعمل فى مستشفى سجن القاهرة ، هذا الرجل كان جديرًا بشرف المهنة.

وإزاء ذلك كان علينا أن نعتمد على أنفسنا كلية فى تنظيم الرعاية الصحية والعلاج بسجن أسيوط ، واستطعنا توفير الأدوية الضرورية ، وشدّدنا على الالتزام بالقواعد الصحية الوقائية ، واستطعنا التنسيق مع طبيب جديد حل محل الطبيب القديم فى إجراء الجراحات البسيطة بالمستشفى ، واكتسبنا – كطلبة طب – خبرة لا بأس بها ، كما تفاهمنا مع الإدارة حول الاهتمام بالمقصف الذى نشترى منه بنقودنا ، وزيادة عدد الأصناف التى تباع فيه ، مع التركيز على أنواع الأغذية الضرورية للصحة ، لأن طعام السجن كما ألمحنا كان رديئًا من حيث النوعية ، وقليلًا من حيث الكمية ، وإنى لأذكر كيف أن كمية الأرغفة « ثلاثة فى اليوم لكل سجين » لم تكن تكفينى ، وبحثت عن وسيلة لشراء الخبز من الخارج دون جدوى ، وفى أحد الأيام أخبرنى أحد السجناء الصعايدة أنه بإمكانى أن أشترى خبزًا بالسجائر من المسجونين العاملين فى مخبز السجن ، إذ كانوا يبيعون ١٢ رغيفًا بعلبة سجائر ، ولكن أحد الإخوة

أصدر فتوى بأن هذا حرام ، لأنه خبز مسروق من خبز المساجين المساكين ، وأن عمال المخبز يقتنصون من كل رغيف جزءًا يسيرًا حتى يستطيعوا فى النهاية أن يزيدوا عدد الأرغفة ، ويبيعوا الكميات الزائدة ، ويعطوا الحراس كمية منها ، وقد يرمون عددًا كبيرًا فى أماكن النفايات التى تجمع كل يوم..

ومن الطريف أن معركة فقهية اشتعلت حول هذا الموضوع ، وكان رأيى أننا فى حالة اضطرار ، وأننا نعانى من فقر التغذية ، ومعرضون للأمراض المعدية ، والسجن يرفض شراء الخبز لنا من خارج السجن ، وأمام سطوة الجوع ذهبت إلى الفرن ، ودفعت علبة سجائر ، وعدت باثنى عشر رغيفًا.. وعندما صعدت الدرج ومعى صف الأرغفة سألنى أحدهم:

– « ما هذا؟ »

قلت: « خبز حرام ..»

– « أعوذ بالله.. أتقبلها على نفسك؟ »

– « كى لا أموت جوعًا ..»

وفى الزنزانة رفض الإخوة مشاركتى فى أكل الخبز الذى اشتريته ، كان خبزًا طازجًا لذيذًا ، وكنت آكل منه بنهم دون ادام ، ولأول مرة أشعر بالشبع الحقيقى ، وتمنيت لو أن معى بضع حبات من الزيتون الأسود ، أو قطعة من الجبن أو حتى بصلة.. ولكن العين بصيرة واليد قصيرة..

والحقيقة أن مشكلة « الرغيف » ظلت تؤرقنا ، وظللنا دون جدوى نبحث عن حل ، صحيح إن بعض المسجونين أو السجانين كانوا يهدوننا أحيانًا عددًا من الأرغفة الإضافية ، لكنها كانت قليلة لا تغطى العجز الكبير الذى نعانى منه ، ولكن المشكلة حلت مع الزمن.. كيف؟ بالطريقة التى نفذتها من قبل.. لقد تحمل كل واحد وزره وأخذت الغالبية تشترى الخبز بالسجائر ، ومع ذلك فقد بقى عدد من الإخوة مصرًا على موقفه من أنه خبز حرام لا يصح شراؤه.. وليغفر الله لمن استسلم لشهوة بطنه..

والحقيقة أننا كنا نشترى من « كيروسين » السجن وزيت السجن وقماش السجن لنصنع لأنفسنا ملابس إضافية كافية مناسبة ، وكنا نستعمل الكيروسين مع قطع القماش البالية ونشعل منهما نارًا لتسخين الطعام أو عمل الشاى أو القهوة ، على الرغم من أنه أمر غير مسموح به ، كما كنا نستعمل الزيت فى إشعال فتيل للإضاءة ، ولإضافته على الفول أو الجبن.. وكنا نشترى الشاى المهرب من السوق السوداء فى السجن ، ولم أجد سببًا وجيهًا للسماح شرعًا بشراء الكيروسين والزيت والقماش ، وتحريم ذلك بالنسبة للخبز ، علمًا بإصابة البعض منا بمرض السل ، أذكر منهم « عزت غريب » الذى كان يعالج مع الشهيد « سيد قطب » والزميل « إبراهيم الصياد » فى المصحة. مرة أخرى أقول.. ليغفر لنا الله.. فإن الجوع كافر كما يقولون.

ولقد كان فى سجن أسيوط سجين شهير إسمه « على إسماعيل » محكوم عليه فى قضية مخدرات ، ولعب هذا الرجل دورًا بارزًا فى إحضار الممنوعات إلينا بعد دفع ثمنها ، كان تعاونه معنا صادقًا وأمينًا.. وله قصة مثيرة فيها الكثير من الطرافة والعبرة.. أذكرها كنوع من الترفيه أو التسلية.

لقد سجن « على إسماعيل » فى قضية مخدرات قبل ذلك ، ثم خرج منها بعد قضاء المدة المحكوم عليه بها ، لكن كان سوء حظه يترصده ، فقد توقع ضابط المباحث أن على إسماعيل – كحشاش قديم – لابد وأن يحتفل بمناسبة خروجه من السجن ، والاحتفال فى مثل هذه الحالة معروف ، وينصب

أساسًا على «الجوزة» و«رصّ التعميرة»، وداهم الضابط منزل «على» بعد إذن النيابة وأمسك به وفتشه وأخرج الحشيش من جيبه، وسيق مرة أخرى إلى السجن، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات مع الشغل، ولذا كان على يشعر بحقد هائل نحو هذا الضابط واسمه «أحمد مكى»، لكن ماذا يفعل «على» العاجز المقهور السجين؟

كان «على» ينتظر آذان المغرب، فإذا ما صاح المؤذن «الله أكبر الله أكبر» تبعه على الفور صوت «على إسماعيل» وهو يردد:

«الله أكبر فيك يا أحمد يا مكى»

«أذان فى كل مكان يا أحمد يا مكي

ربنا ينتقم منك»

«ويخرب بيتك.. زى ما خربت بيوتنا يا أحمد يا مكى»

وظل «على إسماعيل» يفعل ذلك دون انقطاع طوال العام الأول من السجن وجزءًا من العام الثانى، وأصبح ذلك مألوفًا كل مغرب شمس.. وفى أحد الأيام قرأنا فى جريدة الأهرام المهربة إلينا عن حادثة وقعت فى «أسيوط» إذ قام الضابط أحمد مكى بحملة تفتيشية على الجزارين وقبض على عدد منهم يبيعون اللحم بأكثر من التسعيرة، وهاج الجزارون وماجوا فى السوق، وهاجموا أحمد مكى بالسكاكين وهو فى وسط عسكره، ثم نقل إلى المستشفى فى حالة سيئة بين الموت والحياة، وانتشر الخبر فى أنحاء السجن بسرعة، ووقف على إسماعيل فى فناء السجن فى حالة من الفرح لا مثيل لها، كان محتقن الوجه، تعروه دهشة من نوع غريب، والمساجين يأتون إليه أفواجًا للتهنئة، لقد استجيبت دعوة على إسماعيل، واعتبره النزلاء رجلًا خطيرًا، بل وصالحًا أيضًا، أليس مستجاب الدعوة؟ وساد حوله جو من المرح والضحك.. ثم مات الضابط أحمد مكى فى اليوم التالى متأثرًا بجراحه.. كان معنا فى السجن آنذاك الزميل الأخ فؤاد شاكر مذيع التليفزيون ومقدم البرامج الدينية فيما بعد، وأخذنا معًا نعلق حول الموضوع، واقترحنا أن نتقدم لعلى إسماعيل برجاء أن يحول دعواته من أحمد مكى الذى انتهى أمره إلى دعوات ضد الرئيس.. كان الأمر فى حقيقته نوعًا من المزاح، وإن كان يعبر عن مكنون ضمائرنا نحو من ظلمنا.. وقررنا أن نعطى على إسماعيل عددًا من علب السجائر ثمنًا لذلك.. وعرضنا عليه الأمر فصمت برهة ثم قال: «يا إخوان اعذرونى.. دى مصيبة كبيرة لا أقدر عليها..»

وأخذ يشرح لنا وجهة نظره التى تتركز فى أنه لو فعل ذلك لاعتبرته الحكومة من الإخوان وهذه كارثة كبرى، وأفهمنا أن تهمة المخدرات أمرها سهل، وعقوبتها محتملة، لكن تهمة الإخوان قد تقذف به إلى الليمان ولا يخرج منه أبدًا، وطبعًا هناك أمر آخر لم يفصح عنه على إسماعيل وهو أن الرئيس صعيدى مثله، وعصبية الصعايدة تراعى هذا الجانب مراعاة شديدة، وأمام إصرارنا وإلحاحنا نزل على إسماعيل على رغبتنا.. وانتظرنا موعد أذان المغرب، وما إن انطلق صوت المؤذن، حتى سمعنا صوت يقول:

«الله أكبر فيك يا اللى فى بالي

أذان فى كل مكان يا اللى فى بالى»

«ربنا ينتقم منك، ويخرب بيتك زى ما خربت بيوت المظاليم يا اللى فى بالى ...»

وضج السجن كله بالضحك العالى والتعليقات المرحة.. وأخذ بعض الإخوان فى الدور الثانى يعتبون عليه عدم الالتزام ببنود الاتفاق، واتهموه بالخوف والجبن مما لا يتفق وطبيعة الرجل الصعيدى،

وفى اليوم التالى بعد أن فتحت الزنازين التقينا مع على إسماعيل وأخذنا نصب عليه أقسى ألوان التقريع والملام ، وأخذ على يشرح لنا الأمر من وجهة نظره.

أخبرنا أن الصعيدى شهم وذو أنفة ، لكنه إذا سجن لا يفكر فى مقاومة السلطة داخل السجن ، بل يرضخ لإهاناتها دون اعتراض ، ولا يعتبر عدوان الحكومة عليه وهو سجين أمرًا يتنافى مع كرامته ، كما أنه رجل متخصص فى المخدرات ، ويعتبر السياسة أمرًا لا يخصه ولا يتناسب مع شخصيته ، لأنه لم يحلم فى يوم من الأيام أن يدخل الانتخابات ، ومن المستحيل أن يكون موظفًا ، وبلور فكرته فى جملة واحدة: « أنا راجل صاحب مزاج وبس... وإن شاء الله تخرب مالطة » ثم عاد يطرح علينا حلًا وسطًا وهو أن نختار اسمًا آخر من الأسماء التى آذتنا بحيث لا يكون عضوا فى مجلس الثورة ، وهو على استعداد لأن يدعو عليه ، واقترح عليه أحد الإخوان اسم الضابط « أحمد صالح داود »

- « توفى عام ١٩٨٦ » ، الذى عرف بشدة الإيذاء أثناء التحقيقات التى تجرى مع الإخوان فى السجن الحربى أو سجن القلعة أو مقر المباحث العامة ، ووافق على الفور ، ونفذ وعده لمدة ثلاث ليال فقط.. ثم صمت..

الحقيقة أن « على » هذا كان خفيف الظل ، يذكرنى بشخصية « زوربا اليونانى » فى الرواية الأدبية الشهيرة ، كان طوله الفارع ونظرته وطريقته فى الكلام ، وأخذه الحياة دون اهتمام ، ثم خروجه من ورشة النسيج التى يعمل فيها إلى ما بعد العصر ، ثم وقوفه يرقص وسط حلقة كبيرة من السجناء.. كل ذلك كان يذكرنى بشخصية « زوربا اليونانى » وكنت أسمى رقصته تلك برقصة « النول » ، فقد كان يحرك ذراعيه ورجليه ورأسه حركات تشبه حركته وهو ينسج ، وهو عمل شاق مرهق كما قلنا.. يظل يرقص ونحن نصفق له على « الواحدة » حتى تنطلق صفارات العسكر ، ونتجه صوب باب العنبر ، بسبب اقتراب موعد « التمام » النهائى ، و« التمام » يعنى حصر المسجونين فى زنازينهم ، ثم إغلاق الأبواب عليهم حتى الصباح.

ولقد كانت علاقاتنا بالمسجونين طيبة ، وكونا معهم علاقات وطيدة رغم فصلنا عنهم فى السكن ، وكانت هذه العلاقة ضرورية من وجوه عدة ، أولها معنى الإخوة الإسلامية الإنسانية ، وثانيها التعاون فى الحصول على بعض ما نريد من ضروريات لا توفرها لائحة السجون ، وثالثها أهمية التعريف بقضيتنا والمبادئ التى ندعو إليها ، بالإضافة إلى تبادل المصالح ، فقد كانوا مثلا يحتاجون إلى بعض الأدوية المتوفرة لدينا ، كما كان بعضهم يقوم بتقديم بعض الخدمات لنا مقابل أجر زهيد ، وكانوا أيضًا يساعدوننا فى تهريب بعض الخطابات التى نبعث بها للأهل ، لأن التفتيش بالنسبة لمن يخرج منهم من السجن للمحاكمة أو العلاج يكون تفتيشًا هينًا أما نحن فكنا نخضع دائمًا داخل السجن أو عند الزيارة أو الخروج للعلاج لتفتيش دقيق جدًا.. ومع ذلك فقد حدث ذات يوم أن قام أحد الضباط بتحريض الصعايدة « الأسايطة » ضدنا لتأديبنا ، وفى هذه الأزمة انحاز لنا السجناء « السوهاجية » الذين يجيدون اللعب بالعصا ، كما إن عددًا قليلا من الأسايطة لفت نظرنا إلى المؤامرة ، ولم يحدث احتكاك والحمد لله ، فقد انكشفت المؤامرة ، وتأذى منها العقلاء من رجال أسيوط ، وأعلن المسجونون السوهاجية وقوفهم إلى جوارنا ، وهكذا مرت الأزمة - كما قلت - بسلام ، وقررنا أن نزيد من توطيد علاقاتنا مع السجناء العاديين ، كما أصبح أيضًا من الضرورى أن نتعلم اللعب بالعصا ، من يدرى فقد نحتاج إليه فى وقت من الأوقات ، والحقيقة أن تعلم ضرب العصا فن جميل ، يحتاج إلى ذكاء ومهارة ، وكانت حلقات اللعب بالعصا تنصب كثيرًا فى فناء السجن ، ونحتشد حول المتبارزين لنسعد بهذا الفن ،

ونحاول تعلمه ، كان اللاعب يستطيع أن يغطى جسده كله ورأسه بعصاه ، بحركاته الماهرة السريعة ، وبعد أسابيع استطاع البعض منا أن يدخل الحلبة ، كنا مبتدئين ، وكان إخواننا الصعايدة يعرفون ذلك ، ويلعبون معنا برفق ، حتى وصلنا مرحلة لا بأس بها من المعرفة لأسرار هذا الفن... والبراعة فى استعمال لعبة العصا قريبة الشبه بلعبة « الشيش » ..

واستطعنا إقناع الإدارة بإنشاء ملعب للكرة الطائرة ، وتكون منا فريق قوى ذاع صيته خارج السجن ، حتى إن الجامعة الشعبية بأسيوط أرسلت فريقًا لينازلنا فى مباريات عدة ، كانت مسلية وجميلة ، كما وافقت الجامعة الشعبية أيضًا على أن ترسل إلى السجن بعض مدرسى الموسيقى لنتعلم منهم النوتة الموسيقية والعزف على الآلات ، وسمح لنا بشراء عدد من هذه الآلات ، واخترت أنا آلة « الكمان » لأتدرب عليها ، وقد نجح فى فن الموسيقى عدد من الإخوان على رأسهم الأخ عبد الرحمن الجنايني الذى حقق درجة من الإتقان جعلته يستطيع العزف « سماعيًا » ، وكانت الآلات المتوفرة لدينا آنذاك الكمان – العود – الماندلين – الهرمونيكا – الناى – الطبلة – ...الخ. واستطعنا تكوين فرقة كانت تعزف فى حفلات السجن وفى المناسبات ، أما بالنسبة لى فقد كان تقدمى فى الموسيقى بطيئًا ، وعندما عزفت لحن « النهر الخالد » أمام بعض الإخوة ، علق الأخ حسين عاشور « رئيس تحرير المختار الإسلامى فيما بعد » قائلًا: « ليس هذا النهر الخالد.. إنه « الترعة البولاقية » ....»

لكنى مع ذلك كنت مرتاحًا لأنى عرفت على الأقل ما الموسيقا.

أما أخونا فؤاد شاكر فقد تفرغ « للرسم »؛ واستطاع أن يقدم عددًا من اللوحات الرمزية الجميلة ذات المعانى العميقة ، وأذكر أن بعض لوحاته كانت تتخذ آية من القرآن أو جزءًا من آية عنوانًا لها ، كما رسم لوحة رمزية جميلة تحت اسم الإمام الغزالى ، وقد استطاع أخونا الأستاذ « على عثمان » فى سجن بنى سويف أن يحقق إنجازًا فنيًا ضخمًا ، حينما أعد لأول مرة فى تاريخ السجون معرضًا للوحاته التى استوحاها من حياة السجون ، وقد أشادت الصحف المصرية فى تلك الفترة بنجاح على عثمان ، واعتبروه موهبة ممتازة ، علقت الجمهورية على نجاحه تعليقًا هامًا ، لكنها أضافت قائلة: « ... تذكر أيها الفنان هؤلاء الذين وضعوا فى يدك القنبلة... والمسدس... وقالوا لك اقتل شعبك... اقتل أهلك.. اقتل وطنك ..» ونسيت الجريدة أن على عثمان المسكين لا يعرف شيئًا عن هذا كله ، ولم تلمس يده طول حياته قنبلة أو مسدسًا ، وإنما كانت التهمة الموجهة إليه هى أنه جمع بعض القروش كإعانات لأسر المسجونين ، وكان يمكن أن يصل على عثمان لدرجة كبيرة من التفوق لولا أنه هجر الصحافة ، وقنع بوظيفة فى وزارة التربية والتعليم بالكويت تدر عليه دخلًا ممتازًا ، وكان يعمل فى مجال إخراج الكتب..

وهناك فئة من الإخوان انصرفوا إلى هوايات أخرى لتمضية وقت السجن ، كهواية فن « الأركيت » والنحت ، والنجارة ، وتأليف الكتب ، وفنون الأدب المختلفة كالشعر والمسرح والقصة ، وقد نبغ فى هذا المجال أخونا الدكتور عبد الفتاح الحسينى « فى القصة والمسرحية » ، لكنه تفرغ فيما بعد لعلم الطبيعة النووية الذى أصبح أستاذًا وعالمًا فذًا فيه فى بريطانيا ، كما نبغ فى القصة أيضًا الأخ المهندس أنور رياض والأخ على جمال الدين ، وفى الدراسات محمود هاشم ، وغيرهم كثيرون وفكرت مع مرور الأيام أن أنشىء مجلة حائط يكتب فيها الإخوان ويعبرون عن أفكارهم وآرائهم ، وأن تفسح صدرها للحوار البناء الهادف ، وكان من الضرورى أن نتجنب الاصطدام بالإدارة بالنسبة لهذا الموضوع

الحساس ، ولذلك كانت موافقتهم مشروطة بعدم التعرض للحكومة بالنقد. وتم تنفيذ الفكرة وأطلقنا على هذه المجلة « الشروق » ، وكانت هذه المجلة رغم تواضعها منفسًا لنا جميعًا ، نكتب فيها عن السياسة العالمية ، والفكر الإسلامى والآداب والفنون المختلفة ، وكانت تثور خلافات ، وتدور مناقشات حول بعض القضايا الحيوية ، وتفتح أمامنا الطريق للاستزادة من المعرفة حول بعض الموضوعات التى يصطخب حولها الجدل ، ولقد استمرت هذه المجلة لفترة طويلة من الزمن ، ولم تكن ترفع من مكانها إلا إذا كانت هناك جولة تفتيشية من رئاسة السجون فى القاهرة ، ولقد قمنا بعمل مسابقات فى فن القصة ، وفى الألعاب الرياضية ، والعزف على الآلات الموسيقية ، وانخرطت فئة أخرى من الإخوان فى استكمال حفظ القرآن والاستغراق فى العبادة ودراسة الفقه والتفسير والتاريخ الإسلامى ، وكان هناك اهتمام بالغ بمؤلفات الإمام أحمد بن تيمية ، وحرصت طائفة أخرى على الاستزادة من علم الاقتصاد ومذاهبه الغربية وحاول البعض عمل دراسات مقارنة بينه وبين الاقتصاد الإسلامى ، وفى هذه الفترة سمح لنا أيضًا بمشاهدة بعض الأفلام السينمائية ، أذكر منها فيلم عن مصطفى كامل ، كما سمح بالنشاط المسرحى ، وبعض الحفلات ، وخاصة مناسبة المولد النبوى ، واشتركت فى بعضها كممثل ، ولعلى أشرت فيما سبق إلى المسرحية الشعرية التى نشرها الشاعر محمود زيتون عن ميلاد الرسول ، حيث مثلت فيها دور « أمية بن أبى الصلت » ، وقد أعجب المسجونون والإدارة بهذه المسرحية إخراجًا وتمثيلًا ، وفى عيد الثورة أقام السجن احتفالًا قدمنا فيه لقطة من مسرحية « قراقوش » أعدها الأخ فؤاد شاكر والمهندس عبد الفتاح الحسينى ، وسببت لنا مشكلة عويصة مع المباحث العامة « أمن الدولة » فى أسيوط ، حيث وشى بنا البعض عندهم ، وترتب على ذلك حرماننا من كثير من الميزات التى حصلنا عليها ، لكن لفترة قصيرة من الزمن ، وفى أثناء الأزمات التى نتعرض لها كنا نلاحظ أن الضابطين محمود أبو كريشة « وشهرته فى السجن محمود المطيعى » وزكى أمين كانا يقسوان علينا ، بينما الضابط المهذب النبيل مصطفى أبو دومة يحاول أن يخفف عنا ، ويوجهنا إلى ما يجب عمله ، ويحذرنا مما يدبر لنا فى الخفاء ، وقد علمنا فيما بعد أنه من أوائل طلبة كلية الشرطة الذين انضموا إلى الإخوان المسلمين فى وقت مبكر ، مع إخوانه صلاح شادى وكمال عبد الرازق وعباس أبو كرم وغيرهم.

لقد بدا لنا أن السجن ستطول أيامه ، وأن علينا أن نهيء لأنفسنا وضعًا نفسيًا يجعلنا نصبر ونحتسب ، وأن نضرع دائمًا إلى الله ، فهو مفرج الكروب ، وبيده وحده مقاليد الأمور ، ومع ذلك فقد ثار الجدل حول موضوع « الجهاز الخاص » أو « الجهاز السرى » كما أطلقت عليه الصحف ، وكان بعض الإخوة يرى أن هذا التشكيل خطأ كبير ، وأنه جر علينا الكثير من الكوارث ، ويكفى أن جمال عبد الناصر ، وعددًا من ضباط مجلس الثورة تتلمذوا على يدى عدد من أقطاب هذا الجهاز منهم أنور السادات وخالد محيى الدين وحسين الشافعى وعبد اللطيف البغدادى وغيرهم كما ورد فى مذكراتهم بعد ذلك. وكان البعض الآخر يعتقد أن هذا الجهاز كان ضرورة فى وجود الإنجليز والملك الطاغية والعدوان المستمر على الجماعة ، وظل الخلاف حول وجهتى النظر لفترة طويلة ، بل يبدو أنه ما زال مستمرًا حتى يومنا هذا ، وقد ظهرت بعض الجماعات الإسلامية – فيما بعد – التى تعتنق فكرة تنمية القوى المادية فى مواجهة أعداء الإسلامية تحت شعار﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ...﴾ ، ولقد تناولت هذا الموضوع الكثير من الكتب والنشرات.

وبرغم مرارة السجن إلا أننا تكيفنا – إلى حد كبير – على الوضع القائم ، ولم يكن ينغص علينا إلا بعض الخلافات الفكرية ، وتصدى الإدارة لنا من وقت لآخر بأسلوب فيه الكثير من القسوة والمهانة

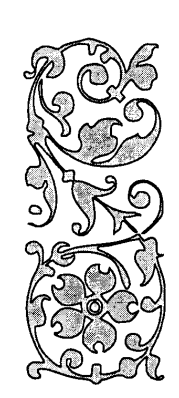
والحرمان ، وإن لم يكن يرقى إلى أسلوب السجن الحربى البغيض ، ذلك الفصل الأسود فى سجل مصر الحديثة ، والذى سيظل حدثًا رهيبًا لا يقل بشاعة عن أحداث محاكم التفتيش فى أوروبا ، وجنون القائمين بالثورة الفرنسية الشهيرة.

ولقد كان السجن - بما فيه من فراغ ، وبما يحاك فيه من دسائس - مجالا لاستعراض تاريخ الجماعة ، وتقييم التصرفات التى صدرت عن بعض قياداتها ، وتحليل الأحداث المتلاحقة ، وما صاحبها من صواب أو خطأ ، كان الموضوع يلمس برفق فى البداية وفى شىء من التحرج ، وبمرور الوقت ، أصبحت نبرة الحوار عالية ، ولم تكن المباحث العامة وأذنابها ، بمنأى عن تحريك الفتن ، وإثارة الحزازات بيننا ، وكان أغلب مجموعتنا فى سجن أسيوط من صغار السن ، أى من شباب الجامعات والمرحلة الثانوية ، وهم بالطبع فى مرحلة حساسة وحرجة من مراحل العمر ، ولذا كان الحوار يتسم بالحرارة والصخب فى كثير من الأحيان ، والواقع أننى كنت أشعر بحزن عميق إزاء ما يجرى بيننا من خلاف ، فتصورى السابق أننا كمسلمين مجاهدين يجب أن نلتزم خطًا سليما فى التفكير والحوار ، وألا يكون خلاف الرأى مدعاة للشقاق ، لكن علمت فيما بعد أن الخلاف من طبائع الناس ، وأن اختلاف مستويات الثقافة والتجربة والخبرة تؤثر تأثيرًا بعيد المدى ، أضف إلى ذلك الضيق الذى يشعر به الإنسان فى زنازين السجن الموحشة ، وإلى الكبت الذى يغالبه الشباب فى هذه الأيام الحرجة ، وأوشكت الفتن أن تطل برأسها لولا لطف الله. فقد دأب « مازن بك » رئيس المباحث العامة بأسيوط على زيارة السجن من آن لآخر ، واستدعاء أفراد بعينهم ليختلى بهم ، ويتناقش معهم ، وهم ثلاثة أفراد ، وكان هذا التصرف يبعث فى نفوسنا الشك والريبة ، على الرغم من أن الثلاثة كانوا يسردون علينا تفاصيل المحادثات ، لكن الهمس يدور ، والشكوك تتصاعد ، وكان أحد هؤلاء الإخوة هو المسئول عن الاتصال بالإدارة ، ونتيجة لذلك أصر بعض الإخوان على إجراء انتخابات جديدة لاختيار مسئول آخر ، وهذه الفكرة زادت من البلبلة والخلاف والاضطرابات ، كانت فترة عصيبة ، وكاد يحدث الانقسام ، وانتهى الرأى لاختيار قيادة جماعية من خمسة أعضاء ، حتى لا ينفرد مسئول واحد باتخاذ القرار ، وفعلا تم تنفيذ ذلك ، وكان المسئول السابق واحدًا من الخمسة المنتخبين..

لكن هل استقرت الأمور ، وساد الهدوء والاطمئنان؟

❋❋❋

[٤] عقبات فى الطريق



كانت لدى حساسية مفرطة لتلك الخلافات التى دبت بيننا ، لأنها شىء لم نتعوده على هذا النحو ، وبذلك الحجم فى سالف الأيام ، لقد كانت الجماعة تنطلق فى الماضى دون معوقات تذكر ، صحيح أن بعض المشاكل كانت تحدث بين القيادات فى القاهرة ، وكان يتناثر رذاذها أحيانًا فى الصحف المعادية ، فتضخم الأحداث ، وتبالغ فى الوقائع ، لكن تصريحًا واحدًا من المركز العام ، أو نشرة دورية ، أو بيانًا مقتضبًا كان كافيًا لإسكات الإشاعات والفتن ، أما اليوم ، ونحن نقاسى أهوال السجن فقد كان الأمر شديدًا بالنسبة لنا ، وخاصة أنها المرة الأولى التى نعانى فيها بأنفسنا وليس القيادات الكبيرة فى القاهرة.

وازداد اضطراب أمورنا إداريًا وتنظيميًا فى السجن وخاصة بعد تشكيل القيادة الجماعية «اللجنة الخماسية» ، وتغير المسئول رقم ١، وأدركت إدارة السجن هذا التغير عندما رأوا وجهًا جديدًا يعبر عن مطالبنا ، وبدأ التساؤل يكثر ويلح ، وخاصة أن المسئول الأول كان وثيق الصلة بهم ولبقًا فى الحديث معهم ، ومن ثم بدءوا يعاملوننا بشىء من الجفوة ، وبدا كأنهم كانوا مرتاحين لوجود المسئول القديم ، وأنهم من مؤيديه ، ونتيجة لذلك فقد أصبح التعامل مع إدارة السجن فيه الكثير من العنت والمراوغة ، وكثرت حملات التفتيش و« التكدير » كما يسمونها فى السجن ، التكدير يعنى - كما ألمحنا من قبل - سحب معظم الميزات التى حصلنا عليها مثل الكتب وفترة الرياضة وتحسين الطعام ، وفتح المقصف ، والسماح بالأقلام والأوراق ، وكتابة الرسائل للأهل بعد مراجعتها ، واللجوء إلى الضرب والتأديب لأوهى الأسباب ، وتساءل البعض: لماذا لا نعيد المسئول الأول بكامل صلاحياته حتى تحل الأزمة الخانقة مع الإدارة؟ إن هدفنا الأول فى السجن هو أن نعيش فى هدوء واستقرار ، ومن ثم فإن الأمر لا يحتاج لأكثر من اختيار فرد يعبر عن مطالبنا لدى الإدارة أيًا كان هذا الفرد ، لكن هذا التصور لم يلق قبولًا لدى غالبية الإخوان ، وأصروا على اختيار الشخص المناسب مهما كانت التضحيات والمنغصات ، لأنها مسالة مبدأ لا يصح التفريط فيه ، وتوترت الأمور عندما انسحب المسئول القديم من اللجنة الخماسية ، وأجريت انتخابات جديدة ، وأصبح أخونا السودانى الدكتور أبو بكر عثمان خليل هو المسئول الأول ، وكان أبو بكر رجلًا صلبًا فى الحق لا يخشى فى الله لومة لائم ، ويتعامل مع الإدارة بإباء وعزة ، وقد عُرف أبو بكر باستقامة الخلق ، وقراءة القرآن ، وإتقان العبادة ، والبراعة فى ممارسة عمله الطبى ، كما كان متزوجًا وله طفل واحد ، ويعيش مع أبيه فى القاهرة بحى « معروف » بشارع « مكسر الخشّاب » منذ أكثر من ١٦ عامًا ، قضاها بعيدًا عن السودان ، كما كان يدرس الطب معى بكلية طب القصر العينى جامعة القاهرة لكنه كان يسبقنى فى الدراسة بعامين ، ونعيش معًا فى زنزانة واحدة.

إن التعامل مع إدارة السجن يحتاج إلى مواصفات معينة كاللباقة والدهاء والاستجابة لأوامرهم بصرف النظر عن معقوليتها ، واكتساب قلوبهم بالكلمات الحلوة التى لا تخلو من المجاملة أو قل الرضوخ

أحيانًا ، كما تحتاج الإدارة إلى من يجنبهم مشاكل المسجونين التى تستدعى حضور المباحث العامة ، والسياسيون فى السجن لهم الكثير من المشاكل المتعلقة بهذه الناحية ، وبناء على ما سبق فإن « أبو بكر عثمان » كان الرجل الذى لا يروقهم التعامل معه ، وذات مرة جاءنى أحد المسجونين وقال: « إن فلانًا « المسئول السابق » كان يؤدى واجبه بكفاءة واقتدار ، وهو على علاقة وطيدة بالإدارة ووضعه كضابط سابق فى الجيش يجعله أكثر فهمًا بطبيعة تفكيرهم ، ولهذا أرى أن تنحيه عن المسئولية أمر ضار ولن يعود علينا بالفائدة.. والأفضل أن نلح عليه فى العودة إلى المسئولية ..»

قلت دون تحفظ: « إن له تصرفات تثير الريبة »

قال: « ماذا تعني؟ »

– « مقابلاته لرجال المباحث العامة »

– « أنت تتهمه.. إنه يحاول تلطيف الجو ، حتى يجنبنا الأذى ..»

– « ألست معى فى أنه أمر محير؟ نحن نريد مسئولًا نثق فيه تمام الثقة ، وخاصة فى أيام حرجة كهذه ..»

لم أكن أعلم أن حديثى هذا سوف يثير مشكلة كبرى عندما نقل إلى المسئول السابق ، لقد ظن أنى أتهمه بالعمالة ، وكان أن أصيب بنوبة تشنج نقل على أثرها إلى المستشفى ، ولم أكن أعلم سبب نقله إلى المستشفى فى البداية ، لقد نسيت الأمر برمته ، وبعد أيام ثلاثة أتى أحد أصدقائه وأفهمنى إننى السبب فيما حصل له ، وعليّ أن أبادر بزيارته فى مستشفى السجن وأعتذر له ، ووقعت فى حيرة ، كنت أشعر بحرج شديد ، ويبدو أننى تعجلت فى التعبير عن ظنونى دون بينة مقنعة ، فهل مجرد لقائه مع رجالات المباحث العامة يكفى للشبهة أو الإدانة؟ ومن منا يستطيع رفض المثول أمامهم إذا استدعته المباحث لمناقشة أى أمر؟ إزاء ذلك أسرعت بالذهاب لزيارته بالمستشفى ، وما إن رآنى حتى هب من سريره معانقًا وهو يبكى بمرارة.. وشعرت بالخجل والحزن فى نفس الوقت ، وقلت: «آسف.. لم أكن أقصد الإساءة إليك ..»

قال وهو يجفف دموعه: « هذا يكفى ...»

أردفت: « نحن فى ظروف صعبة ..»

– « أعلم.. أعلم.. هيا سوف أخرج من المستشفى الآن ..»

وعشت أيامًا وليالى أقاسى من مرارة الندم ، لماذا أقدمت على ذلك الاتهام؟ أما كان الأحرى بى أن أتجنب مثل هذه الأمور الحساسة والخوض فيها؟ وآلمنى أكثر أن الأمر كله يتنافى مع الخلق الإسلامى الأصيل ، فلا اتهام بدون دليل أو بينة ، قد يكون هذا الاتهام شائعًا ، ويردده المسجونون ، لكن هذا ليس مبررًا لما فعلته ، ثم إن الخلاف فى بعض الأمور الفرعية ، ومنها أساليب الإدارة ، لا يعتبر خلافًا فى أصول العقيدة أو حقائق الدين.

أعود مرة أخرى إلى مشكلة «اختيار المسئول » ، فقد وفد إلينا من القاهرة الأخ الدكتور محمود الجندى « رحمه الله » ، وكان إنسانًا صادقًا بارًا مؤمنًا حق الإيمان ، يعامل الناس جميعًا بحب حقيقى ، وأخوة صافية ، ولا يفكر فى اتهام أحد ، ويرفض الدس والوقيعة ، ويتسامح مع كل من يسيئون إليه ، بل وينسى الإساءة ، كما كان صابرًا محتسبًا ، وثيق الصلة بربه ، لا يتزعزع إيمانه أو يضعف ، إن أصابته ضراء صبر ، وإن أصابته سراء شكر ، نادرًا ما يغضب أو يثور ، ولو حدث ذلك فإنه يكون بأسلوب هين ، ودون غلو أو انفعال ظاهر ، ويفتح قلبه الكبير للجميع.. سواء المؤيد أو المعارض.. فالجميع لديه

سواء.. وهكذا كان محمود الجندى طول حياته ، وقد تصادف بعد سنوات أن كنا زملاء عمل فى الإمارات العربية فى « دبى » ، وكان يعمل جراحًا بالمستشفى فيها ، ولم يطرأ على شخصيته أدنى تغيير ، بل ازداد إيمانًا وتقوى ، وظل على هذا النحو إلى أن وافته المنية فجأة وهو نائم صائم فى الخامسة مساءً من اليوم الثانى من شهر رمضان قبل المغرب ، وكان قد أدى عمله ، وأجرى عمليات الجراحة كعادته مثل كل يوم ، وكانت وفاته يوم ٢/٦/ ١٩٨٤، رحمه الله رحمة واسعة ، وأثابه عن جهاده ونقائه خير الجزاء.

أعود فأقول أن الإخوان أجمعوا على أن يكون الدكتور محمود الجندى هو المسئول الأول ، فقبلها على مضض ، ولأسبق الأحداث ، فقد حدث بعد ذلك مفاجأة أذهلت الجميع ، إذ أصدرت المباحث العامة أمرًا بنقل محمود الجندى وعددٍ من إخوانه إلى سجن الواحات الخارجة فى الصحراء ، وقبلها نقل الدكتور أبو بكر عثمان إلى سجن قنا فى الجنوب ومعه ما يقرب من عشرة أغلبهم ممن شاركوا فى تحمل المسئولية ، ولاقوا فى سجن « قنا » الكثير من التعذيب والعناء..

وعاد المسئول الأول القديم لتسلم مقاليد الأمور بعد هذه التجربة المحزنة المريرة ، ولم تعد المسئولية فى السجن شيئًا يؤبه له ، ولم يعدالإخوان يفكرون بجدية فيمن ينتخبون لهذه الغاية ، لأن الذى سوف يُنتخب ولا يكون على هوى الإدارة ، سرعان ما يرحل إلى سجن ناء ، وهو ما يسمونه بلغة السجن « التغريب » وكان ذلك يحدث بأمر المباحث العامة ، التى تمدها إدارة السجن بأى تغيير فى المسئولين أو أى حدث يحدث منا تجاه هذه الإدارة..

نعود إلى الوراء مرة أخرى..

كان سجن أسيوط بعيدًا عن ديارنا ، ولهذا لم أسعد بزيارة أهلى لى إلا بعد عام تقريبًا ، حيث حضرت أمى لأول مرة ، وحضر أبى ، كان لقاء مشحونًا بالانفعال ، إنهما يقفان خلف شبكة الأسلاك الدقيقة ، وينسى أبى ويمد يده ليصافحنى ، فتمنعه الشبكة ، وأمى تنحدر دموعها فى صمت مزلزل.. وأنا أحاول التماسك ، كنت أبتسم ، وأتكلم كثيرًا ، مؤكدًا لهم أنى فى أسعد حال ، وهم يستمعون فى حسرة وألم ، لقد قضوا الليل كله مسافرين من القرية حتى أسيوط ، ووصلوا فجرًا ، وجلسوا على « بوفيه المحطة » ينتظرون الصباح ، ويسألون عن مكان السجن ، وقالت أمى: « لقد تعبنا كثيرًا »

وفهمت أن هناك أحداثًا غير طبيعية تجرى فى القاهرة الليلة الفائتة ، وأن الأنوار قطعت ، وأن العسكر يتحركون هنا وهناك ، ولكنى لم أفهم شيئًا مما تقوله أمى ، ولهذا لم أكترث كثيرًا بتلك الأخبار ، لكن الأمر الذى هزنى هزًا عنيفًا هو ذبول وجه أمى ونحولها.. أنى لم أرها منذ أول أغسطس ١٩٥٥ ونحن الآن فى أواخر أكتوبر ١٩٥٦.... لشد ما تغيرت!! ما أكثر الهموم والأحزان التى داهمتها بسببى حتى لأكاد أشعر بالذنب.. ولا أستطيع سوى أن أقول لها: « الله معك » وانتهزت الفرصة لأفتح أمامهم أبواب الأمل ، وأمنيهم بفرج الله القريب.. وحدثنى أبى باختصار عن الجهود المتواصلة التى يبذلها كى يساعد على إخراجى من هذه المحنة ، وذكر لى عددًا من الشخصيات التى ذهب إليها ، والهدايا التى يحملها إليهم ، والنفقات الباهظة التى بذلها عن طيب خاطر ، وعن بعض الأراضى الزراعية التى باعها كى يواصل جهوده بحثًا عن مخرج لى ، وكنت أشعر بمزيد من الألم وأنا أستمع إليه ، وحاولت إقناعه كى يكف عن هذه المجهودات التى لا طائل من ورائها ،مؤكدًا له أن الأمر

كله بيد الله ، وأن فرجه قريب.. لكنه لم يرض بالسكوت.. إنه أب..

انتهت الزيارة.. ولوحت بيدى مودعًا.. وما إن وليت وجهى شطر فناء السجن حتى تساقطت دموعى.. لكنى أسرعت بتجفيفها ، فلا يصح أن يرانى أحد وأنا أبكى..

ونمت فى هذه الليلة فى وقت مبكر.. أردت الهروب إلى النوم.. إن وجهيْ أمى وأبى لا يفارقان خيالى ، لكن ماذا أفعل أمام هذه الحواجز الرهيبة التى صنعها الطغاة؟ وعند منتصف الليل أيقظنى الإخوة الذين انتقلت حديثًا للسكن معهم فى زنزانتهم وهم محمود هاشم أبو بكر « الشهير بحاتم » ، وحسين عبد المعطى ، ورجب الخميسى رحمه الله.. أقول أيقظونى ، وكان صوت الميكروفون يجلجل بصوت المذيع.. ويحدث ضجة هائلة..

قلت: « ماذا جري؟ »

قالوا: « الحرب »

قلت فى دهشة: « أى حرب؟ »

وفهمت أن اليهود والإنجليز والفرنسيون قد هجموا على مصر بسبب تأميم قناة السويس ، كان الحدث كبيرًا ومباغتًا ، لم نكن نقرأ الصحف إلا نادرًا ، كما لم نكن على علم بمجريات الأمور ، صحيح أننى ناقشت موضوع تأميم القناة منذ ما يقرب من شهر مع الأخ « سيد الريس » المحكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة « وكان الحكم قد خفف عليه من الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة » ، وهو فى تلك الفترة سجين بسجن الواحات الخارجة مع قيادات الإخوان هناك ، وقد قدم للعلاج بأسيوط لفترة قصيرة ، أقول ناقشت معه هذا الموضوع – التأميم – وما يمكن أن يترتب عليه من آثار ، ووصلنا فى نهاية النقاش إلى ضرورة قيام حرب بسبب ذلك ، ولكن ما قيمة رأينا؟ نحن مجرد مسجونين ، وتحليلنا للموقف السياسى بين أربعة جدران.. وهو مجرد « دردشة » أو ثرثرة لتمضية الوقت.. لكن ما توقعناه حصل.. وقامت الحرب.. ومع ذلك فإن الدهشة ألجمتنى.. لم أكن أتصور أن تقوم حرب على الرغم من التحليل المنطقى الذى تناولناه.. هكذا كان شعورى.. إنه متناقض لكنه حدث.. والآن ما الذى يخبئه المستقبل؟

كانت الزنزانة خافتة الضوء ، لأن المصباح الكهربائى منطفىء ، وانعكاسات الأضواء الخارجية هى التى تتسلل عبر الفتحة الممتدة فوق الباب المغلق ، وجميع السجناء من الإخوان قد استيقظوا من نومهم ، وأصبحت أصواتهم مسموعة ، والزنازين تتناقش ، وتستفسر ، وحرس الليل لا يستطيعون إيضاح أى شىء ، فهم مجرد عساكر ليس لديهم الحد الأدنى من المعلومات السياسية أو العسكرية ، ثم إن الأمر كله مفاجأة – كما قلنا – أذهلت الجميع ، حاولت أن اضطجع مرة أخرى.. صاح أخونا رجب الخميسى فى غضب: « استيقظوا.. لقد أُحتُلَّتْ بلدنا ..»

كنت أشعر بجوع شديد ، والبرد قارس ، والحيرة مضنية ، قمت من مكانى ، وأنا متلفع بالبطانية ، وحاولت أن أبحث عن لقمة من الخبز الجاف وبعض الملح ، وعاد رجب ينظر إلى فى ضيق ويقول: « لا تمس الخبز.. إنه للإفطار ..»

قلت بهدوء: « سأفطر الآن ..»

– « لكن الساعة الواحدة صباحًا ..»

ولما وجدنى أمضغ اللقيمات الجافة قال: « إننى أعجب ، كيف يكون لديك شهية للأكل فى هذه الساعات الرهيبة ..»

قلت محاولًا تبديد جو الكآبة والتوتر: « حتى نقوى على مجابهة العدو »

كانت عواطف شتى تتنازعني ، إن الأمر يبدو مغامرة شائكة ، أيعود الإنجليز - ومعهم الإسرائيليون والفرنسيون - لاحتلال مصر مرة أخري؟ لو حدث ذلك لا قدر الله فستكون كارثة ، فتاريخنا مع الإنجليز والتصدى لهم فى منطقة القنال معروف ، وجهادنا فى فلسطين ضد الصهيونية أمر شائع يعرفه الجميع ، بل إن اتفاقية الهدنة فى « رودس » أشارت إلى خطورة الإخوان ، وطلبت من مصر « الملك » قص أجنحتهم حتى تستمر الهدنة ، والفرنسيون لا يرحمون من يجابههم فى مستعمراتهم ، وما أمر الجزائر منا ببعيد ، فالأمر بالطبع ليس فى صالح الوطن ، ولا فى صالح الإخوان بداهة ، ومن هنا جاء تفكير بعض الإخوان فى الأيام التالية فى إرسال برقية للحكومة يعرضون فيها استعدادهم للتطوع فورًا للحرب ، والخروج من السجن إلى ميدان القتال مباشرة ، فالأمر لم يعد أمر معارضة وحكومة ، ولكنه أصبح أسمى من ذلك وأكبر ، لأن التصدى للعدوان الأجنبى ليس بالأمر الجديد على الإخوان ، والجهاد فى هذا الوقت دفاع عن العقيدة والشرف والحرية واستقلال البلاد.

ولنعد إلى تلك الليلة الليلاء التى لم ننم فيها بعد أن علمنا بالخبر ، فما إن أشرق الصباح حتى بدأت فى كتابة قصيدة ، كانت هذه القصيدة مثل دقات طبول الحرب فى إقاعاتها.. أذكر منها:

لتأت جحافل تزخر كجيش الليل أو أخطر
فجيش الحق لا يُدحر ونور الله لا يقهر
لذا أقسمت أن أثأر

كان عنوان القصيدة « القسم » ، وأسرعت بإعداد مادة لعدد خاص من صحيفة الحائط « الشروق » التى كنت أصدرها ، وتفاهمت مع بعض الإخوة بعد الفجر كى يشاركوا فى كتابة موضوعات حول موضوع تأميم قناة السويس وعن العدوان الجديد ومطامعه.

لقد ملأ الحدث الضخم كل فراغ حياتنا ، فما إن فتحت أبواب الزنازين فى السابعة والنصف صباحًا ، حتى تجمهر الإخوان فى دور ٢، وحمى وطيس المناقشات ، وتلهفت الأسماع لكل جديد من الأخبار ، وشغلنا العدوان عن كل ما عداه من أمور ، ولقد لاحظت أن إدارة السجن تعاملنا بقدر كبير من الرقة والسماحة ، ويتناقشون معنا فى أخوة ، ويحاولون أن يستشفوا ما وراء كلامنا من دلائل ، لقد كانوا يتوقعون أن تبدو فى تصرفاتنا وتعليقاتنا علامات الشماتة ، والواقع أن ذلك الشعور لا يتناسب مع أصحاب عقيدة بذلوا فى سبيلها الدماء الغالية طوال السنين السابقة ، وأنا لا أنكر أن البعض منا كان ينحو باللائمة على سياسة الحكومة التى تتسم بالعنف والبطش وتكميم الأفواه ، ويعلن أن الشعب المقهور المستعبد تقل كفاءته فى ميدان القتال ، وأن الشعوب الحرة وحدها هى القادرة على ضرب المعتدين ، وإفشال مخططات الغادرين ، وما من شك فإن استعداد الجيش للتصدى لهذا الهجوم المحتمل لم يكن على المستوى اللائق من حيث الإعداد والتدريب والسلاح ، وقد هزمنا فعلًا من الناحية العسكرية ، لكننا كسبنا المعركة سياسيًا ، وخاصة بعد أن أصدرت أمريكا أمرها بانسحاب الدول الثلاث فى موعد أقصاه تاريخ محدد ، ولم يكن للإنذار الروسى أية قيمة كما يزعم البعض ، وبالطبع فإن الانسحاب من سينا وبورسعيد كان نصرًا سياسيًا كبيرًا لعبد الناصر ، ولم يستطع أن يستثمر هذا النجاح استثمارًا شاملًا إلا فى قليل من النواحى.

ولعبت المقاومة الشعبية فى منطقة القنال ، وفى بورسعيد بالذات دورًا مشرفًا فى هذه المعركة ، وقد

أشرت إلى ذلك فى الجزء الأخير من روايتى « الطريق الطويل » ، وكان تدخل أمريكا لصالحنا له أسباب معروفة آنذاك ، إذ إن التخطيط للحرب تم دون علمها ، كما أنها كانت تنوى أن ترث بريطانيا فى نفوذها بمصر ، ولهذا انتهزت الوضع الحرج الذى سقط فيه المعتدون ، والرفض العالمى للعدوان ، وطالبت بالانسحاب الفورى فى وقت قصير.

لم تفعل أمريكا - أيزنهاور - ذلك لوجه الله ، ولكن لمصالحها ونفوذها ، ومن أجل بترول الدول العربية ، ولتثبت أنها - وحدها - القادرة على حماية مصر وليس الاتحاد السوفيتى أو سلاحه.

ومن الأمانة أن نشير إلى أن بعض الإخوة رفضوا التوقيع على طلبات التطوع للحرب ، وكانت لديهم أسباب لذلك ، فقد رأوا أنه لا جدوى من ذلك ، لأن الحكومة نفسها لن تسمح به ، حيث إنه يعنى إعادة الثقة فى الإخوان المسلمين أصحاب المعارك الماضية مع الاستعمار ، ويعنى التصالح ، ويعنى الإفراج عن المسجونين ، إذ ليس من المعقول أن يخرجوا ليحاربوا ، ثم يعودوا للسجن مرة أخرى ، وكان من المستبعد أن تثق الحكومة أو تتصالح أو تفرج عن مسجونى الإخوان فى تلك الفترة ، فكراهيتها لهم لا تحدها حدود ، ثم إن عدد المسجونين لن يؤثر فى نتيجة المعركة لأنه لا يتجاوز الألف بعد الإفراج عن المعتقلين ، وقد رأى البعض أيضًا أن طلب التطوع يعنى ضمنيًا شيئًا من التزلف مما يمس الكبرياء ، أو يتجاهل العنف الرهيب الذى عاملتهم به الحكومة منذ الأزمة وحتى اليوم ، إن اليأس من عدول الحكومة عن خطتها القاسية تجاه الإخوان قد جعل عددًا منهم لا يكترث لهذا الأمر ويعتبره « لعب عيال » لا جدوى من ورائه ، ولا قيمة له ، بل اعتبروه نوعًا من المساومة كى يكون بداية لحل الأزمة مع الحكومة ، والخروج من السجن ، وهو أمر يأنف منه كبرياء البعض ، ومتى كان الجهاد الحق متعلقًا بمطالب دنيوية؟

وبالنسبة لى فقد كنت أحاول أن أتجنب تلك الصراعات ، وكان أمر المعركة متروكًا للحكومة التى تتولى قيادة العمل الوطنى ، فإن دعتنا للجهاد لبينا النداء ، وإن أغفلت ذلك صبرنا واحتسبنا فنحن مجرد مسجونين ، ولهذا كنت أراقب الموقف وأنتظر ، وكان جل همى كما قلت أن أصدر الأعداد المتلاحقة من مجلة الحائط ، أعبر فيها عن رفض العدوان والتصدى له بكل قوة ، وضرورة قيام الشعب كله ببذل أقصى ما يستطيع من جهد وطاقات لإفشال مخطط العدو ، والقضية الوطنية ليست ملكًا للحكومة وحدها ، ولكنها قضية الأمة كلها دون استثناء ، وتذكرت فى هذه الآونة هذا الرهط من الصحابة الذين أرادوا السير مع المسلمين للجهاد ، ولم يكن لديهم من المال أو الإمكانات ليذهبوا إلى الميدان ، حيث قال لهم الرسول « ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ » عندئذ رجعوا إلى دورهم ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ حسبما ورد فى القرآن الكريم. إن قرار مشاركتنا فى المعركة لا نملكه نحن ، ولكن يملكه من وضعونا فى السجون ، ألا وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى.. وكان مسئولنا الإدارى يرى فتح باب الحوار مع المسئولين من خلال إبداء الرغبة فى التطوع للقتال..

إن الوقت الذى يتعرض فيه الوطن للأخطار ، لا يحتمل جدلًا طويلًا ، ولا تصفية حسابات قديمة ، وليس هناك سوى موقف واحد أصيل ، يدركه أولئك الرجال المؤمنون الذين يعرفون واجبهم المقدس حيال العقيدة والعرض والشرف والحرية ، ذلك الموقف يتركز فى كلمات الله ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ، وليس بعد قول الله قول لقائل ، ذلك المنطق يتسق مع الماضى الجليل لهذه الجماعة المسلمة التى كان من شعاراتها « الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا » و« .. الجهاد سبيلنا » ، أما مجرد الشماتة فى مثل هذه الأوقات فهى مرض ، بل مروق عن وجهة الحق التى

ارتضاها الله لعباده المؤمنين الصادقين ، فالخلاص من العدو الخارجى الكافر الظالم أولا ، ثم تصفية الحسابات القديمة المحلية ثانيًا ، وقد يكون الحاكم قد أخل بشروط العقد المفترض بينه وبين أمته ، وخاصة فى مجال الشورى والعدالة والحرية ، لكن هذا الإخلال لا يصح أن يكون سببًا للتقاعس عن ملاقاة العدو ودحره ، وهذا ما حدث بالفعل خارج السجن ، فقد سارعت جموع غفيرة من الإخوان الذين لم يعتقلوا أو الذين خرجوا من المعتقل منذ فترة وجيزة ، وانتقلوا إلى أرض المعركة فى منطقة القنال ، وأظهروا بطولات فائقة ، لفتت أنظار المخلصين الصادقين من المؤرخين المعاصرين ، ونشر القليل منها فى الصحف المصرية السيارة ، دون الإشارة إلى أنهم من الإخوان..

قلت فيما سبق ، إن المعركة على الصعيد العسكرى كانت مأساة ، وليس أدل على ذلك من أن قوات الدول الثلاث إسرائيل وبريطانيا وفرنسا ، قد اخترقت الحدود ، واجتاحت صحراء سينا الشاسعة ، ووصلت إلى الضفة الشرقية للقنال فى أيام معدودة ، وحاولت احتلال الضفة الغربية للقنال أيضًا ، وأنزلت بعض المظليين والقوات فى بعض المواقع ، وخاصة مطار الجميل وبورسعيد وغيرها ، ولكن المقاومة الشعبية تصدت لها باستماتة حتى بردت قواها ، وأفشلت مخططاتها ، إلى أن توقف القتال باتفاق دولى ، بعد أن سقطت بورسعيد فى أيديهم.

وأخيرًا انسحبت القوات الغازية ، واتخذت إسرائيل بعض المواقع الصغيرة للوصول إلى البحر الأحمر فى أوقات السلم ، وظل هذا الأمر خافيًا على الشعب المصرى حتى حرب ١٩٦٧، وإن كان معروفًا وشائعًا على مستوى العالم.

وكان انسحاب القوات انتصارًا سياسيًا كبيرًا لمصر ولعبد الناصر شخصيًا ، بل وللعرب أيضًا ، وأصبح يوم ٢٣ ديسمبر عيدًا للنصر يحتفل به كل عام ، وكان عمى عبد الفتاح رحمه الله يعمل فى العريش إبان نشوب الحرب ، وكان يروى لى الكثير عن الأيام الرهيبة لتلك المعركة ، والانسحاب غير المنظم لجيشنا فى سيناء ، وكيف أنه قطع المسافة من العريش إلى شاطئ القنال سيرًا على قدميه ، وكيف أنه كان يتوسل لراكبى السيارات من العسكر كى يحملوه معهم دون جدوى ، وفى أيام عيد النصر التى كان يحتفل بها كل عام ، كان يبتسم فى مرارة ويقول: « أى نصر يا بنى؟ لقد ذقنا الويل ، وكان القتلى يزحمون الطريق..

وظللت أجرى حافيًا أيامًا وليالى حتى تقطعت أنفاسى ..»

فكنت أرد عليه فى حماس وأقول: « المهم المحصلة النهائية يا عمى.. ربما نكون قد اندحرنا على أرض سيناء ، لكن العدو رحل ، والبلاد تحررت ، وأصبحت القنال لنا ، فهل يوجد احتلال الآن؟ »

كان يهز رأسه فى حيرة ويقول: « هذا من فضل الله.. ربما تكون على حق.. المهم النتيجة النهائية ..»

والواقع أن تصور عمى للنصر يكمن فى سحق العدو ، وعقابه بما يتلاءم مع جرمه ، بل واختراق حدود إسرائيل ، والدخول إلى الأرض المقدسة فلسطين ، وتحريرها من قبضة الغاصبين.. كان ذلك هو النصر الذى يحلم به عمى ، ويعتبره النصر الحقيقى الذى يجب الاحتفال به.

وبعد هذه المعركة ، أخذ نجم عبد الناصر فى الصعود على المستوى المحلى والعالمى ، وصدرت مئات الكتب وآلاف القصائد والتمثيليات والأغانى الرائعة تؤرخ للنصر العظيم ، والبطل الذى هزم الدول الثلاثة ، وأسقط حكومتى انجلترا وفرنسا لفشلهما فى تحقيق الهدف المرجو من العدوان ، وببساطة فإن الإعلام المصرى أمكنه أن يستثمر ما حدث ببراعة فائقة.

وقبعنا نحن فى السجون نلوك عذاب الليالى الطويلة ، والقهر المتصل ، والإهمال المتعمد ، وما أصدق قول الشاعر القديم:

الناس من يلقى خيرا قائلون له   ما يشتهى ، ولأم المخطىء الهَبَلُ

وهكذا كيل للقائد ما يشتهى من مديح وثناء ، وصُبّ على أعدائه مختلف التهم والإهانات ، وأصبحت المعارضة البريئة خيانة ، والرأى الآخر جريمة ، وما جدوى المعارضة أو الرأى إذا كان النصر حليف الزعيم؟ وكان واضحًا أن قضية المسجونين من الإخوان لم يعد هناك مبرر لفتح ملفها أو إثارتها ، حتى أعضاء الأمة ، عندما تشجع بضعة أنفار منهم وأثاروا هذه القضية ، كان رد وزير الداخلية زكريا محيى الدين قاطعًا وحاسمًا على النواب إذ قال: « هؤلاء ارتكبوا جرائم ، وحوكموا بموجب قوانين جنائية معينة ، وبالتالى فليس لدينا ما يسمى بالسجناء السياسيين ..»

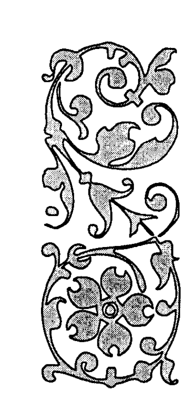
ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تم فصل النواب الذين قدموا الاستجواب فى المجلس ، وعلى رأسهم النائب أبو الفضل الجيزاوى ، الذى سيسجل له التاريخ هذا الموقف العظيم ، بل قيل أنه تم اعتقاله فيما بعد..

وهكذا بدأنا نجنى ثمار النصر إهمالا واحتقارًا وعذابًا

أما قصائدى عن المعركة والانتصار على العدو فقد ظلت تراثًا أخفيه تحت « البرش » الذى أنام عليه ، لعل يومًا ما يأتى ، وأنشر فيه هذه الخفقات التى اختلجت فى قلبى ، وانسكبت مع مداد قلمى..

❁❁❁

[٥] فى التأديب



التأديب فى السجون وسيلة من وسائل العقاب داخل السجن، وله لائحة خاصة، لكن سلطات السجون - بالنسبة للسياسى - كثيرًا ما تتخطى هذه اللائحة، بل تتجاوزها إلى عقاب أشد وأنكى، وحتى بالنسبة للسجين العادى فإن عقوبة التأديب تتخذ مسارًا فيه إضافات من الضرب والإيذاء التى لا توجد أصلًا فى اللائحة المذكورة، فإذا ما ارتكب السجين خطأ ما، فقد تكون العقوبة بالجلد، وفى هذه الحالة لابد أن يرسل محضر التحقيق إلى الإدارة العامة للسجون بالقاهرة للتصديق عليه، وقد تكون العقوبة ست جلدات أو أكثر طبقًا للخطأ الذى يقترفه السجين.

والسوط الذى يستعمل فى الجلد له فروع أربعة حسبما أتذكر، ويؤدى بطريقة «قانونية» معينة، يقوم بها سجان خاص مدرب، فيربط السجين أولًا فى «العروسة» وهى تصميم خشبى وذات فتحة توضع فيها رأس السجين واقفًا، ولها يدان أفقيتان تربط فيهما يمنى السجين ويسراه، كما أن بها بروزان أسفلها تُثبَّتُ فيها الأقدام، بحيث لا يستطيع السجين الإفلات عند ضربه على ظهره، وكل جلدة لابد أن تترك آثارها الدامية على ظهر السجين وهو المكان القانونى الذى يضرب عليه، ويكون تنفيذ العقوبة عادة أمام حشد من السجناء لكى يتعظوا ويعتبروا، وقد تكون جريمة السجين تافهة كأن يحوز مثلًا نصف شفرة حلاقة أو بعض الممنوعات الأخرى التى لا يسمح بحيازتها، وقد يكون الجلد بسبب التعدى على سجان أو على سجين آخر، وبالإضافة إلى الجلد يوضع السجين فى مكان خاص يسمى «زنازين التأديب» لفترة قد تمتد إلى عشرة أيام أو أسبوعين أو أكثر، وقد لا تكون العقوبة جلدًا، بل حبسًا فى التأديب فقط.

والسجين الذى يوضع فى التأديب يحرم من الاتصال بالآخرين منعًا باتًا طوال تلك الفترة، ولا يخرج من زنزانة التأديب إلا فى الصباح لدقائق كى يملأ دلو الماء، ويرمى بما تجمع من البول فى الدلو الثانى، ويقضى حاجته ثم يعود إلى زنزانته، ونفس الشيء وقت العصر، ويظل السجين محبوسًا حبسًا انفراديًا طوال اليوم، ولا يفتح الباب إلا عند إعطائه الغذاء اليومى، والغذاء اليومى بالنسبة للسجين الموضوع فى التأديب وجبتان فقط؛ أى رغيفان وقطعة جبن وكمية ضيئلة من الفول أو العدس، ولا يسمح له بشراء أى طعام من المقصف، وتمنع عنه الكتب والملابس الداخلية والحذاء والزيارات الأسرية، فلا يكون معه غير «برش» من السعف وبطانية، وهناك نوع من التأديب خاص بالذين لا ينجزون كمية العمل الموكولة إليهم، فإذا كان عليه أن يخيط أربع بذلات ولم يحقق ذلك، تكون العقوبة بوضعه فى التأديب لمدة معينة، بالإضافة إلى مضاعفة كمية العمل، وإذا كان من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، فتكون كمية الصخر التى يقطعها من الجبل مضاعفة، وفى الجبل يكون لهم زى

خاص أحمر « أقل إحمرارًا من الزى الذى يلبسه المحكوم عليه بالإعدام » ، ولهذا السبب يجمعونهم فى مكان خاص للعمل ويسمونهم فرقة « الحمراء ».

هذا ما يحدث طبقًا للائحة السجون المدنية ، أما بالنسبة للسجين السياسى ، فكما قلنا ، ليست هناك قواعد ولا لوائح ولا قوانين للضرب والإيذاء ، وليست هناك محاضر تكتب وأحكام تأديبية تصدر وتعتمد من الإدارة العامة لمصلحة السجون ، فكل القواعد والقوانين تنتهك بالنسبة للسجين السياسى من حيث المدة وطريقة العقوبة وغير ذلك ، ونادرًا ما تطبق لائحة التأديب « القانونية » على السياسيين.

فى أحد الأيام جاءنى فى زنزانتى متهم « تحت التحقيق » من إخواننا الصعايدة ، وكان مقبوضًا عليه بتهمة القتل أخذًا بالثأر ، وكان يشكو من آلام شديدة فى الظهر ، جاء يطلب المشورة الطبية منى كطالب طب ، فقمت بفحصه وأخذت أدلك له ظهره ببعض أنواع المراهم ، كما أعطيته جرعة من الدواء المتوفر لدينا لعلاج الروماتزم العضلى ، ومن سوء الحظ أن وقت التمام كان قد أزف ، فلم يجده السجان فى زنزانته التى تقع فى الدور الأسفل تحتنا « دور واحد » ، فما كان من السجان إلا أن أتى ، وانتزع المتهم من بين يدى وأخذ يقذفنى بأبشع أنواع السباب ، فلم أجد مناصًا من أن أتصدى له بمجرد الكلمات ، وكانت كلماتى لا تخرج عن رفضى لهذا الأسلوب البذىء ، وضرورة التزامه بالأدب واللياقة ، واحتد الكلام ، وعلت الأصوات ، ثم أغلق السجان الزنزانة فى غضب شديد ، وهو يضغط على أسنانه مغتاظًا ، ويرمينى بنظرات متوعدة حاقدة ، فوجئت - أنا وزملائى - بباب الزنزانة يفتح ، ثم يأتى أربعة من العسكر الأشداء ، وينتزعونى من بين يدى زملائى ، ثم يهبطون بى السلم ، ويعبرون باب العنبر إلى ساحة السجن الواسعة خلف « ورش النسيج » فى الناحية الغربية ، وهناك وجدت دائرة من العسكر يقفون أمام الضابط « م.م » الذى أومأ برأسه إليهم دون أن يخرج يديه من جيبى السروال ويقول: « علموه الأدب »

وانقض علىّ العسكر من كل جانب ، صفعًا وركلًا وضربًا بالأيدى والخيزران فإذا ما أفلت من واحد ، تلقفنى ثان ، وهكذا دواليك ، حتى دارت بى الأرض وسقطت مكوّمًا منهوك القوى لا أستطيع أن أبدى أدنى مقاومة ، كنت يومها مصابًا بما يشبه الأنفلونزا ، وحرارتى مرتفعة ، ولاحظت أن إخوانى فى عنبر ٢، يراقبون المشهد المؤلم فى ثورة تجلت فى أصواتهم التى تصيح عبر النوافذ ذات القضبان الحديدية المتقاطعة ، وفى أيديهم التى تلوح مهددة محتجة. ثم قال الضابط دون اكتراث: « خذوه إلى التأديب »

كان التأديب فى العنبر الغربى بالدور الأرضى ، وكان إخوانى يسكنون فى العنبر الشرقى « الدور الثانى » ، وبين العنبرين ورشة النسيج وباحة السجن الواسعة ، وهكذا وجدت نفسى وحيدًا منعزلًا فى زنزانة صغيرة ، ليس بها أى شىء من متاع الدنيا.. الأرض الباردة السوداء المكسوة بطبقة من الزفت المحبب ، والنافذة الصغيرة ، والباب المغلق ، نظرت حولى بعينى المتعبتين ، ثم ألقيت بظهرى المنهك على الحائط الأجرب ، دون أن أستطيع تجميع شتات أفكارى ، لكن السجان جاء بعد فترة ، ومعه أحد مسجونى الخدمات الذى رمى إلى ببرش وبطانية ، ثم وضع دلوًا به كمية من الماء وآخر فارغًا للتبول.. ثم أغلقوا الباب ، دون أن يتركوا لى شيئًا من الطعام..

كنت فى حالة نفسية سيئة ، لقد حط الظلام ، ومعه البرد القارس ، وجسدى يرتجف من الحمى والغضب ، وعندما سمعت أذان المغرب أخذت أردده فى شىء من الهدوء والتماسك ، ثم تحاملت على نفسى وتيممت ، وأخذت فى الصلاة باستغراق وعمق ، شعرت آنذاك أن الله معى ، وأن هناك أيديًا

خفية تمسح على وجهى ورأسى وآلامى، وبعد أن انتهيت من الصلاة كنت أفضل حالًا مما سبق، وبدأت فى قراءة «المأثورات»، وبعض سور القرآن الكريم.. كنت أجلس فى رحاب الله مع الصمت والظلام والتأمل، وتذكرت كلمات للإمام تقى الدين أحمد بن تيمية قالها فى سجنه: «إن حبسى خلوة، وقتلى شهادة، وإخراجى من بلدى سياحة، والمحبوس من احتبس قلبه عن ربه، والأسير من أسره هواه»

إن الله سبحانه وتعالى يمد الإنسان بالصبر والإيمان فى مواقف الحرج والشدة، متى صدقت العبودية له، والاعتصام به، والتوكل عليه، قد يأتى البلاء، لكنه سرعان ما ينجلى، وقد تهاجم الأحزان؛ لكنها بعد فترة ترحل، وقد تشتد الأزمة، لكن المولى يأتى بالفرج، والمؤمن الحق هو الذى يرضى بقضاء الله وقدره، ويصبر على الابتلاء، وكأنه أراد سبحانه وتعالى ألا تسير الحياة على نمط واحد، حتى يرى الإنسان شتى المواقف والمنغصات، فيكتسب الخبرات ويعى الدروس، ويستعد لما تأتى به الأقدار من أحداث، إن حالة الأسى لن تدوم، والمؤمن يثاب على كل ما يلقاه فى سبيل دعوته، حتى الشوكة يشاكها له بها أجر، وقد يكون ما يلقاه الإنسان من عنت بابًا للعفو والمغفرة ومحو الذنوب، وما أكثر ما نذنب فى هذه الحياة..

كان البرد شديدًا كما قلت، وأخذت أسعل بشدة، حتى إن ذلك السعال أزعج جيرانى فى زنازين التأديب الأخرى، وقد كان جارى فلاحًا مسيحيًا من أسيوط إسمه «جرجس»، قال لى ونحن فى دورة المياه فى الصباح همسًا حتى لا يسمعنا السجان: «لقد كان سعالك يمزق قلبى»

ابتسمت له فى ود وشكرته بنظرات عينى التى تشى عما بداخلى وعاد يقول: «لابد أن يبعث لك «الجماعة» بدواء..»

قلت: «كيف؟ إن الحصار من حولى شديد». وصمتنا عندما جاء العسكرى، وعدت مسرعًا إلى زنزانتى، وفى هذا اليوم تسلمت وجبتىّ الطعام المختصر حسب لائحة التأديب، وقلت للسجان: «كم يومًا سأقضيها فى التأديب؟»

- «ستعرف ذلك عندما تُعرض على مدير السجن»
- «ومتى يتم ذلك؟»
- «ومن أدراني؟»

ثم أغلق الباب، كان اليوم طويلا بلا نهاية، لو أخذوا نصف طعامى وأعطونى كتابًا لحُلّ جزء كبير من المشكلة التى أعانى منها، لكن هذا مستحيل، وبقيت طوال اليوم الأول فى قلق وأرق؛ وكم كانت دهشتى عندما رأيت سجينًا صعيديًا يطل على بوجهه من النافذة فى الخارج بعد العصر، ثم يقذف إلى بقطعة من الحلوى، وعلبة مغلقة صغيرة من سمك «التونا».. «السلام عليكم.. أنا فرغلى.. الحاج فرغلى.. عمدة «بنى حسين»»

قالها، ثم اختفى.. أعنى أسقط نفسه من علٍ، وسمعت صدى سقوطه بالخارج كان الأمر مفاجأة بالنسبة لى، إننى لا أعرف الحاج فرغلى إلا معرفة عابرة، كنت أراه لكنى لم أحفظ اسمه، ولا أعرف شيئًا عن القرية التى أتى منها، ولا التهمة التى أدين بسببها، لا أنكر أننى التهمت قطعة «الحلوى الطحينية» بعد دقيقتين، كان طعمها لذيذًا، وانحنيت على دلو الماء لأعب منه، لم يكن لدى كوب، ولا وسيلة للشرب غير ذلك، لكنى بعد أن شربت فكرت فى علبة «التونا» كيف أفتحها، ولابد أن أفتحها وآكلها الليلة، قبل أن يأتى السجان فى الصباح ويضبطنى متلبسًا بحيازتها، ومعنى ذلك عقوبة

فهرس المحتويات

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

❁❁❁